

الطبعة الثالثة

المغرب في عَهْدِ الدَّوْلَةِ السَّعْدِيَّةِ

دراسة تحليلية
لأهم التطورات السياسية ومختلف المظاهر الحضارية

للدكتور عبد الكريم كريمة

منشورات

جمعية المؤرخين المغاربة
الرباط، المملكة المغربية

المغرب في عَهْدِ الدَّوْلَةِ السَّعْدِيَّةِ

دراسة تحليلية
لأهم التطورات السياسية ومختلف المظاهر الحضارية

للدكتور عبد الكريم الكرم

منشورات
جمعية المؤرخين المغاربة
الرباط . المملكة المغربية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الطبعة الثالثة 1427 - 2006

© جميع الحقوق محفوظة

المحتويات

1	مُدخل
5	الفصل الاول : الاحتلال الاجنبى للسواحل المغربية
13	الفصل الثانى : اوضاع المغرب الداخلية
25	الفصل الثالث : رد الفعل المغربى ضد الاحتلال الاجنبى
33	الفصل الرابع : بدء الدعوة السعدية بالجنوب المغربى
45	الفصل الخامس : القيادة السعدية بسوس والاصطدام مع الوطاسيين
51	الفصل السادس : السعديون وتوحيد المغرب
65	الفصل السابع : القضاء على الحكم الوطاسى فى فاس
75	الفصل الثامن : السعديون والقوى المجاورة
83	الفصل التاسع : التقارب السعدي - البرتغالى - الاسبانى
97	الفصل العاشر : معركة وادي المخازن وبيعة المولى احمد المنصور
123	الفصل الحادى عشر : المنصور والنزاع الانجليزى - الاسبانى
145	الفصل الثانى عشر : فتح السودان وتأسيس الامبراطورية المغربية
174	الفصل الثالث عشر : تطور العلاقات الخارجية للامبراطورية المغربية
191	الفصل الرابع عشر : ثورة الناصر وملابساتها الدولية
205	الفصل الخامس عشر : المنصور بين التحالف مع الانجليز و التقاهم مع الاسبان

227	الفصل السادس عشر : مظاهر الحضارة المغربية أيام السعديين
228	نظم الحكم وبناء القوات العسكرية
253	الفصل السابع عشر : المظهر الاقتصادي
277	الفصل الثامن عشر : الأحوال الاجتماعية
307	الفصل التاسع عشر : الناحية الثقافية
328	الفصل العشرون : المغرب بعد المنصور
338	المصادر والمراجع
349	الجدول التاريخي لوثائق الدولة السعدية في القرن (10 هـ / 16 م)
353	نصوص بعض الوثائق التاريخية الهامة

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله

مدخل

اثر اكتشاف طريق الهند البحرية عبر جنوبى افريقية ، تأثيرا كبيرا على اوضاع حوض البحر المتوسط ، فقد اخذت اهمية هذا البحر تضعف منذ مطلع القرن السادس عشر ، فى حين ان مكانة المحيط الاطلسى قد ازدادت باعتبار انه اصبح الطريق التجارية الجديدة الموصلة الى بلاد القوايل فى الهند والشرق الاقصى .

وقد كان من المتوقع ان يشارك المغرب بلدان حوض المتوسط التى دخلت نتيجة لذلك فى مراحل جديدة من تاريخها ، ولكن قرب المغرب من شبه جزيرة ايبيريا وغربى اوربا الناهضة ، وامتلاكه سواحل طويلة على المحيط الاطلسى ، اثرت على تاريخه تأثيرات اخرى ، ذلك ان انظار البرتغال والاسبان توجهت نحوه ، وعملت على احتلال مراكز مختلفة من سواحله . فما هى الاحوال السياسية فى البحر المتوسط فى ذلك الوقت ؟ وما هى احوال بلاد المغرب ؟ وما هى الاوضاع الجديدة التى نتجت عن ذلك ؟

شهد حوض البحر المتوسط خلال عصور التاريخ المختلفة تطورات هامة ومتباينة . باعتبار ان هذا البحر يتوسط من جهة قارات العالم القديم الثلاث : آسيا وافريقيا واوروبا . ولان الحوض من جهة اخرى كان الموطن الاول للحضارة البشرية الاولى . ولما كان البحر المتوسط من اهم وسائل المواصلات بين اجزاء العالم القديم . فقد أصبح المحور الاساسى الذي تدور حوله السياسة العامة لمختلف الوحدات السياسية التى قامت على اطرافه : فكل منها كان يسعى الى السيطرة على مجموع هذا الحوض ، وجعله بحيرة خاصة بها ، ولم يخرج عن هذا القصد لا الاغريق ولا الرومان والقرطاجنيون وحتى العرب المسلمون ، وليست غارات الصليبيين وتأسيسهم امارات فى شرقى المتوسط الا محاولات فى هذا الاتجاه .

وعند نهاية العصر الوسيط ، كان حوض البحر المتوسط قسمين متميزين : احدهما ذو طابع عربى اسلامى ، وهو القسم الممتد على كل الناحية الشرقية والجنوبية من الحوض ، والاخر اى جنوبى اوريا، يحتفظ بالطابع المسيحى اللاتينى. ورغم ان العلاقات بين هذين القسمين لم تكن فى مجموعها ودية ، الا ان المبادلات التجارية خاصة ، قد ظلت قائمة بينهما ، حيث كان الاوروبيون يستوردون الحاصلات الاسيوية المختلفة التى تسلك طريقين الى البحر المتوسط : احدهما بري وهو المعروف (بطريق الحرير) من الصين وآسيا الوسطى فالبحر الاسود وسوريا ، والاخرى وهى (طريق القوافل) من موانئ الصين فسيلان والبحر الاحمر الى الاسكندرية . وهذان الطريقان كانا يمران ببلاد العرب ، مما جعل تجار العرب يقومون بدور هام فى عمليات نقل المنتجات الشرقية التى يأتى التجار الايطاليون لحملها من موانئ الشام ومصر الى ايطاليا وغربى اوريا ، ولما كانت هذه التجارة تدر ارباحا طائلة فان تنافسا حادا قد حصل بين دول غربى اوريا من اجل البحث عن مواطنها وايسر الطرق للوصول اليها مما كان له اكبر الاثر فى حركات الاكتشافات الكبرى التى انتهت باكتشاف الاسبانيين للعالم الجديد والبرتغاليين لطريق الشرق الاقصى البحرية عبر رأس الرجاء الصالح .

وفي السنوات الأولى من القرن السادس عشر ، ظهرت في حوض النهر المتوسط قوى سياسية متباينة : البرتغال (1) وإسبانيا (2) اللتانظهرتا كقوتين عظيمتين بسبب حركات الاكتشاف البحرية التي عادت عليهما بتأسيس إمبراطوريتين استعماريتين واسعتين في قارات مختلفة من العالم . وقد كانتا تتعدان على مائدات ممتلكاتهما المتزايدة من توابع الشرق وكثوز الغرب ، كما كان التاجر يلعب في حياتهما الاقتصادية الدور الهام والاساسى ، وقد قامتا بدافع من العصبية الدينية وبتهريض من الكنيسة تعملان على نشر المسيحية ومحاربة المسلمين ومهاجمتهم في مقر ديارهم .

(1) ازدادت أهمية بلاد البرتغال كقوة بحرية منذ القرن الرابع عشر الميلادى عند ما نشأت علاقات تجارية بين موانئ البحر المتوسط وبين موانئ غربى أوروبا حيث أصبحت لشبونة بحكم وقوعها في منتصف هذا الطريق ميناء استراتيجيا مما دفع الملوك البرتغال الى الاهتمام بالأساطيل البحرية . وبين سنة 1415 التى هاجم خلالها البرتغال سبتة وبين 1497 التى تم فيها اكتشاف رأس الرجاء الصالح ، مرت ملكة البرتغال ازدهارا ونشاطا متزايدا وخلصه في عهد الأمير هنرى بن جان الاول مؤسس أسرة (Avis) والذي عرف بسبب اعتنايه بالأساطيل وحركات الاكتشافات بهنرى الملاح ، وقد كانت تدعمه الرغبة في بحرية سواحل الرقعة الغربية والوقوف على مدى قوة المسلمين في افريقية ثم رفقة في نشر المسيحية بها وراء البحار استجابة لنداءات البابوية ، علاوة على محاولته لفتح المجال أمام الطبقة التجارية الناشئة ، ولم يفسخ غير زمن قليل حتى أصبحت للبرتغال مراكز ومستعمرات في معظم سواحل الرقعة الغربية وآسيا الجنوبية انضمت لتكوين الأسطول وتكون بمثابة قواعد يراقب منها البرتغاليون منافذ البحار التى تسيطر على طريق التجارة العالمية آنذاك وحراسها بالاضافة الى انغلاها مراكز للدجارة مع المناطق المجاورة لها .

(2) لقد ظهرت اول أسرة مسيحية بإسبانيا في اقليم أستورياس (Asturias) التى توسعت حدودها وعرفت خلال القرن التاسع بملكة (Leon) وفي القرن العاشر ظهرت بملكة تشالة (Castille) كقوة مسيحية ثانية بإسبانيا ، بينما ظهرت في شرق البلاد ملكة (Navarro) وخلال القرن الحادى عشر انضمت لهما الى تشالة التى تزعمت الحروب ضد العرب المسلمين . على ان النزاع الذى دام طويلا بين تشالة وأراغونة (Aragon) قد انتهى سنة 1469 بزواج إيزابيلا ملكة تشالة مع فرناند ملك أراغونة وتكونت بذلك المملكة الإسبانية التى ازدادت مكانتها سنة 1492 بسقوط غرناطة وبكتشاف العالم الجديد في نفس السنة .

اما القوة الشرقية فهم الاتراك العثمانيون (3) الذين سيطروا على معظم الشرق الاسلامى وشرقى اوريا ، وبدأت انظارهم تتجه نحو بقية البلاد الاسلامية فى الشمال الامريقى لتوحيد جبهة العالم الاسلامى ، وذلك لمواجهة الاخطار الخارجية التى تتوعد هذه البلاد . غير ان جميع هذه البلدان قد ضعفت امكانياتها الاقتصادية وبالتالي اهميتها الاستراتيجية ، بعد تعرف الاوربيين على طريق الشرق البحرية ، مما اجبر الاتراك على الاعتماد على عائدات الارض الزراعية بالدرجة الاولى . فالاختلاف كان عظيما بين القوى القائمة فى حوض المتوسط فى السنوات الاولى من القرن السادس عشر ، فى سائر نواحي الحياة السياسية والاقتصادية والادارية ، ولقد قامت بين هذه القوى حروب ومعارك ، كما حصل بينها تسابق للسيطرة على المناطق التى يمكن اتخاذها قواعد ، كبلاد الشمال الامريقى : فقد ادرك العثمانيون اهميتها فى تأمين حدود امبراطوريتهم الغربية ، وفى تهديد الطريق التجارية الجديدة عبر المحيط الاطلسى ، ولم يغفل الاسبان والبرتغال بدورهم عن اهمية هذه البلاد ، لابعبارها الباب الموصل الى قلب امريقيا لاستغلال ما بها من الخيرات والمعادن ، ولنشر المسيحية بين شعوبها ، بل ولان استيلاء العثمانيين عليها من شأنه ان يخلق تهديدا خطيرا للاسبان والبرتغال ، وينذر بالخطر كل المسيحية فى غربى اوريا . ولتتلافى الدولتان المسيحيتان جميع هذه الاخطار ثم لتحولا دون فتح اسلامى جديد لشبه جزيرة ايبيريا ، عمد البرتغال والاسبان الى التوسع فى شمالى امريقيا واحتلال مواقع هامة على سواحلها ، يشجعهم على ذلك احوال البلاد الداخلية المضطربة بسبب ضعف الحفصيين فى تونس ، وبنى زيان فى الجزائر والمرينيين والوطاسيين فى المغرب .

(3) الاتراك العثمانيون ينحدرون من المرق الاصفر وقد كان مهد اجدادهم الاولين يأسيا الوسطى ثم هاجروا منها نحو الغرب واستقروا فى بخارى وسمرقند وغورزم التى دخلها الاسلام زمن الفتوحات الاسلامية. وقد لعب الاتراك ادوارا هامة زمن الخلافة العباسية بما يعرف بالمهد التركى ، وكذا زمن السلطنة الفين عرف الشرق الاسلامى فى مهدهم صفحة ذهبية خالدة . وقد ظهر الاتراك من جديد فى آسيا الصغرى منذ مطلع القرن الخامس عشر باسم المماليك فنتبى الى اهد اجدادهم المعروف بمماليك ، واسسوا امبراطورية مترامية الاطراف فى كل من آسيا واوريا والافريقيا .

الفصل الأول

الاحتلال الأجنبي لإسرائيل المغربية

كان لموامل النهضة الاوربية اثر كبير فى التطورات التى عرفتها بلدان غربى اورى. وخاصة شبه جزيرة ايبيريا ، ملقد اخذت تظهر لدى الاسبان والبرتغال رغبة فى التوسع والسيطرة على البلاد الاخرى ، لاستغلال ما بها من الخيرات ، ولاتامة القواعد على سواحلها ، ولاسيما فى المناطق الاستراتيجية والهامة منها ، علاوة على نشر الدين المسيحى بين اهالى البلاد . غير ان الفوز فى هذا التنافس الذى اخذت بوابره تتزايد لدى الاسبان والبرتغال ، كان يتوقف الى حد كبير على الاوضاع الداخلية فى كلا البلدين : فالاسبان كانت مشاغلمهم الاساسية تنحصر فى توحيد البلاد ، واسترداد ما بقى للمسلمين بها ، اما البرتغاليون فقد كانت بلادهم تتمتع بموقع هام لوجودها على الطريق التجارية بين بوانىء البحر المتوسط وشمالى غربى اوربا ، اذ عاد ذلك على البرتغال بنتائج عظيمة ، لان الارياح الطائلة ساعدت ملوك لشبونة على توحيد اجزاء البلاد الداخلية ، ودفعتهم فى الوقت نفسه الى الاهتمام بالاساطيل البحرية وتشجيع التجارة مع الخارج . والعمل على الوصول الى مواطن التوابل لاحتكار تجارتها .

ولما كان المغرب بموقعه الجغرافى اقرب نقطة الى غربى اوربا الناهضة وشبه جزيرة ايبيريا ، ثم لما كان يمتلك سواحل طويلة على المحيط الاطلسى ، فقد اتجهت اليه انظار البرتغال والاسبان ، واخذت تعمل على احتلال مراكز مختلفة من سواحلها ، خصوصا وان اوضاع المغرب الداخلية كانت جد سيئة بسبب ضعف السلطة المركزية فى فاس ، وظهور الوحدات السياسية وما اعقب ذلك من انتشار للفوضى والاضطرابات .

وعمليات الاحتلال البرتغالي والاسباني للسواحل المغربية ، ترجع في اصولها الى مطلع القرن الخامس عشر عندما حصل بين هاتين الدولتين نزاع حول ملكية جزر كناريا التي اعتبرها كل من الطرفين نقطة انطلاق وتوسع في غربي افريقيا . ولاهية هذه الجزر لم يشأ كل منهما التنازل عنها للآخر ، مما دفعهما الى تحكيم الكرسي المقدس في روما (4) .

وبدئى ان السفن البرتغالية والاسبانية اثناء سيرها محادية للسواحل المغربية في اتجاه جزر كناريا وغربي افريقيا ، كانت تضطر الى الوقوف ببعض المراكز المغربية للتزود منها أو للتبادل معها الشيء الذي جعل البرتغاليين والاسبانيين يطلعون على الكثير من شؤون البلاد واحوال المغاربة ، وما كانوا عليه من تجزئة داخلية لضعف السلطة المرينية في فاس ، وعجزها عن ادارة الشؤون العامة في البلاد . وحدث ان تعرضت بلاد المغرب لنكبات طبيعية تجلت في الطاعون والمجاعة اللتين عمتا البلاد ولاسيما المناطق الشمالية منها ، فوجد البرتغال في ذلك فرصة ثمينة سرعان ما استغلوها لاحتلال مركز هام في شمالي المغرب هو مدينة سبتة (5) التي كانت تتمتع بموقع استراتيجي لاشرافها على الطريق التجارية البحرية بين جنوبي اوربا وشمالها الغربي عبر بوغاز جبل طارق يضاف الى ذلك مناجم الذهب التي طالما سمع البرتغال بوجودها بهذه المدينة المغربية . وقد ناجت قوات البرتغال البحرية المدينة الآمنة في اليوم الواحد والعشرين من غشت لسنة 1415 ، ولم تغرب شمس ذلك اليوم حتى كانت المدينة قد وقعت في قبضة المحتلين البرتغاليين (6) .

(4) المصادر الاصلية للتاريخ المغربي . المجموعة الاولى البرتغال المجلد الاول : (التسابق البرتغالي - الاسباني في المغرب والشواطئ الجنوبية منه)

(5) كان الاسطول البرتغالي تحت قيادة D. Alphonse وكان يتكون من مائتي سفينة ونحو 50,000 ام محارب وقد ابهر من البرتغال يوم 25 يولييه 1415 ووصل امام سبتة يوم 12 غشت الا ان انزال القوات بسبتة لم يتم الا يوم 21 منه .

(6) المصدر السابق نفسه .

ومما تجدر الإشارة اليه هو ان سياسة التوسع البرتغالي منذ احتلال مدينة سبته ، أصبحت تهدف الى السيطرة على مضيق جبل طارق وبالاخص المراكز الجنوبية منه الواقعة على الساحل المغربى بدافع المحافظة على الطريق التجارية فى الحوض الغربى من البحر المتوسط ، مما يفسر لنا الحملات المتواصلة التى تعرضت لها بعض المدن المغربية الشمالية كطنجة مثلا ، ويجعلنا ندرك فى نفس الوقت الاسباب التى جعلت البرتغاليين يخلفون بالوعود التى قطعوها على انفسهم ان يعيدوا للمغاربة مدينة سبته رغم انهم تركوا احد امرائهم رهينة لذلك ، اثر نشلهم فى احتلال هذه المدينة سنة 1437 (7) .

هذا الى جانب القيام بعمليات الاستكشافات فى سواحل افريقيا الغربية حيث وصل البرتغاليون الى مصب نهر السنغال واسسوا مركزا تجاريا يحرسه حصن فى جزيرة (Arguim) بالقرب من الرأس الابيض ومنه اخذوا يتاجرون بالذهب والرقيق .

على ان تزايد المنافسة بين البرتغال والاسبان قد دفعت ملوك لشبونة الى السعى لى البابا للحصول منه على ما يمكنهم اتخاذه كحجة يجابهون بها خصومهم ومنافسيهم الاسبانيين او غيرهم ، وقد استجاب البابا ثيوقلا الخامس لذلك ومنحهم براءة فى اليوم الثامن ليناير 1454 تجعل سبته والممتلكات الاخرى التى كانت قد فتحت او لا زالت فى الاماكن المجاورة وكذلك الشاطئ الافريقى منذ راس بوجادور ونام الى غينيا ومن تم الى ما بعدها من نصيب التاج البرتغالى (8) والاكثر من ذلك

(7) عندما تولى عرش البرتغال الملك (D. Eduard) من الملك جان الاول ، رغب فى احتلال طنجة والتوسع فى الاراضى المغربية ، ولجل ذلك ارسل سنة 1437 م حملة ضد المدينة المذكورة الا انها منيت بالخيبة للامدادات المتوالية التى ارسلها الوزير الوطاسى أبو زكريا للمدينة المحاصرة وقد اجبرت اخيرا القوات البرتغالية على الاستسلام يوم 16 اكتوبر حيث اشترط المغاربة مقابل اخلاء سبيلهم التخلي عن سبته . وكضمان لذلك سلم البرتغاليون للمغاربة الامير مرديناند كرهينة الى ان يتم انسحاب عن المدينة المغربية (المصادر الاصلية للتاريخ المغربى المجموعة الاولى . فرنسا . المجلد الاول . حاشيته ص 94 .

(8) المصادر الاصلية للتاريخ المغربى . المجموعة الاولى . البرتغال المجلد الاول (التسابق البرتغالى الاسبانى فى المغرب) .

ان البابا بعث يحث البرتغاليين والامير هنري الملاح بوجه اخص ، بأن لا يتوانوا عن حرب المسلمين ، والاتصال بالملك المسيحية في الشرق للتحالف معها على حرب المسلمين وان يدخلوا في زمرة المسيحية تلك الشعوب التي لم تتأثر بالاسلام (9) . والواقع هو ان عمل البابا يعد رد فعل ضد ما قام به الاتراك المسلمون الذين فتحوا بيزنطة سنة 1453 وقضوا على ما تبقى من الامبراطورية البيزنطية في شرقي اوربا .

ولم تمض غير اعوام قليلة على البراءة البابوية حتى قام البرتغاليون بهاجمة مدينة القصر الصغير بقوات عظيمة يوم الواحد والعشرين من اكتوبر سنة 1458 وقد كان على رأس الحملة الملك الفونس الخامس نفسه واحتلال هذه المدينة (10) يرجع في اساسه الى انها ميناء هام على مضيق سبته وطنجة ، ويمكن الاعتماد عليه لتقوية سبته ولهاجمة طنجة في قابل الايام . ونعلا فقد تعرضت هذه المدينة لحملات عديدة (11) فشلت جميعها للمقاومة الداخلية الامر الذي حدا بالبرتغاليين الى القيام بهاجمة اصيلا واحتلالها يوم الرابع والعشرين من غشت لسنة 1471. واتخاذ هذه الاخيرة قاعدة لاحتلال طنجة التي فر عنها اهاليها ودخلتها قوات الاحتلال بعد ثلاثة ايام من التاريخ المذكور (12) . فتعززت بذلك وضعية البرتغال في شمال المغرب ، وقويت امانى ملوك لشبونة في اتخاذ هذه المراكز نقطا لاحتلال داخل البلاد ، غير ان تزايد المنافسة الاسبانية كانت تجبر سادة البرتغال على تأجيل عملية الانتقاض على المغرب . فالاسبانيون وان اعترفوا بشرعية التوسع البرتغالي

(9) في طلب التوابل . مقدمة صفحة 2

(10) عزم الملك البرتغالي الفونس الخامس الذي خلف ادوارد على احتلال مدينة القصر الصغير التي تعتبر ميناء هام على مضيق سبته وطنجة ، هذا المضيق الذي يمكن الاعتماد عليه في تقوية القوات المهاجمة على طنجة . وفي يوم 21 اكتوبر 1458 قاد الملك البرتغالي نفسه الحملة المكونة من 280 سفينة و 25 الف رجل ، وتم بعد يومين احتلال المدينة التي عين كحاكم عليها الضابط (Duarte Meneses) (المصادر الاصلية للتاريخ المغربي . المجموعة الاولى . البرتغال . المقدمة)

(11) قاد الفونس الخامس حملة ضد طنجة يوم 20 يناير 1464 الا ان الحملة فشلت وتكبد البرتغال خسائر فادحة في الارواح والعتاد (نفس المصادر السابق) .

(12) اغتزم الفونس الخامس النزاع القائم بين محمد الشيخ الوطاسي وبين الشريف الادريسي مولاي محمد ابن علي عقب اغتيال آخر سلطان مريني عبد الحق سنة 1465 ، هذا النزاع الذي استمر حتى سنة 1472 م ، وذلك بالهجوم على الاراضي المغربية وبدلا من مهاجمة مدينة طنجة التي استعصى احتلالها من قبل توجهت القوات البرتغالية نحو اصيلا . وقد كان الاسطول البرتغالي يتكون من 474 سفينة عليها 30 الف مقاتل تحت قيادة (Restelo) وفي يوم 24 غشت 1471 م ، احتل البرتغاليون اصيلا وقد انزع هذا النبا اهالي طنجة الذين اخذوا في الجلاء من المدينة مما سهل على البرتغال احتلال المدينة بعد خمسة ايام من احتلال اصيلا واحتلال هاتين المدينتين ساعد القوات البرتغالية على غزو مدينة المرائش واحتلالها يوم 10 سبتمبر 1473 م . (المصدر السابق) .

في سواحل المغرب وغربى افريقيا كما تسمح لهم بذلك براءة البابا ، فانهم لدواع مختلفة قاموا ينازعون البرتغال في المنطقة الممتدة ما بين رأس كانت ورأس نون ، أي ما بين أسفى وافنى تقريبا ، مدعين بأن البراءة البابوية السابقة لم تنص على ذلك (13) ، ومن تلك الدواع ما اشتهرت به هذه المنطقة من تجارة واسعة وغنى في المحصولات الزراعية والمعدنية (14) ، وما أن تطور الخلاف بين الامتسين المسيحيين واشتعلت نيران الحرب بينهما ، حتى أسرع الاسبان الى التقرب من الوطاسيين الذين قامت دولتهم على اساس محاربة المحتلين البرتغاليين ، وانتهى الامر بخلق تحالف عسكري بينهما كما ظهر ذلك في الهجوم المشترك على سبتة من البر والبحر سنة 1476 (15) ، وقد استفل الاسبان هذه الحروب واحتلوا بجنوبى المغرب عند وادي ذون منطقة بنوا بها حصنا سنة 1478 أطلق عليه سانتاكروز (16) ولم تنته حال الحرب بين الاسبان والبرتغال الا بعد توقيع معاهدة طليطلة في السادس من مارس 1480 تخلى بموجبها البرتغال عن كل ادعاء لهم في جزر كناريا مقابل اعتراف الاسبان بحق البرتغال في غينيا وكل المناطق التى سيقع اكتشافها فيها وراء جزر كناريا ، وكذلك حقوق الفتح في مملكة فاس .

ورغم توقيع هذه المعاهدة ، فان الجو لم يصف بين الفريقين للخلاف الذي حصل بينهما حول حدود وأراضى مملكة فاس : فلقد وسع البرتغاليون حدود المملكة وجعلوها تشمل كل بلاد المغرب الحالية تقريبا في حين ان الاسبان اقتصرُوا في تعريفهم للمملكة على الجزء الشمالى من المغرب . وعلى ما يبدو فان هذا الخلاف قد وجه انظار لشبونة نحو سواحل المنطقة المتنازع عليها — أي المنطقة الجنوبية من ساحل المغرب الاطلسى — اذ منذ السنة التالية لتوقيع معاهدة طليطلة نجد البرتغاليين يبسطون شبه حماية على مدينة أسفى سنة 1481 ، ثم مدينة أزموور 1486 (17) ، ليجعلوا منافسيهم أمام الامر الواقع .

-
- (13) المصادر الاصلية للتاريخ المغربى المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد 1 (المتدبة) .
(14) كانت التجارة رائجة في جنوبى المغرب حيث كان الاجانب يسعون الى اقتناء الذهب والسكر ومسبى البارود والنحاس والجلود الخام او المدبوغة ثم الشع والصبخ والتمر والعسل ، هذا علاوة على البزروعات المختلفة (المصادر لاصيلة للتاريخ المغربى . المجموعة الاولى . المجلد الاول . بريطانيا المتدبة) .
(15) المصادر الاصلية للتاريخ المغربى . المجموعة الاولى — البرتغال — المجلد الاول . (اوائل الاحتلال البرتغالى للمغرب) .
(16) المصادر الاصلية للتاريخ المغربى . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الاول (التسابق البرتغالى الاسبانى في جنوبى المغرب) .
(17) المصدر السابق نفسه .

على ان انشغال الفريقين بعمليات الكشف الكبرى ، الى جانب بعض الاحداث الداخلية لم يعرض بقية السواحل المغربية للاحتلال الاجنبى : فالبرتغاليون أصبح شغلهم الشاغل هو التوصل الى الهند والشرق بحرا بعد ان نجح بارثولومه ديساز (Bartholome Diaz) فى التعرف على جنوبى افريقيا واصبح فى الامكان الدوران حول افريقيا منذ سنة 1487 ، وذلك للوصول الى مواطن التوابل لانتزاع تجارتها من ايدي التجار الايطاليين الذين كانوا يحتكرون تجارتها ويجنون من ورائها الارياح العظيمة . اما الاسبان فقد أصبح اهتمامهم ينحصر فى توحيد اراضيهم وانتزاع ما تبقى للمسلمين بها ، خصوصا وقد أصبحت كل اسبانيا خاضعة لسلطة واحدة بعد زواج ايزابيلا ملكة قشتالة مع فرديناند ملك اراغونة وعندما كانت سنة 1492 حقق الاسبانيون نصرين عظيمين : فتحهم غرناطة آخر حصن عربى اسلامى بالاندلس . واكتشافهم العالم الجديد الذي ساد الظن فى اول الامر بانها الشواطىء الشرقية لبلاد الهند ، فكان ذلك تفوقا كبيرا احرزه الاسبانيون على منافسيهم البرتغاليين . وقد استغل الاسبان هذه الاحداث وانتزعوا من البرتغال اعترافهم حسب معاهدة (Tordesillas) التى وقعت يوم السابع من يونيه لسنة 1494 باحتية الفتح الاسبانى فى الجزء الشرقى من ساحل المغرب الشمالى ، مقابل منع الرعايا الاسبان من اجتياز رأس بوجادور (18) . كما التجأ الاسبان - الى نفس الوسيلة التى كان البرتغال قد استعملوها من قبل ، وهى مطالبة البابا الاسكندر السادس بمنحهم براءة يأذن لهم فيها بالتوسع فى افريقيا ، وقد بارك الكرسي البابوي فى اليوم الثانى عشر من نوفمبر 1494 ، ارواح الذين سيشاركون بأموالهم وارواحهم فى عمليات الغزو التى سيقوم بها الملوك الاسبانيون ، كما منحهم براءة فتح ممالك افريقيا فى اليوم الثالث عشر من يبرابر 1495 م (19) : من غير ان توضح البراءة المقصودة من ممالك افريقيا . ولعل الاسبان تعمدوا هذا الغموض ليستغلوه فى التوسع بافريقيا وليحاجوا به منافسيهم البرتغاليين . وهكذا وصلت الى مليية قوات بحرية اسبانية استطاعت فى مدة وجيزة ان تحتل المدينة التى كان

(18) المصدر السابق

(19) المصادر الاصلية للتاريخ المغربى . المجموعة الاولى اسبانيا . المجلد الاول - مليية خلال القرن 16 .

أهاليها قد فروا عنها خوفا من الاحتلال الأجنبي . وتمت السيطرة على مليلية خلال سبتمبر سنة 1497 (20) ، في نفس السنة التي نجح البرتغاليون خلالها في تحقيق الأمل المنشود وهو الوصول بحرا الى الهند موطن التوابل التي طالما تأقت نفوس البرتغال لاحتكار تجارتها .

واكتشاف طريق الهند والشرق الأقصى البحرية ، يعد بداية تطور هام بالنسبة لعمليات التوسع الإحتياني والبرتغالي في السواحل المغربية وبالأخص في سواحل البلاد الجنوبية التي ازدادت أهميتها بحكم وقوعها مشرفة على طريق التجارة الجديدة ، إذ كان على السفن التجارية البرتغالية العائدة من الهند والشرق أن تقترب كثيرا من هذه السواحل لوجود جزر كناريا التي كانت في قبضة الأسبانيين وبهذا أثرت قضية حدود مملكة فاس من جديد بين الأسبان والبرتغال وازداد نزاعهما لأدراك كل من الفريقين مدى أهمية هذه السواحل من بلاد المغرب الجنوبية في مراقبة طريق الهند البحرية . ولعل البرتغاليين حاولوا أن يضموا منافسيهم أمام الأمر الواقع إذ أسرعوا الى احتلال ساحل ماسا سنة 1497 (21)، غير أن الأسبانيين أجابوا على ذلك باحتلال مواقع ساحلية على مقربة من سانت كروز مثل طاكواست عاصمة وادي نون ، وتامانار وإفران وإفني وذلك سنة 1499، وليعزز الأسبان نقط احتلالهم هذه أقاموا عدة حصون بها خلال السنة الأولى من مطلع القرن السادس عشر . وقد حاولوا في سنة 1504 احتلال ساحل أكادير إلا أن سكان ماسا بتحريض من البرتغال وبمساعدهتهم أجبروا الأسبانيين على الانسحاب (22) في حين أن القوات البرتغالية أسرعت الى احتلال المنطقة المذكورة واقامة حصن منيع بها أعطى نفس اسم سانتا كروز وكان ذلك سنة 1505 (23).

(20) كانت مليلية عند مطلع القرن السادس عشر تظهر كمنطقة ثانوية لان العناية كانت موجهة نحو ميناء غلماسة ونازوطا ، وقد كانت الحملة الأسبانية بقيادة (D. Juan de guzman) (المصادر الأصلية للتاريخ المغربي . المجموعة الأولى . إسبانيا . المجلد الأول - مليلية خلال القرن 16)

(21) في اليوم 11 يناير 1497 بسط البرتغاليون حمايتهم على أهالي ماسة وأقاموا بساحل المنطقة حصنا منيعا (المصادر الأصلية للتاريخ المغربي . المجموعة الأولى . البرتغال . المجلد الأول - (التسابق البرتغالي . الأسباني في جنوب المغرب) .

(22) المصدر السابق نفسه .

(23) لم يكن الحصن البرتغالي قد بنى في موقع أكادير الحالية ، بل عند عين فونتي على بعد كيلومترين أو ثلاث كيلومترات نحو الشمال وقد سماه البرتغال (Santa Cruz de Cabo de gué) نسبة إلى رأس كبر القريبة منه (المصادر الأصلية للتاريخ المغربي . المجموعة الأولى . البرتغال . المجلد الثاني .. (احتلال البرتغال لأكادير) .

ولم تقتصر المنافسة الاسبانية البرتغالية على سواحل بلاد المغرب الجنوبية، وإنما شملت بقية سواحل المحيط الاطلسي وسواحل البحر المتوسط أيضا ، اذ احتل الاسبانيون في سنة 1506 مدينة غصاصة (24) بينما فرض البرتغال سيطرتهم على موكادور (الصويرة) (25) التي ساعد أخذها على احتلال أسفى خلال سنة 1508 م (26) وبعد احتلال الاسبان لحجرة بادس في نفس هذه السنة نهاية التسابق بين الامتين المسيحتين على التوسع في السواحل المغربية ، اذ توصلتا في اليوم الثامن عشر من سبتمبر 1509 الى توقيع معاهدة (Sintra) التي وضعت حدا للنزاع والخلاف بينهما ، على أساس اقتسام مناطق النفوذ في السواحل المغربية : فقد اطلقت يد الاسبان في السواحل المغربية الواقعة بين بادس غمارة حتى غصاصة ومليلية ، مقابل اعترافهم بنفوذ البرتغال منذ حدود بادس غمارة حتى رأس بوجادور ونام عدا حصن سانتاكروز الذي احتفظ به الاسبانيون في سواحل بلاد المغرب الجنوبية (27) . اذن يمكننا أن نرى ان التنافس البرتغالي الاسباني قد جعل معظم سواحل المغرب الشمالية والغربية ، تخضع للحكم الاجنبى ، مما زاد في ضعف البلاد ، وقوى الفتن الداخلية لدرجة أصبح الحال معها ينذر بأفدح الاخطار والنكبات .

(24) حسب المصادر الاصلية للتاريخ المغربى . المجموعة الاولى . اسبانيا . المجلد الاول (مليلية خلال القرن 16) ان اعلى غصاصة قد أرسلوا الى اسبانيا منذ يبرابر 1494 ، وهذا لتقسيم طاعتهم . وقد باشر الاسبان احتلال المدينة منذ 4 أكتوبر 1504 ولم يتم احتلالها الا في أبريل لسنة 1506 .

25 اقام البرتغال في موكادور خلال عهد الملك عمانويل الاول حصنا عرف باسم (Castillo Real) وذلك في غشت 1506 (المصادر الاصلية للتاريخ المغربى . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الاول ص. 120 .

(26) يرجع النفوذ البرتغالى في أسفى الى سنة 1481 وقد تزايد هذا النفوذ في عهد جان الثانى سيها وان ميناء أسفى كان بمثابة محطة تجارية بين غانا والبرتغال . وحسب ليون الامريقى فان ميناء أسفى كان مطروقا من قبل التجار الاوربيين . وقد استفاد البرتغاليون من الفوضى التي كانت عليها المنطقة ليهبط نفوذهم ولما تآكلوا من وجود صلات سرية بين الاسبان وبعض أهلى أسفى قاموا باحتلال المدينة مسكيا ثم بنوا بها حصنا باسم (Chateau de Mer) (المصادر الاصلية للتاريخ المغربى . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الاول ص 151)

(27) المصادر الاصلية للتاريخ المغربى . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الاول - (السابق البرتغالى الاسباني في جنوبى المغرب) .

الفصل الثاني

أوضاع المغرب الداخلية

في الوقت الذي وقع فيه التنافس الإسباني البرتغالي على المغرب . كانت ظروف هذه البلاد العامة في أحوال سيئة . فتعدد الإعداء ، وتعدد مراكز الاحتكاك والاحتلال ، أدت الى تجزئة المعركة بالنسبة للقوى الوطنية . وإذا أضفنا الى ذلك صعوبة المواصلات والبعد عن مركز السلطة الحاكمة في فاس ، لوجدنا ان العوامل كانت تساعد على تفكك المعسكر الوطني :

فمن الناحية الاقتصادية : لقد تأثرت أوضاع المغرب الاقتصادية بحالة التجزئة والفتن السائدة في داخل البلاد ، وبالاخطار الخارجية التي ترتبت عن الاحتلال الاجنبي لمعظم السواحل المغربية ، والتوسع العثماني في الجزائر في الوقت الذي كانت الروابط بين المغرب وغربي افريقيا قد ضعفت . والواقع انه ليس هناك من مجال يعكس لنا الحالة الحقيقية التي أصبح عليها المغرب ، كالناحية الاقتصادية : فقد اضطربت جميع المظاهر الاقتصادية ولم نعد نرى أثرا للنشاط الذي عرف به المغرب في ميدان المبادلات التجارية مع بلدان حوض البحر المتوسط ، وكذا مع مناطق الصحراء وغربي افريقيا . كما ان أعمال الزراعة التي كانت مزدهرة باعتبار أن معظم الاراضي في المغرب سهول خصبة قد اضطربت مما اضعف من نشاطها وقتل من منتوجاتها ، اذ كان من العسير على الفلاح ان يتعهد أرضه في جو تسوده الفتن والفوضى اي في أوضاع لم يكن الفلاح يشعر خلالها بالطمأنينة والامن زد على ذلك المحافظة على وسائل الزراعة القديمة . ونفس الامر حصل للحرف والصنائع التي الى جانب تمسكها بطرق العصور الوسطى ، لم تجد الجو الملائم للازدهار والتطور . ولقد ترك لنا الحسن الوزان (1) (ليون الافريقي) المعاصر ،

(1) ليون الافريقي (Léon d'Africain) هو الحسن الوزاني أبو علي ولد حوالي 1496 في فاس ونشأ بها ثم رحل الى الشرق وغربي افريقيا وعاصر بداية الأحداث التي تمرض لها المغرب اواخر العهد الوطاسي وقيام الدولة السعدية . أسره القراصنة الاوربيون قرب الشاطئ التونسي 1520 ونقلوه الى ايطاليا حيث عمده البابا ليون العاشر وسماه (يوحنا الاسد) وفي ايطاليا تعلم اللغات الايطالية واللاتينية كما كان يتقن الاسبانية والعبرية ، الامر الذي ساعده على ترجمة رحلاته لافريقيا الى ايطالية بطلب من البابا ، وقد قام الحسن الوزان بتدريس العربية في كلية (Bologne) التي كانت من أعظم جامعات ايطاليا في عصر النهضة الحديثة . عاد الى افريقيا الشمالية سنة 1528 ثم عاد ثانية الى أوروبا وانقطعت أخباره .

وصفا هاما للحرف المغربية وعمليات التبادل التجاري ، دون أن يفطن عن التعرض الى النتائج التي ترتبت من الاحتلال الاجنبى فى الميدان الاقتصادي بوجه خاص ، وجميع ما أورده يؤكد لنا بأن الاقتصاد المغربى قد أصبح يعيش فى نظام شبه مغلق. الامر الذي زاد من مساوئ الحالة الداخلية للبلاد . نعمت الفتن والاضطرابات وأصبح من الصعب وجود طرق آمنة منظمة ، لا تتعرض لاعمال النهب والسلب ، مما ساعد على التجزئة الداخلية وجعل الوحدات السياسية تعيش فى نظام شبه اكتمالى (2) . ولم يشذ عن ذلك الا المدن الساحلية والقبائل التى كانت توجد على مغربة من مراكز الاحتلال الاجنبى لانها اخذت فى التعامل مع الاجانب من برتغال وقيروهم (3) . وأكثر ما تحفظ لنا المصادر أحوال سكان السواحل المغربية الاطلسية الذين كانوا يتاجرون مع البرتغال خاصة يوم كان هؤلاء منهمكين فى اكتشاف سواحل امريكا الغربية ، وجادين فى البحث عن طريق الهند البحرية . وحسب هذه

(2) لقد أولى الحسن الوزانى الناحية الاقتصادية عناية كبرى لما لها من أهمية وتأثير على مختلف أوضاع البلاد ، ولم يكتف بذلك أشهر المصنوعات المغربية بل تعرض أيضا الى المناطق التى تصنع بها كما حلل عمليات التبادل التجارى بين النواحي المغربية .

(3) بعد احتلال البرتغال لسبتة والعصر الصغير حصل اتفاق بين البرتغال والقبائل المجاورة لهاتين المدينتين ، يسمح بموجبيه لهذه بالتجارة مع المدينتين ، مقابل السماح بمرور القوات البرتغالية بالاراضى المجاورة ، واجراء التدريبات العسكرية بها . (المصادر الاصلية للتاريخ المغربى . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الاول . اوائل احتلال البرتغال للمغرب)

المصادر نعلم بأن المغاربة في القسم الجنوبي من الساحل الاطلسي ، كانوا يتاجرون مع الاجانب ، وانهم كانت لهم سفن خاصة بهم ، بل وان من الدواع التي جعلت بعضهم يدخل تحت الحماية البرتغالية الرغبة في استمرار المتاجرة مع الاجانب ومع أوروبا وبلاد البرتغال بوجه خاص (4) .

(4) هناك رسائل عديدة تبولت بين ملوك البرتغال والاهالي في السواحل الجنوبية لبلاد المغرب ، وقد وردت في المصادر الاصلية للتاريخ المغربي . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الاول - وهي مكتوبة بلغة اقرب منها الى العامية .

1 - رسالة من اهالي أزموور الى الملك جان الثاني مؤرخة سنة 1486 يعربون فيها عن طاعتهم وخضوعهم لحمايته ، ويؤكدون له الجزية السنوية التي سيقدمونها له سنويا (عشرة الف شابل) . كما يخبرونه بأنهم لن يأخذوا من المراكب البرتغالية ضرائب وكذا التجار البرتغال الذين سيتاجرون معهم . وكعربون على طاعتهم فقد اخذوا الاعلام البرتغالية ورمعوا فوق بلادهم . ويرجو اهالي أزموور من الملك البرتغالي أن يخبر ملوك النصارى حتى لا تتعرض سفنهم لمراكبهم في البحر (كما هو الامر بالنسبة لرعاياكم) وان من اراد (منا المتاجرة مع بلادكم يكون له الحق في ذلك) دون أن يلحقه اذى (المصدر السابق . ص 9) .

2 - رسالة من جان الثاني الى سكان اسلى مؤرخة بسنة 1488 .

مبتدئة بمعبارة (دون جون بنعمة الله سلطان البرتغال والغريبيين المحيطين بالبحرية وصاحب كنائز الذهبين) . وجوابا على الرسالة التي بعث بها سكان اسلى الى الملك البرتغالي لتجديد طاعتهم ، يؤكد لهم رضاه عنهم ويسمح لهم برفع الاعلام البرتغالية بعد تأدية مئين الطاعة وعلى أن يرسلوا في كل شهر سبتمبر 300 مثقال ذهبيا أو قيمتها مع اقامة دار للتجارة في المدينة التي سيسقط بها التجار البرتغاليون ، ويختم الملك البرتغالي رسالته مخبرا اهالي اسلى بأنه أمر البرتغاليين بأن لا يؤذوهم وان من خالف منهم ذلك يعاقب (المصدر السابق ص 25) .

3 - رسالة من اهالي اسلى الى عمانويل الاول بتاريخ 1509 .

بعد اطلاع الملك على احوالهم المضطربة وانهم يتسكون بطاعته ويخبرونه بتعصبات عابله

في اسلى وبما يقوم به الجنود البرتغاليون في اسلى من فوضى وتخريب بما اضعف التجارة بأسلى . ويختمون رسالتهم بأن يطلبوا من الملك البرتغالي أن يولى على اسلى مائلا عادلا يستطيع أن يصلح ذات البين بين سكان اسلى والتبائل المحيطة بها لتزدهر البلاد من جديد. (المصدر السابق . ص 177) .

4 - رسالة من اهالي ماسة الى عمانويل الاول مؤرخة بسنة 1510 .

مستهلة بالمعبارة الاتية : (يصل بيد السلطان العادل سلطان البرين واتليم الهندى دون منوال) بعد السلام يخبرونه بالمرور الذي اعتراهم عندما علموا ان الملك البرتغالي سيقدم ببلادهم حاوية برتغالية ، ويذكرونه بتفانيهم في طاعته (التي امنوا بها في بلادهم) . ثم يوجهون انتباه الملك البرتغالي الى ان سفنهم التجارية تتعرض للنهب في البحر مما جعل جيرانهم يفصحون عليهم مع انهم تحت حماية التاج البرتغالي ، ويرجوونه النظر في أمرهم وان يرد عليهم حقوقهم التي نهبت وان يأمر البرتغاليين بالكف عن اذيتهم (المصدر نفسه ص 233)

ومن الناحية السياسية : كان لضعف السلطة في فاس وعجزها عن صيانة الامن والدفاع عن البلاد اثر كبير في انتشار الفوضى والفتن مما أدى الى تجزئة المغرب الى وحدات سياسية شبه مستقلة بعضها املتها ظروف الجهاد ومقاتلة العدو المحتل للسواحل المغربية كما حصل بالنسبة لشفشاوان والقصر الكبير وتطوان ، وبعضها الآخر نتيجة البعد عن مقر الهيئة الحاكمة ، وذلك كما تم في شرق المغرب وجنوبه . بالإضافة الى أن معظم القبائل التي كانت بالسواحل الاطلسية خاصة قد وجدت نفسها مضطرة الى مهادنة المحتلين واعلان بعضها الدخول تحت حماية البرتغاليين .

فقد ظهرت مدينة شفشاوان كمركز للمقاومة الوطنية ضد الاحتلال الاجنبى منذ أن اتخذها المولى على بن راشد (5) قاعدة لجهاده ضد البرتغال ، وتحفظ لنا المصادر التاريخية الكثير من المعارك التي خاضها هذا المجاهد ضد البرتغال وحسب منظومة الكراسى فان المولى على بن راشد قد ثار ضد الوطاسيين وانتقد مهادنتهم للبرتغال (6) ، ورغم اخضاع ثورته فان مدينة شفشاوان ظلت تحتل مكانة مرموقة في حركات الجهاد باعتبارها من الثغور القريبة من مراكز الاحتلال البرتغالى . وعندما وائت المنية المولى على تابع ابنه المولى ابراهيم عمليات الجهاد والغزو ضد البرتغال في كل من طنجة واصيلا والعرائش .

والى جانب شفشاوان هناك مدينة القصر الكبير التي (كانت سوتا تجلب اليها بضائع العدوتين . . وثغرا بين بلاد المسلمين وبلاد النصارى) (7) وقد تولى حكم هذه الامارة عائلة العروسي التي كان القائد احمد من اشهر ابنائها ومن الذين

(5) على بن راشد : أحد شرفاء جبل العلم . صارع البرتغال في مراكز احتلالهم بشمالى المغرب . وهو الذى بنى مدينة شفشاوان واتخذها مقرا لقاعدة جهاده وقد اسره البرتغال في طنجة في اكتوبر 1457 واطلق سراحه في عمليات تبادل الاسرى .

(المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الاول - المقدمة)
(6) العافى محمد الكراسى : كان ادبيا شاعرا تولى خطة القضاء بمدينة تطوان ، له (عروسة المسائل في ما لبني وطاس من الوسائل) وهو جزء في تاريخ الدولة الوطاسية مرغ منه عام 1543م (عروسة المسائل) (الطبعة الملكية) الرباط 1963 . ص 17 .

ذاك الشريف العنانم المثلثا
ان يدخل الحفرة من حيث طلع
خاف وخاب رايه ما كانا
فاس وكناس لهم ينود
بالانتطاع وتنام الحيل
لاموه مما كان من تخريف
وتبعث شفشاوان بالطاعة

وثار في شفشاوان ومالا
دما لنفسه وجاءه الطبع
على بلاد مغرب سلطانا
تحركت لداره الجنود
... فانهصر بن راشد في الجبل
طلوع السادات للشريف
دخل في الطاعة والجماعة

(7) مرآة المحاسن ص 143

عرفوا بحملاتهم المتواصلة ضد مراكز الاحتلال . على أن المدينة التي ساهمت بحظ أوفر في هذا القبيل هي مدينة تطوان وذلك بحكم موقعها على الساحل الشمالى للمغرب حيث كان البرتغاليون والاسبانيون قد أتموا السيطرة على كل المدن الهامة بهذه المنطقة ، يضاف الى ذلك وهو العامل الاساسى كون تجديد هذه المدينة يرجع الى المهاجرين الاندلسيين الذين كانوا يقدرّون جيدا مدى خطورة التوسع المسيحى في المغرب الامر الذي دفعهم الى القيام بحركات الغزو وخاصة في البحار ضد السفن الاسبانية والبرتغالية . وقد تولت امر هذه المدينة عائلة اندلسية هي أسرة المنظري التي توارث ابناؤها الحكم في تطوان والذين اشتهروا بأعمالهم الحربية ضد الاعضاء (8) .

واذا كانت ظروف الجهاد والمناذاة بقتال المحتلين قد ساعدت على ظهور هذه الوحدات السياسية في شمال المغرب ، فان ضعف الحكم الوطاسى في فاس قد دفع بعض الولاة في المناطق البعيدة الى محاولة الاستقلال عن العاصمة ، ومن هذا القبيل ما حصل في مدينتي : دبدو بالمغرب الشرقى ، ومراكش في جنوب المغرب .

دبدو : التي تقع غير بعيدة عن وادي ملوية والتي تعد نقطة هامة في المغرب الشرقى قد أخذت تظهر كمركز لامارة شبه مستقلة منذ العهد الاول لقيام الوطاسيين ، ونحن وان كنا نجهل الكثير عن هذه الامارة لقلة المصادر والوثائق عنها ، الا أنه - حسب ما يظهر - فان هذه المدينة قد التجأ اليها بعد زوال الحكم المرينى في فاس بعض الامراء المرينيين . وفي منظومة الكراسى ما يؤكد ذلك اذ ورد بأن أميراً مرينياً هو محمد بن أحمد قد ثار بدبدو ودعا لنفسه الا أن الوطاسيين اخضعوا ثورته (9) وان استمرت هذه الامارة في الظهور ، مما يجعلنا نرى بأن المرينيين الذين زحزحوا عن فاس قد اتخذوا دبدو مركزاً جديداً لامارة صغيرة هي كل ما بقى لهم من حكم المغرب ، ولقد ظل حكام دبدو يلتقون بالملوك وظلت هذه الامارة المرينية معاصرة للوطاسيين الى أن كانت نهايتها معاً على يد السعديين .

(8) تطوان . المجلد الأول . ص 85 .

(9) وثار في دبدو بذلك الحسين دعا لنفسه وعات في البلاد فمقدوا صلحا مع السلطان وجاء هذا ولد الدبدوبى وكان ذا سنة خمس جازت

محمد بن أحمد المرينى ورام بعد الصلح امرا بفاس ورجعوا الى نمرة البنسان حتى فاس جد في الركوب من بعد تسبائة وملكه

(اى ثار سنة 905 هـ الموافق 1499) (مروسة البتائل فيما لبني وطنى من الفائل . ص 19) .

وفي الجنوب المغربي : استولى أمراء هنتاتة وهي قبيلة من مصوودة على حكم هذه المناطق واتخذوا مراكش عاصمة لهم ، وقد أخذ نفوذهم يزداد منذ منتصف القرن الخامس عشر حيث امتد خلال بعض الفترات الى سواحل المحيط الاطلسي . على ان بعض المصادر التاريخية تؤكد بأن أمراء هنتاتة رغم استقلالهم العملي بجنوبي المغرب فان الروابط التي كانت تربطهم مع فاس لم تظهر وكأنها انقطعت . ويمكن اعتبار هذه الملاحظة في الواقع بالنسبة لجميع الوحدات السياسية التي ظهرت بالمغرب خلال هذه الفترة المضطربة من تاريخه .

والى جانب هذه الامارات الداخلية هناك القبائل التي كانت توجد على الساحل الاطلسي حيث انشأ البرتغاليون عدة مراكز وقلاع ما بين طنجة حتى اكادير باعتبار انها تشرف على الطريق التجارية البحرية نحو الهند والشرق الأقصى ، وقد اقام البرتغاليون في هذه المراكز قوات مسلحة ، كما اتخذوا منها مخازن لتموين الاسطول ونقط استناد لاكتساح المناطق الداخلية من البلاد . ولما كان الاهالي في المناطق الساحلية قد دأبوا على التعامل مع الاجانب في مراكز الاحتلال ، فقد ساد النفوذ البرتغالي في هذه المناطق ، بل وان البعض من هؤلاء لم يتورع عن اعلان طاعة البرتغال والدخول في حماية الناج البرتغالي ، الامر الذي جعل سكان المناطق الداخلية والمجاورة لهم خاصة يتبرمون منهم ويسعون الى القضاء عليهم ، ما دام هؤلاء المتعاملون قد ربطوا مصيرهم بالاحتلال الاجنبي .

وان الرسائل التي تبودلت بين بعض مشايخ وزعماء هذه القبائل وبين ملوك لشبونة لتعد من الوثائق الهامة التي تكشف لنا القناع عن الكثير من اوضاع البلاد الجنوبية من المغرب خلال اواخر القرن الخامس عشر ومطلع القرن الذي يليه .

هذه هي الاوضاع السياسية التي كان عليها المغرب عند مطلع القرن السادس عشر ، وهي في مجموعها تدل على مدى التجزئة التي وصلت اليها البلاد مما ساعد على تزايد الفتن الداخلية وشجع في نفس الوقت الاعداء على التماهي في عمليات الاحتلال والتفكير في السيطرة الشاملة على مجموع المغرب .

ومن الناحية الاجتماعية : فلئن كانت هناك مدن قد ازدهرت من قبل ولا زالت بها بعض من مظاهر حضارية ، فان الاغلبية العظمى من السكان كانت تعيش في البادية حيث يسود نظام العشيرة والقبيلة ، فمدينتا فاس وتطوان كانتا تمثلان مستوى رفيعا من التقدم الحضاري : الاولى باعتبارها العاصمة السياسية منذ

عهد المرينيين ، والثانية تدين بوجودها وتقدمها الى المهاجرين الاندلسيين الذين نقلوا من وطنهم الاصلى مظاهر شتى للحضارة العربية الاندلسية وتأتى بعد فاس وتطوان مدينة مراكش التى لا تزال بها بقايا من مجد غابر عرفته فى عهد المرابطين والموحدين ، أما بقية المدن فقد كانت فى مراحل التطور وخاصة الواقعة منها فى الداخل ، لان المدن الساحلية كانت قد وقعت جميعها تقريبا فى قبضة الاحتلال الاجنبى . وبالنسبة للبادية التى كانت تمثل القسم الاعظم والهام ، فان حياة القبيلة ونظام العشيرة هما السائدان من بين انماط الحياة بالمغرب ، ولا تخفى علينا المظاهر التى تغلب على المجتمع القبلى سواء فيما يرجع للتمسك بالاعراف والتقاليد المحلية ، مما يحول دون قيام ترابط بين افراد المجتمع ، او فيما يتعلق باستمرار النزعات العصبية ، وما يتبعها من فوضى وقتن ولا يوجد بين ايدينا اعظم من منظومة الامام الهبلى (10) المعاصر (الالفية) التى تعتبر صورة حقيقية لما آلت اليه احوال الناس من عادات وتقاليد سواء بالنسبة لسكان المدن او القبائل المنتشرة فى البوادي المغربية والظواهر التى تبرزها الالفية هى انحراف الناس عن مبادئ الاسلام الصحيح ، واحداثهم الكثير من البدع مثل تغييرهم القواعد الخمس التى بنى عليها الاسلام ، وايمانهم بالكهان وشيوع عادات شرب الخمر ، واستعمال الوشم وكذا الغش فى المعاملات . وهذا الخروج والانحراف عن الدين القويم لم تتصف به طبقات العامة فقط بل ولقد تجلى بصورة اشد عند الطبقة الخاصة التى كانت تتكون من الفقراء اى المتقشفين ، والفقهاء اى رجال الدين ، ثم طبقة الامراء

(10) الهبلى : هو الشيخ ابو محمد عبد الله بن محمد بن الطنجى المعروف بالهبلى نسبة الى الهبط . وهو من اكابر اهل العلم والعرفان ورعة القدر الواضحة البرهان . كانت تلك الجبال التى كان بها وهى جبال غمارة كثيرة الجهل وشرب الخمر وغير ذلك من المنكر نبذل الوسع فى تعليم التوحيد وتقرير العقائد وتغيير المنكر وخاطب فى ذلك ولاية البلاد واشياخ القبائل فهدى به عالما لا يحصى وحسن حال البلاد واهلها . (مرآة المحاسن ص 5) وقد عدده صاحب التحفة من مشايخ الطبقة الثالثة من اتباع الجزولى . تولى عام 963 هـ - 1555 م بمعاينته يحوز شفاون النحلة ص 32

والحكام . ويرز الامام الهبطى حقيقة هامة وهى انه اذا ضعف ايمان اهل المدن ، فان الحالة لادهى وامر بالنسبة لسكان البوادي (11) .

واخيرا هناك الناحية الفكرية : التى اكثر ما يهمنى منها الاطلاع على الدور الذي اصبحت تلعبه الزوايا والرباطات التى كانت منبئة فى مختلف مناطق المغرب . فنحن بعد تعرفنا على الاوضاع العامة التى كان عليها المغرب من سياسية واقتصادية واجتماعية عند مطلع القرن السادس عشر اصبحت من السهل علينا أن نتبنا عن الحالة الفكرية التى اصبحت عليها البلاد : فاذا كانت فاس لا تزال متمتعة بالشهرة العلمية بفضل جامع القرويين ، واذا كانت تطوان قد اخذت تتبوا مقاما رفيعا فى هذا المجال باعتبار أن المهاجرين الاندلسيين الذين انشأوها كانوا على مستوى عال من التقدم الفكري والحضاري ، فانه لمن الصعب العثور على مراكز علمية أخرى تضارع ما ذكرنا ، اللهم الا ما كان من الزوايا والرباطات التى قلما تخلو منها منطقة أو ناحية من بلاد المغرب ، والتى لم تعدم ظهور ائمة ومشايخ اشتهروا فى علوم الدين أو عرفوا بالتقشف والزهد . وهذه الزوايا والرباطات ترجع فى اصولها الى الحركات الصوفية الاولى التى كانت قد تسربت الى المغرب من الشرق والاندلس منذ امد بعيد .

غير أن تسرب الانحراف والشذوذ الى بعض الحركات الصوفية ابعدها عن اهدائها الحقيقية الى حد أن الكثير من الفقهاء قاموا يعارضون بقوة هذا اللون من الطرق للبدع التى احدثتها واكثر ما ظهر ذلك فى البوادي التى كانت اكثر غلوا فى الجهل حيث وجد فيها هؤلاء المدعون تربة خصبة للشذوذ ولعل هذا هو الدافع الذى جعل الامام الشيخ زروق يصف بعض الطرق السائدة فى عصره بقوله (ولقد تتبعت الطرق الموجودة بأيدي الناس فى هذه الازمنة فلم اجد لاهلها فتحا

(11) فالدين ذاهب الى الفروب
لا تمجن من حالنا يا مهموم
ان الموم قد خرقوا الشريعة
وكل بدعة لهم كالبرهان
فكان ما ترى من الفساد
ومن اتاهم بالبحال الواضح
كلا ولكن كذبوا الشريعة
ما ليهم من كذب الكهان
وان دهاك ما ضمنت من كلام
ملاحة دلت بلا نوان
اصابتنا وهم شديد الحيرة
لا تغتر يا صاحب العقل البنيير

والكر داخل الى القلوب
اذ الرسوم عندنا من الموم
وبدلوها كلها بالبدعة
على نساد ما لهم من ايمان
والظلم والجور على الميساد
قالوا تعالوا نحو هذا المالح
وصدقوا الكهانة البلمونة
بل كلهم اتوه حيث كان
فاين انت من حديث الوشام
على نساد العقل والايمان
لم نعرفوا حقا ولا حقيقة
باسم الفقيه والفقير والامير

ولا نورا ولا حقيقة ولا علما ولا ذوقا ولا فهما ، بل ولا لذة نفسانية غير لذة الرئاسة والامتياز بالاختصاص (12) . وليس معنى ذلك ان جميع الطرق الصوفية كانت على هذا المنوال ، بل هناك حركات صوفية تميزت حقا بصدق الايمان وحسن النية وسلامة المقصد ومن اشهرها الطريقتان الجزولية والزروقية التي وصفهما صاحب التحفة الصديقية في مخطوطه وكيف ان جميع (طرق اهل الله بقطرنا هذا في هاتين المائتين العاشرة والحادية عشرة ترجع الى شيخين : الشيخ الامام العالم الكامل القطب الجامع الكبير أبى عبد الله محمد بن عبد الرحمن أبى بكر بن سليمان الجزولى ثم السلالى الشريف الحسنى ، والشيخ الامام العلامة المحقق الفهامة العارف الربانى شيخ وقته وعروس عصره أبى العباسى أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسى الفاسى المؤذن عرف بزروق رضى الله عنهما ، الا من شذ عنهما من بهلول ومجنوب وأصحاب حال ، ممن لا يعرف له شيخ) (13) على أن الطريقة الجزولية

(12) الفكر الصولى والانتقالية بالمغرب . مقال في البينة . نوفمبر 1960 . العدد السابع ص 91

(13) التحفة الصديقية مخطوط ص 2 الجزولى : هو الشيخ ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبى بكر ابن سليمان بن سعيد ... بن على بن أبى طالب ، ويعرف بالجزولى لأنه من جزولة وهي قبيلة من البربر بسوس الأقصى ويكتب في نسبه السلالى أيضا نسبة الى سلالة وهي من قبائل جزولة (متع الاسماع في ذكر الجزولى والتباع) كان رضى الله عنه في اول امره يطلب العلم فكان بفاس بـ مدرسة الصغارين وبها الف (دلائل الخيرات) الذى جمعه من كتب خزانة جامع القرويين (الاعلام ص 67) . وبعد خروجه من فاس التقى بالشيخ أبى عبد الله ابن ابيخار الصغير في الساحل فآخذ منه برباط تيفنظطر وهي قرية بساحل ازموور وتعرف الآن بـ تيط . وقد كان الجزولى كثير الاوراد مراقبا لله في جميع اعماله واقفا منذ حدوده غالبا بكتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام الى أن اشتهر بالصلاح وظهرت منه الكرامات وناش على يده هناك خلق كثير وانتشر ذكره في الافاق وأخذ في تربية المريدين . ثم انتقل من هناك بعد ظهور ما من الله به عليه من البركات وتنايع الخيرات الى الموضع السيسى بالبوغال من بلاد مطرازة فأتاه على حاله من تربية المريدين وارشادهم الى سبيل الله . ويابوغال تولى وهو ساجد يوم الازملاء من شهر ذى القعدة عام 869 ودفن بوسط المسجد الذى كان اسمه هناك . وقد جعل البعش وفاته بين 870 و 875 هـ . أما الطريقة الجزولية فهي مبنية على كثرة الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وقد روى عن الشيخ الجزولى قوله (قبل لى يا مبدى فضلك على جميع خلقى بكثرة صلاتك على نبي . يا مبدى من اطاعك من الاولياء نقد أطاعنى ومن عصاك من الاولياء نقد عصانى ومن تكبر عليك من الاولياء سلطه من نورى) (الاعلام ص 69) . وقال أيضا (ان دولتنا دولة المجتهدين المجاهدين في سبيل الله المقاتلين لامداء الله) (الاعلام ص 65) ولقد ذاع صيت كتابه دلائل الخيرات ولوائح الانوار والبسرات في سائر الاقطار والامصار كما كثر الانتفاع به في طريق الله وعم نفعه العظيم لعماد الله مشاع ذكره في سائر الاقطار شرقا وغربا وعمما وعربا وفي الحرمين الشريفين وبيت المقدس ومم وقوع الابدال عليه في كل حضرة ومجلس وشرحه الائمة والاعلام والاجلة العظام بشروح عديدة (الاعلام ص 103)

الاعلام ص 63 . 64 .

زروق البرنسى الفاسى (1442 - 1493) هو شهاب الدين ابو العباس أحمد ولد في تكريت بطرابلس الغرب وهو من ائمة الصوفية تعلم صناعة الخز واشتغل بالنصوف والتوحيد . له (الطريقة الزروقية) . ويصف صاحب (النشوف الصغير) مخطوط لعبد الرحمن الصومى (بان الطريقة الزروقية (كانت على السنة الكتاب وهي المذكورة في توله تعالى الا ان اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) النشوف الصغير ص 76 .

هى التى تركت كبير الاثر فى المغرب ، لان الجزولى هو الذى جدد الطريقة بالمغرب بعد دروس آثارها وخبو أنوارها وأصحابه الذين أخذوا عنه تفرقوا فى البلاد ، فأخذ الناس عنهم وانتشر أتباعهم واشتبكت فروعهم وقد كانت بلاد السوس هى الموطن الاول الذى نشأت به الطريقة الجزولية ، اذ (جزولة) التى ينتسب اليها الشيخ هى قبيلة من البربر توجد ببلاد السوس ، ومن السوس عمت سائر المغرب حيث قام اتباعها بدور عظيم فيما يرجع لحياء السنة ومحاربة البدع والطوائف الضالة . وحسب (دوحة الناشر) يمكننا أن نحصر المناطق التى ظهر بها هؤلاء المجددون ببلاد غمارة وشفشاون والهبط وتطوان وفاس ومكناسة ومراكش وسجلماسة وتادلا ودرعة وسوس ، ومعظم هذه المناطق والسواحل منها خاصة كانت على مقربة من مراكز الاحتلال الاجنبى الشىء الذى سيكون له اثر كبير فى انتشار حركات الجهاد ومقاتلة المحتلين .

وقد اثر البعض من هؤلاء الدعاة العزلة وحياء التقشف ، فاقبلوا على العبادة والصلاة ، كما قاموا بالتأليف ونسخ الكتب ، حيث لا يزال العديد من تأليفهم مخطوطا حتى اليوم . كما كان لهؤلاء الائمة والزهاد احترام وتقديس لدى العامة ويكفينا دليلا على ذلك كون الشيخ ابي عبد الله بن المبارك بالسوس (وضع اياما معلومة فى كل شهر يسمونها ايام سيدي محمد بن المبارك لا يحمل فيها احد سلاحا ولا يقدر احد على المشاجرة فيها ، ويجتمع الرجل مع قاتل ابيه وولده ولا يقدر ان يكلمه ، وذلك شائع عند قبائل العرب والبربر من سوس) (14) .

الا ان قيام بعض المفرضين والجهلة وتظاهروهم بالزهد والعبادة ثم استغلالهم بساطة العامة وسذاجتها لمآربهم الخاصة ، قد أحدث استياء ورد فعل من قبل رجال الدين الاتقياء الذين تصدوا لمقاومة ذلك ، ولعل الاوصاف التى ابرزها الامام الهبطى فى الفيته عندما تعرض لبعض الفقراء والمنتقشين والفقهاء ، كانت تعنى هذه الفئة الضالة التى حادت عن سواء السبيل (15) . فقد ادرك الامام الهبطى حقيقة الاوضاع المضطربة وعرف أن الحالة التى وصلت اليها البلاد ترجع فى اساسها الى

(14) الدوحة ص 74

وسيدى محمد بن مبارك هو نفسه يدى بركات

(15) من لى بواحد من السولات
أو من لنا بعالم رشيد
مؤديا لها عليه قد وجب
أو من لنا سيد الصوفية

يدعو الى التوحيد والصلاة
يدعو الى الصلاة والتوحيد
من بث عليه على وفق الكتاب
يدعو الى الهدى بصدق النية

جهل العامة : وشذوذ الفقراء ، وجبود الفقهاء ، وجور الحكام ، الشيء الذي جعله يتوجه بالتدأ الى أصحاب العقل ورجال الدين المخلصين والى الحكام والسلطين ، طالبا منهم العمل على نشر التعليم بين طبقات العامة من رجال ونساء وبنين ، اذ بالعلم والمعرفة ستتغير الامور وتتحسن الاحوال . ولا ينسى الامام الهبطى اخيرا ان يحمل الفقهاء والحكام والمفكرين مسؤولية ذلك .



هذه هى الاوضاع العامة التى كان عليها المغرب عند مطلع القرن السادس عشر : وحدات سياسية نتجت عن ضعف السلطة المركزية فى فاس ، واضطراب اقتصادي للفتن التى كانت عليها البلاد فى الداخل والخارج ، ثم فوضى اجتماعية زادت تايخرا انماط الحياة المختلفة وسيادة المجتمع القبلى بوجه خاص ، واخيرا ظهور دعاة وزوايا وطرق ، اتصف البعض منها بالاخلاص والدعوة الصادقة ، وغلب على البعض الاخر الشذوذ والشعوذة . وهذه الاوضاع جميعها قد زادت تايخرا تعقيدا الاخطار الخارجية المتمثلة فى عمليات الاحتلال الاجنبى لمعظم السواحل المغربية ، وقد أصبح من المتوقع ان يقوم هؤلاء الدخلاء بلكتساح كل البلاد ان لم نمبأ جميع الطاقات الموجودة بالبلاد ، للوقوف بها صفا واحدا لمواجهة الخطر الداهم . فهل بقى المغرب فى مكانه تاركا للاجانب حرية التصرف ؟ لم كانت له بقية من قوى ، وبعضا من الطاقة وشيئا من الحيوية ، تدفعه للحركة ومجابهة الاخطار ؟

الفصل الثالث

رد الفعل المغربي ضد الاحتلال الأجنبي

ان المتتبع لاحداث المغرب خلال القرن الخامس عشر ، وهو القرن الذي تمت خلاله عمليات الاحتلال لمعظم سواحل المغرب ، يلفت نظره حصول ظاهرتين متلازمتين ، هما الصدى القوي الذي أحدثه الاحتلال البرتغالي والاسباني للاراضي المغربية ، ثم ظهور رد فعل عظيم ضد المحتلين المسيحيين .

فبالنسبة للتاثيرات التي أحدثتها عمليات الاحتلال الاجنبى للسواحل المغربية نلاحظ بأنه منذ ان تم للبرتغال احتلال سبتة ، وطوال مراحل الاحتلال التالية ، ظهر عجز السلطات القائمة وضعفها عن مواجهة الاحداث ، فقام المخلصون من الدعاة والائمة والمشايخ يحثون الناس على بذل النفس والنفيس للدفاع عن الوطن ولاعلاء كلمة الاسلام . وهم يهتم هؤلاء بتحريض الناس على الجهاد لقط ، بل واخذوا في جمع الاموال لصرفها على شؤون الجهاد ، او لامتلاك أسرى المسلمين . والدعوات الى الجهاد والحرب كانت تتزايد باستنفاح الخطر المسيحى ، ولقد بلغ الامر ببعض القائمين على شؤون الجهاد ، ان كثر كل قادر على الحزب ، وكل متقاعس عن أداء هذا الواجب المقدس (1) . ولم تختلف نظرتهم هذه حتى بالنسبة للحاكمين حيث كانوا يستنكرون ضعفهم وتخافهم من القيام بتعبئة القوات المحاربة لقتال العدو . ولشدها كانت ثغور ثلثتهم عندما يعمد هؤلاء الحكام الى مهادنة العدو ، فقد جاء في (دوحه الناصر) ان الشيخ ابا عبد الله محمد بن يحيى البهلول عندما بلغه خبر الهدنة التي عقدها السلطان الوطاسى محمد البرتغالى مع الاعداء (آلى على نفسه الا يلقى السلطان المذكور ولا يمشى اليه ، ولا يقبل منه ما كان والده مینه له من جزية اهل الذمة بفاس لقوته) (2) .

(1) اورد صاحب دوحه الناصر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن الماشر (ابن عسكر) ان بعض المشايخ الذين كانوا يقومون بالجهاد ضد العدو قد توفيت زوجته في غيابه ، وعند موته وجد الناس على وشك الانتهاء من دفنها فقام هو ومن معه بالصلاة على الجنازة مما ادى الى استنكار الحاضرين الا ان الشيخ اجابهم بان صلاتهم ماسدة لكونها بخير امام ومنعها استفسروه في ذلك قال (اذ من شروط الايام المذكورة وهي مفقودة في صاحبكم ، لان الذى لم يتخذ سبها قط في سبيل الله ولم يضرب به ولم يعرف العرب كما كان نيينا عليه السلام ، فكيف بعد ابابا ذكرا ، بل املككم والله من جملة النساء) ص 47 .

(2) الدوحه ص 24 .

ومن الأمثلة التي يمكن أن نقيس بها الأعمال العظيمة التي كان الدعاة المخلصون يقومون بها ، لحث الناس على الجهاد والكناف ، ما قام به الشيخ محمد بن عبد الرحيم بن يجيش الغازي ، والشيخ الإمام الهبطي ، ونحن وإن كنا نجهل ما إذا كان الأول من أتباع الطريقة الجزولية التي ذاعت شهرتها في مجموع المغرب ، فإن الإمام الهبطي يعد من أتباع هذه الطريقة ، بل وقد عده صاحب (التحفة الصديقية) من مشايخ الطبقة الثالثة من أتباع الجزولي ، الشيء الذي يجعلنا نتأكد من أن الطريقة الجزولية قد طبقت شهرتها مجموع جهات المغرب ، وبرينا في نفس الوقت النتائج البعيدة المدى التي أخذت تظهر لهذه الطريقة نيبا يرجع لتغيير الأوضاع العامة بالمغرب سواء في الناحية السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية .

فالشيخ بن يجيش الغازي (3) أذهلته الغفلة التي سيطرت على عقول الناس ، وانزعه انحراف العامة عن الدين القويم ، في الوقت الذي أخذ العدو يجمع قواته لاكتساح باقي البلاد ، خصوصا وقد تأكد من عجز المغاربة ، وضعف إمكانياتهم الحربية ، وثبت لديه انقسامهم الى أحزاب وفئات ، علاوة على عدم اكتراث معظمهم بالمصير الذي آلت اليه بعض المدن الساحلية . وبعد أن يحث هذا الداعية الناس على الجهاد ويظهر ما أعده الله من الثواب الجزيل للمجاهدين الصادقين ، وبعد أن يهيب بهم لتحرير أخوانهم الذين سمعت أخوالهم بعد الاحتلال الأجنبي ، يثير انتباههم الى أن الأعداء الذين احتلوا السواحل ، هم بصدد احتلال

(3) محمد بن عبد الرحيم بن يجيش الغازي ، توفي عام 920 هـ (درة العجال ص 170) له (جيلة مختصرة) : مخطوط . ص 227 - 438 - 439 - 441 - 442 .

ما تبقى من البلاد ان لم يقوموا قوة رجل واحد لصده هؤلاء ، الخلاء ولتحرير المراكز المحتلة . ولم يغفل الامام التازي جانباً هاماً وهو تصوير احداث الاحتلال منى طالب شعري واتخاذها عبرة لمن يعتبر (4) .

(4) (مباد الله ما هذه الغفلة التي أضحت على القلوب سقيمة ، وركنت اليها النفوس التي أصبحت من الرشاد والتوبيق عديمة ، أما علمتم ان أعدائكم باحثون عليكم مشتغلون بكل حيلة في سبيل الوصول اليكم ، قد جمعوا من المدد ما لا يحصى له عدد وأرسلوا جواسيسهم وعيونهم في كل بلدة ليخبروهم بما عندكم من مدة وما أنتم فيه من قوة أو شدة ماخبروهم بما أنتم عليه من الاستهزاء والغفلة وان عدتكم بالنسبة الى عدتهم في غاية الضعف والقلة وانكم مطروقون مع اخوانكم المسلمين ، لم تبالوا بما اتفق من اذلال دين سيد المرسلين وأخذ عباد الله المومنين فلما عرفوا جميع احوالكم وما أنتم عليه من عدم اهتمامكم بهم واشغافكم طمعوا لا يبلغ الله لهم املاً منكم في نيل المراد ، واجمعوا يدهم الله قبلهم في ما بلغنا من الخروج لهذه البلاد فلما اتبعتم احوالكم وسامحتهم اراذلكم وسفهاكم فسدت باذن الله جميع الاحوال ورفعت البركة من الاموال وحجبت القلوب من سماع المواعظ فلم يؤثر فيها كلام حكيم ولا وعظ واعظ فالبدار البدار معاشر المسلمين والعجل العجل مباد الله المومنين ، لهذا منادى التوجه لاستفقاذ اخوانكم من ايد الكفرة يناديكم وهذه رسالة يستنفركم لجهاد من طغى عليكم من اعدائكم بذكورة لكم بمضى ما أمده الله عز وجل للجهاديين من عظيم ثوابه وما اخبر لهم من الخيرات في املا الجنات مع خاصة اعيابه . لان الاعداء دبرهم الله قد استفاض من خبرهم انهم يزمعون على الورود عليكم لانهم لما أخذوا ما قدر الله عز وجل من البلاد وملكوا ما سبق في عليه من العباد ولم يروا منكم حركة اليهم وغلب على ظنهم انكم ليس لكم قدرة في الودعة عليهم سيما حينما تحققوا ما اشتهر من ترفعتكم وما وقع من الشنآن بينكم وبين اخوانكم ، طمعوا لا يبلغ لهم املاً فيما يكون ان شاء الله وبإلا عليهم وسبيل هلاكهم وانفنام ما لديهم ، فاصرفوا همكم رحيكم الله للاكتثار من اكتساب السعد ومن اجادوا الخيل البوصلة للفرس في اقرب امد واقبوا اليهم الرحلة وآتوهم على حين غفلة ولا تعطوهم فترة ولا مهلة ، فمساكم ان أوجفتكم عليهم يخيكم ورجلكم تظفرون ان شاء الله تعالى بابلكم وتخلصوا اخوانكم من ايديهم وتغنوا أموالهم وأهاليهم) .

ولتكون لمواعظ بن يعش تأثير كبير في قلوب المسلمين مهد الى تصوير احداث الباقى في قالب شعري واتخاذها عبرة لمن يعتبر .

وقد هتكت بن ديننا كل حرمت
وقد أخذوا جل البلاد البهيوت
وصاروا يودون الفراخ كيزيت
وما لعل الاعداء من شر غدوت
كذى سكن صار في أرض غريت
كان لم يكن فيها مردد سورت
بتليس رهبان ورجس الاكست
بكت الدنيا من بعد انفاذ عبرت
وكيف تلذ النفس بمدد لشهوت

ولم استطع سبراً وكيف يصح لى
وشاركنا الاعداء في طر غرينا
وقد أرعبت تلك السواحل منهم
لقصة أصيلاً عرفتهم جميعاً
واضحت على الإبلان تبكى رسومها
مساجدها تبكى على بعد أهلها
مجالس أهل العلم يا صاح بدلت
فلو أبصرت ميناء حال خروجهم
فكيف يطلب العيش بمدد لحافل

أما الإمام الهبطى فقد قام يدعو الى الجهاد وتلبية نداء الواجب ، مبيّنا الحالة التى كان عليها السلف الصالح وكيف أنهم كانوا يتسابقون الى الشهادة لاعلاء كلمة الاسلام ، وما آلى اليه امر المسلمين من تقاعس وتخاذل (5) .

ومن الدعاة ايضا يمكن ادراج الشيخ أبى عبد الله محمد بن يحيى البهلولى الذي جعل من نكبة المسلمين فى الاندلس مثالا لتهريب الناس من أن يحل بالمغرب ما حل بالاندلس ولترغيبهم فى الجهاد والدفاع عن الوطن (6) .

ولقد اثر عامل الجهاد ومقاتلة العدو على السلطة الحاكمة الضعيفة ، فما احتل البرتغال مدينة سبّنة ، وظهر جليا عجز السلطان أبى سعيد المرينى وان ليس باستطاعته انقاذ هذه المدينة ، حتى قامت ثورة ضده أودت بحياته ، ولما تمض غير بضعة اعوام على هذا الاحتلال ، وذلك سنة 1420 م ، مما جعل الفرصة مناسبة لقائد سلا أبى زكرياء الوطاسى الذي جاء الى فاس وأصبح وصيا على الامير عبد الحق الذي نودي به فى نفس السنة سلطانا على المغرب . وما من شك فى أن الوزير أبى زكرياء قد أدرك ما للمناداة بالجهاد وحرب العدو من دور فى توطيد حكمه اذ نراه يهاجم سبّنة ويسرع الى صد حملة برتغالية ضد طنجة سنة 1437 م ، بل ولم يقبل اخلاء سبيل جنود هذه الحملة الفاشلة الا بعد أن تمهد البرتغاليون باخلاء مدينة سبّنة ، وقد تركوا احد امراءهم رهينة ذلك . وجميع هذه الاعمال قد قوت من نفوذ الوزير أبى زكرياء الا أن مؤامرة دبّرت ضده سنة 1448 م . تزايدت أخطار الحملات البرتغالية بعد احتلال مدينة القصر الصغير سنة

1458 م وهجومهم على طنجة من جديد سنة 1464 فضاعف ذلك من استياء العامة ضد السلطان المرينى ، ودفع بدارسة فاس وعلى رأسهم الشريف الادريسى

(5) باب ما وقع من التغيير فى الجهاد بسبب تغير الايمان .

عليه تنبئى أمور الدين
بلذة عظيمة فى القلب
دين الهدى ذو العز والعمل
شيئا شيئا باتقفاء نره
نهج الرشاد الى الاقوام لو نهوا
لو كان يكتفى فى الليل احتزم

ان الجهاد اكبر المميين
كانت تباع النفس دون ريب
وعندما مال الى الزوال
انتثر الايمان قل من عقده
(6) ثم للجهاد رماك الله منتهجا
من بعد اندلس ما زلت محتبها

الادب المغربى . ص 292

محمد بن علي الى القيام بثورة ضد السلطان عبد الحق ، انتهت بمقتله سنة 1465 .
وان لم يمنعنا هذا من القول بأن من اسباب هذه الثورة مما اشيع من ان السلطان
عبد الحق كان قد دبر قتل الشيخ الامام بن سليمان الجزولي مؤسس الطريقة
الجزولية التي كان السلطان المريني يدرك مدى خطورتها على ملكه وسلطانه (7) .

اما الشرفاء الادارسة بفاس وان اعلنوا بيعه زعيمهم المولى محمد بن علي ،
فان الامر لم يستقر لهم لقيام حاكم اصيلا محمد بن ابي زكرياء الوطاسي بمعارضتهم
اضف الى ذلك ما بدأ منهم من ضعف اتجاه الخطر الاجنبي ، فما ان تم للبرتغال
احتلال اصيلا وطنجة سنة 1471 حتى تخلت عامة الناس عنهم ، بينما استغل محمد
بن ابي زكرياء ذلك ودخل فاس حيث أعلن نفسه سلطانا سنة 1472 ، فابتدا بذلك
العهد الوطاسي بالمغرب .

وحسب منظومة الكراسي نتأكد من ان الوطاسيين لم يتولوا الحكم الا تحت
شعار الدفاع عن الوطن ، فقد أورد الكراسي بأن بيعه محمد بن ابي زكرياء
محمد الشيخ (قد تمت بموافقة أهل الشورى والحل ، وهل هناك شيء أكثر
اهمية من أمر القيام بالجهاد ضد الاعداء والمحتلين (8) ؟ ولا ننسى الاعمال
الحربية التي قام بها ابو زكرياء الوطاسي في الوقت الذي كان فيه وزيرا للسلطان
عبد الحق ، هذه الاعمال التي كانت لا تزال عالقة بأذهان الناس الشيء الذي يثبت
ما ذهبنا اليه من كون الوطاسيين قد استغلوا الدعوة الى قتال المحتلين لتولي
الحكم في المغرب .

(7) عبد الباسط بن خليل (روبرت برونشفيك) باريس 1936 . ص 27 .

(8) أولهم من حازه مبايعة
قام بأمر الله عن مشورة
محمد الشيخ بلا منازعة
على اتفاق من ذوي الشهرة

وقد ازدادت مكانة الوطاسيين في الداخل اثر الانتصار الذي احرزوه على الحملة البرتغالية التي احتلت جزيرة المليحة بوادي اللوكوس سنة 1489 (9) . غير ان تقاعس محمد الشيخ عن نجدة اهالي الاندلس بغرناطة ، وسقوط هذا الاخيرة بيد الاسبان وما اعقب ذلك من هجرة للاندلسيين الى المغرب ، ثم احتلال الاسبان لمليحة سنة 1497 ، اثار الاستياء ضد الوطاسيين ، وقد يكون هذا سببا رئيسيا في الحملات التي قام بها السلطان محمد بن محمد الشيخ (الملقب بالبرتغالي) ، الذي ما ان تولى الحكم بعد وفاة ابيه سنة 1501 حتى هاجم بعض مراكز الاحتلال الاجنبى ، شعورا منه بما حصل في الاوساط الداخلية من تذمر بتقاعس الوطاسيين عن محاربة الاعداء . ولقد سعى محمد البرتغالي لدى ملوك الاسلام المعاصرين في مالى بغربى افريقيا ، وآل عثمان في الشرق ، لخلق تحالف اسلامى ضد المسيحيين والبرتغال والاسبان بشكل خاص ، الذين أصبحوا يهددون بلاد الاسلام ، وذلك كما يستنتج من الرحلات التي قام بها محمد الحسن الوزان

(9) عندما علم السلطان الوطاسى محمد الشيخ بخبر الحملة البرتغالية أسرع على رأس قوات مغربية لمقاتلة المهاجمين ، ولما كانت المراكب البرتغالية قد صعدت مع وادي اللوكوس فان المغاربة قد قاموا ببناء حواجز عند مصب الوادى للحيلولة دون خروجها نحو المحيط . وبهذا فشلت الحملة وانتهى الامر بمقتد هدنة انسحبت على اثرها القوات البرتغالية بعد تخریب قلعة كراسيوسا (المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الاول - المقدمة)

والى الحادثة نفسها يشير الكراسى في منظومته تحت عنوان ذكر مجيء النصارى الى عبارة جزيرة (مليحة)

وجات الروم الى الجزيرة	بكل اسطول وكل ميرة
ودخلوا في وادي آل كوس	ذاقوا به الهوان بالنكوس
هناك اذ ذاك اقاموا بلدا	واسكنوا فيه الطفاة والمدا
وكان من ذا الرئيس الحبيب	راى سديد ردهم جليب
ان قطع الوادى يجل ملك	من تعب وبالمخور تملى
انزلها بمبيل التثبيت	وقطع السوادى بلا تليث
وامتنع الطلوع في الاجفان	فايقنوا بالهون والخران

(نطوان المجلد الاول . ص 148)

(ليون الإفريقي) الى كل من السودان المغربى (10) والى مصر (11) ، عند مطلع القرن السادس عشر ، الا أن ، محاولاته لم يكتب لها النجاح . وقد كان بوسعه أن يكرر المحاولة مع ملوك المسلمين في الشرق والغرب لولا انشغاله بالاحداث الداخلية وخاصة فيما يرجع لانتشار الدعوة السعدية التى اخذت تعم بلاد السوس والجنوب المغربى ، والتى أدرك الوطاسيون مدى خطورتها على دولتهم . زد على ذلك أن الايام لم تكن لتزيد الحكم الوطاسى الا ضعفا وتدهورا فى وقت استقطحت خلاله حملات البرتغال والاسبان على السواحل المغربية المتوسطة والاطلسية ، فظهر للجميع عجزهم وانه لم يعد هناك اى امل يرجى من الوطاسيين فى اصلاح حال البلاد ورد الاخطار الخارجية عنها .

هكذا كانت الاوضاع العامة لبلاد المغرب خلال السنوات الاولى من القرن السادس عشر : احتلال اجنبى لمعظم السواحل الشمالية والغربية ، واحوال داخلية مضطربة ، تردد صداها فى جميع مظاهر الحياة بالبلاد ، فى الوقت الذى ضعفت فيه السلطات القائمة عن رد الاخطار الخارجية ، وظهر عجز الحركات الداعية الى مناوأة الاعداء فى تعبئة العامة ضد المحتلين ، لان ظروف البلاد كانت بحاجة الى قادة يتزعمون صفوف المجاهدين لمقاتلة البرتغال والاسبان . فكيف ظهرت الحركة السعدية ؟ وما الظروف التى ساعدتها على ذلك .

(10) زار ليون الإفريقي عند مطلع القرن السادس عشر منطقة السودان المغربى وقد كان موعدا فى مهمة دبلوماسية من قبل سلطان المغرب الى السيك الكبير مؤسس اعظم امبراطورية اسلامية فى السودان المغربى . (فجر التاريخ الإفريقى . ص 30) .

(11) بعد اشتداد خطر البرتغال والاسبان على المغرب كلف محمد البرتغالى الحسن الوزان بمهمة لدى العثمانيين ، وقد قصد ليون الإفريقى القسطنطينية أولا ثم غادرها الى مصر حيث كان السلطان سليم قد فتحها وقد أورد ليون الإفريقى وصفا عن دخول سليم الى الاسكندرية على ان الحسن الوزان عاد الى المغرب ، ولعل مهمته الاستجداد بالاتراك فشلت كما فشلت المحاولة الاولى مع محمد اسكيا . والظاهر ان انشغال كل من محمد اسكيا وسليم العثمانى بالاطار البرتغالية على بلادهم قد دمنعتهم الى الاهتمام بأحوالهم قبل اقدام على نجدة المغرب .

الفصل الرابع

بدء الدعوة السَّعْدية بالجنوب المغربي

أحدث الاحتلال المسيحي للسواحل المغربية رد فعل قوي في الداخل ، اذ ظهرت حركات تدعو الى حمل السلاح والتقدم لتحرير الاراضى المختصبة ، وقد أصبح أمر السلطات القائمة بالبلاد يتوقف الى حد كبير على مدى استجابتها لهذا النداء . ولما لم تصادف أي منها النجاح في نشر الأمن في الداخل وصد العدوان الخارجى ، انبرى المصلحون للاعراب عن أمانهم في أن يقيد الله للمغرب قيادة جديدة ؟ وحاكما عادلا مؤمنا . يعود بالناس الى الطريق المستقيم ، ويسمى نفس الوقت الى نشر الطمأنينة وحماية البلاد من الاخطار التى تتهددها ، وقد تحقق هذا الأمل المنشود عندما قامت ببلاد سوس حركة دينية رائدها التمسك بالدين التويم والحث على الجهاد لتحرير الوطن وتوحيد أجزائه . نهي حركة جديدة وقيادة جديدة للمغرب ، حاولت أن تحقق له أمانيه ومطالبه .

لقد كان من المتوقع أن يكون خلاص المغرب وانقاذه من الهوة التى تردى فيها . سواء فيما يرجع للفتن الداخلية او الاخطار الخارجية على يد الوطاسيين الذين حاولوا الظهور في اول الامر بمظهر المدافع عن وحدة البلاد وسلامتها ، وحتى اذا ما خاب الظن فيهم وبرزت وحدات سياسية وخاصة تلك التى قامت في شمال البلاد . اتجهت اليها الانتظار ، ولكن اية واحدة منها لم تكن أهلا للقيام بالمأمورية العظمى لعوامل عديدة أهمها سعى كل منها الى تركيز النفوذ الداخلى واستغلال ظروف الجهاد لبلوغ ذلك . ثم معارضتها كل ما من شأنه أن يعيد ثانية سيطرة الوطاسيين الفعلية الى مقاطعاتها أي أن اهتمام هذه الوحدات السياسية كان ينحصر في النظر الى مصالحها الخاصة قبل أي اعتبار آخر . كامارات اقطاعية تعمل جاهدة للاستقلال عن الوطاسيين في فاس . ويدهي أن هذه الوحدات السياسية ، وشأنها كما رأينا . ستتقدي بالوطاسيين في مهادنتها للعدو ، بل وستجد في ذلك الفرصة للتقرب من المحتلين أو للتعامل معهم . وهذا في مجموعة اناد قوات الاحتلال التى اغتصمت ظروف الهدنة لبناء الحصون والقلاع ولبسط

النفوذ على المناطق المجاورة . فاذا لم يكن هناك أي أمل يرجى من الهيئات القائمة لانتقاذ البلاد وتحريرها . طالما أن النزعة المحلية والرغبة في المصلحة الخاصة كانتا من الأهداف الأولى لكل منها . ولا غرو ، والحالة هذه إذا وجدنا المؤمنين المخلصين الذين كانوا يتألمون لها آلى إليه أمر العباد والبلاد ، يتطلعون الى ظهور قيادة جديدة رائدها التمسك بالدين الاسلامي القويم . وهدفها توحيد البلاد وتطهير سواحلها من الاحتلال الاجنبى . ومسألة توحيد البلاد وتحرير مناطقها المحتلة كانت إذا الشغل الشاغل للدعاة المخلصين . وما من شك في أن أية حركة جديدة تجعل من هذين الهدفين أساسا لدعوتها ، لابد وأن تصادف تجاوبا عظيما يضمن لها الفوز والتجاح ، وكذلك كان شأن الدعوة التي قامت بالجنوب المغربى ، وفي بلاد السوس بوجه خاص (1) .

لقد تعرضت المناطق الجنوبية لسواحل المغرب الاطلسية عند مطلع القرن السادس عشر ، بما في ذلك سواحل بلاد سوس ، للهجمات البرتغالية والاسبانية المتوالية ، التي انتهت باتامة مراكز نفوذ واحتلال عليها ، وذلك للاهمية الاستراتيجية التي أصبحت لهذه الناحية بعد اكتشاف العالم الجديد والتعرف على طريق الهند البحرية ، من حيث التحكم في طريق التجارة العالمية الجديدة بين غربى أوروبا والهند والشرق الاقصى ، او فيما يرجع لاتخاذها نقطة انطلاق للتوسع في المناطق الجنوبية من المغرب وصحراء افريقيا الشهيرة بخيراتها وتجارتها . ولم ينته صراع الامتين المسيحيتين الا بعد توقيع معاهدة (Sintra) سنة 1509 م التي جعلت هذه المنطقة من نصيب البرتغاليين ، حيث لم يبق بها للاسبانيين الا حصن سانتاكروز الذي كانوا قد أقاموه عند وادي نون منذ عهد بعيد .

نهج الهدى وما سواه قد ترك
والامر في حوز النيار والطرق
دبرهم ربي سيرا للابكار
سوده ولم يكن في الفاتلين
مثل الاب المهوم بالدريسة
الى امام قائم بالقرآن
يمن يقوم في السورى بالمنه
حتى نرى مقامه بلا حجاب
يهو بنيان الخنا والباطل
وكلنا به يعير ظاهرا

(1) البهطلى : فرحم الله اميرا قد سلك
كما به اخذ الحدود والحقوق
والصون للثغور حيث الكفار
ما رأى امر يضمر بالمسلمين
حنائه ايضا على الرعيعة
ما احوج السورى لذا شرمنا
نجد علينا يا عظيم المنه
اطلع علينا شمس بلا سحاب
امن علينا بالامام المعادل
حتى نرى الحق البين ظاهرا

وهذه الحملات الاجنبية اثارت رد فعل قوي من قبل اهالي سوس ، اذ خلقت بين الواحات الداخلية — التي عرفت منذ القديم كأسواق تجارية بين جنوبي المغرب وغربي افريقيا ، والتي ظهرت منذ ضعف السلطة الحاكمة في فاس على شكل وحدات شبه مستقلة شعورا بالخطر ، اهاب بها الى التفاهم والتعاون لتوحيد القيادة الداخلية من جهة ، وللعمل على صد الاخطار الخارجية من جهة أخرى . ولقد زاد من هذا الشعور لدى اهالي سوس ، رؤيتهم القبائل والمراكز الساحلية تستسلم للاجانب بل وتعلن دخولها تحت حمايتهم ، مما اثار حفيظة المؤمنين الصادقين ودفعهم الى اعلان دعوات الجهاد ضد المحتلين ومن يتعاون معهم .

وتحفظ لنا الوثائق التاريخية رسالة وجهها سكان ماسا الى الملك البرتغالي عما نويل مؤرخة بسنة 1510 ، وهي اذ تلتقى ضوءا على اوضاع بلاد سوس وعلى النفوذ البرتغالي بها ، تدلنا على ناحية أكثر اهمية وهي موقف الاهالي من المحيين والرسالة مكتوبة بلغة أقرب الى العامية منها الى العربية النصحى ، وقد جاء في مطلعها (يصل بيد السلطان العادل سلطان البرين واقاليم الهندى دون منوال) ، ثم تذكر الرسالة مدى السرور والفرح الذي عم اهالي مدينة ماسا لما علموا بأن الملك البرتغالي قد عزم على اقامة قوات عسكرية ببلادهم ، ولا يخون عليه أنهم قد أصبحوا آمنين في بلادهم بعد الدخول في طاعته . والذي يهمني من هذه الرسالة أكثر مما تقدم ، هو تعرضها لموقف اهالي سوس من سكان ماسا ، فقد اخبروا الملك البرتغالي بأنهم يتحملون عداوة جيرانهم من العرب بسبب خضوعهم للبرتغال ، وأن جيرانهم (يخطفون اولادنا وابنائنا ويبيعونهم) (2) .

فمن هذه الوثيقة نتأكد من أن السوسيين لم يكونوا كلهم راضين عن الاوضاع التي آلت اليها بلادهم ، وخاصة فيما يرجع لخضوع بعضهم للاجنبى ، الشيء الذي اعتبروا معه هؤلاء المحيين في حكم الخارجين عن الاسلام ، ولم يفرقوا فى الموقف العدائى بينهم وبين الاجانب المحتلين . واذا عرفنا بأن بلاد السوس كانت المقر الاول للطريقة الجزولية التى عمت شهرتها كل بلاد المغرب ، والتي كان لها اثر كبير في نشر حركة دينية ببلاد سوس بوجه خاص ، أدركنا مدى الدور الذي سيقوم به الائمة والمشايخ الذين ينتمون الى هذه الطريقة من حيث دعوة الناس

(2) المصادر الاصلية للتاريخ المغربى . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الاول — ص 233

الى الجهاد كما جاء على لسان امامها ابن سليمان الجزولى (ان دولتنا دولة المجتهدين ، المجاهدين فى سبيل الله) (3) ، ولم تكن هناك من فرصة للدمرة الى القتال ومحاربة الاعداء ، وللجهاد فى سبيل الله ، اعظم من الظروف التى كانت عليها بلاد سوس عند مطلع القرن السادس عشر ، وعقب الغارات الخارجية والاعمال العدوانية التى قام بها البرتغاليون ضد سواحل بلاد المغرب الجنوبية ، والتى انتهت باتخاذ قواعد احتلال ومناطق نفوذها عليها .

ومن اشهر الائمة الذين عرفتهم بلاد سوس خلال هذه الفترة الشيخ العالم الحسن بن عثمان شيخ جزولة بقرية (اسجاور) (4) ، والامام محمد بن مبارك بقرية (اتا) (5) ، والشيخ على بن محمد الاديب (6) ، وغيرهم من الذين عرفوا بالورع والتقوى والقيام بشؤون العلم والتدريس . ولئن كنا مفتقرين الى الوثائق التى تكشف لنا النقاب عن دور هؤلاء الائمة والمشايخ فى حركات الدعوة الى الجهاد وقتال الاعداء والمتعاملين معهم ، فاننا نستنتج من اجتماع بعض القبائل السوسية ، على مبايعة الامام الشيخ محمد بن مبارك للقيام بامرهم ، وجود ائمة ودعاة كالشيخ المذكور ، اشتهروا الى جانب عملهم وورعهم بحث الناس على بذل النفس والمال لاعلاء شان الاسلام ، ولو لم يكونوا كذلك لما كان هناك من سبب يجعل القبائل الائمة الذكر تقدم على مطالبة الشيخ ابن مبارك بأن يتولى شؤونها وجميع امورها ، ومما يؤكد ما ذهبنا اليه هو كون القبائل التى اتصلت بالشيخ المذكور ، كانت بحكم موقعها معرضه اكثر من غيرها للخطر الخارجى الذى كان يهددها فى كل وقت وحين .

وبدئى أن الشيخ بن مبارك سيكون أول من تتجه اليه الانتظار فى ظروف عصيبة كهذه ، استفحلت خلالها الاعتداءات الخارجية وأصبحت تنذر بالشر سائر نواحي البلاد ، خصوصا وأن الشيخ يتمتع الى جانب الاحترام والقداسة ، بنفوذ قوى لدى سائر القبائل والاهالى السوسية ، ولا أدل على ذلك من أنه كان قد (وضع اياما معلومة فى كل شهر يسمونها ايام سيدي محمد بن المبارك لا يحل

(3) الامام من 65

(4) سوس المالمة 156

(5) سوس المالمة 156 .

(6) سوس المالمة 133 .

فيها أحد سلاها ولا يقدر أحد على المشاجرة فيها ، ويجتمع الرجل مع قاتل أبيه وولده ، وما يقدر أن يكلمه . وذلك شائع عند قبائل العرب والبربر من أهل سوس (7) .

لقد قصد وفد يمثل بعض قبائل سوس ، بلاد (آقا) (8) ، حيث يوجد الشيخ ابن مبارك ، وطلبوا منه مبايعته ، ليتسنى لهم أن يوحدوا الصفوف وأن يقوموا بأعمال الجهاد والدفاع عن البلاد ضد الخطر المسيحي . إلا أن الشيخ رفض ذلك لأدراكه المهمة التي طلب منه القيام بها : مهمة تسيير الشؤون وقيادة القوات الحاربة ، وهي أن كانت شاقة يصعب على شيخ مثله القيام بها ، فانه لم يكن له أن يتولى رئاستهم وهو المعروف بالورع والزهد عن الدنيا . على أن ابن مبارك الذي كان يعلم الدواعي التي أهابت بهذه القبائل إلى التقدم بطلب بيعته ، لم يكن له ليعترك الوفد يمضي إلى حال سبيله إذ معنى ذلك أن القبائل الأنفة الذكر ستعود إلى اتخاذ أحد الأمرين : إما الخضوع والاستكانة إلى الأعداء والدخول في طاعتهم شأن جيرانهم من قبل ، أو أنها ستتهجر المنطقة ، وكلا الأمران يساعدان على توسيع مناطق النفوذ الأجنبي ببلاد سوس وهذا يتناقض وما عرف به الشيخ من حرص على التمسك بوحدة الصف ومن دعوة إلى الجهاد ومحاربة المعتدين . لذا فقد دلهم على أحد أشراف (تاكمادارات) ببلاد درعد وهو المولى محمد بن عبد الرحمن (فلو بعثتم إليه وبايعتموه كان أنسب لكم واليق بمقصودكم) (9) .

والمولى محمد بن عبد الرحمن كان يعرف بين قومه ببلاد درعة بسعة العلم و (التمسك بسيرة السلف الصالح من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) (10) ، كما ذاعت شهرته ببلاد سوس لقيامه بأعمال الجهاد والمراقبة إذ كان (يستنفر الناس للرباط بأقدير حيث كان النصاري دمرهم الله) (11) ، الشيء الذي جعل له بين القبائل السوسية نفوذا عظيما فقد (كان يأمر أشياخ القبائل فيميتلون أمـره) (12) .

(7) الدوحة ص 74 .

(8) آقا : قرية تقع في جبال بانى بالاطلس الصغير ، توجد بها زاوية الشيخ بن مبارك .

(9) الأبراني : نزعة الحادي ص 12 .

(10) الزباني : المغرب في دول المشرق والمغرب . (مخطوط) ص 343 .

(11) المصدر السابق نفسه ص 343 .

(12) المصدر السابق نفسه ص 343 .

وعلى ما يبدو فان الوفد السوسى لم يقنع من الشيخ بن امبارك ارشاده اياهم الى المولى محمد بن عبد الرحمن . بل طلبوا منه ان يكون واسطتهم لديه ، فلم يمانع في ذلك ، وخلال المقابلة التى تمت بين الشيخ بن امبارك والمولى محمد ببلاد (اقا) (13) ، قبل هذا الاخير مبدئيا — كما يظهر — القيام بالمهام التى عرضها عليه الشيخ ، اذ اننا نجده يقصد بعد ذلك بلاد درعة ، ولعل ذلك كان للتشاور مع قومه ، لان المسؤولية خطيرة والمهمة جد شاقة .

ومن مجريات الاحداث تعلم بان اهالى سوس ما ان علموا الخبر بعد عودة الوفد من اقا ، حتى ارسلوا ثانيا الى (تاكادارات) بدرعة من يطلب من المولى محمد بن عبد الرحمن المجيء اليهم (فقد بعث له فقهاء المصامدة وشيوخ القبائل واستدعوه الى تقديمه عليهم وتسليم الامر اليه ، فلبى دعوتهم واجاب رغبتهم) (14) وفى قرية (تدسى) قرب تارودانت اجتمع المولى محمد بزعماء القبائل ومشايخها حيث (خطبهم خطبة عجيبة بلسان البربر ، ذكر فيها ووعظ ، وحض على الجهاد) (15) وتلك ميزة اخرى كان يتصف بها المولى محمد ، وهى معرفته باللهجة البربرية (تاشلحيت) مما ساعد على حصول التفاهم بين الطرفين . وقد استعرض في خطبته اوضاع البلاد ، وما آلى اليه امر الناس ، بسبب الفوضى والفتن (فضاعت الحقوق ، وانقطعت السبل ، واكل القوي الضعيف ، وبطلت الاحكام الشرعية) (16) ، كما تطرق الى الضرورة التى تحتم تولية من يقوم بشؤون المسلمين ، مفصلا المهام التى عليه ان يقوم بها في الداخل والخارج : فهو الذي سيعمل على (اصلاح قطركم ، وينصف مظلومكم ، ويسرح سبلكم ، ويقبض واجب زكواتكم وعشوركم ، فيصرفها على اصلاح بلادكم ومنها تكون نفقة من يكون معه من رجالكم ، والذي يفضل يصرف في الجهاد) (17) ، وقد وقع بعد الخطبة اجباغ الراي على بيعته . وذلك بفضل تركية الشيخ ابن مبارك له ، و (باشارة من الصالحين ، واذن من العلماء العاملين) (18) ، ثم لما اشتهر به من علم ودين واعمال الجهاد ومحاربة العدو علاوة على نسبه الشريف وكونه غريبا عن قبائل

13 الامرائى : نزهة الحادى ص 12 .

14 الامرائى : نزهة الحادى ص 17 .

15 الزيانى : المغرب (مخطوط) ص 343 .

16 الزيانى : المغرب (مخطوط) ص 343 .

17 المصدر السابق نفسه ص 343 .

18 الامرائى : النزهة . ص 14 .

سوس التي لم تكن لتقر بعضها البعض على الزعامة والرئاسة . وقد علق المولى محمد بن عبد الرحمن قبوله المسؤولية التي طوقوا بها عنقه ، بشرط أساسى ، وهو أن تقوم كل قبيلة من القبائل التي ارتضت بيعته بتقديم عشرة أشخاص من أبنائها مجهزين بكامل الأسلحة والعتاد ، لعلمه أن الامر لن يعدو ضرباً من الخيال إذا ما اقتصر على اعلان القبائل طاعته ، دون قيامها بمشاركة فعلية (فاستحسنوا رايه وانعموا له بذلك ، وتوجهوا لقبائلهم) (19) . ولقد عاد المولى محمد الى درعة ليصحب معه أهله الى المقر الجديد ثم ليطلع وجهاء قومه بما انتهى اليه اجتماع قرية تدسى الأخير . وما أن عاد الى بلاد سوس حتى وجد في انتظاره القوات المسلحة التي وقع الاتفاق في شأنها من قبل ، وكانت (خمسمائة رجل وكذا بسلاحهم وخيلهم) (20) ، أي ان القبائل التي اعلنت بيعته المولى محمد في قرية تدسى ، كانت خمسين قبيلة .

وهناك نقطة جديرة بالذكر ، وهى ان المولى محمد بن عبد الرحمن قد اقدم على اعلان بيعته ولده الأكبر المولى أحمد ، ولما يمض على وصوله الى بلاد سوس غير وقت قصير ، حيث أصبح المولى أحمد يلقب (بملك سوس) ، في حين أن المولى محمد قد تلقب (بالقائم بأمر الله) . وعند التساؤل نجد بأن المولى محمد قد أدرك بأن الامر ببلاد سوس يتوقف نجاحه على مدى القيام بعمليات الجهاد والغزو ضد مراكز الاحتلال الاجنبى ، ولن يصلح لهذا الامر غير ابنه الأكبر الذي لا يزال شاباً . يتوقد حدة ونشاطاً ، ثم انه وان أعلن ملكية ابنه ، فقد ظل يقوم بدور الامام المرشد ، والداعية كما يدل على ذلك لقب (القائم بأمر الله) فكان المولى محمد قد اقتسم مع ابنه المولى أحمد السلطتين السياسية والدينية .

أما فيما يرجع للتاريخ الذي يمكن اعتباره نقطة البداية بالنسبة للدولة السعدية الناشئة ، فالمصادر العربية مختلفة في ذلك ، وسبب هذا الاختلاف يرجع الى أي الرجلين يمكن اعتباره المؤسس الاول لهذه الدولة والذي تسلم سلطنة سياسية ببلاد سوس ، أهو المولى محمد بن عبد الرحمن ؟ او ابنه المولى أحمد ؟ ثم للاتصالات العديدة التي جرت بين المولى محمد وابن مبارك ونحن اذ اعلنا بأن الوثائق التاريخية تؤكد بأن المولى محمد لم يتقلد أية سلطة سياسية (21) ، وأن

(19) الزياتى : المغرب (مخطوط) ص 344 .

(20) المصدر السابق نفسه ص 344 .

(21) المصادر الأصلية للتاريخ المغربى . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الاول - (جدول عام للسلالة السعدية) .

ابنه المولى أحمد هو أول من بويع كملك على سوس ، زال عنا كل التباس ، خصوصا أننا نملك وثيقة معاصرة ، وهى رسالة أرسلها البرتغالى (Ignacio Martins) الى الملك عما نويل الاول ، مؤرخة بخامس نوفمبر لسنة 1510 ، جاء فيها (بأن المولى محمد قد نادى بابنه (المولى أحمد) ملكا على سوس ، وأنه قام بتنظيم قوات سوسية) (22) . فهذه الوثيقة لا تترك اى مجال للشك بأن بيعة المولى أحمد قد تمت خلال الاشهر الاخيرة من سنة 1510 ميلادية ، الموافق لعام 916 هجرية . وهى السنة التى يجب اتخاذها البداية العملية للدولة السعدية بالمغرب .

أما مسألتنا الانتساب لآل البيت ، وتسميتهم (بالسعديين) فرغم وجود من يطعن فى نسبهم وخصوصا خصومهم الوطاسيون الذين اتخذوا من ذلك وسيلة لمقاومتهم وتنفيذ العامة منهم ، فان المصادر التاريخية المختلفة والمعاصرة منها خاصة ، تثبت هذا النسب الشريف الذى كان من أهم أسباب نجاح هذه الدولة . (فان كلمة الاشياخ قد اتفقت على أن ابا عبد الله محمد القائم . إنما كان نهوضه بإشارة من الصالحين واذن من العلماء العاملين ، وكفى ذلك شاهدا على صحة نسبه الشريف عندهم ، والا لما حضوه بالامامة العظمى التى لا يمتطى صهوتها الا شريف النسب ، قرشى المحتد) (23) .

وأما اللقب الذى كان الحكام من سلالة المولى محمد بن عبد الرحمن يتلقبون به ، فيظهر من المراسلات والامور الصادرة عنهم وكذا الوثائق المعاصرة لهم : أنهم كانوا يعرفون (بالشرفاء) ، الا أن بعضهم أضيف اليه لقب (السعدي) كالفالغاب بالله ثالث ملوك هذه الدولة ، وذلك كما جاء فى الرسالة التى وجهها علماء المغرب الى المولى محمد المتوكل على الله جوابا عن خطابه اليهم (وبعد فهذا جواب من كافة أهل المغرب . . لمولانا محمد بن عبد الله (السعدي) رحمه الله (24) ، ثم أصبح هذا اللقب فى الفالغاب صفة لهذه الدولة ، خصوصا بعد أن سعد المغاربة فى عهدها وأصبحوا ينعمون بالامن والطمأنينة ، مما لا قبل لهم به منذ عهد بعيد . ويعد صاحب (تاريخ الدولة السعدية) من الاوائل الذين استعملوا هذا اللقب عند

(22) المصادر الاصلية للتاريخ المغربى . المجبوعة الأولى . البرتغال . المجلد الاول - ص 255

(23) الامرانى : نزعة الحادى . ص 14 .

(24) الامرانى : النزعة . ص 65 .

تأريخه لهذه الدولة ، ونحن وإن كنا لا نزال حتى اليوم نجهل صاحب الكتاب ومتى ألف تأريخه ، إلا أننا لا نجادل في أنه كان من المعاصرين لهذه الدولة ، بل ومن الملمين على الكثير من أسرارها ، كما يتأكد ذلك من مقارنة أخباره مع بعض الوثائق المعاصرة . ولعل خصوم هذه الدولة قد وجدوا في صفة (السعدي) وسيلة للطمع في صحة نسب حكامها الشريف ، وأنهم ينتسبون (لبني سعد بن بكر بن هوازن الذين منهم حليلة السعدية ظئر رسول الله صلى الله عليه وسلم) (25) .



في الوقت الذي كانت بعض قبائل سوس تعمل على توحيد صفوفها الداخلية وتنبها لمواجهة التحديات الخارجية ، كانت لشبونة تخطط للانتفاض على هذه البلاد باعتبار أن معاهدة (Sintra) مع إسبانيا قد فتحت آفاقا واسعة للعمل أمام البرتغاليين .

لقد وضعت معاهدة (Sintra) الموقعة سنة 1509 حدا للنزاع والحروب التي دامت طويلا بين الأسبان والبرتغال ، حول أحقية الفتح في سواحل المغرب الأطلسية الجنوبية ، الممتدة بين رأسى كائنات ونام ، اذ جعلت المعاهدة هذه السواحل في مناطق النفوذ البرتغالي ، مقابل اعتراف البرتغال بمشروعية التوسع الإسباني في الجزء الشرقي من ساحل المغرب الشمالي الواقع بين بادس حتى غصامة ومليلية . ولعلنا لن نجد صعوبة في فهم العوامل التي دفعت البرتغال الى التنازل لإسبانيا عن جزء هام من بلاد المغرب الشمالية ، اذا ما عرفنا أن البرتغاليين كان يهمهم بالدرجة الاولى اتمام فرض السيطرة على بقية المناطق الجنوبية من ساحل المغرب الأطلسي . للاهمية التي أصبحت لها بعد التعرف على طريق الهند البحرية . حيث السفن التجارية تمر على مقربة منها في كل وقت وحين ، علاوة على اتخاذها كقواعد للانطلاق نحو المناطق الجنوبية الداخلية في بلاد المغرب .

والواقع أنهم منذ توقيع هذه المعاهدة خلا الجو للملوك البرتغاليين الذين وجدوا أن الفرصة قد حانت لتحقيق الأمل المنشود الذي طالما عمل أجدادهم من قبل على إنجازه ، وهو احتلال بلاد المغرب التي كانت تمثل في نظرهم الباب الموصلة الى بلاد الاسلام وقلب افريقيا . والطريقة التي نهجها البرتغاليون لتحقيق خطة الاحتلال الشامل لبلاد المغرب كانت تتخلص في التمرکز في نقطتين أو عدة نقط استراتيجية من ساحل المغرب الاطلسي . في شماله وجنوبه واتخاذها قواعد للانطلاق نحو البلاد الداخلية . ولما كان البرتغاليون قد فشلوا مرارا في احتلال شمال المغرب أو مملكة فاس رغم القواعد العديدة التي لهم بسواحل هذه البلاد . للمتأومة التي ابداءها الوطاسيون وكل من مجاهدي شفشاون والقصر الكبير وتطوان ، فقد توجهوا صوب بلاد المغرب الجنوبية ، أو بمباراة اوضح صوب سواحل بلاد دكالة والشياطن وما جاورها ، يشجعهم على ذلك الفوضى الضاربة اطنابها بهذه البلاد . وعدم وجود اية سلطة سياسية قوية بها . علاوة على بعض القواعد ومناطق النفوذ التي كانت لهم بها ، كآسفي وموكادور . وتطبيقا لخطة احتلال البلاد الجنوبية أو مملكة مراكش اخذ البرتغاليون يمهدون لذلك بخلق العملاء ومن يمكن التعاون معهم من رؤساء المشايخ والحكام المحليين ، وقد وجدوا ضالتهم في مولاي زيان أحد الأمراء الوطاسيين . وحسب المصادر التاريخية يظهر بأن مولاي زيان كان حاكما على منطقة أزموور وأن خلافا حصل بينه وبين السلطان محمد البرتغالي ، دفعه الى مهادنة البرتغاليين ، والسماح لهم ببناء حصن بساحل أزموور ، وذلك حسب المعاهدة التي وقعها الطرفان سنة 1510 (26) . على أن احتلال البرتغاليين لمدينة أزموور لم يتم الا في سبتمبر من سنة 1513 والا بعد تعاون يهود أزموور الذين كانوا على اتفاق مع البرتغاليين المحاصرين للمدينة ، حيث فتحو لهم الابواب على حين غفلة من اهلها ، كما اورد ذلك محمد الحسن الوزاني المعاصر (26) . ومن أزموور توصل البرتغاليون الى فرض سيطرتهم على مازكان (28) التي بنوا بها حصنا عظيما خلال

26 المصادر الاصلية للتاريخ المغربي . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الاول ص 394

27 المصدر السابق . ص 394 .

28 لقد كان الاهالي يطلقون اسم البريجة الجديدة أي الحصن الجديد على المدينة التي كان البرتغال قد بنوها منذ 1506 مكان مازكان والتي عرفت عند البرتغال باسم (Castcho IRael) وفيما بعد اخذت مدينة مازكان اسم الجديدة وقد كانت بنواحي مازكان البرتغالية قرية قديمة كانت تسمى مازكان المصادر الاصلية للتاريخ المغربي . المجموعة الاولى . فرنسا - الجلد الاول حاشية صفة 159 .

نفس السنة وذلك لأهمية هذا الميناء الذي يمكن استخدامه في أي وقت من أوقات السنة خلاف ما عليه الحال بالنسبة لميناء أسفى وأزمور . وما أن تم تحقيق هذا النصر للبرتغاليين حتى بعث الملك عما نويل الأول الى البابا ليون العاشر ييشره بالخبر . وبينه أمانيه في فتح مملكة مراكش كلها (29) .

وحسب ما بين أيدينا من مصادر تاريخية معاصرة ، فان الملك البرتغالي قد حاول في بداية الامر أن يتقرب من ملك مراكش (مولاي الناصر أبو على الهنتاني) لاستمالته ، فقد أرسل الى مراكش خلال غشت لسنة 1514 م سفارة على رأسها (Fernao Dias) لتعرض على مولاي الناصر عقد معاهدة على أساس التبعية والدخول تحت حماية التاج البرتغالي (30) وعندما رفض ملك مراكش ذلك ، وصلت أوامر من لشبونة الى القوات البرتغالية المرابطة في أسفى وأزمور بأن تنهيا لاحتلال مراكش . وقد خرجت الحملتان خلال شهر أكتوبر لسنة 1514 في اتجاه مدينة مراكش . وكل منهما تمنى نفسها بشرف احتلال هذه المدينة . وعند مطلع يناير 1515 كانت مدينة مراكش محاصرة بالقوات البرتغالية (31) التي لم تجد في النهاية بدا من التراجع للمساعدات التي وصلت الى المدينة المحاصرة من الخارج وخاصة من قبل ملك فاس محمد البرتغالي .

ونشل حملة مراكش جعل البرتغاليين يدركون بأن احتلال المغرب يتوقف الى حد كبير على احتلال فاس ووضع حد للمقاومة التي يترجمها الوطاسيون ، الامر الذي دفع لشبونة الى ارسال أسطول عظيم الى المعمورة خلال شهر يونيو من سنة 1515 م (32) . مستغلة فرصة قيام ملك فاس بحملة ضد القبائل الخارجة عنه في بلاد دكالة . وانتهى امر الحملة بالاستقرار عند مصب وادي سبو ، الا أن اخ السلطان مولاي الناصر ونائبه على مكناس سرعان ما تصدى لرد المعتدين واجبرهم على الانسحاب عند أوائل غشت في نفس السنة .

(29) المصادر الاصلية للتاريخ المغربي . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الاول (فتح أزمور) ص 394 .

(30) م. ص. ت. م البرتغال - ج 1 - ص 687

(31) المصدر السابق . ص 688 .

(32) المصدر السابق . ص 695 .

وهكذا فشلت الحملتان على مراكش والمعمورة ، اللتان كان ملك البرتغال يؤمل من ورائهما احتلالا شاملا لجميع بلاد المغرب . وقد كان من نتائج هذه الخيبة ان اخذت لشبونة تنهج سياسة التقرب من بعض القبائل والعمل على خلق العملاء ، امثال اولاد عمران ومشايخ قبائل شرقية والقواد حمو امركاس ، ويحيى بلصباغ ، ويحيى اوتافوفت ، وعبد الرحمن بن حدو ، والشيخ سعيد ، وعلى مومن وغيرهم من الذين كانوا يعملون تحت الحماية البرتغالية . ويمكننا ان نتخذ من يحيى اوتافوفت مثالا نستدل به على نوع العلاقات التى كانت بين هذه القبائل والمشايخ مع البرتغال : ففى شهر يونيه لسنة 1516 ، اصدر الملك عمانويل الاول مرسوما يقضى بتعيين يحيى اوتافوفت حاكما على كل دكالة مع السماح له بتأليف حرس خاص . شريطة ان ينفذ اوامر الملك البرتغالى التى سيتوصل بها بواسطة حكام اسفى وازمور (33) . ومما يجدر ذكره هو ان جميع هؤلاء العملاء كانوا يبعثون برسائل وتقارير الى لشبونة ، تعد خير مساعد على معرفة احوال بلاد المغرب الجنوبية خلال هذه الفترة الحالكة من تاريخها .

(33) المصدر السابق . ص 6 .

الفصل الخامس

القيادة السَّعْدِيَّة بِسُوس وَالْإِصْطِدَام مَعَ الْوِطَاسِيِّينَ

انصف العهد الاول من حكم المولى أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بظاهرتين متلازمتين : الرغبة الاكيدة في القيام بأعمال الجهاد والقتال لتحرير سواحل بلاد سوس من الاحتلال المسيحي ، والطموح الى السيطرة وبسط النفوذ على مجموع هذه البلاد . وقد اعتمد في تحقيق ذلك على فرقة الفرسان التي كانت بعض القبائل المنضوية تحت لوائه ، قد وضعتها رهن اشارته ، وقوامها خمسمائة رجل ، والتي تزايد عددها مع الايام لكثرة الراغبين في الجهاد ومقاتلة العدو . كما استغل موارد البلاد الزراعية والتجارية للحصول على الاموال اللازمة لسد الحاجيات ولشراء الاسلحة ومواد الحرب لتقوية مركزه في الداخل ولمحاربة خصومه واعدائه . وحسب ما لدينا من وثائق معاصرة فان المولى أحمد قد باشر سياسة التعامل مع التجار الاجانب ، من غير البرتغاليين منذ الايام الاولى لتوليته ، اذ أبرم مع جماعة من التجار القشتاليين اتفاقا يقضى باحتكار سكر سوس ، مقابل مبلغ هام من المال يقدر بستمائة ألف كروز ادوس (Gruzados) (1) . وما من شك في ان المولى أحمد قد استغل هذه الموارد لتدبير شؤون دعوته من حيث القيام بالدعاية لها في الداخل . والاستعداد لمنازلة الاعداء البرتغاليين ، الشيء الذي يفسر لنا انقضاء زهاء السنة من تاريخ بيعته ، قبل ان يقوم بأول هجوم ضد البرتغال في حصن سانتاكروز ، في اليوم الثامن عشر من غشت لسنة 1511 م (2) ، هذا التاريخ الذي يعد في الواقع بداية انطلاق الدعوة السعدية الرامية الى تحرير الوطن من الاحتلال الاجنبى . والمولى أحمد الى جانب الغارات المسلحة ضد مراكز الاحتلال البرتغالى ، التجأ الى منع كل تعامل مع هذه المراكز ، دون أن يتوان عن مقاومة

(1) المصادر الاصلية للتاريخ المغربي . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الاول ص 255
(2) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الاول ص 334

كل من يحاول الخروج من ذلك من قبائل سوس . وان كانت علاقاته التجارية مع التجار الاجانب من غير البرتغاليين قد تزايدت ، سيما وان هؤلاء ، كانوا ينتمون على البرتغال ادعاءهم حق احتكار التجارة والتعامل مع هذه المنطقة ، وفرضهم ضريبة الخمس على البضائع التي يتاجر بها غيرهم في هذه السواحل ، ولكي يعزز المولى احمد سياسة المقاطعة احتل (تافنتا) التي كانت تشرف على طرق المواصلات مع حصن سانتاكروز خلال سبتمبر 1514 م . مما اثر كثيرا على وضعية البرتغاليين في هذا الحصن ، وجعل حاكمه Afonso Rodrigues يسرع الى تحصين القلعة واتخاذ كل الوسائل اللازمة للدفاع (3) . وقد جاء في احدى الرسائل التي وجهها هذا الاخير الى الملك عمانويل الاول بان العلاقات مع الاهالي قد أصبحت غير قارة ، اذ لم يعد بإمكانهم نقل المواد الغذائية من اللحم والقمح والفواكه وغيرها خوفا من المولى احمد (4) .

وكرد فعل ، عمد البرتغاليون في حصن سانتاكروز الى الاتصال بخصوم المولى احمد الذين كانوا يناهضون دعوته ، وأمدوهم بالمساعدات المختلفة ، ومن هؤلاء الخصوم تحفظ لنا الوثائق والمصادر أسماء قبائل كزيما التي كانت تستقر حول حصن سانتاكروز . وقبائل ازرارا التي قام قائدها مالك بن داود بدور هام في نشر فكرة الدخول تحت حماية البرتغال بين بعض القبائل بسوس . كما قام البرتغاليون بتشديد المراقبة على عمليات تهريب السلاح التي كان التجار الاوربيون يقومون بها لمصلحة المولى احمد (5) . مقابل المتاجرة معه ، الا ان جميع ذلك لم يفت في عضد الحركة السعدية الناشئة لان المولى أحمد نجح في الاستيلاء على مدينتي هامتين ببلاد سوس خلال سنة 1516 : احدهما بالشمال ، وهى تارودانت (6)

(3) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الثالث (احتلال اكادير)

(4) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الاول ص 614
لم تكن مراكز الاحتلال البرتغالي بالسواحل المغربية ، حصونا عسكرية فقط ، بل كانت أيضا مراكز تجارية تتم بواسطتها المبادلات التجارية بين الاجانب والاهالي . وقد نشأت لذلك وكالات بكل منها وكيل وكاتب . يستقران في مراكز الاحتلال هؤلاء الوكلاء كانوا مكلفين بثلاثة أشياء :

1 - تجنيد القوات لتقوية المخازن البرتغالية في المغرب .
2 - جمع الفضة والمعادن الثمينة .
3 - جمع المؤن من اللحم والحطب والطعام والقبح لتبوين المراكز .
اي ان الوكالة كانت مكلفة ب مهام تجارية وعسكرية في آن واحد . (المصادر الاصلية للتاريخ المغربي . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الثاني . ص 564)

(5) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال - المجلد الثالث (احتلال اكادير)

(6) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . فرنسا . حاشية ص 440

التي كانت بحق من أعظم المراكز الهامة بوادي سوس . والباب الموصلة الى بلاد الحوز عبر جبال الاطلس الكبير . والمدينة الثانية هي (ماسا) الساحلية التي خرج أهلها عن طاعة البرتغاليين . وشاركوا في الحملات الموفقة التي شنّها المولى أحمد ضد الأعداء وحليفهم مالك بن داود . ويبدو مما تقدم ، أن المولى أحمد كان يهدف الى عزل مراكز الاحتلال الاجنبي بسواحل سوس ، وتضييق الخناق عليها ، املا في انزال الضربة النهائية بها عند الوقت المناسب ، وتمشيا مع هذه السياسة قام باحتلال (تاركوكو) الواقعة في الشمال الشرقي لحصن سانتاكروز كما اتخذ (ازرو) وهي قسبة لا تبعد الا بثلاثة اميال عن هذا الحصن ، مقرا لقواته المحاربة . ويدهي أن المولى أحمد قد اتجه بكل امكانياته نحو حصن سانتاكروز باعتباره أهم هذه المراكز واقواها . والمصادر التاريخية المعاصرة تؤكد بأن المولى أحمد عند محاصرته الأعداء ومنعه القبائل السوسية من التعامل معهم ، لم يكن يتورع عن احراق بيوت هؤلاء المخالفين لاوامره ، وذلك كما حصل في شهر ماي لسنة 1517 م . ويكنى الرجوع الى رسالة كان قد وجهها الشيخ سعيد ، أحد مشايخ قبائل سوس ، الذين كانوا يتعاملون مع البرتغاليين الى الملك عمانويل الاول ، مؤرخة بشهر ماي من هذه السنة (اي 1517) . لتؤكد من موقف المولى أحمد اتجاه هؤلاء المتعاملين ، فقد ورد فيها بأن الشيخ وقبيلته كانوا يقومون منذ ثلاث سنوات بخدمة البرتغاليين في حصن سانتاكروز ، حيث يحملون اليهم البضائع المختلفة ، الا أن المولى أحمد انى بقوات جرارة وانتصر على قومه ، ففر بعضهم وخضع له الباقى . ثم يعرب الشيخ سعيد عن أسفه لعدم تمكنه من خدمة البرتغاليين ، اذ من المستحيل الاتصال بالحصن المذكور لان قوات المولى أحمد تحرس كل الطرق المؤدية اليه (7) .

وهكذا اشتد الحصار على البرتغاليين في حصن سانتاكروز ، أهم قاعدة احتلال في ساحل سوس ، وازداد شعورهم بالخطر الذي يهددهم من جراء الحركة الجديدة . ولقد حاول الحاكم البرتغالي لهذا الحصن Don Francisco de Castro أن يقوم في احدى المرات بفك هذا الحصار وذلك بارساله لحملة خاطفة ضد قوات المولى أحمد يوم الخامس عشر من ماي لسنة 1518 م . في ازرو ، ولكن هذه الحملة فشلت فاضطر الحاكم المذكور الى طلب النجدة من حكومته في لشبونة ، وذلك للمرة الاولى في تاريخ الاحتلال البرتغالي بسواحل بلاد سوس .

7، المصادر الاصلية للتاريخ المغربي . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الثاني ص 93

مما تميز به حكم السلطان الوطاسى محمد البرتغالى الذي تولى السلطة عند مطلع القرن السادس عشر ، أعمال الغزو والجهاد التى قام بها ضد قوات الاحتلال البرتغالى ، فقد ظهر وكان البلاد مقبلة على عهد جديد خصوصا بعد المحاولات التى قام بها هذا الملك الوطاسى لدى ملوك السودان المغربى والسلاطين العثمانيين لتوحيد القوى بين الملوك المسلمين ، حتى يتمكنوا من صد الاخطار المسيحية عن بلاد الاسلام . ورغم فشل هذه المحاولات الخارجية ، فان الملك الوطاسى لم يتوان عن القيام بعمليات الجهاد ومقاتلة الاعداء المحتلين ، رغم الامكانيات القليلة الموجودة لديه ، الامر الذي جعل لمحمد البرتغالى سمعة بين اوساط العامة ، ودفع بالتالى حكام الامارات الذين كانوا فى شبه استقلال عن فاس ، للتعاون معه وتلبية دعواته لقتال المعتدين . وقد عرفت سنة 1512 تطورا هاما فيها يرجع لعمليات الجهاد والغزو ، اذ فى شهر يونيو قاد محمد البرتغالى حملات عسكرية ضد اصيلا وكان بمعيتة حكام شفشاون والقصر الكبير وتطوان ، ورغم ان هذه الحملة قد فشلت الا ان جميع المحاصيل الزراعية لهذه المدينة قد خربت (8) . كما أعلن نسي شهر سبتمبر لنفس السنة ملك مراكش الحرب ضد قبائل عبدة ودكالة التى كانت تدين بالولاء والطاعة للبرتغاليين . وتعرضت نفس هذه القبائل لغارات قام بها الناصر اخ ملك فاس خلال سنة 1514 (9) .

على أن الحدث الذي دفع المغاربة الى التكتل لرد المعتدين هو الحملة ضد مراكش ، اذ شعر الجميع بالاطار التى ستعرض لها البلاد فيما لو نجحت هذه الحملة ، ولولا المساعدة التى بذلها الوطاسيون خاصة لسقطت هذه المدينة نسي قبضة الاحتلال البرتغالى عند أوائل سنة 1515 . ولقد كان لنجاح الوطاسيين فى صد الحملات البرتغالية عن المعصورة خلال نفس السنة أثر كبير فى داخل البلاد ، اذ ظهروا لدى العامة بمظهر المدافع عن البلاد شمالها وجنوبها ضد الخطر المسيحى ، كما شجعهم ذلك على الاستمرار فى غزو المراكز البرتغالية وانزال الضربات بجميع القبائل المتعاونة معها . ولما كانت الحملات البرتغالية قد استهدفت أكثر ما استهدفتها بلاد المغرب الجنوبية لذلك فقد قام الوطاسيون بتوجيه جل عنايتهم الى هذه النواحي من المغرب ، وليس هناك من شك فى أن السلطان الوطاسى قد وجد فى ذلك الفرصة

(8) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال - المجلد الاول ح . ص 388

(9) المصدر السابق حاشية ص 594 (ح . ص 594)

المناسبة لبسط نفوذه من جديد على هذه البلاد ، بل وعلى غيرها من المناطق التي كانت قد أصبحت في وضع شبه مستقل عن فاس ، منذ أن ضعفت السلطات القائمة بها . وعندما كانت سنة 1517 قاد محمد البرتغالي حملة عسكرية ضد قبائل عبدة اشترك فيها حاكم مراكش مولاي الناصر الهنتاتي ، وابن عمه محمد الهنتاتي سيد الجبل ، وقد انتهت هذه الحملة بدخول معظم قبائل دكالة وعبدة نسي طاعته بينما انهزم عميل البرتغاليين يحيى أوتافوفت (10) .

أما موقف المولى أحمد بسوس من حركات الجهاد التي يتزعمها الوطاسيون في جنوبى المغرب خاصة ، فالمصادر التاريخية المعاصرة لا تثبت لنا حصول تعاون حقيقى بينهما، بل نستنتج من رسالة وجهها حاكم آسفى الى لشبونة سنة 1517 التي غزا خلالها محمد البرتغالي قبائل عبدة ، بأن الملك الوطاسى لم يتم بحصار آسفى بسبب تأخر المولى أحمد في ارسال خمسمائة جمل كان محمد البرتغالي يعتد عليها لضرب الحصار حول المدينة المذكورة (11) . ومعنى ذلك أن المولى أحمد قد أدرك بأن تزعم الوطاسيين لحركات الجهاد في جنوبى المغرب من شأنه ان يعيد النفوذ الوطاسى الى هذه البلاد ، خصوصا بعد الاتفاق الذي تم بين محمد البرتغالي وملك مراكش الناصر ، بأن حكم مراكش سيؤول بعد وفاته الى الوطاسيين في فاس (12) . وهذا جميعه يتعارض والدعوة السعدية الناشئة بسوس . ولقد أخذت العلاقات تتوتر بين الوطاسيين والمولى أحمد حيث لم تكن الايام لتزيد هذا التوتر الا شدة وحدة ، سيما وأن الحاكم السعدي الذي كان قد اتم السيطرة على كل السوس استطاع أن ينقل مجال نشاطه الى ما وراء جبال الاطلس الكبير حيث بلاد الحوز والشياطيا وعبدة — هذه البلاد التي كان للمولى أحمد بها عدد غير قليل من الانتصار ، وذلك منذ عدة سنوات ، ويوم أن لننتقل الى الشياطينا والده المولى محمد ابن عبد الرحمن واستقر بها — (13) مما لم يدع مجالا

(10) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال — المجلد الثاني ص 153

(11) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الاول ص 721

(12) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الثاني ص 171

(13) انتقل المولى محمد ابن عبد الرحمن (القائم بأمر الله) من سوس الى الشياطينا (بعد الحجاج شيوخها عليه في الذهاب الى بلادهم) : الإمرانى : النزعة ص 17 . وتؤكد رسالة حاكم آسفى المورخة — أكتوبر 1513 بأن القائم هذا قد انتقل الى بلاد الشياطينا (المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الاول ص 443 . حيث استقر بانوغال (قرية تقع قريب سوق الاحد بالشياطينا على بعد 35 كم من الصويرة وبها توجد زاوية سيدى على محاسو) . وقد ظل القائم بها الى أن تولى سنة 1517 حيث دفن فيها بجوار قبر المولى الشهير محمد ابن سليمان الجزولى (الزيانى : المغرب . مخطوط . ص 344) .

وسيقوم أحمد الامرج بنقل رفاة والده ورفاة الشيخ الجزولى الى مراكش بعد أن يستقر أمره بها وذلك سنة 1525 (الإمرانى النزعة ص 19) .

للكشك لدى الوطاسيين في أن المولى أحمد إنما يهدف من وراء دعوته الى الجهاد للسيطرة والحكم . وحسب رسالة وجهها الملك جان الثالث الى حاكم آسنسى بتاريخ يونيه 1523 : نعلم بأن الخلاف قد اشتد بين الوطاسيين والمولى أحمد خلال نفس السنة ، اذ طلب الملك البرتغالي اخبارا مفصلة عن النزاع القائم بينهما (14) . ومن البديهي أن البرتغاليين الذين كانوا يترقبون الفرص السانحة للتدخل في البلاد ، سيفتتمون هذه المناسبة للتقرب من الفريقين المتنازعين ويعرضوا عليهما هدنة وسلا او تعاونا ضد الفريق الآخر ، وغير ذلك مما يضمن مصالح البرتغال في المغرب بل ويساعدهم في المستقبل على اكتساح البلاد . وتنفيذا لذلك توجه وفد برتغالي الى تافنتا خلال سبتمبر لسنة 1523 ليعرض على المولى أحمد تباعدا للاسرى ، وليدخل معه في شروط للهدنة ، وقد انتهت المفاوضات بتعقد هدنة مؤقتة لمدة ثلاثة اشهر (15) ، انقلبت الى هدنة سلم بين الطرفين فيما بعد ، كما بدأت في نفس الوقت بمفاوضات بين البرتغال والوطاسيين بواسطة القائد العطار (16) ، غير أن الظروف كانت في صالح المولى أحمد الذي سرعان ما اغتتم فرصة الهدنة مع البرتغال وانزل الضربة النهائية بالقوات الاسبانية سنة 1524 في حصن سنتركروز عند وادي نون (17) ، مما زاد في شهرته ببلاد سوس ، كما قام بحملة ضد مدينة مراکش انتهت باحتلالها أوائل يناير 1525 . ومهما اختلفت المصادر في كون المولى أحمد قد دخل مراکش سلبا أو عنوة (18) إلا أن الذي لا جدال فيه هو أن احتلال مراکش واتخاذها مقرا للدولة السعدية الناشئة ، قد أثر على مجرى الاحداث بالمغرب ، وجعل هذه البلاد تدخل مرحلة حاسمة من تاريخها الحديث .

(14) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الثاني ص 308

(15) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الثاني ح - ص 351

(16) المصدر السابق حاشية صفحة 355 .

(17) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الاول ص 151

(18) بعض المصادر ترى أن أحمد الامرج دخل مراکش عنوة وقتل أميرها محمد الهنغلي الملقب (بوشنلوا) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الثاني ص 366 - ويؤيد هذا الزيتي في مخطوطه (الترجمان) ص 345 (لقد ارتحل - أي الامرج - من رداة وقصد مراکش فنزل عليها وحاصرها ، وملكها أحمد الامرج وبلغه أهلها وقبائلها وأخرجت من حكم بني وطنس) . أما الامراتي في النزعة ص 20 فيرى بأن مراکش قد دخلت طوما في بيمة المولى أحمد (لقد اشتهر أمر الامرج ببلاد سوس وهرع اليه الناس وقصدوه من كل جهة ووجدوا عليه وطلبه أمراء خزانة وملكه مراکش حيث استنجد بعضهم بالمولى أحمد الذي جاء الى المدينة واحتلها ثم نفس على خصومه بها .

السَّعْدِيُّونَ وَتَوْحِيدُ الْمَغْرِبِ

ما بين استقرار المولى أحمد الإمرج في مراكش عند مطلع سنة 1525 ، ودخول أخيه المولى محمد الشيخ ظانرا الى فاس سنة 1549 . عرفت الحركة السعدية تطورات هامة ، ومرت بمراحل مختلفة ، كان الكفاح في جميعها هو الطابع المميز ، والصفة التي عرفت بها كفاح في الداخل ضد الوطاسيين الذين شعروا بخطر الحركة عليهم فناوؤوها وناصبوها العداء . وكفاح في الخارج : ضد مراكز الاحتلال الأجنبي ، ومن يتعاون معها من الأهالي . فعمل الحكام السعديون على استغلال كل الفرص السانحة التي تمكنهم من القضاء على خصومهم . وتساعدتهم في نفس الوقت على تقوية نفوذهم ، وتوطيد دعائم دولتهم الناشئة . وبالكفاح لتوحيد البلاد وتحرير سواحلها المحتلة ، استجاب السعديون لرغبات طبقات العامة ، فظهروا كتادة شعبية مختلفين تمام الاختلاف عن الوطاسيين وبعض رؤساء الإمارات المحتلة ، الذين قبلوا التحالف مع أعداء البلاد ، في سبيل الإبقاء على مصالحهم الخاصة ، فالتوى متباينة ، والمصالح متضاربة .

لقد استغل المولى أحمد الإمرج فرصة الهدنة التي وقعتها مع البرتغال لبسط نفوذه على معظم البلاد الجنوبية ، وخاصة بلاد درعا ثم لاحتلال مدينة مراكش التي أصبحت منذ مطلع سنة 1525 المقر الجديد للدولة السعدية الناشئة .

وبدئهم ان أعمالا كهذه كان من شأنها ان تثير الوطاسيين في فاس ، وتجعلهم يتكئون من ان المولى أحمد يستغل الدعوة الى الجهاد للسيطرة والتملك ولكن ظروف الوطاسيين لم تكن تسمح بالقيام بأي عمل ضد المولى أحمد في مراكش : فقد تولى الملك الوطاسي محمد البرتغالي في شهر ماي لسنة 1526 تاركا الحكم لأخيه (أبو حسون) على ، الذي لم يحكم الا خمسة أشهر ، اذ عزله ابن أخيه المولى أحمد وتولى زمام السلطة في سبتمبر في نفس السنة (1) .

(1) المصادر الأصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الأولى . البرتغال . المجلد الثالث ص 146

ولعل المولى أحمد السعدي قد حاول استغلال أحداث فاس الداخلية والنزاع بين الامراء الوطاسيين لصالحه ، مما جعله يتمسك بالهدنة مع البرتغال رغم التحرشات وبعض الاعتداءات التي قاموا بها سواء في سوس أو في أحواز آسنى وأزمور ضد أراضى ورعايا السعديين ، كما لا يستبعد أن تكون أحداث فاس الداخلية وظهور ضعف الوطاسيين من العوامل التي دفعت الحكومة البرتغالية من جهتها الى المحافظة على الهدنة مع المولى أحمد السعدي ، بعد أن كان الملك البرتغالى يفكر في ضرب الحركة السعدية القائمة في الجنوب بهم .

ولقد جرت خلال فترة الهدنة مراسلات بين المولى أحمد والبرتغاليين تكشف لنا النقاب عن بعض أوضاع المغرب الجنوبى ، وتظهر في نفس الوقت مدى اخلال قوات الاحتلال البرتغالية بشروط الهدنة . وما كانت تقوم به من تعسف وانتهاك للحرمات . وان قوات الاحتلال البرتغالية لم تكن جادة في المحافظة على الهدنة ، بل عملت على اغتنام الفرص السانحة للتوسع والسيطرة . فلم تكد تمضى على الهدنة غير مدة قليلة حتى قام حاكم سانتاكروز (Antonio Leitao de Gambao) بحملة ضد بعض مراكز السعديين في سوس ، مستغلا فرصة انتقال المولى أحمد وأخيه المولى محمد الى مراكش ودرعا . وقد غنمت القوات البرتغالية الكثير من الغنائم ، كما ألحقت بأنصار السعديين أضرارا جسيمة ، ولم ينس الحاكم البرتغالى أن يبعث الى الملك جان الثالث ليعتذر عن قيامه بهذه الحملة ضد السعديين . رغم أوامر الملك بعدم الخروج من سانتاكروز . معللا ذلك بأن المناسبة كانت جد موأنية (2) . ومن هذا القبيل أيضا تحرشات الجايات البرتغالية في آسنى وأزمور والحاقتها الاضرار برعايا السعديين وأراضيهم ، مما جعل المولى أحمد يكتب الى الملك البرتغالى محذرا اياه من مخبة التمادي في ذلك وتعد هذه الرسالة هى الاولى من نوعها في تاريخ العلاقات السعدية البرتغالية . كما تعتبر من أهم الوثائق المتعلقة بالدولة السعدية الناشئة (3) . وقد جعل هذا التحذير الملك البرتغالى يقوم بعزل حاكم آسنى وتعيين حاكم آخر جديد هو (Garcia de Mello) الذي دخل لقوه في اتصالات مع المولى أحمد للاتفاق على هدنة جديدة ، وقد كان القائم بدور الوسيط بين السعديين والبرتغال اليهودي ابراهيم بن زامير . وتم

(2) المصادر الاصلية للتاريخ المغربي . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الثانى - ص 332

(3) المصادر الاصلية للتاريخ المغربي . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الثانى - ص 348

التوقيع على الهدنة في سبتمبر ، أي في نفس الشهر الذي اخذت فيه اوضاع
الوطاسيين تستقر بفاس ، عقب تولية السلطان احمد الوطاسي الذي اتخذ كوزير
له المولى ابراهيم بن علي بن راشد (4) ، وهو احد الشخصيات البارزة التي لعبت
ادوارا هامة خلال هذه الفترة المضطربة من تاريخ المغرب .

ولقد عمل السلطان احمد الوطاسي من جانبه على انتهاء خصومته مع البرتغاليين
حتى يتفرغ لخطر السعديين المتزايد . فكلف المولى ابراهيم بالاتصال بالبرتغاليين
في اصيل . كما امر القائد احمد العطار — حاكم تادلا — بالتقيام بنفس المهمة
في آسفي . وحسب الرسائل التي بعثها حاكم آسفي الى لشبونة فان القائد
العطار قد عرض عليه باسم سلطان فاس السلم والتعاون ضد السعديين ، على
ان يحتفظ كل منهما بالاراضي التي سيفتحها وشرح له ان ملك فاس له رغبة اكيدة
في الاستيلاء على مراكش وانه اذا ما ساعده البرتغال على ذلك ، فسيخلى لهم
عن كل البلاد الواقعة على طول الساحل ، أي اراضي الشياظمة (5) . هذا ولم
يكن مداد الهدنة التي كان البرتغال قد وقعوها مع الشريف السعدي ، وعن طريق
حاكم آسفي نفسه ، قد جف بعد . وفي الوقت الذي كان البرتغاليون يتظاهرون
بالحفاظة على الهدنة مع السعديين كما يتأكد ذلك من مراسلة المولى احمد من
جان الثالث (6) واصبح على البرتغال ان يختاروا بين « التعاون » مع الوطاسيين
في فاس او المحافظة على (الهدنة) مع السعديين في الجنوب .

وظهرت نوايا سلطات الاحتلال البرتغالية الحقيقية ، عندما قام ملك فاس
بمهاجمة مراكش ومحاصرتها ، فنحن وان كنا نجهل ما اذا حصل اتفاق بين ملك
فاس والبرتغال حول تنظيم هجوم ضد السعديين لان الوثائق لا تفصح عن ذلك ،
الا ان حصار الوطاسيين لمراكش ونقض سلطات الاحتلال البرتغالية للهدنة مع
المولى احمد السعدي ، يجعلنا نقول بتعاون الفريقين وان كان ذلك لا يثبت ان حكومة
لشبونة قد رسمت سياسة معينة . فعندما جاءت القوات الوطاسية لحصار

(4) مولى ابراهيم بن علي بن راشد الادريسي ، مجاهد شغفان . انه اسبانية الاصل هي للا زهرة ،
واخذه هي السيدة الحرة مائشة التي حكمت تطوان بعد وفاة زوجها القائد المنظري . كان مولى
ابراهيم يتقن الاسبانية الى جانب العربية . وقد خاض عدة معارك ضد المراكز البرتغالية كاصيل
ولنجة ، كما لعب دورا هاما في الانقلاب الذي ادى الى تولية احمد الوطاسي . تولى الوزارة لهذا
الاخير وشارك في جميع حروبه كما قام بمفاوضات البرتغال لمقت السلم معهم .

المصادر الاصلية للتاريخ المغربي . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الثالث — ص 146

(5) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الثالث — ص 382

(6) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الثاني ص 367.

السعديين ، توجهت قوات برتغالية من أزموور وأسفى . وهاجمت قبائل بنى عمير الموالية للسعديين (7) ، وحسب رسالة حاكم أسفى نعلم بأن الوطاسيين قد حاصروا مراكز حصارا شديدا ، وإن الخسائر كانت فادحة في الأرواح والعتاد بين صفوف السعديين (8) . ولم يطل حصار مراكز طويلا ، وذلك بسبب ثورة قامت في مكناس ضد السلطان أحمد الوطاسى . قام بها ابن عمه مسعود بن الناصر ، حيث دعا لنفسه بكناس ، فعاد الوطاسيون أدراجهم وتمكن الملك من اخماد ثورة مكناس . بفضل وساطة المولى إبراهيم الذي جعل مسعود يستسلم، حيث نقل الى فاس وسجن بها الى ان مات (9) .

وتجلى رد الفعل السعدي ضد السلطات البرتغالية في الهجمات المتواصلة التى قام بها السعديون ضد مراكز الاحتلال البرتغالية في السواحل الجنوبية : اذ حوصرت سانتاكروز وتمكن أحد المغاربة من اغتيال حاكمها (10) . كما الحقّت القوات السعدية اضرارا جسيمة بالبرتغال والمتعاونين معهم في كل من أسفى وأزموور فقد جاء في رسالة موجهة من اهالى أزموور الى جان الثالث وصف لاعمال التخريب التى كان السعديون يقومون بها ضدهم ، حيث أن ما زرعه (قد اكله الشريف وتركنا للجوع) (11) . والاكثر من ذلك أن الحاكم السعدي قد منع التجار البرتغال واليهود من الدخول الى اراضيه تحت عقوبة الاعدام لمن يخالف ذلك ومصادرة بضائعه التجارية (12) .

(7) المصدر السابق ص 407

(8) المصدر السابق

(9) حسب منظومة الكراسى : عروسة المسائل . ص 28

وكان حاركا على ضرورة
كان قتالهم على البيبان
ثم تولوا راجعين في نفم
لها دعا لنفسه مسودا
اتاه حاركا بكل الناس
صاحه على يد الوزير
بعندنا دخل في فاس معه
(10) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الثاني - (احتلال
اكادير)
(11) المصدر السابق . ص 459 .
(12) المصدر السابق . ص 482 .

وعلى ما يبدو ، فان المولى أحمد الوطاسى الذي تأكد من جهة بمحاولات البرتغال الرامية الى مساعدة عمه أبى حسون ضده ، والذي رأى من جهة أخرى استفحال الاخطار السعدية ضد مملكته ، او ما تبقى منها ، قد غير من سياسته وذلك بأن أخذ فى التقرب من الاتراك العثمانيين فى الجزائر (21) : فمنذ سنة 1531 غادر بارباروس الجزائر مع عدد من السفن التى أرسلت بتطوان والعرائش وقد تزودت منها بالموءن والعتاد ثم القمح خاصة ، لان الجزائر عرفت آنذاك المجاعة والقحط (22) . وتعاونوا من هذا القبيل ، جعل البرتغال والاسبان يرون تواطؤ الوطاسيين مع الاتراك ، ويسرعون الى تجهيز وتموين مراكز احتلالهم وخاصة بشمالى المغرب ، خصوصا بعد أن وصل الى فاس سفير من الجزائر ، ليعلم بمقدار استعداد الوطاسيين لمحاربة المسيحيين (25) . وقد أخذت سياسة التعاون الوطاسى التركى تؤتى ثمارها ، خاصة بعد أن نجح القائد العطار فى تحرير غصاصة وطرد الاسبان منها ، ثم عندما حاصر الوطاسيون مليلية أيضا (24) . وقد أصبحت وضعية الاسبان بمليلية حرجة اذ ان السفن الاسبانية الذاهبة اليها كانت معرضة لخطر المغاربة فى غصاصة (25) . وبديهي أن هذه التطورات كانت فى صالح الاتراك العثمانيين لانهم كانوا فى حالة حرب مع الاسبان والبرتغال ، ولأنهم أخذوا يتركزون فى السواحل المغربية ويتخذون من بعضها مراكز وقواعد لمحاربة خصومهم ومتى استمر الاتراك فى سياستهم هذه فلا محالة من أن يبسطوا نفوذهم على مجموع المغرب ولن يلبثوا أن يتعاونوا مع السعديين لان عملية الجهاد ومحاربة اعداء المسلمين تعد صفة مشتركة بين الطرفين . وهذا جميعه يضر بمصالح البرتغال والاسبان فى المغرب ، بل ويهددهم بأفدح الاخطار .

(21) ادخل أحد أمراء بنى حفص فى تونس فى خدمته الاخوين من أسرة بارباروس اللذين كانا من أشهر فرسانة المتوسط : مروج وخير الدين . وقد كانا من أصل يوناني ثم أسليا واشتغلا بالقرصنة كما نطوما لاتخاذ مهاجرة الاندلس ونقلهم الى المغرب وشمالى افريقيا . وعندما اشتدت الحيلات الاسبانية على الجزائر استنجد أهاليها بعروج . سينا وان دولة بنى زيان فى تلمسان قد ضعفت منذ مطلع القرن 16 م لدرجة جعلت أمراءها يتسابقون الى التعاون مع الاسبان ضد بعضهم البعض كما فعل أبو عبد الله محمد سنة 1511 م . وقد أعلن مروج نفسه أميرا على الجزائر وصد منها حملة اسبانية سنة 1516 م وعندما قتل مروج فى إحدى حروبه ضد الاسبان سنة 1518 م تولى أخوه خير الدين مكانه وأصبح صاحب السلطة فى مجموع البلاد الجزائرية تقريبا . وخير الدين هو الذى أعلن طاعة العثمانيين قد خلت الجزائر عن الامبراطورية العثمانية التى كانت تضم آنذاك آسيا الصغرى وشرقى أوروبا والشرق العربى .

(22) المصادر الأصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الأولى . اسبانيا . المجلد الاول : ص 1 ، 3

(23) المصدر السابق ص 41

(24) المصدر السابق ص 72

(25) نفس المصدر ص 61

ومما زاد في قلق البرتغال والاسبان ، العلاقات التي أصبحت لفرنسا وفرنسوا الاول الخصم اللدود للامبراطور الاسباني شارلكان ، مع الوطاسيين . نتيجة الروابط والتعاون الذي تم بين فرنسا والأتراك العثمانيين . وما من شك في أن تقرب أحمد الوطاسي من فرنسا كان التصد منه تقوية مركزه في الداخل خاصة ، عن طريق الاسلحة التي كان سيتوصل بها من فرنسا ، في حين أن فرنسوا الاول كان يرى في المغرب بلدا ذا موقع ستراتيحي هام يمكن اتخاذه لمحاربة الخصم الاسبانيين ، علاوة على تشجيع رواج التجارة الفرنسية في المغرب . وقد استقبل السلطان أحمد الوطاسي في فاس سفارة فرنسية برئاسة الكولونيل (Colonel de Piton) وبعث معه الى فرنسوا الاول رسالة تعد الاولى من نوعها في تاريخ العلاقات المغربية - الفرنسية خلال مطلع العصور الحديثة . وتتضمن الرسالة المغربية السماح للتجار الفرنسيين بالقيام بأعمال التجارة مع مملكة فاس . وذلك جوابا على طلب الملك الفرنسي بهذا الشأن (26) .

ولم تكن هذه التطورات لتخفى على المولى أحمد الاعرج الذي قام بمحاصرة المركز البرتغالية في الجنوب ، وتضييق الخناق عليها خلال سنة 1534 : إذ حوصرت آسفى حصارا شديدا في شهري ماي ويونيه وكادت المدينة أن تقع بيد السعديين ، لولا المساعدة الخارجية التي بعثها البرتغاليون الى المدينة المحاصرة . حيث ظهر وكأن تعاوننا قد حصل بين المسلمين : الأتراك والوطاسيون والسعديون ضد المسيحيين ، وضد مراكز الاحتلال الاجنبي في المغرب خاصة . وما أن بلغ مسبح الملك جان الثالث بأن بارباروسيا قد غادر القسطنطينية في أسطول ضخم ، وأنه في اتجاه نحو شمالي افريقيا وبلاد المغرب ، حتى اخذ يفكر جديا في الجلاء عن بعض المراكز ، والجنوبية منها بصورة اخص ، تمهيدا لتركيز القوات البرتغالية في المناطق الشمالية من المغرب ، كسبتة وطنجة باعتبارها حيوية للدفاع عن مصالح المسيحيين في غربى البحر المتوسط وبوغاز جبل طارق . ثم لصد الاخطار العثمانية عن شبه جزيرة ايبيريا (27) . وفي سبتمبر من سنة 1534 بعث الملك جان الثالث منشورا الى مختلف النبلاء والاساقفة يستشيرهم في موضوع الجلاء عن بعض مراكز الاحتلال البرتغالي في جنوبى المغرب كآسفى وأزمور . وكذا حول حروب البرتغال

(26) م. ص. ت. م. المجموعة 1 - فرنسا - ج 1 ص 8
(27) م. ص. ت. م. المجموعة 1 البرتغال ج 2 ص 640

في افريقيا بصورة عامة . وحسب المنشور الذي وجهه الملك البرتغالي الى هؤلاء بتاريخ 13 سبتمبر 1534 م ، نجد بأن الملك يطلب منهم الاجابة عن الاسئلة الآتية : هل ينبغي ترك أسفى وأزمور الى المغاربة أم لا ؟ وهل ينبغي الجلاء عنها أو عن بعضهما ؟ وإذا احتفظنا بهذه المراكز فهل ينبغي تحويلهما الى حصون للتقليل من المصروفات ؟ ثم ما الاضرار الناتجة عن ذلك ؟ وكيف نتفادها ؟ (28) .

على ان الرسالة التي وجهها الملك البرتغالي جان الثالث الى السيد الاعظم (Grand Maître) تشرح وجهة نظر الحكومة البرتغالية ازاء الاوضاع الداخلية بالمغرب فقد جاء فيها بأن الاحتلال البرتغالي في المغرب أخذ يضعف منذ سنة 1534 لصعوبة تموين المراكز وامدادها بالرجال والعتاد . لان جل العناية كانت موجهة نحو الهند والبرازيل . ولقد أخذت القبائل المغربية التي كانت قد رضيت من قبل بالسيطرة البرتغالية في استرداد استقلالها تدريجيا بالاضافة الى كون البرتغاليين وجدوا أنفسهم أمام عدو جديد : فالملك الوطاسي الذي كان يحكم في فاس لم يفتأ يواصل اطلاق سبته والقصر الصغير وطنجة وأصيلا ، ولكن خطر الجنوب كان أشد واعظم حيث الشريفان مولاي أحمد واخوه مولاي محمد : فالاول كان حاكما على مراكش بينما الثاني اتخذ كعاصمة له مدينة تارودانت . وقد أصبحت لهما سيطرة واسعة وسلطة قوية كما أصبح لهما نفوذ كبير بسبب الحروب المقدسة التي يقومون بها ولأنهما كانا يعلنان بأن هدفهما هو طرد البرتغال من اراضي الاسلام . ولا انتفاء ما عساه أن يحدث اقترح — الملك جان الثالث يقترح — مشروع اخلاء بعض الممتلكات البرتغالية في الساحل المغربي وذلك بجمع المقاومة في النقط التي يمكن الدفاع عنها بسهولة ويسر . ويضيف الملك البرتغالي بأنه استشار مع النبلاء حول اخلاء أسفى وأزمور : فأسفى ليس لها ميناء ، بينما أزمور لها مدخل جد صعب بسبب عارض وادي أم الربيع ولأن هذا المكان الأخير هو من جهة أخرى يوجد على مقربة من مازكان التي تقرر الاحتفاظ بها (29) . والغريب في الامر أن الملك جان الثالث لم يتوان عن التفكير في موضوع غزو الاراضي المغربية . فقد كتب الى النبلاء وكبار رجال الدين يستشيرهم حول هذا الموضوع طالبا منهم الرأي في المراكز التي يجب اتخاذها كقطب استناد لعمليات الغزو المقبلة (30) . وليس

(28) م. ص. ت. م. المجموعة 1 البرتغال ج 1 ص 645
(29) المصادر الأصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . فرنسا — المجلة الاول — ص 43
(30) نفس المصدر ص 52

بخاف ان الملك البرتغالى عندما اظهر حرصه على غزو المغرب ، كان يهدف من وراء ذلك تغطية عجز الحكومة البرتغالية وضعفها أمام المقاومة السعدية المتزايدة التى اجبرت البرتغال على التفكير فى الجلاء قبل ان يلحق بهم فى عرض البحر كما حل بالاسبان فى سانتاكروز بالامس القريب .

وقد تلقى الملك البرتغالى اجوبة عديدة من مختلف الشخصيات البارزة ، وهى فى مجموعها تلقى ضوءا على ما كانت تكنه الطبقة الحاكمة فى البرتغال من حرص على المستعمرات والمراكز المغربية بشكل خاص ، وتعرب ايضا عن رغبة رجال الدين فى اتقاء خطر الاتراك العثمانيين الذين اخذ نفوذهم يتزايد بالشمال الاfricanى : فالامير Don Formond اخ الملك احتج على مشروع اخلاء اسفى وازمور ونصح بتحويلهما الى قلعتين . وعند الضرورة القصوى يجب اخلاء ازمور . وجبذ فكرة غزو المغرب على ان بتديء ذلك بالسيطرة على فاس التى سيكون لاحتلالها اثر عظيم (31) . اما الماركيز De Villa Real فقد نصح فى جوابه للملك بعدم الجلاء عن اسفى وازمور واذا تعذر الاحتفاظ بهما فلنخرب المركزين ولا نبقي الا على الحصون ثم يوجه انتباه الملك الى ضرورة التشاور مع البابا ومجلس الكرتيز حتى لا يتحمل الملك وحده مسؤولية ذلك . ويرى الماركيز اخيرا البدء بفاس عند محاولة غزو المغرب (32) . وفى جواب (Francisco Lobo) نلاحظ مدى التخوف من السعديين : فالجلاء عن هذه المراكز سيجعل الشريف يوجه الحرب نحو الشمال ، فيهدد بذلك أصيلا وطنجة وفاس بدون أن يضع ملك فاس اية عقبة فى طريقه . ثم ينصح الملك بتحسين جميع المراكز البرتغالية فى المغرب (33) . ولا يخفى (Nuno Rodregues Barreto) استيائه من فكرة الجلاء عن بعض المراكز المغربية لان ذلك غير جدير بالبرتغاليين . حيث سينظر اليهم أجداهم بعين غير الرضى ، اذ ينبغى التضحية بالاموال والارواح دون التفكير فى الجلاء عن هذه الاماكن . ويرى اخيرا اتخاذ اسفى وازمور كتقاعدتين للمعاملات الحربية ضد المغرب فى قابل الايام (34) .

-
- (31) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . فرنسا - المجلد الاول ص 52
(32) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الثانى ص 671
(33) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الثانى - ص 676
(34) نفس المصدر ص 680

على أن أجوبة بعض رجال الدين وإن تضمنت النصح بالتخلي عن بعض المراكز الجنوبية مما ذلك إلا لتحث الملك على أخذ كل وسائل الدفاع بالنسبة للمراكز الشمالية لصد خطر الأتراك العثمانيين وبارباروس بوجه خاص . فهذا أسقف (Lamego) ينصح باخلاء سانتاكروز وأسفى وأزمور لأن أهميتها لا تبرر النفقات الباهظة التى تصرف عليها . وإن احتلال الشريف لها لن يكون له كبير الخطر على البرتغال . ويرى هذا توجيه العمليات الحربية الأولى ضد فاس كما ينصح بتحسين سبته للدفاع ضد خطر بارباروس (35) . وهذا السيد الأعظم (Grand Maître) لسانتيكو (Santiago) ينصح هو بدوره حكومته لتخلي من تلك المراكز، على أن تأخذ كل الاستعدادات للدفاع ضد الأتراك (36) . ولقد تميز جواب أسقف (Algarve) ببعض التفاصيل : فبديهي أن الملك البرتغالى يهيم بالدرجة الأولى أن يتوصل الى القضاء على الشريف قبل أي شيء آخر . لذلك فعليه أن يسيطر على سلا وأن يتخذها قاعدة للهجوم على فاس ومكناس . كما كان الملك عمانويل الأول قد قرر القيام به يوم أن فكر فى غزو المغرب عند مطلع القرن السادس عشر للميلاد . ويوجه انتباه الملك الى ضرورة الاستعانة بأموال الاكليروس للقيام بمشروعه هذا . ثم يختم جوابه بأن يطلب من الملك العمل على كسب جانب القبائل المغربية وخاصة القريبة منها من المراكز البرتغالية وذلك بجعلها تستقر حول هذه المراكز وتقوم بالزراعة . ومتى ما نجحت هذه الوسيلة فإن كثيرا من القبائل ستتخلي عن الشريف من تلقاء نفسها . وفى ختام الرسالة يكرر الأسقف طلب غزو المغرب واعلاء كلمة الصليب (37) .

وهكذا فى الوقت الذى كان المولى أحمد يشدد الخناق على المراكز البرتغالية والجنوبية منها خاصة كان الملك البرتغالى جان الثالث يجري استشارات سرية حول الوضع القائم فى المغرب ، سيما وأن الظروف العامة بالنسبة للبرتغال لم تكن تسمح بالقيام بأي عمل من شأنه أن يخلق الجو الملائم للتسرب العثمانى داخل الاراضى المغربية كما حصل من قبل فى بلاد الجزائر . ورغم تراجع البرتغال عن القيام بأعمال عسكرية فى المغرب وتفكيرهم فى الجلاء عن بعض المراكز الجنوبية فإن

(35) نفس المصدر ص 656

(36) نفس المصدر ص 622

(37) م. ص. ت. م المجلد 1 البرتغال - ج 2 ص 962

وجود الأتراك في الجزائر قد أحدث تطورات هامة على سير الأحداث في المغرب ، فالملك الوطاسي أحمد بعدما كان يرى التعاون مع البرتغال لحفظ عرشه من الخطر السعدي ، قد أخذ اليوم يعمل على توطيد علاقاته مع ملك فرنسا ومع الأتراك العثمانيين . ولعل ذلك كان نتيجة شعوره بضعف البرتغال وعجزهم عن رد الخطر الجنوبي . على أن استئصال أمر الدعوة السعدية وتزايد انصارها في المغرب ، أرغم الوطاسيين على التقرب من البرتغال كذلك أو أن الخطر المشترك قد قارب وجهات نظر كل منهما : فالحروب بين فاس ومراكش قد استؤنفت من جديد وحصلت معركة ببوعقبة قرب وادي العبيد يوم 24 يولييه 1536 م انتهت بانتهازم الملك الوطاسي بسبب تخلى قبائل الخلوط التي كانت تكون القوات الامامية للجيش الفاسي ونشرها الفوضى في سائر الجيش (38) وبعد المعركة (تدخل كبار القوم وعقد صلح بين الطرفين كتبه العالم أبو محمد عبد الواحد الونشريسي حيث أصبح الشمال للوطاسيين والجنوب للسعديين واتخذ وادي أم الربيع كخط فاصل بينهما كما احتفظ الوطاسيون بسجلامة وبتافيلالت بينما أعطيت درعة للسعديين بالاضافة ، الى تادلا وتامسنا) (39) . واثّر هذا الانهزام تقرب أحمد الوطاسي ثانية من البرتغال ولعل ذلك نتيجة شعوره بانشغال الأتراك في حروبهم ضد الاسبان . وكلف وزيره مولاي ابراهيم بالسعى لدى هؤلاء لعقد معاهدة سلم على أساس العمل المشترك ضد السعديين . وقد استجاب البرتغاليون الذين افزعته انتصارات المولى أحمد لهذا الطلب وجرت اتصالات متعددة بين الطرفين لتهيء المعاهدة المنتظرة .

(38) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الثالث - ص 49
جاء في منظومة الكراسي :
ذكر حركة وادي العبيد . ص 32 .

وكان قطع الوادي رأى حليته
والصالحين من شريف الامراء
يجل مقدها بجمع مفرقا
وبعد ذاك يعقب بالخلجان
وكان بالنصر عليه مائلا
عاز متهترا لراى ملاحها
ولم يجد في الناس من مدافع
والوادي وحده له قنوط
فلم يكن في الناس من يصابر
وخسة على البليك السوارذ
وان بعد الغرب في الضسارة
ولامور المسلمين ينجح

وقصد الجيش الى البحلة
وذلك بعد مجيء الفقراء
والسيد الشريف في كل لقا
يرجع للصلح وللموافى
ينقطع الوادي اليه صائلا
فلما وقعت المصين بها
من جملة الانتفاض والبدائع
فخائنه الامراب والظبوط
ومرت الاجناد والبرابر
غير ثلاثين على ابن راشد
.. وخاف من عداوة النصارة
فعمل الصلح بما قد يصلح

(39) المؤرخ المجهول : الدولة السعدية . ص 7 .

وبالتقابل فان الحاكم السعدي الذي تمت سيطرته على معظم المغرب الجنوبي قد اخذ يتقرب من امير دبدو بالمغرب الشرقي الذي ثار ضد فاس وارسل اخاه الى مراكش لتنسيق العمل ضد الوطاسيين (40) . ولن نجد صعوبة كبيرة في فهم الاسباب التي دفعت البرتغال الى الدخول في مفاوضات مع الوطاسيين . والتي ستنتهي بعقد معاهدة بين الطرفين ، اذا ما اطلعنا على التعليمات التي ارسلها جان الثالث الى سفيره في مدريد الكونت (Comte de Castanheira) ليطلع عليها الامبراطور الاسباني ، فهي تعبر بحق عن نوايا الملك البرتغالي اتجاه المغرب ، وتثبت مدى تخوف البرتغال من السعديين . وبعد ان تطرق الملك البرتغالي الى المصروفات الباهظة التي تتحملها الخزينة للدفاع عن الهند ضد الاتراك ، يشير الى اعمال البرتغال في المغرب ضد ملك فاس وملك مراكش ، والى الجهود المتواصلة للحيلولة دون احتلال فاس من قبل السعديين ، لان ذلك سيكون خطرا على الامتين المسيحيتين . كما تبرر التعليمات الاسباب التي دفعت الملك جان الثالث الى عدم ارسال النجيدات الى ملك فاس (مما يدل على ان الوطاسيين قد استنجدوا بالبرتغال قبل خوضهم معركة بوعقبة السابقة) لانشغاله باحداث الهند التي ارسل اليها الكثير من العتاد والرجال والاموال ، ولا يخفى ملك البرتغال شعوره عندما يقارن بين احداث الهند والمغرب ، فهو يرى ان اعماله بالمغرب هي اكثر اهمية وان على الامبراطور ان يتتبع احداث المغرب عن كثب ، لانه اذا استتبعت المقاومة ضد الاتراك ، فان كل ما تبقى يجب ان يوجه الى المغرب ، ولرد خطر السعديين . واخيرا يشير الملك البرتغالي الى ان المولى احمد السعدي حاكم ذكي وغنى ، وله اتصالات مع الاتراك . وان الخطر كل الخطر اذا ما احتل فاس او المراكز البرتغالية في المغرب ، اذ لو سقطت جميعها بيده ، فان ذلك سيعرض لا محالة قشتالة لخطر عظيم (41) .

على ان سياسة التقرب التي اخذت لشبونة تنهجها في المغرب لا بالنسبة للوطاسيين المستنجدين بهم ، ولكن بالنسبة للسعديين ايضا ترجع في واقعها الى الظروف العامة التي كانت عليها اسبانيا والبرتغال اثر المعاهدة التي وقعتها فرنسوا

(40) دبدو : تقع قريبة من الضفة اليمنى لوادي ملوية وتمتد مركزا هاما في المغرب الشرقي لا يقل اهمية عن تازة ووعدة . وقد اخذت هذه الامارة تستقل تدريجيا عن فاس منذ اشغال الوطاسيين بحاربة المراكز الاجنبية وبمقاومة الخطر السعدي

(41) م. ص. ت. م - المجموعة الاولى - البرتغال - ج 3 - ص 166

الاول مع العثمانيين في سنة 1536 حيث بدأ وكان امبراطورية شارلكان قد طوقت من قبل خصومها الفرنسيين والأتراك ، مما أدى الى استئناف الحروب بين هؤلاء من جديد . واول محاولة بدرت من البرتغال في هذا الشأن ، عندما أرسلوا وفدا الى مراكش للتفاوض مع المولى احمد في شأن هدنة بين السعديين والبرتغال ، وقد استجاب المولى احمد لذلك ، لانه كان في حاجة الى تنظيم أمور دولته الناشئة ، سيما بعد الانتصارات الاخيرة التي احرزها ضد خصومه الوطاسيين . وقد وقعت هدنة بين الطرفين يوم 25 ابريل 1537 لمدة ثلاث سنوات . مع اجراء تبادل تجاري بين رعايا البلدين (42) . كما جرت مفاوضات مع الوطاسيين انتهت بعقد معاهدة لمدة أحد عشر عاما . وقد وقعها مولاي ابراهيم وضابط أصيلا (Don Joao Continho) يوم 24 يونيو 1538 (43) .

ولنتأكد من أن سياسة التقرب البرتغالية من الوطاسيين والسعديين ، لم يكن القصد منها سوى الحيلولة دون قيام تعاون حقيقي بين الأتراك والمغاربة ، ما جاء في بعض الرسائل والتقارير التي كان التجار والرحالة ورجال الدين المسيحيين يبعثونها عن أحوال المغرب . مع الإشارة الى كل ما من شأنه أن يساعد البرتغال أو الاسبان أيضا على فرض نفوذهم ويعمل على تحقيق الامنية المنشودة وهي احتلال مجموع المغرب (44) .

اما بالنسبة للوطاسيين والسعديين ، فقد حاول كل منهم الاستفادة من ظروف الهدنة التي لهم مع البرتغال ، لتقوية المركز الداخلي أولا ، وللتبعية لمنازلة الخصم ثانيا : فمن جهة نجد السلطان الوطاسي جادا في تحسين علاقاته مع الإمارات المجاورة لخلق قوى ضد السعديين فقد تزوج مع السيدة الحرة (عائشة) حاكمة تطوان (47) ، كما زوج ابنته مع أمير دبدو (48) ، ومن جهة أخرى ،

(42) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الثالث ص 44

(43) نفس المصدر ص 44 .

(44) م. ص. ت. م المجموعة 1 - البرتغال - ج 3 ص 166

(47) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الرابع - حاشية ص 51

(48) نفس المصدر . ص 75 .

فالسعديون الذين كانت دعوتهم في تزايد ، قد حققوا نصرا عظيما على يد المولى محمد اخ المولى أحمد ونائبه على سوس ، وذلك عندما فتحوا حصن سانتاكروز العتيق يوم الثاني عشر من مارس لسنة 1541 . ويكنى للدلالة على الاثر الكبير الذي تركه سقوط هذا الحصن ان نذكر بأن الملك البرتغالي جان الثالث ما ان علم الخبر ، حتى امر حاميات أسفى وأزمور بالجلء فورا عن هاتين القاعدتين ، مع الاحتفاظ بقاعدة مازكان وتحصينها . وقد وجه الملك جان الثالث في هذا الشأن الى سفيره بمدريد . (Francisco Lobo) رسالة مؤرخة بالثاني والعشرين من ديسمبر لسنة 1541 ، ليطلع عليها الامبراطور الاسباني شارلكان ، حيث جاء فيها ذكر للاسباب التي أجبرت البرتغال على اتخاذ قرار الجلء عن قاعدتي أسفى وأزمور : فبالاضافة الى وضعيتهما الحرجة ، هناك تزايد قوات السعديين ، بفضل المساعدات التركية ، حيث أصبح الحاكم السعدي يتوفر على المدفعية ، والآلات وعلى جنود مدربين ، وقد رأينا كل ذلك عند حصار سانتاكروز ، مما جعل الاحتفاظ بهذين المركزين أمرا شاقا وصعبا ، فقررنا اخلاءهما . ثم ان الجلء عن أسفى وأزمور ليس معناه التخلي بالمرة عن المغرب ، فقد أعطيت الاوامر لتحصين مازكان ، لسهولة استغلال مينائها طوال ايام السنة (49) .

وهكذا أعقب سقوط سانتاكروز اخلاء أسفى وأزمور في ديسمبر من نفس سنة 1541 في حين ان أعمال التحصين قد شرعت في مازكان مباشرة ، وذلك لاتخاذ هذه القاعدة مركزا لمقاومة التوسع السعدي . وتؤكد الوثائق بأن أعمال التحصين في مازكان قد استمرت دون انقطاع منذ الصباح الباكر حتى المساء ، وحتى أيام الاحاد والاعياد (50) .

وجميع هذه التطورات اظهرت السعديين في المغرب كتادة محررين للسواحل المغربية من الاحتلال الاجنبى ، والابطال الذين ستم على يدهم وحدة البلاد . نازدادت شعبيتهم وأصبح الجميع يتطلع اليهم لانقاذ البلاد من الاوضاع الفاسدة التي اصبت عليها في الداخل والخارج . ويدلنا على ذلك الاحداث التي حصلت

(49) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال - المجلد الثالث - ص 560

(50) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال - المجلد الرابع - ص 9

في شمالي المغرب خاصة حيث يسود نفوذ الوطاسيين ، ولما يمض غير قليل على تحرير القواعد الجنوبية : (فسياسة الزواج) التي حاول أحمد الوطاسي استغلالها لتقوية حكمه قد فشلت ، لان المولى عمر قد ثار في دبدو ضد اخيه صهر السلطان الوطاسي ، واستولى على الحكم ، ثم اخذ في التقرب من المولى أحمد السعدي في مراكش (51) . ولان المولى محمد بن علي — أخ الوزير المولى ابراهيم (المتوفى في صيف 1539) قد ثار في شفشاون ضد السلطان الوطاسي مطالبا بفسخ المعاهدة التي للوطاسيين مع البرتغاليين (52) . وحتى بطوان خرجت عن فاس اذ حدثت بها ثورة اطاحت بحكم السيدة الحرة زوجة المولى أحمد الوطاسي ، بينما تولى الامر القائد حسن (المسن) أحد أفراد أسرة المنصري (53) . بل والاكث من ذلك أن الحكم الوطاسي قد أصبح يعاني صعوبات بفاس نفسها مما شجع السعديين على مواصلة هجوماتهم لتوحيد مجموع البلاد وللوقوف بالمغاربة صفا واحدا ضد الاعداء المحتلين .

-
- (51) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الثالث — ص 137
(52) المصادر اصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الثالث — حاشية ص 375
(53) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الرابع — ص 105

القضاء على الحكم الوطاسي في فاس

كان من المتوقع ان يكون سقوط حصن سانتاكروز والجللاء عن آسفى وأزمور ، بداية تطور هام للحركة السعدية ، التى أصبح جميع المغاربة يرون فى زعمائها القادة الذين تتمثل فيهم امانى الشعب : فى توحيد البلاد بالقضاء على ما تبقى لبنى وطاس فى فاس . ومن هم على شاكلتهم من حكام الامارات الشمالية ، وتحرير بقية المناطق التى تحتلها القوات البرتغالية والاسبانية ، لولا ان خلافا نشأ بين الاخوين : المولى أحمد فى مراكش ، والمولى محمد فى تارودانت لم تكن الايام لتزيده الا شدة وحدة ، مما اثر على تطور الحركة السعدية وبالتالي على مجموع الاحداث الجارية بالمغرب ، حيث استفاد من ذلك والى حد ما بنو وطاس فى فاس الذين حاولوا ان ينقذوا صروح مملكتهم المتداعية باستغلال فرصة النزاع بين الحاكمين السعديين والحروب القائمة بينهما .

وعند البحث عن اسباب الخلاف بين الاخوين نجد بأن المولى محمد الذى نجح فى تحرير بعض المراكز الاجنبية بالسواحل الاجنبية . قد بدأ اكثر شعبية من اخيه المولى أحمد ، وأجدر منه بحمل لقب « المحرر » سيما وان المولى أحمد بانتقاله الى مراكش واستقراره بها . قد ابتعد فى الواقع عن مناطق الخطر الاجنبى . وأصبح من جهة ثانية أكثر اعتدالا سواء فى معاملاته مع البرتغال المحتلين او مع الوطاسيين . واعتادا على الرسالة التى بعثها (Henrique de Noronha) الى الملك جان الثالث بتاريخ 4 يونيه 1541 فان الخلاف بين الاخوين قد تفاقم بسبب غنائم سنطاكروز اذ ادعى حاكم مراكش بأن له نصف الغنائم ، فى حين أن المولى محمد رفض الاعتراف له بذلك ، وتضيف الرسالة بأن حاكم تارودانت قد منع كل تصدير للبضائع الى مراكش ، وكذا ارسال الاسرى ، وانه صادر كل ممتلكات التجار المراكشيين بتارودانت ، كما اقام حرسا قوامه ستون رجلا عند الممر الجبلى الوحيد الذى يصل بين مراكش وتارودانت . على ان المولى أحمد قد طلب من اخيه ان يقدم الى مقابلته للتفاوض معه فى ايمتانيوت ، الا ان المولى محمد رفض ذلك بدعوى

انه يخشى مجيء حملة برتغالية في غيابه ضد سوس (1) . والى جانب الخلاف حول الغنائم هناك سبب آخر يظهر وكأنه أكثر أهمية ، وهو مسألة ولاية العهد : اذ يبدو ان المولى احمد قدحاول تولية ابنه بدل اخيه المولى محمد ، مخالفا بذلك الطريقة التى سنّها المولى محمد القائم بان لا يتولى الحكم الا كبير العائلة (إما مولانا محمد الاكبر فقد عهد لاولاده مولانا احمد ومولانا محمد الشيخ واخواتهما الا يتولى الخلافة منهم ولا من اولادهم الا الاكبر فالاكبر ، فالتزموا ذلك الى أن كبر اولادهم فطلب (المولى محمد) من (المولى احمد) الوفاء بذلك فامتنع . فقاتله على ذلك (2) ولا شك أن استيلاء المولى محمد على مجموع غنائم سانتاكروز من شأنه ان يعزز مكانته المادية والمعنوية ، ويساعده في نفس الوقت على استغلال الموائء للاتصال مع التجار الاجانب الذين كانوا يرغبون في المتاجرة مع أهالى سوس ولشراء السكر والمعادن بشكل خاص ، مما يعود على المولى محمد بفوائد مختلفة .

وان الاطلاع على تقرير بعثة من تارودانت (Sebastiao Alvares) الى جان الثالث بتاريخ الخامس من يناير 1542 ليدلنا على مدى استغلال المولى محمد للموائء المغربية الجنوبية المحررة للاتصال مع الاجانب ، ويطلعنا في نفس الوقت على اوضاع هذه المدينة خلال ازمة النزاع بين الاخوين : فقد وصلت الى تارودانت حمولة تسعة مراكب ، معظمها ثياب مختلفة ، وذلك مقابل السكر والنيلة والشمع والعنبر والجلود : وان المدينة لملوءة بالبضائع الاجنبية رغم ان حركة البيع والشراء كانت غير مزدهرة بسبب المجاعة وظروف الحرب (3) . وبشئت استغلال حاكم تارودانت للمسواحل الجنوبية في توسيع عمليات التبادل مع الاجانب ما جاء في أحد التقارير من أن الفرنسيين الذين هم في اشد الحاجة الى معدن النحاس لصب المدافع قد وجدوا في معادن المغرب النحاسية رغبتهم ، حيث أخذوا لى استثمارها مقابل تقديم الاسلحة والعتاد الحربى (4) . وبديهي أن النصر سيكون حليف المولى محمد الذي الى جانب سمعته في البلاد ، يتمتع بإمكانيات لم تكن لاخيه في مراكش : فقد جرت معركة بين قواتهما على وادي نفيس في موضع تنيل (Tinnel) بين مولاي ادريس وعلى بن بوزيد قواد حاكم مراكش ، وبين العلج قائد حاكم

(1) م. ص. ت. م - المجموعة الاولى - البرتغال ج 3 - ص 416

(2) الامرائى : نزعة الحادى ص 65 .

(3) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب - المجموعة الاولى - البرتغال - المجلد الرابع - ص 6

(4) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب - المجموعة الاولى - البرتغال - المجلد الرابعة - ص 133

تاروانت ، انتهت بانتصار قوات هذا الاخير (5) . على أن محاولة قد جرت من قبل الاولياء ورجال الدين لازالة الخلاف بين الاخوين ، حيث انتهت بأن اقتسما بالنساوي الاراضى التى احرزوها فى حروبهم ضد الوطاسيين (6) . ولعل الحاكمين السعديين قد أدركا بأن تحاربهما من شأنه أن يضعف قواتهم ، ويمكن خصومهم البرتغال والوطاسيين من اغتنام الفرصة للقيام ضد السعديين المتنازعين . والواقع هو أن البرتغال او الوطاسيين لم يكن بإمكانهم أن يستغلوا هذه الفرصة ، لان الحروب بين الاتراك العثمانيين وفرنسا من جهة ، والاسبان والبرتغال من جهة أخرى ، كانت لا تزال قائمة فى البر والبحر ، حيث لم تنته الا بعد أن كان المولى محمد قد احرز النصر النهائى ضد اخيه فى معركة وادي الكاهرا على وادي العبيد خلال شهر يونيه لسنة 1544 ، بينما التجأ المولى أحمد الى زاوية سيدي عبد الله بن ساسى هو وجميع عائلته (7) ، ومنها فر نحو الجنوب المغربى الى (بلاد سجماسة التى امتن بها عليهم كان عند استقلاله بالدعوة الكريمة ومغالبتهم على كرسى الخلافة بمراكش) (8) .

وقد صفا الجو بعد ذلك للمولى محمد الذى انتقل الى مراكش وجعلها مقرا لدولته التى تدين لها بالطاعة كل البلاد الجنوبية من المغرب . ولقد كان لانتصار المولى محمد الشيخ فى معركة الكاهرا اثر كبير فى تطور الاحداث التاريخية ، سواء بالنسبة لما حدث بداخل المغرب او خارجه . اذ على اثر هذا الانتصار استقر الحاكم السعدي فى مراكش وجعلها مقرا لدولته الناشئة التى اصبحت سلطتها تعم كل البلاد الجنوبية ، فى حين أن البلاد الشمالية كانت تعرف الفتن والانقسامات مع نفوذ ضعيف للوطاسيين الذين انحصرت رقعة دولتهم فى فاس وما حولها .

وقد اقلق هذا التطور لشبونة ومريد وأدخل الرعب على قوات الاحتلال الاجنبى التى كانت منبثة على طول الساحل المتوسطى والقسم الشمالى من الساحل الاطلسى ، خصوصا وأن المولى محمد الشيخ ما فتىء ينادي بالجهاد لتحرير الوطن

(5) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب — المجموعة الاولى — البرتغال — المجلد الثالث — ص 452
(6) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب — المجموعة الاولى — البرتغال — المجلد الثالث — ص 121
(6) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب — المجموعة الاولى — البرتغال — المجلد الرابع — ص 121
(7) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب — المجموعة الاولى — البرتغال — المجلد الرابع — ص 144
(8) بنامل الصفا . للشفا . ص 74 .

وانقاذ البلاد من الفوضى الداخلية والعودة بالناس الى مبادئ الدين الصحيح .
وقد اتخذ لذلك لقب المهدي (9) لها لهذا اللقب من تأثير ديني لدى عامة المسلمين
هذا في الوقت الذي كانت حركة التوسع العثماني الرامية الى جمع شتات المسلمين
في مشارق الارض ومغاربها آخذة في الانتشار بمجوع الشمال الافريقي ، مما يشكل
في مجموعه خطرا كبيرا على المسيحية بأوربا الغربية وعلى اسبانيا والبرتغال بوجه
خاص . الامتين المسيحيين اللتين نذرنا نفسيهما لغزو المسلمين واعلاء كلمة
الصليب .

ولن نجد بين الوثائق التاريخية لتصور الاوضاع السياسية التي أصبح عليها
المغرب اثر استقرار محمد الشيخ بمراكش اهم من رسالة حاكم اصيل
(Bastiao de Vargas) الى جان الثالث : فالمولى محمد بعد انتصاره على
اخيه عازم على التوجه الى فاس ، وقد أصبح لا يهاب الهزيمة بفضل تفوق قواته
العسكرية وفرق مدفعيته . اما سلطان فاس احمد الوطاسي فهو أشد حرصا من
اي وقت مضى على المحافظة على السلم مع البرتغال والاسبان(10)
وكادت هذه الاتصالات ان تنتهي باتفاق العواصم الثلاث لولا قيام محمد الشيخ بحملة
عسكرية ضد فاس، وذلك للقضاء على ما تبقى من حكم الوطاسيين وجرت هكذا معركة حربية
على درنة في سبتمبر 1545 م انتهت بانتصار محمد الشيخ واسر ملك فاس احمد
الوطاسي ، حيث أصبحت طريق فاس مفتوحا امام قوات السعديين .

ويحق لنا هنا أن نتساءل عن الاسباب التي جعلت الحاكم السعدي لا يتوجه
نحو فاس اثر انتصاره في المعركة الاخيرة ما دامت الظروف أصبحت جد مناسبة للقيام
بذلك ؟ فمن جهة : ما أن علمت فاس بنبا انهزام احمد الوطاسي ووقوعه اسيرا حتى
أعلنت بيعة محمد القصري بن احمد الوطاسي . وأصبح أبو حسون ملك بادس
وزيرا له ، حيث ظهر وكان الامراء الوطاسيين قد تناسوا خلافاتهم أمام الخطر
السعدي الذي يهدد دولتهم بالزوال . فقاموا اليوم متعاونين لرد هذا الخطر ، وقد
يدفعهم الخوف الى الاستنجاد بالعدو مما يزيد الامر تعقيدا ؟ ومن جهة أخرى فان
المولى محمد الشيخ لم يطمئن بعد لاختيه المولى احمد الذي فر نحو الجنوب عتب
معركة الكاهرا وأخذ ينظم هناك المقاومة ضد اخيه كما دخل في اتصال مع

(9) النزعة ص 23 (ويلقب من الانقلاب السلطانية بالمهدي)

(10) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب - المجموعة الاولى - البرتغال - المجلد الرابع - ص 144

الوطاسيين وغيرهم من الخصوم لتنسيق العمل ضد المولى محمد الشيخ المهدي (نلبثوا بها الى أن اسفوه بمظاهرة بنى مرين اعدائه واتصال اليد معهم على محاربتة وتجهيز المدد مع المولى الامير زيدان لاستنقاذهم من يده أيام جثومه عليهم بظاهر فاس محاصرا لهم الحصار الطويل . . واجلابهم أيضا في مغيبه بالعساكر على الفالجة من أعمال الحضرة ليشغلوه من ورائه ويأخذوا بحجزته عن حصار بنى مرين لها كان بينهم من العهد على ذلك) (14) .

وهكذا لم يرق محمد الشيخ بأي عمل ضد فاس بل نراه يطلق سراح الملك الوطاسي بعد سنتين من الاسر خلال شهر غشت من سنة 1547 م . بعد أن تنازل له هذا الاخير عن مكناسة وبلاد الغرب ، وقبوله زواج مولاي عبد القادر بن محمد الشيخ مع ابنته ، وعلى أن يصبح الامير السعدي وزير صهره الاكبر في فاس (15) . وغير خاف بأن المولى محمد الشيخ كان يرمى من اخذ مكناسة القريبة من فاس الى مراقبة كل حركات الوطاسيين ، ومن اخذ بلاد الغرب الى الحيلولة دون حصول اي تعاون بين المراكز البرتغالية والوطاسيين . اي أنه كان يسعى الى عزل خصومه في فاس ووضعهم تحت رحمته ، هذا بالاضافة الى ان ابنه سيصبح الوزير الاول لاحمد الوطاسي ، الذي بيده كل مقاليد الامور . ويبدو أن الامر لم يتم للحاكم السعدي وأن الوطاسيين لم يقبلوا بوضع انفسهم تحت رحمة المولى محمد الشيخ ، وانهم لذلك قاموا بتنظيم المقاومة والاتصال بخصوم السعديين ، وحسب الرسالة التي بعثها من تطوان بتاريخ 15 ماي 1548 م (Jeronimo diez Sanchez) الى جان الثالث : فان معركة دارت رحاها في اليوم الثاني ماي على وادي سبو قرب فاس واجه خلالها المولى محمد الشيخ حلفا ضم ملك فاس وملك بادس ومولاي زيدان بن المولى احمد — أخ الحاكم السعدي — وأن المعركة انتهت بانتصار المتحالفين في حين أن محمد الشيخ قد فقد الكثير من قواه (16) . ومع ذلك فان هذا الانهزام لم يفت في عضد المولى محمد الشيخ الذي صمم العزم على انزال الضربة النهائية بخصومه الوطاسيين ، اذ عند مطلع السنة التالية اي 1549 م كان محمد الشيخ سيد كل البلاد ما عدا فاس وتازة ، كما جاء في رسالة موجهة من تطوان ، وقد

(14) مناهل الصفا — للشنتالي — ص 74 .

(15) م. ص. ت. م — المجموعة الاولى — البرتغال — المجلد الرابعة — ص 223

(16) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب — المجموعة الاولى — البرتغال — المجلد الرابع — ص 268

كاتب أحمد الوطاسى طالبا منه البيعة على ان لا يصيبه باذى . ويعدده ببلاد سجلماسة التى ستبقى وراثية فى سلالته ، وقد جاء فى مكتبة الحاكم السعدي للملك الوطاسى قوله : (كيف لا نصنع معك خيرا وانت عاملتنا بخيرك واعطينا ذخائر ونحن مقرون باخسانك الينا ، فلا تظن فينا الا خيرا ومع هذا حتى متى هذا القتال بيننا) (19) . كما كاتب اهالى فاس للدخول فى طاعته (فلما طال حصار الشيخ لفاس وجه المال لاشياخها وكان الشيخ الونشريشى والقاضى الطروق الاموي واخوه احمد يحرضون اهل فاس على حرب الشيخ ويقولون لهم ان بيعة السلطان احمد فى اعتدائكم وبيعة ولده كذلك فلا يحل لكم نقضها) (20) . وقد استمر حصار فاس بضعة اشهر وسقطت اولاً فاس البالى يوم الثلاثاء 18 يبرابر 1549 بينما امر احمد الوطاسى وابو حسون الى فاس الجديد . ولم يجد احمد الوطاسى اخيرا بدا من تسليم نفسه للمنتصر السعدي فى حين ان ابا حسون توجه نحو الشمال . وما ان دخلت فاس جميعها فى طاعة محمد الشيخ حتى بعث يوم 14 مارس من نفس السنة احمد الوطاسى مع اولاده ونسائه واخوانه وكل اعضاء عائلته الذين قبلوا الذهاب معه الى مراكش (ولكن بعد اربعين يوما من وصوله الى مراكش قتل ومعه نحو اربعين من رجاله بالسهم) (21) . وهكذا استولى محمد الشيخ اخيرا على فاس مما زاد فى شهرته وساعد على توطيد اسس الدولة السعدية الناشئة . ويدلنا على مدى الشعبية التى اصبحت للمولى محمد الشيخ داخل المغرب وخارجه : كون الكثير من الحكام والقبائل قد اعلنوا تأييدهم للدولة السعدية : كعلى اعراس قائد نواحي مليلية (22) . ومحمد بن رشيد حاكم شفشاون الذي اسرع الى محاصرة اصيل وطنجة واتفق المحاصيل الموجودة بضواحيهما (23) . ثم حاكم تطوان الحسن المنظري الذي ثبته المولى محمد الشيخ على ولايته (24) . وقائد تازوطا ببلاد الريف الذي جمع الاشياخ العرب وجعلهم يؤيدون السعديين (25) . وايد السعديين ايضا القائد العروسي حاكم القصر الكبير (26) . اما القبائل فقد توالى تأييدها

-
- (19) المؤرخ المجهول : تاريخ الدولة السعدية . ص 10 .
(20) الزياتى : الفرجان المغرب . مخطوط . ص 346 .
(21) المؤرخ المجهول : تاريخ الدولة السعدية . ص 15 .
(22) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب - المجموعة الاولى - اسبانيا - المجلد الاول - ص 183
(23) نفس المصدر . ص 254
(24) نفس المصدر . ص 337
(25) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب - المجموعة الاولى - اسبانيا - المجلد الاول - ص 381
(26) نفس المصدر . ص 337

للدولة الناشئة كقبائل بنى يزناسن . وقبائل مديونة ، وعرب غيثة (27) . ولقد حصلت ثورة في بادس ضد أبى حسون وأعلن اهاليها طاعة المولى محمد الشيخ السعدي (28) . وهكذا ذاع صيت المولى محمد الشيخ في مجموع البلاد الشمالية والشرقية ، مما سهل على السعديين احتلال كرسيف (29) والسيطرة على اماره بدو التي فر عنها أميرها مولاي عمر والتجأ الى ملييلة (30) .

لما في خارج المغرب ، فبدلنا على مدى الشهرة التي وصلت اليها الدولة السعدية الناشئة كون (المور يسكوس) أصبح لهم أمل قوي بأن يأتي المولى

(27) نفس المصدر . ص 208

(28) نفس المصدر . ص 244

(29) نفس المصدر . ص 264

(30) نفس المصدر . ص 423

من الشعراء الذين مدحوا محمد الشيخ الشاعر محمد الهوزالي . ومطلع القصيدة :
بيض السيوف وسر الموالي توطد أركان أس المال

وبصف الشاعر أحوال الاحتلال الاجنبى للسواحل المغربية :

يزيد توى جفوة ودلال
وانك بعممة واغتيل
له من جند ومكر مـذال
يمرك مرك الرعى للقتال
كان لهم يكن بينهم من رجال
وقب العدو لسوب الجبال

لماك علوا مظهيا فلا
على كل يوم له طرفة
تجبح مذي البلاد بـما
تكن في الناس أجمعهم
وأصبح الناس في ذمول
وقد استبيحت بساطتهم

ثم يخاطب السعديين :

سول مدامسة والنزال
تصادون بالتبـا واللال
يعرب زيون وكبد مطـال
ورأى مطاع ونسج احتيال
تصيد الاسود بحوك السلال

هناك بدا بكم يا بنى الر
تأبون أهل الصليب كما
نرد الى نهرهم كيدهم
وجند قوى وبأس شديد
وأس الحروب على خدع

وبخاطب المولى محمد الشيخ :

بمزم بنى المصطفى خير آل
وابناتنا وخدور الميـال
يجازى بها من يقم البـال
تصون مهاتكم والجلال

ظهرت الارض من رجسهم
فلنا الابان على ديننا
جزيت بنى المصطفى بالنـى
فلا زلتهم في ذرى عزة

(سوس العالة . ص 68 - 69)

ومدحه الشاعر سعيد العابدى أيضا :

وفو العزم لم تفرع له سن نادى
سلوبا لإسلاف الاسود الفواشم
جهارا وكان السيف أعدل قاسم
نيسة قد تمت الى مستفانم
تموذ ملك أرغسه بالتمائم
فنت بمظلم في مبيون المظالم
جمال تمسى في لالة هاشم

أخو العزم ان نزم ثلاث هـومـه
لئت ترى في الشرق والغرب مثله
ملك على الامراء بالسيف سيدهم
ناى حى لم تصبح عرضا فرينما
كان بلك الروم وانك رسله
اذا مظاه الروم تعنو فانما
لقد حزت بين الناس خير مدافع

(سوس العالة ص 69 - 70)

محمد الشيخ يوما ما لنجدتهم وخلصهم ، على أساس أن يقوموا بثورة في الداخل متى ما شعروا باقترابه من اسبانيا : كما ورد في مذكرة الاسباني Ignacio Nunes Oato الذي أبدى تخوفاته من ذلك (31) . وكانت هجرة (الموريسكوس) من اسبانيا الى المغرب مستمرة حيث كان المولى محمد الشيخ يستخدمهم في قواته المحاربة (32) .

اما صدى وقوع فاس بيد محمد الشيخ وتأييد معظم مناطق المغرب في لشبونة ومدريد : فالوثائق التاريخية تثبت بأن البرتغال والاسبان قد أرسلوا النجيدات المستعجلة الى مراكز الاحتلال بالمغرب ، وأخذوا يترقبون تعاون السعديين والأتراك ضد المراكز المسيحية في شمالي إفريقيا أولا ثم في غربي المتوسط ثانيا . خصوصا وقد تأكد لديهم تواطؤ محمد الشيخ مع الأتراك : إذ الرسالة التي بعثها من جبل طارق (Luis de Rueda) بتاريخ 6 يراير 1549 م بعد أن تعلن خبر استيلاء الشريف محمد الشيخ على فاس تشير الى أنه على اتفاق مع الأتراك . وأنه يسعى لبناء أسطول بحري لتحرير جميع السواحل المغربية وللجهاد ضد المسيحيين بل وللعمل على استعادة اسبانيا (33) . وفي رسالة أخرى نجد بأن الشريف محمد الشيخ يملك العرائش ومعمورة وسلا وآسفى وكلها مراكز هامة على المحيط ، وبإمكانه بناء السفن في مدينة فاس وحملها الى معمورة عن طريق وادي سبو ، ولن يجد صعوبة في ذلك سيما والتجار الأجانب والفرنسيون خاصة يمكنهم أن يزودوه بمختلف المواد اللازمة لذلك (34) . وهكذا ازدادت مخاوف الاسبان والبرتغال ولم يكتفوا بتعزيز مراكز احتلالهم بالمغرب بل منعوا كل اتصال تجاري مع موانئ الشريف السعدي ، كما جاء في المرسوم المؤرخ بالتاسع والعشرين من مارس لسنة 1549 م . فالتجارة محرمة مع موانئ الشريف الا باذن خاص . ويمنع منعاً باتاً المتاجرة في البضائع المحرمة كالذهب والفضة والسلاح ، ويشترط في الأشخاص الذين يقومون بالتجارة مع المغرب أن يكونوا من أصل مسيحي وعليهم لاثبات ذلك أن يدلوا بشهادة قاضى مدينتهم وعليهم أن لا يقيموا بالمغرب أكثر من سنة ولن يسمح لهم بالعودة اليه الا بعد أن يقضوا في وطنهم شهرين على الأقل . أما البضائع فتسجل لدى قضاة الموانئ عند وضعها في السفن ليجرى تفتيشها من قبل ضباط

(31) المصادر الأصلية لتاريخ المغرب - المجموعة الاولى - اسبانيا - المجلد الاول - ص 294

(32) نفس المصدر . ص 321 .

(33) المصادر الأصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . اسبانيا . المجلد الاول - ص 451

(34) نفس المصدر . ص 229 .

الموانئ . وعلى التجار أخيرا بعد الإبحار أن يقصدوا بلاد المغرب رأسا ومن خالف ذلك تنزع منه البضاعة ويحاكم (35) . ورغم كل هذه التدابير فإن حركة الجهاد ضد العدو التي ما فتئ السعديون ينادون بها قد استمرت ، ومضايقة المراكز الأجنبية وتشديد الحصار عليها لم تنقطع . مما أجبر الملك البرتغالي جان الثالث على اتخاذ قرار التخلي عن مركزين آخرين هما أصيلا والقصر الصغير (36) على أن يتم الاحتفاظ بالمراكز الثلاث الباقية : سبتة ، طنجة ، ومازكان . ولا ننسى أن هذه السياسة الجديدة تتمشى وفكرة تكتيل القوى الإسبانية - البرتغالية الموجودة على ساحل المغرب الشمالي لمقاومة الخطر العثماني الذي يهدد شبه جزيرة أيبيريا وجميع غربي أوروبا ، وحتى لا تتكرر مأساة الإمبراطورية البيزنطية التي نسف انهزامها المجال أمام الأتراك المسلمين للسيطرة على شرقي أوروبا وبسط لواء الإسلام عليها . وهكذا كانت سنة 1549 بداية تطور هام في تاريخ الدولة السعدية الناشئة . فقد تم خلالها القضاء على الحكم الوطاسي في فاس ، واحتلال إمارة دبدو ، كما سيطر في نفس السنة المولى محمد الشيخ على مجموع بلاد المغرب الشمالية والشرقية ، أي أصبحت له السيطرة على سائر بلاد المغرب . وليس معنى هذا أن الأمر قد خلاص له نهائيا ، إذ لا يزال هناك بعض المنافسين لحكمه ولدولته . كإخيه المولى أحمد الأعرج الذي استقر بالصحراء الجنوبية وأبى حسون ومولاي عمر اللذين التجأ إلى الإسبان والبرتغال وطلبا المساعدة منهم ضد السعديين .

ومما يجعل لسنة 1549 م أهمية كبرى : أن الأتراك العثمانيين أخذوا في بسط سيطرتهم على إمارة تلمسان ، وبالتالي أصبحت لهم نقط اتصال وتماس مع السعديين بالمغرب .

(35) المصادر الأصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الأولى . إسبانيا . المجلد الثاني - ص 475

(36) المصادر الأصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الأولى . المجلد الرابع - ص 350

السَّعْدِيُّونَ وَالْقَوِيُّ الْمَجَاوِرَةُ

دخلت الدولة السعدية الناشئة في طور جديد من تاريخها ، اثر السيطرة التي أصبحت لها على معظم بلاد المغرب عند منتصف القرن السادس عشر ، ذلك ان القادة السعديين وجدوا أنفسهم وجها لوجه أمام قوى مجاورة لم يكونوا قد احتكوا بها ن قبل ، وكانت اولها الاتراك العثمانيون الذين بعد أن اتوا السيطرة على معظم الجزائر ، اخذت انظارهم تتوجه نحو امارة تلمسان وبالتالي نحو المغرب الأقصى اتما لاجتاههم نحو توحيد القوى الاسلامية تحت قيادة واحدة ، لهجابهة الاخطار المسيحية المتزايدة على بلاد المسلمين . اما القوة الثانية فكانت تتمثل في الاسبانيين الذين يحتلون مراكز هامة منبثة على اجزاء مختلفة من سواحل افريقيا الشمالية ، هي قواعد ضرورية ومراكز لغزو المناطق الداخلية ولمقاومة الزحف العثماني ، وصده عن هذه البلاد ، وبالتالي عن الحوض الغربي من البحر المتوسط ، حتى لا تقع الطريق التجارية الجديدة تحت رحمة الاتراك العثمانيين ، وحتى لا يقع تهديد اسلامي جديد ، لشبه جزيرة ايبيريا وغربي اوربا المسيحية .

فما موقف القادة السعديين من هاتين القوتين المتصارعتين ؟ وما هدف السعديين من اتخاذ سياسة او أخرى ؟

فعند منتصف القرن السادس عشر ، كان المولى محمد الشيخ ، قد اتم السيطرة على معظم بلاد الريف والمغرب الشرقي ، وكان الاتراك العثمانيون في التاريخ نفسه قد أخذوا يسيطرون سيطرتهم على تلمسان والمناطق المحيطة بها على يد الوالي حسن باشا بن خير الدين بارباروسا ، أي أن مناطق نفوذ السعديين قد أصبحت تجاور الاراضي العثمانية في الجزائر ، مما ادخل الرعب على الاسبان والبرتغال ، وجعلهم يترقبون قيام تعاون بين القوتين الاسلاميتين ضد مراكز الاحتلال المسيحي في كل من الجزائر والمغرب ، كما تكشف لنا عن ذلك التقارير والرسائل التي بعثها

حاكم وهران الاسباني comte d'Alcaudete (1) الى حكومته : فالمولى محمد الشيخ قد كتب الى باشا الجزائر واقترح عليه القيام بعمليات مشتركة لفتح وهران والمرسى الكبير ، وبعث بهدايا الى طرغوث باشا Dargut يقترح عليه الدخول في حرب ضد اسبانيا . ويضيف الكونت الاسباني : بان كثيرا من رؤساء البحر الجزائريين سينضمون الى امير البحر هذا ليدخلوا جميعا في خدمة المولى محمد الشيخ . وحسب رسالة اخرى نفهم بان المفاوضات التي جرت بين الحاكم السعودي وباشا الجزائر التركي كانت تتم بواسطة القائد صفا بك صديق الشريف (2) .

وتظهر جميع اتصالات محمد الشيخ بأتراك الجزائر ان الحاكم السعودي كان يهدف الى قيام تعاون مشترك ضد المسيحيين الاسبان والبرتغال لتحرير المناطق المحتلة بشمالى افريقيا وخاصة الموجودة منها ببلاد الجزائر والمغرب ، مع احتفاظ السعوديين بكامل سيادتهم على المغرب . في حين ان الاتراك العثمانيين كانوا جادين في ضم المغرب بدعوى توحيد القوى الاسلامية بشمالى افريقيا ضد الاخطار الاسبانية والبرتغالية ، الامر الذي عجل باصطدام قواتهما خصوصا بعد ان بسط الاتراك نفوذهم على مدينة وجدة باب المغرب الشرقى ، في محاولة لتطويق امارة تلمسان التي كانت تعيش ايامها الاخيرة ، ثم لاتخاذها قاعدة انطلاق ضد المغرب في قابل الايام .

ولما كان المولى محمد الشيخ حريصا على ضم المنطقة الشرقية من المغرب لاستراتيجيتها في صد كل تدخل خارجى ، فانه لم يتوان عن الاستجابة لطلب النجدة الذي تقدم به الامير الزياني اللاجئ بالمغرب احمد بن عبد الله ، من اجل مساعدته على استرداد حكمه بتلمسان والدخول في مفاوضات مع اهالى تلمسان واشياخ قبائلها لتنظيم وسائل التعاون بينهم (3) .

وحسب الوثائق المعاصرة فان الحاكم السعودي قد استقبل خمسة عشر وجبا من اشياخ قبائل مديونة ، ووفدا يمثل اهالى تلمسان والجماعات الاندلسية المقيمة بها ، وقد أكدوا له انضمامهم اليه ومساعدته على فتح تلمسان كرها منهم للاتراك (4) .

(1) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . اسبانيا . المجلد الاول - ص 246

(2) المصدر السابق نفسه ص 244 .

(3) م. ص. ت. م. المجموعة الاولى ، اسبانيا ، ج 1 ص 208

(4) المصدر نفسه .

وفي شهر أبريل 1549 انطلقت القوات المغربية نحو شرقي البلاد ودخلت خلال الشهر نفسه الى مدينة وجدة بقيادة محمد الحران بن محمد الشيخ ، في حين تراجعت القوات التركية عن المدينة (5) . ومن وجدة تقدم المغاربة نحو تلمسان التي دخلوها يوم 9 يونيو 1550 م والتي القبض على الامير الزياني الحسن حليف الاتراك وارسل الى فاس بينما فر اخوه عمر الى الجزائر طلبا لمساعدة العثمانيين (6) .

يعتبر الفتح المغربي لتلمسان بداية مرحلة جديدة في العلاقات السعدية - التركية لان كلا من الفريقين كان يقدر استراتيجية المنطقة وأهميتها في توطيد النفوذ الداخلي والانطلاق نحو ما جاورها من البلاد .

وإذا كان السعديون يرون في ضم تلمسان عاملا قويا في توطيد سيطرتهم على كل المغرب الشرقي وبالتالي لصد كل تدخل تركي في المغرب ، فان الاتراك بدورهم كانوا يرون في التمرکز بتلمسان تدعيما لوجودهم بالجزائر وقاعدة حصينة لغزو المغرب ، لما تمثله شواطئه الشمالية والغربية من دور رئيسي وفعال في تهديد المواصلات البحرية الاسبانية - البرتغالية وغزوهم في عقر ديارهم .

ولهذا السبب كان رد فعل الاتراك قويا ، فقد بعث والي الجزائر حسن باشا قوات حربية تحت قيادة حسن كورسو لاجراج السعديين من تلمسان ، كما ارسل محمد الشيخ من جهته نجدات عسكرية لابنه . ونجد تفاصيل المعارك التي جرت بين الفريقين في الرسالة التي ارسلها من وهران Don Martin وفيها ان الاتراك تحاربوا مع قوات الشريف التي كانت مرابطة خارج مدينة تلمسان في اليوم الرابع من سبتمبر لسنة 1550 م : وقد انهزم المغاربة وتحصنوا بالمدينة الا ان وصول النجدات التي بعثها محمد الشيخ جعلت القائد العثماني حسن كورسو ينسحب ليلا دون أن يشعر به أحد (8) . على أن العثمانيين اعادوا الكرة ضد تلمسان حيث انهزم المغاربة وقتل أحد أبناء محمد الشيخ ، بينما اسر الثاني وقطعت يد الابن الثالث ، كما لاحق العثمانيون قوات الشريف السعدي حتى مدينة دبو (9) . ولما

(5) المصدر السابق ص 267 .

(6) المصدر السابق ص 441 .

(7) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . اسبانيا . المجلد الاول - ص 441

(8) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . اسبانيا . المجلد الاول - ص 471

(9) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . اسبانيا . المجلد الاول - ص 532

استولى العثمانيون على تلمسان من جديد ولوا عليها كملك مولاي عمر أحد امراء بنى زيان . اما صدى انهزام قوات محمد الشيخ امام العثمانيين في شرق المغرب الاقصى فقد كان عميق الاثر سواء بالنسبة للتوسع العثماني في شمالي افريقية او فيما يرجع لوضع الدولة السعدية الناشئة فرغم استرجاع العثمانيين لمدينة تلمسان فانهم لم يكتفوا باتخاذها كحد أقصى لممتلكاتهم : بل جعلوها نقطة انطلاق لاعمال الغزو المقبلة ، خاصة وأن قوات السعديين قد تراجعت عن كل المغرب الشرقي نحو مدينة فاس لحمايتها ولصد الخطر العثماني (10) : مما جعل احوال هذه الناحية في فوضى وفتن ، وشجع بالتالي العثمانيين على مواصلة التوسع لضم المغرب ، الجزء الذي لا يتجزأ من الشمال الاريقي .

على أن المولى محمد الشيخ لم يفت في عضده انهزام قواته امام العثمانيين فقد نظم امره من جديد واستعد لمواجهة زحفهم ، ولم يهتم بعودة مولاي عمر الى دبدو ، الا بمقدار ما كان يرى في ذلك من تسرب لخطر خارجي وقد استطاع أن يسترجع دبدو بحملة عسكرية قادها المزوار المنصور وعبد الله بن محمد الشيخ وأن يطرد مولاي عمر الذي التجأ ثانية الى مليلية (15) . ولم يرعبه أيضا استفحال ثورة أخيه المولى احمد الاعرج بالجنوب المغربي ولا اتصالاته المريبة بالاسبان اذ ارسل حملة ضد أخيه المولى احمد الاعرج بقيادة ابنه عبد الرحمن انهزم على اثرها المولى احمد وفر نحو الصحراء وخمدت بذلك فتنته .

وهكذا استرد المولى محمد الشيخ هيئته وظهر لخصومه مدى القوة والمكانة التي لا يزال يتمتع بها في سائر جهات المغرب . ولعل هذا هو السبب الذي امتنعت من أجله اسبانيا عن مساعدة أبي حسون رغم اتصالاته بالامبراطور في اكسبورغ واطهار استعداده للتخلي عن حصن (Penon) (7) (جزيرة بادس) ذي الموقع الهام بالنسبة لشمال المغرب وغربي حوض المتوسط . وعندما فشلت كل مساعي

15) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . اسبانيا . المجلد الاول - ص 1

16) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . اسبانيا . المجلد الاول - ص 313

17) جزيرة باديس أو (Penon de Vallez) جزيرة صغيرة امام شاطئ المغرب الشمالي قريبة من مدينة بادس التاريخية يبلغ طولها 360 مترا وعرضها 100 متر ، وقد أصبحت اليوم شبه جزيرة لاتصال احدي جهاتها بالشاطئ المغربي . احتل الاسبان الجزيرة سنة 1508 م اثناء عمليات عزو المغرب وللدخول من عمليات القرصنة التي اشتهرت بها هذه المنطقة . الا أن المغاربة استعادوا الجزيرة سنة 1522 م واقام بها أبو حسون بعد استقراره في بادس عقب خلعهم عن عرش لاس هابية قوية ، فلم تستطع السفن الاسبانية احتلالها سيما وأن الافراك قد أخذوا يترددون عليها منذ أن توجهوا الى المغرب عقب الجواث التي جرت لهم مع السعديين .

أبى حسون في اسبانيا اتصل بلشبونة عند مطلع 1552 وطلب نجدة الملك جان الثالث الذي وجد بذلك الفرصة المناسبة لبسط نفوذه في المغرب من جديد بعد أن انحصر النفوذ البرتغالي في بعض المراكز الساحلية اثر ظهور حركة الجهاد التي تزعمها الحكام السعديون . وقد انجد البرتغال في النهاية أبا حسون بقوات بحرية نزل بها في خليج الحسيمة عند أوائل سبتمبر من نفس السنة ، غير أن الاسطول العثماني سرعان ما أسر السفن البرتغالية بعد معركة جرت بين الطرفين (18) ، وسيق الجميع كأسرى الى الجزائر ، مما أجبر أبا حسون على الذهاب الى الجزائر للملاقة واليها أمير البر (صالح رايس) والدخول معه في مفاوضات للعمل ضد المولى محمد الشيخ ..

أبدى السلطان العثماني سليمان القانوني اهتماما خاصا بالموقف السعدي من التدخل التركي بشمال إفريقيا ، واعتمادا على رسالتين مؤرختين بأول رجب 959 هـ الموافق ليناير 1552 أرسلهما الباب العالي الى محمد الشيخ ، فإن السلطان العثماني قد عزل حسن باشا عن ولاية الجزائر وعين مكانه صالح رايس الذي سيبدأ مع الحاكم المغربي عهدا جديدا من التعاون والتفاهم (ولما بلغ الى سمعنا الشريف أن أمير الامراء بولاية الجزائر سابقا حسن باشا لم يحسن المجاورة مع جيرانه ومال الى جانب العنف والاعتساف ونبذ وراء ظهره طرق الوفاق والائتلاف وسد باب الاتحاد مع المجاهدين حماة الدين ، لذلك بدلناهم غيره فأنعمنا بولاية الجزائر على مملوك حضرتنا العلية .. صالح باشا .. ولابد لكم أن تحسنوا المجاورة وتذهبوا طريق حسن المعاشرة) (19) .

وتؤكد الاحداث أن السلطان العثماني كان يسعى الى تطمين المولى محمد الشيخ وأن الوالي صالح رايس كان مكلفا في الواقع بوضع حد لامارة بنى زيان بتلمسان وبتصفية المشكل المغربي بوجه خاص :

نما أن وصل الباشا الجديد الى الجزائر في ابريل 1552 حتى دخل في مفاوضات سرية مع أبى حسون الوطاسي وتظاهر بمساعدته بقوات عسكرية لاسترداد عرشه بفاس ، وتكشف لنا رسالة حاكم وهران المؤرخة بيوم 31 ماي 1553 م النقاب عن الصدى الذي أحدثه في اسبانيا نبا المساعدة العثمانية لأبى حسون ،

(18) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . اسبانيا . المجلد الثاني - ص 36

(19) امطابول - مصر طوبقو - مكتبة فوغوشلر - دمنر الامور المهمة - رقم 888 - ص 9

اذ بعد ان اخبر الحاكم الاسباني حكومته بالاستعدادات الجارية في تلمسان لمساعدة ابي حسون ضد المولى محمد الشيخ ، حذرهما من مغبة التدخل العثماني في المغرب لان وصول العثمانيين الى بادس يضمن استيلائهم عليها واستقرارهم فيها ، مما سيكون شديد الخطورة في المستقبل (20) واخيرا وصلت القوات العثمانية التي جاءت لنجدة ابي حسون الى بادس وعلى راسها والي الجزائر وما ان نزل ابي حسون في بادس حتى تلقى طاعة القبائل المجاورة للمنطقة وأخذ في اعداد قوات محاربة ، كما انضم اليه مولاي عمر ملك دبدو الذي كان لاجئا في مدينة مليلية (21) . وقد حصلت اصطدامات عسكرية بين قوات محمد الشيخ والقوات العثمانية قرب بادس التي رسا بها الاسطول العثماني (22) ، الا ان الهزيمة لحقت بالقوات السعدية ، مما افسح المجال امام العثمانيين لكي يواصلوا زحفهم نحو الداخل .

وقبل ان تنتهى سنة 1553 م احتلت القوات التركية مدينة تازة واشتبكت مع السعديين في معارك متواصلة اهمها بكدية المخالي من ساحة فاس (حتى اذا كان زحف صالح رايس من الجزائر بجنود الاتراك مع الاعور ابي حسون المريني مستغفريهم على حين ما كان الامام رضى الله عنه منفردا عن جنوده انتصار الدولة بما كان اطلقهم منذ فتح مدينة فاس لمواطنهم بالسوس ومراكش . . واكتفى بجنود بنى مرين الذين اصطنعهم بمعروفه واصطفاهم لخدمته بفاس وكان هؤلاء الاعراب ممن عليه المدار منهم فزحف بهم من فاس لتقاء العدو معولا عليهم في الدفاع ومعتدا بفنائهم عاملا على ما خولهم من نعمته واحتقارا لشأن الاعور بوحسون مستغفري الاتراك . . . وعندما التقى الجمعان بكدية المخالي من ساحة فاس ودارت رحى الحرب فلاحت بارقة الظفر والظهور للامام رضى الله عنه فزحزح الاتراك عن مراكزهم واستولى على مدافعهم لم ينشب ان انفضت كتائب بنى مرين من حوله قاطبة لانطوائهم على النكث وتواطئهم على الغدر فلحقوا ببوحسون وقتلوا ظهر المجن للامام رضى الله عنه وقد تركوه في حومة الوغى وحده في الفئة القليلة من انتصاره فكان خذلان العصاة المرينية سبب نكوصه رضى الله عنه ولحاقه بمراكش) (23) .

(20) المصادر اصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . اسبانيا . المجلد الثانى - ص 95
(21) المصادر اصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . اسبانيا . المجلد الثانى - ص 41
(22) المصادر اصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . اسبانيا . المجلد الثانى - ص 88
(23) الفتاوى : مناهل الصفا في مآثر موالينا الشريفا . ص 109 .

وتقدمت القوات التركية ومعها أبو حسون نحو فاس التي دخلتها يوم 8 يناير 1554 م وحسب رسالة (Paulo Ragusco) الذي كان أسيرا بفاس وحرر بعد دخول الاتراك اليها فان دخول صالح رايس الى فاس كان بفضل انضمام انصار أبي حسون من أهالي فاس وكذا بسبب تخلى ستمائة جندي تركي كانوا في خدمة المولى محمد الشيخ (24) ، كما يطلعنا تقرير (Miguel Ortiz) على الاتفاق الذي تم بين صالح رايس وأبي حسون والذي يجعل للباشا العثماني جميع الاسرى المسيحيين بفاس وكذا كل كنوز السعديين بما في ذلك اموال أهالي سوس ومراكش (25) . ومن مجموع ذلك وجه صالح رايس للسلطان العثماني سفينتين مع العلاج على (26) في حين وضعت قوات عثمانية في أهم الموانئ المغربية (27) .

أما استقبال أهالي فاس لأبي حسون فقد كان عظيما ، وقد جاء في الخطبة التي القاها العالم الزقاق قوله (هذا بقية أمرائكم الذين شيّدوا البلاد وسعد بهم العباد وشرفوا المساجد وبنوا المدارس والقناطر وقاموا بأمر الدين والدنيا) (28) .

وباستقرار مولاي عمر في دبدو وأبي حسون بفاس ، ساد النفوذ التركي في شرقي المغرب ومناطقه الوسطى ، وازداد فزع الاسبان والبرتغال لرؤية الاساطيل العثمانية وهي تسيطر على بعض الموانئ المغربية القريبة من مراكز احتلالهم، وقد جاء في الرسالة التي بعثها الملك البرتغالي (جان الثالث) الى الامبراطور الاسباني (شارلكان) ما يدل على هذا الفزع اذ كتب اليه يحثه على التدخل في المغرب للحيلولة دون توطيد الاتراك لاقدامهم في هذه البلاد ، لان ذلك يشكل خطرا كبيرا على مصالح الامتـين (29) .

ومن جهة أخرى لقد حرص الاتراك وهم بفاس على اغتنام الفرصة للاطاحة بأبي حسون الوطاسي واعلان بيعه السلطان سليمان القانوني (ولما رأى الترك محاسن البلاد ومنعتها . . قلما اجتمعوا بفاس الجديد ادعوا لانفسهم وقبضوا على السلطان أبي حسون المريني وقبضوا على خاصته وسدوا أبواب فاس الجديد

24 م. ص. ت. م. المجموعة الاولى ، اسبانيا ، ج 2 ، ص 160

25 المصدر السابق . ص 139

26 المصدر السابق . ص 148

27 المصدر السابق ص 151 .

28 المؤرخ المجهول : تاريخ الدولة السعدية . ص 19 .

29 م. ص. ت. م. المجموعة الاولى ، اسبانيا ، ج 2 ، ص 171

وأخرجوا أهلها فبلغ الخبر لاهل فاس البالى فخرجوا واطلعوا بالشواقر والنيسان
والسلام لفاس الجديد فاشرف الترك من اسوار المدينة . . فخافوا . . فعند ذلك
فتحوا الباب ودخل الناس الى السلطان ثم ارسل الى كبراء الترك والرؤساء منهم
وامرهم بالخروج وتبعتهم محلقتهم (30) .

وبجلاء القوات التركية عن فاس ورجوعها الى الجزائر أصبح أبو حسون
يواجه خصمه المولى محمد الشيخ الذي جمع قوات من (الحوز والسوس واتى بجر
الامم الى أن نزل براس الماء فخرج له أبو حسون بأهل فاس وعرب أهل الريف
ووقع الحرب بقرب عميرة اياما ثم ان الشيخ رتب له بالليل كميناً من الرجال مع
الوادي ولما وقع الحرب خرج الكمين خلفهم فانهزموا وقتل أبو حسون واكثر من معه
من أهل فاس (31) وأهل الغرب والريف ثم دخل فاسا الجديدة وقدم عليه فتهاء
فاس واشرافها يطلبون الامن فأمنهم وقبض على من تعين له فسادة . . كالزقاق
والونشريسى وعلى حرزوز فقيه مكناسة فقتلهم (. وقد قال بعد قتلهم : الآن
تمهد لنا الملك فى المغرب بعد قتلنا هؤلاء الثلاثة الونشريسى والزقاق بفاس
وحرزوز بمكناسة ، فانهم كانوا يقطعون امعائنا على المنابر ويوقدون علينا نار الفتنة
عند الاكابر (32) .

وقد تم للمولى محمد الشيخ فى هذه السنة أيضا اعتقال أخيه المولى احمد
الاعرج الذي لم يفتأ قائما بالثورة فى الجنوب المغربى منذ انهزامه (الى ان كان من
اجلاب عرب اليمن أهل مجالاتها عليهم باغراء الامام والنياب احوالهم الى حين القبض
عليهم وخمود ذبالتهم باستئصالهم) (33) ، كما استعاد مدينة دبدو التى فر عنها
مولاي عمر والتجأ من جديد الى الجزائر (34) . وبمقتل أبى حسون الوطاسى وأسر
المولى احمد الاعرج استقرت الاوضاع الداخلية نسبيا للمولى محمد الشيخ (حتى
إذا اتاحت له الكرة على أبى حسون فقتله واستأصل جموع بنى مرين . . وفتح
فاسا فتحا نانيا واستولى على كرسىها) (35) .

30) الدولة السعدية للمؤلف المجهول ، ص 20 .

31) المصدر السابق ص 21 .

32) المصدر السابق ص 31 .

33) مناهل الصفا ، ص 74 .

34) م. ص. ت. م ، المجموعة الاولى ، اسبانيا ، ج 2 ص 327 .

35) مناهل الصفا ، ص 109 .

التقارب السعدي - البرتغالي - الأسباني

يمكن القول بأن حادثة استعادة فاس الى حكم السعديين في 23 سبتمبر 1554 م ، كانت نقطة تحول هام في تاريخ الدولة السعدية الناشئة : فالمولى محمد الشيخ قد ظهر كخصم عنيد للاتراك العثمانيين ومن المعارضين لسياساتهم التوسعية في بلاد المغرب ، بل والاكثر من ذلك انه أعلن اثر دخوله فاس منفصرا بأنه عازم على الذهاب الى الجزائر لمنازلة الاتراك هناك (1) ، فهذا التناقض السعدي - العثماني على شمال افريقية - بل وعلى الخلافة الاسلامية كان في صالح الاسبان والبرتغال ، ولا عجب اذا رأينا بعد ذلك تقاربا بين هؤلاء جميعا ضد الاتراك العثمانيين . واول وثيقة في النصوص التاريخية نستدل بها على هذا التقارب هي الرسالة التي وجهها الملك جان الثالث الى ضابط مازكان البرتغالي (Alvaro de Carvalho) في شهر يونيه 1554 : جوابا على الطلب الذي تقدم به المولى محمد الشيخ الى كل من مدريد ولشبونة لهده بقوات عسكرية ضد الاتراك (2) . وفي هذه الرسالة ايضا نجد تحديدا لبعض الشروط التي يراها البرتغاليون لمساعدة السعديين : كتسليم بعض المراكز المغربية البحرية : كبادس ، وبنين ، والعرائش . ثم تمويل القوات المسيحية التي سيرسلها لمساعدته . وأخيرا يختم الملك رسالته بضرورة اخبار الامبراطور الاسباني بذلك (3) .

ونتيجة لهذا التقارب ، فقد عقدت هدنة بين السعديين والبرتغال بواسطة حاكم مازكان لمدة ستة أشهر وذلك في مطلع سنة 1555 : وان ظل في الواقع مفعول هذه الهدنة زمنا طويلا (4) .

-
- (1) المصادر الأصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . المجلد الثاني . ص 181 - اسبانيا
 - (2) المصادر الأصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . المجلد الثاني . ص 270 - اسبانيا
 - (3) المصادر الأصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . المجلد الثاني . ص 20 - البرتغال
 - (3) المصادر الأصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . المجلد الخامس . ص 20 - البرتغال

واذا كان حاكم مازكان هو الذي قام بدور الوساطة مع السعديين ، فإن المزوار المنصور بن بوغانم هو الذي كلف من قبل المولى محمد الشيخ بهذه المهمة، واول رسالة للمنصور في هذا الصدد : تلك التي بعثها الى حاكم وهران الاسباني (Comte d'Alcaudete) عند مطلع يناير 1555 : وقد أخبر المزوار الكونت الاسباني بوصول رسائله وانه اعلم بها المولى محمد الشيخ وابنه المولى عبد الله اللذين اعربا عن سرورهما لمقدم وفد اسباني الى فاس للتفاوض معه (5) . وقد ارسل حاكم وهران فعلا الى فاس وقد يتألف من ثلاثة اشخاص (6) جاءوا للاتفاق مع المولى محمد الشيخ حول تهية حملة مشتركة اسبانية - مغربية ضد الاتراك (7) وقام العثمانيون كرد فعل على التقارب السعدي الاسباني البرتغالي بتشديد الحصار ضد وهران باعتبار ان حاكمها الاسباني كان اداة الاتصال بين فاس ومريد الا ان جميع جهودهم فشلت نتيجة للنجدات المتواصلة التي كانت اسبانيا تبعثها الى المدينة المحاصرة . وبعد ان فشلت خطة الاستيلاء على وهران فكر الاتراك في ارسال وفد الى فاس ليقترح على المولى محمد الشيخ الهدنة والسلم (11) .

ويؤكد هذا ما جاء في الرسالة التي ارسلت من مازكان الى لشبونة بتاريخ العاشر من مارس 1557 م . وفيها بأن الشريف السعدي قد استقبل في مراكش سفيرا تركيا جاء يقترح عليه السلم ويوعده بمساعدة السلطان العثماني لمحاربة المسيحيين ، بشرط ان يعترف الحاكم السعدي بالسيادة العثمانية وان يضع اسم السلطان في سكتته (12). وفي تاريخ الدولة السعدية للمؤلف المجهول نجد تفاصيل السفارة التركية المذكورة (فانه لما كان محمد الشيخ بفاس وفد عليه رسول للسلطان سليم ليهنئه ويعلمه بما كان عليه بنو مرين من الهدايا والوداد والمحبة والخدمة والميل اليه والرغبة فيه وانه في نصرتهم . فسكت ولم يجبه بشيء وبقي عنده الى ان طال جلوس الرسول فطلب منه ان يسرجه فقال له محمد الشيخ : سلم على أمير القوارب سلطانك وقتل له ان سلطان المغرب لابد ان ينازلك على محمل مصر ويكون قتاله معك عليه ان شاء الله ويأتيك الى مصر والسلم (13) .

(4) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . المجلد الثاني . ص 220 - اسبانيا

(5) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . اسبانيا . المجلد الثاني ص 181

(6) كان الوفد الاسباني مكونا من ثلاثة افراد هم :

نفس المصدر السابق . ص 208 .

(11) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . اسبانيا . المجلد الثاني - ص 382

(12) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الخامس - ص 55

(13) تاريخ الدولة السعدية للمؤلف المجهول ، ص 27

ومن هذا الجواب نستدل على الاستياء الذي كان يشغره به المولى محمد الشيخ من جراء التوسع التركي في شمالي افريقية ، ونرى فيه دليلا قويا على ان الحاكم السعدي لم يكن يرى شرعية الخلافة العثمانية . كما يعكس لنا الجواب ايضا مدى طموح المولى محمد الشيخ الذي كان يحلم بإمامة المسلمين في مشارق الارض ومغاربها . وقد أكد هذا الجواب للسلطان العثماني أخيرا صحة تواطؤ السعديين مع الاسبان والبرتغال : الامر الذي جعله يرسل قوات عسكرية الى الجزائر ليستعين بها الحاكم العام على احتلال المغرب ، وذلك كما جاء في رسالة موجهة من سبتة الى لشبونة بتاريخ الثالث من يونيو 1557 م (14) . غير أن الباب العالي سرعان ما عدل عن فكرة غزو المغرب عسكريا ولعل ذلك بعد التأكد من الهدنة السعدية - الاسبانية - البرتغالية ، والتجأ الى تدبير مؤامرة اغتيال محمد الشيخ، سيما وأن هذا الأخير كان قد اتخذ حرسه الخاص من الاتراك (ولما كان محمد الشيخ بفاس سمع بخبر الفرقة الذين تخلفوا من محلة الترك فجمعهم وضمهم الى عسكره وكانوا نحو الاربعمائة فقدم عليهم كبيرهم صالح آغا وأعطاهم السلاح والكسوة وكلفهم بالسير مع قببه وأثقاله فكانوا اذا نزلوا يدورون بمبانيه ويمسكون عليه في السفر . ولما بلغ مراكش أنزلهم بجوار قصره وفوض اليهم في حرس بابيه وبالغ في الاحسان اليهم لما ظهر له من نجدتهم وصدقهم فصاروا أقرب الناس اليه وكلما رأى من احدهم نبأه قربه اليه حتى كان الكثير منهم في خدمته بداخل القصر وبمجالس أنسه وجعل منهم أصحاب مراكبه وحجاب أبوابه وأخص الناس به) (15) ولأجل هذا سهل على الباب العالي تنفيذ مؤامرة اغتيال محمد الشيخ عن طريق ارسال جماعة من الاتراك وصلت الى المغرب وانضمت الى الحرس الخاص مظهرة الطاعة والاخلاص الى أن سنحت الفرصة فآغتالت محمد الشيخ خلال احدى الاسفار التفقدية لتارودانت زوال يوم الاربعاء 27 ذي الحجة عام 964 للهجرة الموافق 23 اكتوبر 1557 م . ولم يكن المولى محمد الشيخ قد عقد بعد اتفاقية التعاون مع الاسبان حول الحملة المشتركة ضد الاتراك العثمانيين بشمالى افريقية (16) .

(14) المصادر الأصلية لتاريخ المغرب ، المجموعة الاولى . اسبانيا . المجلد الثاني - ص 420

(15) الترجمان المغرب . للزياتى . مخطوط ، ص 347 .

(16) دوبردان : مراكش . ص 83

ولقد كان اغتيال المولى محمد الشيخ من قبل حرسه الخاص التركي بداية تطور هام للأحداث المقبلة بالمغرب ، وخاصة فيما يتعلق بالدولة السعدية الناشئة، اذ لم يعد هناك اي مجال للشك في أن العثمانيين انما يسعون جادين للاستيلاء على المغرب ، لا باعتباره الجزء المتمم للشمال الافريقي فحسب ، بل ولاهميته الاستراتيجية كأثر نقطة الى بلاد اسبانيا والبرتغال ، وقد دفع هذا الملك السعدي الجديد الى التقرب من جديد من اعداء العثمانيين ، كما أن الاسبان والبرتغال قد ازدادوا تقربا من المولى عبد الله لصد الخطر التركي الداهم . واذا علمنا زيادة على ذلك بأن المولى عبد الله كان الساعد الايمن لوالده المولى محمد الشيخ ، وأنه شارك في جميع المفاوضات السرية التي دارت بين الاسبان والبرتغال وبين والده لاقرار السلم ولتهدئة حملة مشتركة ضد العثمانيين ، أدركنا منذ الآن الخطوط البارزة للسياسة التي سبناها المولى عبد الله بالنسبة لعلاقته مع الاسبان والبرتغال وكذا مع بقية دول أوروبا ، هذه السياسة التي يسعى من ورائها الى توطيد أسس دولته وثبتت دعائمها ، والعمل على رد أي غزو عثماني للاراضي المغربية في المستقبل .

بويق المولى عبد الله بفاس عندما بلغه خبر نفي والده ، واتخذ كلقب له الغالب بالله ، وقد كان عليه لتستقر له الاحوال الداخلية أن يأخذ ثأر أبيه من قتلته الاتراك وأن يخضع بعض الثورات التي اخذت تظهر في بعض نواحي البلاد عقب نبا اغتيال والده المولى محمد الشيخ . وقد قصد فعلا مراكش ثم تارودانت حيث انتقم من الاتراك الذين دبروا مؤامرة اغتيال والده (17) . كما قضى على ثورة بسوس تزعمها أخوه المولى عثمان خلال يراير من سنة 1558 م (18) . ثم عاد سريعا الى فاس لتهدئة القوات المحاربة لصد الحملة العسكرية التي يقودها حاكم الجزائر الذي حاول اغتنام فرصة الأحداث الداخلية المغربية لاحتلال البلاد ، سيما وأن ملك دبدو مولاي عمر الملتجئ الى الجزائر لم يفتأ يحث الوالي على غزو المغرب والسيطرة عليه (19) . وقد جرت أخيرا معركة حاسمة بين قوات الطرفين يوم السبت الثاني من ابريل لسنة 1558 م قرب وادي اللبن حيث دارت الدائرة على

(17) الدولة السعدية للبورخ المجهول . ص 32 .
(18) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الاول - المقدمة
(19) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . اسبانيا . المجلد الثاني - ص 433

القوات العثمانية التي مرت نحو الجبال المجاورة إلا أن المغاربة اقتتوا اثرها وهزموها في جبال الورا كما استولوا على غنائم كثيرة . واما باشا الجزائر وملك بدو فقد انسحب مع بعض القوات نحو مدينة بادس (20) . ويظهر أن حاكم وهران الأسباني قد حاول اغتنام فرصة انهزام القوات العثمانية بالمغرب لكسب نصر عسكري لـ الجزائر ، فقد قام بهجوم مفاجيء على مدينة مستغانم إلا أن محاولته بساعت بالفشل اذ تكبدت القوات الاسبانية المهاجمة خلال غشت 1558 م خسائر فادحة وكان الكونت الأسباني من بين قتلى المعركة (21) . ورغم فشل الحملة الاسبانية ضد مستغانم فان العثمانيين لم يعد لديهم أدنى شك في تواطؤ المولى عبد الله الغالب بالله مع الأسبان : الشيء الذي جعلهم يتخذون جانب الحيلة والحذر عند محاولة القيام بمساعدة الثائرين ضد الحكام السعديين .

فعندما ثار المولى عبد المومن أخ المولى عبد الله وخليفته على مراكش خلال ديسمبر من سنة 1558 م واستنجد به بالي الجزائر فان الحاكم لم يمد يده بآية مساعدة عسكرية بل رحب به في بلاد الجزائر وزوجه بأحدى بناته ثم ولاه على مدينة تلمسان (22) .

وهكذا تابع المولى عبد الله سياسة والده الرامية الى مقاومة التوسع العثماني في المغرب والاستعانة في سبيل ذلك بأعداء العثمانيين من اسبان وبرتغال عن طريق مهادنتهم والمحافظة على أحوال السلم معهم . وقد دفعته سياسة المهادنة هذه مع المسيحيين الى الاستجابة لكثير من المطالب التي تقدمت بها بعض دول اوربا الغربية كالمملكة الفرنسية التي استقبل سفيرها (23) وحمله الى الامير Antoine de Bourbon رسالة يعبر له فيها عن استعدادده للاستجابة للمطالب الفرنسية (24) ثم عقد مع هذا الأخير معاهدة في يولييه 1559 م تقضى بتنازله عن مرسى القصر الصغير للفرنسيين مقابل مده بالاسلحة والعتاد الحربي وارسال

(20) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . اسبانيا . المجلد الثاني - ص 445

(21) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . اسبانيا . المجلد الثاني - ص 470

(22) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الاول - المقدمة

(23) كان السفير الفرنسي Melchoir d'Azvedo من أصل برتغالي ، وقد كان كوكيل لملك نافار في المغرب . (المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . فرنسا ، حاشية ص 177)

(24) م. ص. ت. م ، المجموعة الاولى ، فرنسا ، ج 1 ، ص 170

فرقة عسكرية تكون بمثابة الحرس الخاص للغالب بالله — ولعل ذلك راجع الى عدم الثقة التي أصبحت له في الحرس التركي بعد اغتيال والده ، كما تنظم المعاهد التجارية بين البلدين وتتر حال السلم بينها (25) . ونحن اذا تساءلنا عن السر الذي دفع فرنسا الى التقرب من المغرب ومطالبة الغالب بالله بالتنازل للفرنسيين عن ميناء القصر الصغير ، نجد بأن ذلك يرجع في مجموعه الى ما كانت عليه العلاقات بين دول اوروبا الغربية بوجه عام والعلاقات الفرنسية — الاسبانية بوجه خاص ، فمعاهدة (Cateau - Cambrésis — 3 أبريل 1559 م) التي أنهت الحرب الإيطالية وان أوقفت النزاع بين البلدين لفترة من الوقت فان فرنسا لم تفتأ تبحث عن حلفاء يمكنها الاعتماد عليهم اذا ما تجدد النزاع مع اسبانيا ، خصوصاً ان فيليب الثاني الذي خلف والده شارلكان على عرش اسبانيا ومستعمراتها قد أصبح له نفوذ قوي في اوروبا : لان المعاهدة السابقة قد دعمت نفوذ اسبانيا في إيطاليا والاراضي المنخفضة مما يهدد في كل آونة فرنسا التي أصبحت مطوقة تقريبا بممتلكات التاج الاسباني . وقد تقربت لاجل ذلك فرنسا من بريطانيا عن طريق مشروع زواج بين الاسرتين الحاكميتين كما أخذت في التقرب من المغرب البلد الاسلامي ، مستغلة الروابط الحسنة التي تربط فرنسا والسultan العثماني منذ عهد فرانسوا الاول وسليمان القانوني . وما من شك في أن فرنسا كانت ترى في المغرب حليفاً يمكن الاعتماد عليه ضد اسبانيا ، كما كانت ترى في ميناء القصر الصغير السطريجي الذي لا يبعد الا ببضع كيلومترات عن جبل طارق وعن الاراضي الاسبانية منطقة هامة يمكن اتخاذها لغزو اسبانيا في اراضيها ولتهديد المواصلات الاسبانية في حرب قادمة .

والوثائق التاريخية لا تحفظ لنا في هذا الموضوع الا رسالة موجهة من فرانسوا الثاني ملك فرنسا الى عمه انطوان دوريون ملك نافار ، يخبره فيها بأنه اطلع بواسطة السفير الاسباني على الاستعدادات القائمة من قبل القراصنة في موانئ Guienne وأنه يلح عليه بشدة ليزيل كامل جهوده حتى لا يتبع أي ضرر ضد الاملاك الاسبانية (26) . ويظهر بأن هذه الرسالة لم تكن الا تطيناً للسفير الاسباني في فرنسا لان فرانسوا الثاني كان يعلم مقاصد عمه الرامية الى اتخاذ مراكز

(25) م. ص. ت. م ، المجموعة الاولى ، فرنسا ، ج 1 ص 178
(26) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . فرنسا . المجلد الاول — ص 199

هامة في المغرب كما كان يؤيد ذلك سرا (27) . وإن مسألة العلاقات الفرنسية المغربية لتزداد وضوحاً إذا ما علمنا بأن انطوان دوبوريون أحد أفراد الاسرة المالكة في فرنسا ، قد اعتنق المذهب البروتستانتي وأصبح زعيم البروتستانت في فرنسا ، فلا عجب إذا رأينا انطوان هذا يقوم بمحاربة المسلمين والتعاون معهم من مغاربة وغيرهم ضد الإمبراطور فيليب الثاني الذي نصب نفسه حامى الكاثوليكية في أوروبا وعزم على القضاء على المذاهب المخالفة لها .

وكما عقد المولى عبد الله الغالب بالله مع الفرنسيين معاهدة قبل فيها بالتنازل لهم عن مرسى القصر الصغير ، فقد تخلى فعلاً للبرتغال عن مازكان بعد أن كاد المغاربة أن يفتحوها . وتحدثنا إحدى الوثائق التاريخية عن حصار القوات المغربية للبرتغاليين في مازكان فتشير الى أن الغالب بالله كان قد جمع قوات جرارة وجعل على رأسها ابنه مولاي محمد الذي وصل يوم الرابع من مارس لسنة 1562 م أمام المدينة المذكورة وقام بحصارها نحو شهرين لم تحدث خلالها أية مناوشة بين الطرفين ولكن في اليوم الثلاثين من إبريل هاجم المغاربة المدينة ووقعت معركة دامية ، ونضيف الوثيقة بأن المجلس الملكي البرتغالي كان قد عزم على إخلاء مازكان عندما علم بأمر حصارها ، لولا أن القوات المغربية قد انسحبت في آخر لحظة (28) . وفي تاريخ الدولة السعدية للمؤلف المجهول نجد السبب الذي تراجعت من أجله القوات المغربية عن مازكان : (فالقائد على بن تودة كاد احتلال البريحة فأمر السلطان بالتراجع عنها فعاد إليها التصارى بعد ما ركبوا البحر وأدوا له بعد رحيل المحلة عنهم مالا عريضا وهدية جميلة وكأنهم اشتروها منه) (29) .

أما بالنسبة لاسبان فقد أطلق الغالب بالله يدهم في احتلال جزيرة بـادس Penon de Valez التي كانت بيد العثمانيين منذ أن تنازل لهم عنها أبو حسون الوطاسي مقابل مساعدته ضد المولى محمد الشيخ السعدي . وهذه الجزيرة كانت أقرب نقطة مغربية الى جبل طارق ومالقا وانها كانت بالنسبة للقراصنة ميناء لها حيث كانت الخسائر التي تلحق القجار الاسبان والبرتغال من قراصنة جزيرة بادس تتجاوز العد كل سنة ، وهذا ما دفع الاسبانيين الى احتلال الجزيرة

(27) نسى المصدر . حاشية صفة 199 . وحسب المعاهدة السابقة فان الابن يطلق بملك نهار وملك فرنسا ايضاً .

(28) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . فرنسا . المجلد الاول - ص 231

(29) تاريخ الدولة السعدية للمؤلف المجهول ، ص 37

المذكورة . والرسالة التي وجهها السفير الفرنسي في مدريد Saint Sulpice الى الملك شارل التاسع تعد أهم وثيقة تكشف لنا حال جزيرة بادس زمن احتلال العثمانيين لها (1558 — 1562 م) ومدى الدور الذي قام به قراصنتها ضد السفن التجارية الاسبانية والبرتغالية . فبعد أن أشار السفير الفرنسي الى أهمية الجزيرة وموقعها الاستراتيجي سواء بالنسبة لساحل المغرب الشمالي أو بالنسبة للسواحل الاسبانية تطرق الى الاعمال التي كان يقوم بها يحيى رايس الذي عينه حاكم عام الجزائر حسن باشا واليا على الجزيرة : فيحيى رايس أصبح يلعب بسيد المضيق Seigneur de Détroit ولم تكن أية سفينة لتستطيع العبور دون إذن منه . وقد عم الخوف سكان الساحل الاسباني لدرجة أن هؤلاء لم يكونوا يزرعون أراضيهم الا بكل حذر ، وغالبا ما كان القراصنة العثمانيون يحاصرونهم اثناء عملهم ويأخذونهم كاسرى ، وكذلك الصيادون فلم يكونوا يجازفون بالابتعاد كثيرا عن الشاطئ . ويضيف الدبلوماسي الفرنسي في رسالته بأنه خلال الخمس سنوات التي تولى فيها يحيى رايس امر الجزيرة أسر عددا كبيرا من السفن وسلب الكثير من المسند الاسبانية الساحلية وجمع نحو اربعة آلاف أسير من المسيحيين . وعندما عاد الى الجزائر حمل معه اربع سفن محملة بالغنائم وأربعمائة مسيحي ومائتي ألف دوكة (30) . وجزيرة بادس بالإضافة الى ذلك كانت مثار رعب وخوف لدى الغالب بالله (إذ خاف السلطان أن تخرج عمارة الترك من تلك البلاد الى المغرب : فاتفق مع سلطان النصارى أن يخلى لهم الادالة من حجرة بادس ويبيع له البلاد ويخليها من المسلمين وتنتزع مادة الترك من تلك الناحية ، وعندما جاء النصارى الى بادس استنجد سكانها بالسلطان لعدم علمهم بصنعه سرا وقد نادى بالجهاد ولكنه عندما جاءهم خبر احتلال النصارى بادس تراجعوا وارتحل السلطان الى مراكش وتنهأ من الترك من تلك البلاد) (31) .

وقد فشلت المحاولة الاولى التي قام بها الاسبان لاحتلال الجزيرة خلال سنة 1563 م ، فالاسطول الاسباني غادر مالقا يوم الثانى والعشرين من يولييه (1563 م) ووصل الجزيرة يوم 28 منه ، فانضم اليه حاكم مليلية بقواته العديدة، وما أن رأى سكان بادس ذلك حتى فروا الى الجبال في حين أن القوات الاسبانية

(30) م. ص. ت. م ، المجوعة الاولى ، فرنسا ، ج 1 ، ص 243

(31) تاريخ الدولة السعدية . ص 37

المؤلفة من أربعة آلاف رجل قد نزلت على بعد ميلين من الجزيرة وتوجهت نحو بادس التي وجدها خالية . وقد ظل نحو ثلاثمائة جندي إسباني يحرسون الاسطول حيث فاجأهم ستون مغربيا وهزموهم كما أن فرقتين أعيدتا من بادس نحو الأماكن التي يرسو بها الاسطول فهزمها المغاربة أيضا ، وعندما كان اليوم التالي تجمع المغاربة حول المناطق المجاورة في حين أن القوات الإسبانية لم تجد بدا من الانسحاب ، وقد عادت الى مالقا في الثاني من غشت بعد أن خسرت نحو ثلاثمائة رجل (32) . على أن الإسبان قد أعادوا الكرة ضد الجزيرة في السنة التالية واستطاعوا بمؤازرة قوات برتغالية من احتلالها في اليوم السادس من سبتمبر لسنة 1564 م حيث عم الفرع كل بلاد إسبانيا والبرتغال ، لان قراصنة الجزيرة كانوا يتسببون للمملكتين الإسبانية والبرتغالية في خسائر فادحة (33) .

ومن الجدير بالذكر هو أن البحرية المغربية قد عرفت نشاطا متزايدا منذ الاحتلال الأجنبي للسواحل المغربية ، هذا الاحتلال الذي لم يكن في الواقع سوى سلسلة من غزوات النهب والتخريب فانقلبت معه الحركة البحرية المغربية الى كفاح وطني ضد المعتدين وادت مقاومتها الى فشل السياسة الإسبانية — البرتغالية في إفريقيا ، مما كان له كبير الأثر في تغيير مجرى تاريخ القارة الإفريقية خلال مطلع عصور التاريخ الحديث (34) . الا أن احتلال الإسبان لجزيرة بادس أنزل ضربة فاصمة بالبحرية المغربية التي كانت تقف بالمرصاد لاساطيل الغزاة المسيحيين سيما وقد تبع ذلك اقدام اسبانيا على مهاجمة القوات البحرية في تطوان خلال نوفمبر من نفس سنة 1564 م وقيامها باغلاق مصب نهر تطوان عن طريق اغراق سفن محملة بالحجارة حيث أصبح من المتعذر على السفن التطوانية اجتياز المصب (35) وبديهي أن عملا كهذا من شأنه أن يؤثر على وضعية تطوان التي ازدهرت منذ نشأتها لاعتمادها على النشاط البحري (36) .

وفي نطاق التقرب من دول أوروبا ، نجد الغالب بالله يسمى الى توطيد علاقاته مع إيليزابيث ملكة إنجلترا التي سرعان ما استجابت لذلك خصوصا وأن التجار الإنكليز كانوا يجنون من وراء التجارة مع المغرب أرباحا طائلة منذ عهد

(32) م. ص. ت. م ، المجموعة الاولى ، بريطانيا ج 1 ، ص 55
(33) المصادر الأصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . فرنسا . المجلد الاول — ص 264
(34) تطوان العدد 2 ، ص 65 .
(35) المصادر الأصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . فرنسا . المجلد الاول ، حاشية صفة 284
(36) تطوان العدد 2 ، ص 127 .

مبكر (37) . ولان انجلترا آتتذ كانت فى حالة حرب ضد اسبانيا بسبب اقـرار ايليزابيت العتيدة البروتستانتية فى بلادها وللتأييد المطلق الذى اظهرته الملكة الانجليزية اتجاه البروتستانت فى فرنسا وفى الاراضى المنخفضة التى ثارت لطلب الاستقلال عن اسبانيا وحكم فيليب الثانى خصم ايليزابيت اللدود . وليس مسـن المستبعد ان تكون ايليزابيت التى كانت تنشد العزة والمجد لبلادها قد أدركت مدى اهمية المغرب ومدى الاستفادة من موقعه سواء فى حروبها ضد اسبانيا او للمتاجرة مع بلدان غربى افريقيا ذات الموقع الستراتيجى المشرف على طريق التجارة العالمية آنذاك . فقد كتب الغالب بالله الى الملكة ايليزابيت يوصيها باحد التجار الذين كانوا يقومون بالتجارة فى موانئ المغرب حتى لا تتعرض السفن الانكليزية لتجارته ، واغتـنم هذه الفرصة ليعبر للملكة الانجليزية عن استعدادده لطلبية جميع رغباتها (وكل ما يتعرض لكم من المآرب والاغراض يقضى لكم على اكمل المراد ان شاء الله) (38) . وقد استجابت الملكة الانجليزية لطلب الغالب بالله وبدأ بذلك عهد جديد من العلاقات الطيبة بين المغرب وانكلترا .

وهكذا اندفع الغالب بالله فى سياسة التقرب من دول اوربا الغربية

37) ترجع العلاقات التجارية بين المغرب وانكلترا الى وقت مبكر : فقد كان التجار الاوربيون عامة والادجيز خاصة يقومون بالمآجرة مع المغرب وغربى افريقيا رغم ادعاء البرتغال حق احكار التجارة مع هذه المناطق واضطهادهم للذين يحدونهم فى عرض المحيط الاطلسى او بالسواحل الافريقية افريقية بل واحراق سفنهم او اغرقها احيانا (فى طلب التوابل ص 280) . وقد كانت لشاطيء المغرب الاطلسى خلال القرن 16 م اهمية كبرى لوتوعه على طريق التجارة العالمية ولان الاساطيل الحائدة من الشرق اتصى والحملة بالتوابل والكنوز الثينة الى اسبانيا والبرتغال كثيرا ما كانت تنعـض للقرصنة الذين كانوا يجدون فى هذه الشواطى مكانا لا نظير لها (المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى فرنسا . المجلد الاول . ص 285) . وبالإضافة الى ذلك فقد اشتهرت بلاد سوس بزراعة قصب السكر الذى كان التجار الاوربيون يتهاونون على اقتنائه ، وتجارة السكر لعبت دورا هاما فى توطيد دعائم الدولة السعدية حيث ان الحكام السعديين الاولين كانوا يشجعون هذه التجارة التى تدر عليهم نحو 7500 مثقال ذهبا كل سنة ويشتررون بشئها الاسلحة وذخائر الحرب التى طلبها استملوها فى حروبهم ضد البرتغال والاسبان (المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . فرنسا . المجلد الاول . ص 303) . فالقيام بالقرصنة وشراء سكر سوس شجعتا التجار الاوربيين ومنهم الانكليز على المجرى الى الشواطى المغربية الاطلسية والمتاجرة مع المغربية سيما وان وضعية البرتغال بالمغرب قد أخذت تضعف منذ منتصف القرن 16 م . وحسب الوثائق التاريخية فان الانكليز كانوا يجنون الارباح الطائلة من تجارتهم مع المغرب اذ كانوا يشترون من المغرب السكر واللوز والذهب المسحق الذى يستعملون منه النقود الذهبية مقابل بيعهم الاسلحة والنباب الملونة (المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . مجموعة الاولى . بريطانيا . المجلد الاول - ص 62) ، ورغم احتياج البرتغال على اعمال التجارة التى كان الانكليز يقومون بها مع المغرب فان الملوك الانجليز لم يكونوا يمتثلون بذلك بل على العكس فقد شجعوا التجارة مع الخارج وبناء الاساطيل البحرية . وقد اجابت مرة الملكة ايليزابيت السليـر البرتغالى فى لندن بانها تستغرب كثيرا من ادعاءات البرتغال بخصوص التجارة مع المغرب لان الجميع يعلم بأن الممالك الثلاث نفاس ومراكش وسوس تخضع كلها لحاكم مستقل سمح هو نفسه للتجار الانكليز بالمتاجرة مع بلاده . (المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . بريطانيا . المجلد الاول - ص 123)

38) م. ص. ت. م ، المجموعة الاولى ، بريطانيا ، ج 1 ، ص 98

المسيحية والعمل على مهادنتها ، بدافع الخوف من الخطر العثماني الذي كان يهدد في كل آونة المغرب من جهة حدوده الشرقية . واتجاهه هذا هو الذي يفسر لنا موقفه الحقيقي من الثورة التي أعلنها الموريسكوس بجلال البوشراس بغرناطة بعد ان أعلنوا بيعه محمد بن أمية ملكا عليهم (39) .

فالعالم بالله وان بذل الوعود لرسول الثوار بأن يناصر ثورتهم فقد ظل في الواقع محافظا على الروابط الودية التي كانت له مع فيليب الثاني ملك اسبانيا ، وعلى العكس من ذلك فقد عمل في الخفاء ضد الموريسكوس (وأما أهل الاندلس وغشاهم وتوريطهم للهلكة في دينهم وأقوالهم وأولادهم وفي نفوسهم فأمر مستعظم عند جميع من في قلبه ميثال ذرة من الايمان .. فقد أمرهم غشا منه بأن يقوموا مع النصراري ليثق بهم في قولهم بظهور فعلهم ، فلما قاموا على النصراري تراخى عنهم وكانت بينه وبين النصراري مكاتبات في ذلك ومراسلات وأنه استشار معهم وأشار عليهم أن يخرجوا أهل الاندلس الى ناحية المغرب وقصده بذلك تعمير سواحله ويكون لهم منه بمدينتي فاس ومراكش جيش عظيم ينتفع به في مصالح ملكه) (40) . وانتهت ثورة الموريسكوس أخيرا بتوقيع اتفاق يسمح لهم بموجبه بالخروج الى المغرب أو غيره من بلدان شمالي افريقيا ، وقد جاز منهم عدد كبير الى المغرب كما جاء في رسالة السفير الفرنسي في مدريد الى الملك شارل التاسع (41) .

أما بالنسبة لموقف العثمانيين من المولى عبد الله ، فقد اكتفوا بإسواء المعارضين لحكمه بعد أن فشلت الحملة العسكرية التي قاموا بها ضد المغرب

(39) الموريسكوس : Moriscos هم المسلمون الذين ظلوا بإسبانيا بعد ذهاب دولة الاسلام عنها ، وقد كانوا مثالا للنشاط والعمل ، وبعد سقوط غرناطة أظهر فرديناندو وإيزابيلا بعض التساهل معهم إلا أن ذلك لم يدم طويلا إذ ما أن تأسست محاكم التفتيش حتى تعرض هؤلاء لأشد أنواع التعذيب والإضطهاد . الشيء الذي جعلهم يفتنهم كل الفرص للثورة وبكتابة الإنتركا في الجزائر والسمديين في المغرب لمساعدتهم (تطوان المجلد الاول ، ص 165) . وقد قاموا بثورة دامية في نهاية 1568م بغرناطة واندوا بالدون Don Fernando de Valor الذي تلقب بمحمد بن أمية ملكا عليهم . وأهم الوثائق التاريخية التي تتحدث عن ثورتهم هي الرسائل التي بعثها سفير فرنسا في مدريد الى حكومته : فقد جاء في احداها بأن الموريسكوس في غرناطة قد ثاروا وان فيليب الثاني قد هيا قوات لاضاد ثورتهم كما تعرض للمساعدات التي يطلقها الموريسكوس من بافا الجزائر وسلطان المغرب (المصادر الأصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . فرنسا . المجلد الاول - ص 286) وفي الثانية ان ثورة الموريسكوس قد صادفت نجاحا عظيما وان فيليب الثاني قد سلح ثلاثين سفينة لمرابطة شواطئه غرناطة قصد منع أية مساعدة قد ترسل الى الثوار (نفس المصدر ص 288) . وفي الثالثة لقد اغتيل محمد بن أمية وتولى مكانه عبد الله بن عبو (نفسه ص 290) .

(40) تاريخ الدولة السعدية . ص 38 .

(41) المصادر الأصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . فرنسا . المجلد الاول - ص 318

غداة تولية الغالب بالله ، وبعد أن ثبت لديهم تعاونه مع المسيحيين والروابط القوية التي أصبحت له معهم . ومن بين أولئك الذين عارضوا المولى عبد الله والتجأوا الى العثمانيين بعض اخوته الذين رفضوا التسليم لابنه محمد بولاية العهد ، مما دفع الغالب بالله الى التخلص منهم عن طريق الاغتيال ليرث ابنه العرش بعده ، وقد قتل فعلا ثلاثة من اخوته بينما فر الباقون الى خارج المغرب (42) .

واذا تساءلنا عن الاسباب التي حالت دون اغتنام السلطان العثماني فرصة استنجاد اخوة المولى عبد الله به لبسط السيطرة التركية على المغرب ، نجد ان ذلك يرجع الى تعاون الغالب بالله مع الدول المسيحية الحديثة من جهة ، والى الهزيمة الكبرى التي لحقت القوات البحرية العثمانية في معركة ليبانتسو (Lepanto) من جهة أخرى . فقد عقد البابا بيوس الخامس وفيليب الثاني وجمهورية البندقية معاهدة يوم 20 ماي 1571 م للقيام بهجوم بحري ضد العثمانيين الذين يرجع لهم الفضل في احياء مجد الاسلام وتأسيس امبراطورية اسلامية واسعة الارضاء تضم قسما كبيرا من اوربا ومعظم الحوض الشرقي من البحر المتوسط ، والذين ما فتئوا يهددون المسيحية في عقر ديارها . لسعيهم المتواصل الى اتمام السيطرة على الحوض الغربي من البحر المتوسط ، حتى يسهل عليهم تطويق اوربا الغربية وانزال الضربة الحاسمة بها . وقد جرت معركة حربية كبرى خلال اكتوبر من نفس السنة بخليج كورنت بالجزر اليونانية انتهت بانهزام الاسطول العثماني . وما ان علمت اوربا المسيحية بنبا النصر العظيم حتى اقيمت الحفلات وكل معالم البهجة والفرح. وهذه المعركة تعد حقا نقطة انطلاق بالنسبة لاوربا الغربية المسيحية التي لن تجد في قابل الايام قوة تناهضها وخاصة في العالم الاسلامي ، لان معركة ليبانتو كانت بداية النهاية بالنسبة للعثمانيين الذين دخلوا منذ هذه الواقعة في مرحلة جديدة اخذوا معها موقف الدفاع بعد ان كانوا يقومون بالهجوم .

(42) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجوعة الاولى . فرنسا . المجلد الاول — هاشية صفحة 477

وإذا كان الحلف المسيحي لم يستند من انتصاره في (ليانتيو) بسبب اختلاف القادة حول ميادين القتال المقبلة ضد الاتراك ، فان الاسبانيين والبرتغاليين قد خططوا لغزو شمالي افريقيا ووضع حد للوجود التركي بها ، وحسب هذا المخطط هاجم الاسبان تونس 1573 وتمركزوا بأهم قواعدهما الا ان التدخل العثماني وبإبادة المجاهدون في تونس انتهى بانتهازم الاسبانيين في معركة حلق الوادي عام 1574 م ودخلت تونس نهائيا في طاعة السلطان العثماني .

وقد وافق انتصار العثمانيين بتونس وفاة المولى عبد الله الغالب وتولية ابنه محمد المتوكل فازداد تطلع الباب العالي الى ضم ما تبقى من شمالي افريقية الى ابراطورية خاصة وأن عمى المتوكل : عبد الملك واحمد اللاجئين بالجزائر يلحان في طلب المساعدة لاسترداد حقهما في العرش المغربي .

الفصل العاشر

معركة وادي المخازن وبسعة المولى أحمد المنصور

بوفاة المولى عبد الله الغالب بالله وتولية ابنه المولى محمد المتوكل على الله ، دخل المغرب في مرحلة حاسمة من تاريخه ، بعد الهدوء النسبي الذي عرفه من قبل زمن الملك الراحل ، فقد ازدادت رغبة العثمانيين في ضم المغرب ، بعد الظفر العظيم الذي نالوه عقب انتصارهم على الاسبان في تونس ، ودخول هذه البلاد في حوزة الامبراطورية العثمانية ، وبعد التجاء عمى المتوكل عبد الملك وأحمد الى الجزائر طلبا لمساعدتهم .

وما من شك في أن انتصار العثمانيين في حروب تونس ضد الاسبان ، قد شجعهم على مساعدة المولى عبد الملك المطالب بالعرش المغربي ، لبسط نفوذهم على البلاد ، ولأن الاستيلاء على المغرب يؤمن الحدود الغربية للامبراطورية العثمانية ويوطد اقدام الاتراك في مجموع الشمال الافريقي . علاوة على أن ضم المغرب من شأنه ان يبعث الرعب في قلوب الاسبان والبرتغال ويبعثهم على طلب ود السلطان في اسطنبول .

اما المتوكل على الله فقد تابع خطة والده في التقرب من الدول المسيحية ومسالمتها لصد خطر العثمانيين حيث لم يعد لديه أي شك في انهم سينجدون عمه بقوات عسكرية كما عقد اتفاقا مع ايليزابيت ملكة انجلترا (1) التي كانت ترغب في تنمية التجارة الانجليزية مع المغرب للفوائد التي تعود على التجار الانجليز من وراء

1. مجلة تطوان ، العدد الثاني ، ص 51

ذلك ، زيادة على انها كانت تدرك الاهمية العظمى التى للمغرب ، خصوصا وقد كانت انجلترا فى حالة حرب ضد اسبانيا .

وتوقيع المتوكل للاتفاقية التجارية مع الانجليز يعد العمل الوحيد الذي قام به خلال حكمه القصير ، وقد فعل ذلك باعتبار ان الانجليز كانوا من بين التجار الاجانب الذين يبيعون مواد الحرب من ذخائر واسلحة للمغاربة منذ امد بعيد، ولا تخفى علينا حاجة المتوكل فى هذه الآونة الى السلاح لصد الخطر العثماني ولمقاومة عمه المطالب بالعرش .

وفيما يرجع للامتين المسيحيين : اسبانيا والبرتغال وموقفهما من انباء المساعدة العثمانية للمولى عبد الملك ضد المتوكل فرسالة (Giovanni Battista) (Gesio) المؤرخة بيوم (24 مارس 1576 والمرسلة الى فيليب الثانى تشرح لنا انه كان من الضروري أن يقوم ملك اسبانيا بجمع القوات فى الموانئ المجاورة لافريقيا لان العثمانيين عازمون على الاستيلاء على المغرب وبالتالي غزو اسبانيا ، وان رمضان باشا (الوالى التركى على الجزائر) والمولى عبد الملك واخاه المولى احمد يريدون السير ضد المتوكل الذي سينهزم امام الاتراك مهما كانت قواته ، خصوصا وان لمولاي عبد الملك عددا كبيرا من الانصار فى داخل المغرب ، ومن الممكن ان يطلب المتوكل النجدة من فيليب الثانى وستكون هذه فرصة شينة ليتدخل ملك اسبانيا فى المغرب بل وليطرد الاتراك من شمالى افريقيا (2) . غير ان انشغال فيليب الثانى بثورات الاراضى المنخفضة ضده وبالحروب الدينية القائمة بين الكاثوليك والبروتستانت فى غربى أوروبا حال دون اهتمامه باحداث شمالى افريقيا ، خصوصا وان انجلترا كانت تتدخل فى هذه البلدان لمساعدة البروتستانت ضد اسبانيا الكاثوليكية الشيء الذي كان ينفذ بقرب اصطدام خطير بين المسيحيين الكاثوليك تحت زعامة فيليب الثانى والبروتستانت بزعامة ايليزابيث . وانشغال فيليب هذا هو الذي منعه فى نفس الوقت من الاستجابة للنداءات المتكررة التى بعثها اليه ملك البرتغال الشاب (دون سباستيان) للتدخل فى المغرب والحيلولة دون احتلاله من قبل العثمانيين . وقد جاء فى رسالة وجهها ملك البرتغال الى سفيره Don Duarte de Castelbranco انه من الواجب التدخل لوقف التقدم التركى فى المغرب ومنعهم من الاستيلاء على الموانئ المغربية،

(2) م. ص. ت. م ، المجموعة الاولى ، بريطانيا ، ج 1 ، ص 163

وجاء في رسالة ثانية له اقتراح على فيليب الثاني باغتنام فرصة اوضاع المغرب المضطربة والقيام بحملة مشتركة لاحتلاله (3) .

لقد وجد العثمانيون في انشغال ملك اسبانيا باحداث اوربا الغربية فرصة مناسبة للتدخل في المغرب ، فامدوا المولى عبد الملك بقوات عسكرية بقيادة والي الجزائر رمضان باشا واحرز المولى عبد الملك بفضل انضمام رؤساء الجيش الاندلسي انتصارا عظيما في معركة الروكان ضد المتوكل (اشخصه المعتصم الى المغرب عيناه له وسفيرا عنه الى اشياعه ومن كان يداخله في امره .. فكان يطوف على منازل الاكابر توصلا الى مكالمه اشياخ المعتصم وايصال كتبه اليهم .. وهو في كل ذلك حاطب في جبل المعتصم برسله والمتوكل .. في غفلة من امره وكان في خلال ذلك يسري مع الدغالي في الغدر ويلحم حتى اذا كان يوم الركن الذي تحيناه لما تعاندا من الغدر والخلاف نزعنا بقرمهما مكرًا ومخادعة الى الخيفتين لاول اشتعال الحرب) (4) وذلك (لانهم كانوا يكرهون مولاي عبد الله وولده مولاي محمد لخيانته لهم) (5) فأصبح طريق فاس بعدها مفتوحا امامه ، ومن مدينة فاس توجه المعتصم الى مراكش التي فر عنها المتوكل نحو بلاد سوس .

أخذ المولى عبد الملك الذي تلقب (بالمعتصم بالله) منذ ان بدأت الاحوال تستقر لصالحه ، يعمل على اعادة الامن والهدوء الى المغرب ، بدون ان يتوان عن ملاحقة المتوكل الذي ما فتىء يؤلب القبائل ويهوى القوات المحاربة لاسترداد عرشه المسلوب . وقد خاض ضد عميه أربعة وعشرين معركة خلال سنتين انهزم فيها جميعها (6) .

والمولى عبد الملك المعتصم الذي عرف بالاطلاع الواسع على الحضارة الاوربية المعاصرة شاء ان ينهج بالمغرب سياسة جديدة تكسبه احترام جميع الدول وتوفر له الامن والاستقرار اللازمين لتقدم البلاد وازدهارها ، ولهذا السبب نجده يتوعد الى السلطان العثماني ويرضى القوات التركية التي جاءت لمساعدته على استرداد الحكم ويرسل الى ملك فرنسا هنري الثالث مع الضابط Luis Cabrette الذي كان من اصدقاء المولى عبد الملك في الجزائر ليطلعهم على احوال المغرب وليخبره

(3) المصدر السابق . ص 172

(4) الفشتالي : مناهل الصفا . ص 47 .

(5) المؤرخ المجهول : تاريخ الدولة السعدية ص 48 .

(6) الانراني : نزعة الحادي . ص 65 .

بتوليته حكم البلاد ، وقد كلف هذا الضابط بنفس المهمة لدى ملك اسبانيا فيليبس الثاني (7) . كما أرسل ثانية الى فرنسا ولدى هنري الثالث نفسه سفيرا آخر هو Guillaume Berard لابرارم حلف بين المغرب وفرنسا . ونحن وان كنا نجهل فيما اذا كان هذا الحلف قد تم بين البلدين أم لا ، الا اننا نعلم بأن (غيوم بيرارد) قد أصبح منذ سنة 1577 قنصلا لفرنسا في المغرب ، فكان بذلك اول ممثل سياسى فرنسى في المغرب عند مطلع العصور الحديثة (8) .

وفي نطاق هذه السياسة كاتب المعتصم الملكة الانكليزية (ايليزابيث) ليخبرها بتوليته السلطة وانه مستعد لتلبية كل مطالبها (الى السلطانة المعظمة .. زبيبة بنت السلطان المعظم .. كتبناه اليك من حضرنا العلية مراكش .. وموجبه اننا نعرفك ان الله تبارك وتعالى مكنى من ملك والدي .. واستوليت على جميع بلاده .. فلتتعرنى انت على محبتك وكلما يعرض لك في بلادنا من الاغراض فانه مقص على ما يوافق غرضكم ومرادكم) (9) .

كما استدعى التجارين الانكليزين Jhon Williams و Jhon Bampton واكد لهما رغبته في احترام جميع الاتفاقيات التي كان ملوك المغرب قد عقدوها مع الدولة الانكليزية واعرب للتجارين في الوقت نفسه عن عواطفه ومتهمياته نحو الملكة الانكليزية وبانه يؤمل في أن تزدهر تجارة المغرب في المستقبل وذلك بعد أن يقوم التجار الانكليز بنقل منتجات البلدان الاوربية الى الشرق الاسلامى عبر الاراضى المغربية عوضا عن نقلها عن طريق المانيا وايطاليا (10) .

وحسب مذكرة Edmund Hogan الانكليزى الى ايليزابيث ، والمؤرخة في مارس 1577 نعلم بأن المولى عبد الملك كان يريد ان يجعل من المغرب سوقا رائجة للثياب الانكليزية ، لانه يرغب في أن يكون لباس رعاياه حسب الزي التركى (11) ، ونرى في هذه المذكرة أيضا كيف أخذ المعتصم يتقرب من الانجليز وقد سمح لهم وخدم بتصدير ملح البارود متابل (قنابل) للدفاع وأسلحة أخرى ، وقد استجابت الملكة ايليزابيث وبعثت تشكر المولى عبد الملك على نواياه الطيبة نحو التجار الانجليز ، ثم أرسلت Edmund Hogan سفيرا في المغرب وكلفته بأن يرجو المعتصم

(7) م. ص. ت. م ، المجموعة الاولى ، فرنسا ، ج 1 ص 350

(8) المصدر نفسه ، ص 355 .

(9) مجلد تلوان . العدد التاسع . ص 32

(10) م. ص. ت. م ، المجموعة الاولى ، بريطانيا ، ج 1 ، ص 199

(11) المصدر السابق ، ص 239 .

بان يترك امر اتفاته معها في طى الكتمان (12) .

استقامت مدريد ولشبونة للتقارب بين المغاربة والانجليز ، واحداثت المؤن والذخائر التى اخذ التجار الانجليز يحملونها الى المغرب تلقا عظيما لدى ملك البرتغال خاصة ورغم السفارة التى كان المعتصم قد وجهها الى فيليب الثانى منذ ان تولى امر المغرب فقد ارسل اليه للمرة الثانية رسالة مع حاكم وهران الاسبانى Martin Diego بتاريخ ابريل 1577 تتضمن مشروع معاهدة مغربية اسبانية ، وقد بدأ المولى عبد الملك رسالته مذكرا الملك الاسبانى بانه دائما يبحث عن صداقته ، وكذلك على ذلك مراسلته السابقة له ، ثم استعرض اهم بنود مشروع المعاهدة التى تنص على اقرار السلم بين البلدين وحرية التجارة لرعاياها ، وعدم مد يد المساعدة ضد بعضها البعض (13) . ولم تثبت الوثائق التاريخية فيما اذا جرت محاولات بين مدريد ومراكش لمناقشة مشروع المعاهدة الذى تقدم به المعتصم ، ام ان الاحداث التى جرت بالمغرب من جراء انهزام المتوكل والتجائه الى الملك البرتغالى الشاب الذى استجاب لطلبه قد حال دون ذلك وجعل فيليب الثانى يترقب فى جوابه انتظارا لما سيؤول اليه تدخل (دون سباستيان) ملك البرتغال من تطورات واحداث .

تعرض المغرب لاهوال ومحن شديدة بسبب الحروب الاهلية التى جرت بين المتوكل وعبيه وانعكست مضاعفاتها بصفة خاصة على احوال البلاد العامة (التى نلت فيها اسواق الفتن واظلم الجو فيها بالهرج فى سائر اقطار المغرب حتى ثمرت الرعايا واستنسر بغاتها وطفى الجند .. وتعطل الخراج منذ سنين حتى نفذ الطارف والتال .. وكاد سلك الدولة ينتثر) (14)

وقد شجعت هذه الاوضاع السيئة القوى الخارجية المتريصة على الاسراع الى الاستفادة من الظروف الملائمة للغزو والاحتلال وتتمثل فى استعدادات البرتغال للتدخل العسكري وفى الجهود المتواصلة للاتراك لفرض سلطاتهم على البلاد .

ونحن وان كنا نهمل ما التزم به المعتصم للاتراك سامة معاونته ضد المتوكل ، الا ان بقاء زوجته وابنه اسماعيل رهيئتين بالجزائر يؤكد لنا تراجع المعتصم عما

(12) المصدر السابق ص 350 .

(13) المصدر السابق ص 214 .

(14) مناقب الصفا للشنتلى . ص 39 .

واعدهم به كما ان انضمام بعض القوات الانكشارية التى قدمت مع المعتصم الى المتوكل بسوس ومحاولة القائدين الدغالى والغري — وهما على ما كانا عليه من صلات قوية مع الانراك — الثورة ضد المعتصم ، لا يترك مجالا للشك فى ان العلاقات بين المعتصم والانراك قد دخلت مرحلة من التوتر وتربص الفرص (..) وارتاده المتوكل .. ومن معه من الانراك الفارعين اليه .. فانزلهم بمنازل القرب والاختصاص لديه فأحضروا له النصح والمخالصة وعضوا على خدمته والاستماتة دونه بنواجدهم وكانوا احد شوكته فى الحروب السوسية (15) .

ولقد وصل التوتر مرحلة جعلت رمضان باشا يتدخل عسكريا فى شرقى المغرب (وكان أخونا رحمه الله عرض فى رمضان بهذا السبب للديار العثمانية فامتعض لذلك السلطان .. امتعاضا عزل به رمضان من الجزائر) (16) .

فهل يمكن القول بأن تخلى المعتصم عن وعوده للانراك دفعتهم الى التدخل عسكريا فى شرقى البلاد كنوع من التهديد ؟ وهل كان التهديد التركى عاملا رئيسيا فى تقرب المعتصم من الاسبان ودخوله فى مفاوضات لعقد تحالف عسكري معهم ؟ أم ان المعتصم قد وجد فى الهدنة التى وقعتا اصطامبول ومديرد فى يبرابر 1578 سبيبا قويا للترام الحياذ بين قوى الشرق والغرب ومسالمة الاسبان كما سالهم السلطان العثمانى .

وكيفما كان الامر لقد كان عزل السلطان لرمضان باشا عن الجزائر من قبيل تطين المعتصم ريثما تسنح الفرصة المناسبة للتخلص منه .

بعد التجاء المتوكل الى شمالى المغرب علم بالاستعدادات التى يقوم بها الملك البرتغالى لغزو المغرب ، فأرسل اليه نبيلا برتغاليا كان أسيرا عنده هو Don Antonio de Cunha ليطلب منه حمايته ومساعدته ؟ وانتقل المتوكل الى سبنة التى ظل بها اربعة أشهر ومنها الى طنجة فى انتظار وصول (دون سباستيان) على راس القوات العسكرية ؟ ومن طنجة وجه المتوكل كتابا الى علماء المغرب يبرر فيه فعلته الا أن العلماء استنكروا تصرفاته وأجابوه بخطاب طويل وهام (17) .

وبالتجاء المتوكل الى طنجة عند البرتغال ، خضعت معظم البلاد للمعتصم ، ولم يبق خارجا عنه غير منطقة الغرب التى كانت تضم القصر الكبير واصيلا والعرائش

(15) مناهل الصفا للفشتالى . ص 34 .
(16) مجموع مخطوط بدار الوثائق بالرباط تحت رقم ك 285 ص 7 .
(17) الامرانى : نزمة الحادى . ص 65 .

والتي كانت تحت حكم عبد الكريم ابن تودة صهر المتوكل الذي طلب النجدة من البرتغال مقدما لهم مدينة اصيللا التي سرعان ما وقع احتلالها من طرف القوات البرتغالية (من نزوع ابن تودة قائد الفحص وبلاد الهبط الى ارض الشرك ومجاجاته بالنصارى الى اصيللة على حين غفلة من اهلها واجهاض المسلمين عنها الى القصر فنملكها المشركون) (18)

اما موقف المولى عبد الملك من التجاء المتوكل الى طنجة وطلبه مساعدة (دون سباستيان) فالوثائق المعاصرة تحفظ لنا رسالة وجهها المعتمض الى لشبونة يذكر فيها الملك البرتغالي بأن الحروب التي يسعى لها غير عادلة ، وانه يرى من ورائها احتلال المغرب ، وليس بسبب تأييد مغربي ضد آخر سيعرض ملك البرتغال نفسه وجيشه للخطر ، ثم ينبهه الى ان عهود المتوكل لا قيمة لها ، وفي الختام يشعر المعتمض ملك البرتغال بأن عليه ان لا ينسى بأن المولى عبد الملك صديق حميم للسلطان العثماني (19) .

غير ان تمادي ملك البرتغال في خطته الرامية الى غزو المغرب بدعوى مساعدة المتوكل وحرصه على اغتنام هذه الفرصة ، جعل ملك اسبانيا الذي كان منشغلا بأحداث اوربا الغربية وبالنزاع مع بريطانيا ، يبعث الى قريبه دون سباستيان عدة سفارات ليحذره من مغبة اعماله ، ولا ننسى بأن المعتمض كان في هذه الاوثة قد تقدم بمشروع المعاهدة المغربية — الاسبانية التي لا زالت تحت الدرس في بلاط ملك اسبانيا بالاسكوريال ؟ ومن السفارات التي وجهها فيليب الثاني الى لشبونة Don Juan de Silba ثم Don Luis de Silba كما بعث اليه سفيراً فوق العادة هو Don Medina Sidonia في مارس 1578 ، ولكن جميع المحاولات باءت بالفشل لاصرار ملك البرتغال الطموح على اغتنام الفرصة الراهنة للتدخل في المغرب واستعادة نفوذ البرتغال في هذه البلاد (20) وقد وافته الظروف المناسبة عندما جاء المتوكل الى طنجة وطلب مساعدة لشبونة ضد عمه المعتمض مقابل التنازل للبرتغال عن سائر السواحل المغربية ، ثم عندما التجأ عبد الكريم بن تودة صهر المتوكل الى طنجة ايضا وتنازل للبرتغال عن اصيللا . فهذاان العاملان كانا بالنسبة لملك البرتغال سببين كايين ليتدخل في المغرب سعيا وراء تحقيق الامنية المنشودة . وبدأت بذلك صفحة جديدة في تاريخ المغرب وتاريخ الدولة السعدية بوجه خاص .

(18) الفتحى : مآثر الصفا . ص 114 .

(19) م. ص. ت. م. ، المجموعة الاولى ، فرنسا ، ج 1 ، ص 370

(20) المصدر السابق . ص 465 .

قاد الملك البرتغالي قوات جرارة بلغ تعدادها نحو عشرين ألف محارب وأرست جميع قطع الاسطول بمدينة أصيلا التي اتخذت نقطة انطلاق لغزو المغرب ، وقد كان وصول القوات المهاجمة يوم الاثنين 12 يوليوز 1578 حيث عسكرت بضواحي مدينة أصيلا ، علاوة على قوات المتوكل التي كانت تقدر بنحو خمسمائة فارس (21).
أما المولى عبد الملك الذي كانت عيونه تراقب كل تحركات الحملة البرتغالية منذ خروجها من لشبونة يوم 25 يونيو 1578 فقد خرج من مراكش في اليوم التالي وقصد سوس ، وربما كان ذلك لاعداد وتجهيز القوات العسكرية، ثم عاد الى مراكش وخرج منها ثانية باتجاه الشمال حيث عسكر في منطقة الخميس يوم 3 يوليوز ، ولـ يوم 6 يوليوز وصل تامسنا فسلا يوم 14 منه . ثم المعصورة في اليوم السادس عشر ، وقد نضب بهابعض قطع المدفعية . ولما وصل المعصورة علم بنزول الحملة البرتغالية في أصيلا (22) .

وتحفظ لنا المصادر التاريخية مراسلات المعتصم مع سباستيان قبل خوضها المعركة فنجد ترجمة لرسالة وجهها المولى عبد الملك الى الملك البرتغالي يوم 23 يوليوز 1578 يذكره فيها ثانية بأن الحرب التي يقوم بها غير شرعية وأنه جاء لمساعدة محمد المتوكل الذي طالما الحق الاضرار بالبرتغال والذي لن يستطيع الوفاء لما تعد به للبرتغال من أن يتنازل لهم عن قسم من الاراضي المغربية (23) .

وفي تاريخ الدولة السعدية للمؤلف المجهول يذكر بأن المعتصم كتب الى ملك البرتغال بعد نزوله بأصيلا ، وكان مما قاله له : (ان سطوتك قد ظهرت في خروجك من ارضك وجوازك البحر الى عدوة المسلمين فإن انت تبنت في الساحل الى أن نقدم عليك فأنت نصراني حقيقى وشجاع وان انت رجعت الى بلادك وحقرت بعض الرعية قبل أن يقاتلك أمير مثلك فأنت يهودي بن يهودي (24) .

فالبلاد كانت تعيش أوضاعا داخلية سيئة نتيجة الحروب الاهلية ، وتعرض في الوقت نفسه لمؤامرات خارجية خطيرة ، غير ان نزول الحملة البرتغالية بأصيلا يوم 12 يوليوز 1578 م ومناداة المعتصم في جميع انحاء المغرب بالجهاد المقدس غير بسرعة من ظروف البلاد الداخلية وجعل صفوف المجاهدين تتقدم لمواجهة الخطر الخارجى (ولما سمعت جنود الله وانصاره وحماة دينه من العرب والعجم .. حملتهم

(21) م. ص. ت. م. المجلد الاول ، فرنسا ، ج 1 ، ص 293

(22) المصدر السابق . ص 536

(23) المصدر السابق . ص 392

(24) تاريخ الدولة السعدية للمؤلف المجهول . ص 60 .

الفيرة الإسلامية والحمية الإيمانية وتجدد لهم نور الإيمان واشرق عليهم شعاع لا يقاس ... عقد الراية المنصورة بالله وسط جامع المنصور بعد أن ختم عليها أهل الله حملة القرآن مائة ختمة وصحيح البخاري وضجوا عند ذلك بالتهليل والتكبير والصلاة والسلام على البشير النذير والدعاء له وللإسلام بالنصر والتمكين (25) .

وإثناء استعدادات المعتمصم لمواجهة البرتغاليين ، اغتتم الفرصة بعض القادة الأتراك ومن والاهم في حاشية المولى عبد الملك ، وأقدموا على تسميته (أن قائد الأتراك الذي كان معه بعث لبعض قواده أن يلتاهم بكعك مسموم هدية لعبد الملك المذكور قبل وقت جوازهم عليهم قصد بذلك بعد أخذه به مدينة فاس ليثبت الملك لهم فيها) (26) .

بقيت قوات الحملة البرتغالية بضواحي أصيلا ما بين 12 و 28 يولييه 1578 م حيث كان المعتمصم في هذه الآونة قد عسكر بسوق الخميس على بعد ستة أميال جنوبى وادي القصر الكبير . وكانت المعتمصم سباستيان ثانيا (باني قد جئتكم من مراكش ورحلت اليك ستة عشر مرحلة وأنت لم تدن الى مرحلة واحدة) (27) . ويدهي أن الغاية التي كان يهدف اليها المولى عبد الملك هي التدرج بالحملة البرتغالية والإبتعاد بها عن قواعدا ومراكز تموينها ليسهل القضاء عليها . وقامت القوات البرتغالية بالفعل بالترحف نحو الداخل يوم الثلاثاء 29 يولييه وعسكرت أخيرا على الضفة اليسرى لوادي المخازن يوم الأحد الثالث من غشت 1578 م .

أما قوات المولى عبد الملك فمن الصعب تحديدها لأنها كانت تضم عددا كبيرا من المجاهدين بالإضافة الى الجنود النظاميين والقوات التي بعثها باشا الجزائر لصد الغزو البرتغالي (28) .

وأخيرا التقى الجمعان قرب وادي المخازن وجرت معركة حاسمة في تاريخ المغرب يوم الاثنين 30 جمادى الأولى عام 986 هـ الموافق 4 غشت 1578 م عرفت بمعركة وادي المخازن أو معركة القصر الكبير أو معركة الملوك الثلاثة .

واعتمادا على ما دونه وزير المنصور عبد العزيز الفشتالي في (مناهل الصفا) :
 فإن المعتمصم قد اشتد عليه المرض ليلة المعركة (الى أن كان من زحف طاغية

(25) نزوة الحادي للآلراى . ص 65

(26) ابن القاضى : ذرة الملوك . مخطوط بدار الوثائق بلمرباط تحت رقم د 1428 .

(27) المؤلف المجهول : تاريخ الدولة السعدية . ص 61 .

(28) م. ص. ت. م ، الجبومة الأولى ، فرنسا ، ج 2 ، ص 452

كانت القوات التركية التي حاربت في معركة وادي المخازن الى جانب البخارية تكون من : (6000 من رماة النار و 1000 من قبائل زواوة و 800 فارس) ومزودة بآلى عشر مملعا .

برتقال في جموع الشرك لوادي المخازن وأرجاف الناس بمرض أخى المعتصم ما بلغ به الحزام الطبيب فارتبك الأمر وأرعدت سماء الهول وأبرقت بقوالى زخوف العدوتين وأحزاب الملتين الى اللقاء للغد واضطربت أحوال المسلمين وانحلت عزائم المستضعفين منهم) (29)

وفي صبيحة يوم المعركة مات عبد الملك (لا نقضاء أخيه المولى عبد الملك أمير المؤمنين رحمه الله لأول المصطدم وعند ما اقتدح زناد الحرب فكان في موته ساعتئذ وأحزاب الطاغوت فافرة الأفواه لالتهام أنصار الملة كجوة للإسلام) (30) ، فتولى المولى أحمد القيادة (ولم يحفل بما قارن هجوم العدو من موت أخيه ولا زاد إيداه الله على أن وكل برعى محفته من وثق بمكانه) (31) وتوجيه الأوامر الى مختلف وحدات القتال (ورأى قائد القواد كان عند المنصور حينئذ أبو عبد الله محمد بن سليمان من تلك الأحوال ما هاله ، قال أمير المؤمنين المنصور إيداه الله ولم أشعر يومئذ حتى استأذن على الدخول بالفسطاط مذعورا فوصف لي من اضطراب أحوال الناس لهول اليوم وانحلال عزائم المسلمين ما شاهده وأذهله) (32)

وانتهت المعركة بانتصار المسلمين (وناهيك من يوم أجلى عن ثلاثة ملوك موتى ما بين مجدل وغريق وفائض النفس حتف الأنف وعن ثمانين الفا من المشركين ما بين قتيل وأسير) (33) .

كلف المولى أحمد الكاتب محمد بن عيسى بكتابة نص بيعته ثم جمع كبار الجيش والشرفاء والوجهاء وأخبرهم بموت أخيه المولى عبد الملك المعتصم وتوليته أمور البلاد ، فأسقط في أيدي القادة الأتراك والمتآمرين معهم وارتكوا للمفاجأة ولكنهم سرعان ما حاولوا استغلال السمعة التي كانت للمعتصم الملك الشهيد بين أوساط الجند والعامّة لبث روح التفرقة والخروج على المولى أحمد بأن نادوا بأحقية المولى إسماعيل بن عبد الملك في العرش المغربي مما اضطّر معه المولى أحمد الى الفرار . (.. خوفا من أن يقتلوه) (34) الا أن المغاربة أصروا على بيعته أخيرا والتمسك بها مما لم يجد معه الأتراك ومن على رأيهم بدا من القبول بالأمر الواقع (.. فلم يقبل ذلك أهل مراكش فجاء بمولاي أحمد أينما كان في الساعة فولوه فكان مولاي أحمد أميراً) (35)

29) الفشتالي : مناهل الصفا ، ص 17

30) المصدر السابق ، ص 37 .

31) المصدر السابق ، ص 38

32) المصدر السابق . ص 27

33) المصدر السابق . ص 39 .

34) عبد الرحمن السعيدى : تاريخ السودان . ص 208

35) المصدر السابق . ص 208

ولان المولى عبد الملك المعتصم كان قد أوصى بالامر لآخيه المولى أحمد منذ ان شعر بالمرض (فأعلم انى لا أحب أحدا بعد نفسى محبى لك ورغبى فى انتقال هذا الامر بعدي الا اليك لا لغيرك) (36) وهكذا نسجل هذه السابقة الخطيرة بين المولى أحمد والأتراك مما سيكون له كبير الأثر على مستقبل العلاقات المغربية التركية طوال عهد المنصور (بويغ له أيده الله عشية الاثنين الآخر من جمادى الاولى بمشهد الفتح .. على رأس الثلاثين من ولادته) (37) واتخذ لقب الخليفة المنصور تخليدا لهذا الانتصار العظيم .

كان أول عمل قام به المنصور بعد اتمام بيعته هو ارسال جثة أخيه المعتصم الى ناس فى نفس الليلة لتدفن بها وذلك فى موكب رهيب ، اذ حمل نعشه كبار فقهاء ناس وقضاة وشرفاء القوم ، فى حين ان جثتى المتوكل ودون سباستيان أمر المنصور (بسلخ جلد بن أخيه مولاي محمد وحشوه تبنا وأرسله الى مراكش لطيف به به لبعائنه الناس على تلك الحالة ويعتبرون به ، فمن يومئذ سمي المسلوخ) (38) و (بدفن سلطان النصارى بموضع معين ليعرف عند الاحتياج اليه) ، وقد وجد بجثة دون سباستيان آثار جروح : اثنان برأسه وأخرى بساعده (39) (لكن صحفته أمواج الفتنة مجهولا وجدلته حملتها بين حصى الموت مقتولا وبعد حين رفع الينا من طاف على صرعى المعركة خبره وأنه أوقع عليه بين تلك الجثث نظره فامرنا فى الساعة بحمله وإيداعه أصون مستودع) (40) .

ومن ساحة المعركة وجه المنصور سفارة الى اصطامبول برئاسة أحمد بن يحيى الهوزالى (لسلطان الروم والمشرق وإيفاد رسائله عليه فى مشهد الفتح الى القسطنطينية يخبره بما هيا الله من نصر دينه وأعلاء كلمته والاستيلاء على أحزاب الشرك وطواغيث الكفر) (41) ، وقد حملت نفس السفارة رسالة خاصة الى والى الجزائر حسن باشا البندقى وهدية للمولى اسماعيل بن المعتصم الموجود بالجزائر

(36) الامرائى : نزعة العادى . ص 71

(37) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 25

(38) المؤلف المجهول : تاريخ الدولة السعديّة . ص 66 .

(39) م. ص. ت. م. المجموعة الاولى ، بريطانيا ، ج 1 ، ص 297

(40) من رسالة المنصور الى الملك الاسباني فيليب الثانى

بتاريخ 2 رمضان 986 هـ .

الكتابة الوطنية ببيدريد — مخطوط — رقم 257 .

(41) الفشتالى : مناهل الصفا ، ص 61

(واشترتم ولدي الى ما كنا اتحنفناكم به صحة خدينا .. ابي العباس أحمد بن يحيى الهوزالى) (42) .

ثم توجه المنصور الى مدينة فاس (ثالثة الفتح من مخيمه بوادي المخازن يوم الاربعاء الثانى من جمادى الثانية ووصل لفاس للنصف منها فدخل فى يوم مشهود عند اهلها دخولا فخما لكثرة ما استاق من سبى المشركين واقتاد من جنود الله .. ولايام من مقامه وانه وفد مراكش دار الخلافة ببيعة اهلها جنديهم وحضريهم .. ثم انتالت عليه بيعات سائر المدن والامصار) (43) .

وعند ما كان المنصور بفاس اثارته ضده جماعة من قواد الجيش بزعامة الكاهية محمد زرقون قائد قواد عساكر النار (الفوغاء من الاجناد .. وأسرى فى تنبيق سوق الشقاق لذلك والتغريب بين الجند والخليفة والحم حتى تفاتم الامر .. وجمع كلمة الاجناد كافة على افساد فاضطربت الاحوال وتحقق امير المومنين حينئذ بذلك ما انطوى عليه محمد من العداوة والبغضاء لسلطانه وجده فى هدم بناء دولته وسعيه فى فساد ملكه وتفريق امر الجماعة) (44) .

ويبدو ان المؤامرة كانت تهدف الى تولية الامير داود بن عبد المومن لصلاته القوية بالكاهية وللتأييد الذي كان يحظى به من قبل الاتراك باعتبار امه التركيسنة ونشأته بتملسان ، غير أن المنصور عرف كيف يتخلص من المناوئين بالقضاء عليهم (وقتل النفر الاربعة جميعا ليوم واحد من شهر رجب عام ستة وثمانين واصبحت رؤوسهم معلقة على الشرفات بباب السبع من ابواب فاس الجديد) (45) ، ويفرض فى الوقت نفسه نوعا من الاتامة المحروسة على الامير داود بن عبد المومن (وتوى لذلك ما ينشأ عن بقاء داود وراءه وحذر مغبته فراى جلبه ومقامه لديه أحوط على الكلمة) (46) .

لهذه الاسباب ضاعت على المنصور فرصة استغلال انهزام البرتغال لتحرير ما تبقى لهم من قواعد فى الشواطىء المغربية واجبر على الاستجابة للطلب الذي تقدمت به سفارة اسبانية — برتغالية (يرغبونه فى الامتنان بشلو الطاغية بستييان الموارى بالتقصر فى تابوته ووافوه ايام مقامه بمعسكره من ساحة فاس بين يدي

42 من رسالة للمنصور الى اسماعيل بن المهتمم — بتاريخ محرم 987 هـ .
دار الوثائق بالرباط — مخطوط ك 278 من 37 .

43 الفشتالى : مناهل الصفا . ص 40

44 الفشتالى : مناهل الصفا . ص 45

45 الفشتالى : مناهل الصفا . ص 47

46 الفشتالى : مناهل الصفا . ص 56

ارتحاله لمراكش فطارحوا عليه متضرعين وخاضعين لعز الاسلام فرأى ايده الله
ما في اسلام الشلو لهم والذهاب به الى ارضهم من مزيد الفخر للاسلام وتجدد الاحزان
لعبداء الاصنام .. فامتن لذلك به عليهم واسلمه اليهم من غير عوض بعد أن كانوا
مذعنين لبذل الاموال العظيمة فيه) (47) .

والعبارات التي جاءت في اول خطاب من المنصور الى فيليب الثانى تؤكد
الاتجاه الجديد لسياسة المغرب الخارجية (وصل الينا خطابك . وفى ضمن ذلك
توجيهكم الرغبة فى تسريح جثة السلطان دون سبشطيان .. فأهلا بها من غرض ما
أوسع له عندنا ساعة الاسعاف والاسعاد .. واذا وصل كتابك فيه فما نحن سرحناه
مكرما ورفعنا لاهتمام غرضك فيه علما .. فلا يمنعكم من اغراضكم بهذا المقام العلوي
مانع) (48) .

لقد حرص المنصور غداة توليته على الحفاظ على نوع من الصلات الودية مع
الانراك والاسبان ، وكاتب لاجل ذلك مراد الثالث مخبرا بالانتصار فى المخازن وبتوليته
الحكم فى المغرب ، كما سلم جثة دون سباستيان لفيليب الثانى ملك اسبانيا ، وبخفاوة
كبرى استقبل الوفود السياسية التى وصلت الى مراكش من اصطامبول ومديرد
وغيرها لتهنئة المنصور وتقديم انفس الهدايا عربون المودة والتقدير . (فقد وصلوا
مراكش بهدايا رسلهم وكان يوم بلوغهم اليها يوما مشهودا عند أهلها تحدث عنه
الناس) (49) ، ومما جاء فى هدية الوفد البرتغالى (ثلاثة مائة الف دقا من ريال الفضة
واما ما يرجع الى احوال السلع النفيسة من كل جنس وغريب كل نوع من الحرير
والخز والديباج والسندس . الى غير ذلك من السترة الهندية مذهبة بستورهاها
وارطبتها من رقيق الديباج والموشى وكراسى مكللة من طرف الهند وبلادهم وتحف
ارضهم واوانى صنعمهم وذخائر ملكهم فبحر لا ساحل له ..) (50) .

لها هدايا الوفد الاسبانى فقد اشتملت على كل نفيس من حجر الياقوت الكبير
الحصبات المنتقى لذخائر الملوك انتزعها من ناج آباءه .. وربعة مملوءة من حصباء
الذر الفاخر وقصب الزمرد وكانت منها زمردة فاخرة الجرم تفوق سائر الاحجار مقداراً
وشكلاً وعلقت بها زمردة اقل منها جرماً واشبه بها حسناً وكلتاها من ذخائر الملوك
العظيمة ..) (51) .

47) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 49

48) من رسالة للمنصور الى فيليب الثانى . المكتبة الوطنية - مدريد - مخطوط رقم 257

49) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 49

50) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 49

51) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 50

وبالنسبة للوفد العثماني فقد ضم عددا من علية القوم وكبار الاسلام (آؤدهم مراد خان من حضرته وأوعز الى مفتى الجزائر من ايالته الشيخ العالم الصدر الكبير الخطيب الشهير أبى الطيب البسكري بصحابتهم الى المغرب واختاره لشهرته ومكانته فى العلوم والرياسة ليحسن اداء الرسالة وتقدير المودة والاعراب عما فى الضمائر وليلدل بارساله على علوفهمه وشرف مقدار المرسل اليه) . وقد حمل الوفد الى المنصور هدايا ثمينة (من الملابس الفاخرة .. وسيف محلى بديع الصنعة فاخر الحلى والزينة) (52) .

ووصل الى مراكش أيضا الوفد الفرنسى لنفس الغاية (وكان وصل أيضا على تهنتته وذلك عامئذ ارسال طاغية الافرنجة ويقال لهم فرنصة وبه يعرفون اليوم) . وقد قام بالسفارة الفرنسية التى بعثها الملك هنري الثالث وفد يترأسه : Guillaume Berard الذى كلف من طرف حكومته بتهنئة المنصور وتذكيره بالعلاقات الطيبة التى كانت قائمة بين المعتمض وفرنسا ، وبأن يسعى لجعل الموانئ المغربية مفتوحة فى وجه السفن الفرنسية ، ولتحرير الاسرى الفرنسيين بالمغرب ، كما كلف السفير الفرنسى بالعمل على تصدير نحو خمسة وعشرين الف قطار من ملح البارود وجمل المنصور يقرض الحكومة الفرنسية مائة وخمسين الف دوكة (53) .

ورغم مظاهر الود التركية — الاسبانية فان المولى أحمد لم يطمئن لاي من الجانبين : فالقادة الاتراك ومن والاهم ناوؤه ساعة توليته وكادوا الاطاحة به فى فاس، والوالى التركى بالجزائر حسن البندقى تزوج ارملة المعتمض وأصبح يحتضن الامير الصغير المولى اسماعيل لغاية بعيدة يهدف اليها السلطان العثمانى . والاسبان تدخلوا عسكريا بعد المعركة فى سبته وطنجة وأصيلا والجديدة بدعوى حمايتها من الهجومات المغربية ، فانتسعت لذلك مناطق النفوذ الاسبانى بالشواطىء المغربية وازدادت بالتالى اخطارهم على المغرب .

وقد اشتدت مخاوف المنصور من التدخل التركى عند ما استطاع داود بن عبد المومن الفرار من مراكش واعلان الثورة ضد عمه بسوس فى شعبان 987 هـ الموافق لآكتوبر 1579 (اتصلت به الشرزمة .. من أصحاب المعتمض فآظفروا له الميل الى جانبه ومآوا اليه باسباب الانتهاء الى حزب عمه المعتمض وجعلوا يوسوسون

(52) الشئالى : مناهل الصفا . ص 50

(53) م. ص. ت. م ، المجموعة الاولى ، فرنسا ، ج 2 ، ص 22

اليه وييثون في آذانه .. بها كانوا مرضى القلوب على الدولة .. فتبكت منه
وساوسهم (54) .

ومن دراستنا للاحداث نصل الى حقيقة هامة وهى ان كلا من مراد الثالث
ونيليب الثانى قد حرص على الاستفادة من ظروف الهدنة بينهما لوضع حد لاطماعهما
في المغرب والبرتغال :

فقد توفى الكاردينال هنري في يبرابر 1580 واستفحلت بموته ازمة وراثية
العرش البرتغالى ، والملك الاسبانى يعد من اقوى المطالبين بالعرش .

واشدت في المغرب ثورة داود بسوس ضد عمه المنصور فبعث الوالى التركى
رمضان باشا يؤكد للامير داود استعداد لهده بكل المساعدات (ولها عزمنا الان
بقدومنا الى مدينة تلمسان فأول ما سألنا عن احوالكم .. لكى ننشئ معكم عهدا
تقدم لنا مع اسلافكم فبعثنا لكم هذا المكتوب لعلكم تعلموننا في جوابكم لنا بما عندكم
من مآبول ومرغوب) (55) .

الا ان نجاح المنصور في القضاء على ثورة سوس في جمادى الاولى 988 الموافق
ليوليوز 1580 م في الوقت الذي اخذت القوات الاسبانية تكتسح الاراضى البرتغالية
وتلحق الهزائم المتوالية بمقاومة الامير البرتغالى دون انطونيو Don Antonio
دفعت السلطان مراد الثالث الى التفكير في وسيلة اخرى يبرر بها تدخله في المغرب،
فاقترح على المولى احمد في رسالتيه المؤرختين برجب عام 988 هـ - سبتمبر 1580 م
عقد تحالف عسكري ضد الاسبان على اساس امداده باسطول
حربى وقوات عسكرية (فلما وصل بمسامعنا الشريفة ومثاعرنا الخقانية المنيفة خبر
طاغية قشتالة وانه احتوى على سلطنة برتقال او كاد وانه جعل اهلها في الاغلال
والاصفاد وانه لكم جار وعدو مضرار حركتنا الحمية الاسلامية .. لاظهار الالفسة
الازلية .. ان نخذ عهدا .. ونؤكد ان المملكتين محروستا الجوانب .. ونعلق العهد
بالكعبة المنورة والحوضه المعظمة فاذا تم هذا الشأن .. فوجه لكم ثلاثمائة غرابيا
سلطانية وجيش عز ونصر وكماة عثمانية تستفتح بها ان شاء الله بلاد الاندلس) (56)
وقبل في نفس الوقت زواج المنصور من احدى بناته (عهدنا الى امير الامراء .. ان

(54) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 56

(55) من رسالة بمتها رمضان باشا الى داود بن عبد المومن
بتاريخ ربيع الاول 988 . سيمانتاس - اسبانيا رقم 160

(56) من رسالة للسلطان مراد الى المنصور
المكتبة الوطنية - مدريد - مخطوط رقم 257 .

يصبر لكم على احدى بناتنا .. اسعافا لغرضك المنيف) (57) غير ان المنصور (تناقل عن رد الجواب) (58) لتأكد من عدم صدق نوايا الاتراك اتجاهه وبأنهم غير جادين في محاربة الاسبان بعد أن جددوا معهم اتفاقية الهدنة يوم 25 يناير 1581 م ، اي ان الامر لا يخرج عن كونه وسيلة لغزو المغرب وضمه الى الامبراطورية العثمانية كما تخوض اسبانيا في نفس الوقت حروب البرتغال لتوحيد شبه جزيرة ايبيريا .

وبسبب اصرار المنصور على موقفه أعطيت الاوامر الى علوج على قائد الاسطول العثماني لغزو المغرب ، وقد وصل علوج الى الجزائر في جمادى الثانية 989 الموافق لشهر جوان 1581 م بينما كان المولى أحمد يربط بقواته الجرارة عند نهر تانسيفت بدعوى اخذ البيعة مصافحة لابنه المولى محمد المأمون منذ شهر صفر (وبلغ اليه خبر اجتهاده في ذلك من قبل انحداره في الاساطيل بستة اشهر) (59).

وكانت القوات المغربية قد استعدت لمواجهة التدخل التركي (فشرم ايده الله لتجهيز مساكره الهاشمية وكتائبه المظفرة الامامية .. الى تخوم المملكة لسد فروعها وحيطة ثغورها مخافة أن يفاجيء على بعضها على حين غفلة وأرصدت له العساكر على كل ثنية بالمغرب وجلست للوثبة على براثنها) (60) .

والى جانب الاستعدادات العسكرية ، وجه المنصور لاصطامبول سفارة خاصة تضم القائد أبا العباس أحمد بن ودة والكاتب أبا العباس أحمد بن يحيى الهوزالى بعد ان توصا، الى شبه اتفاق عسكري مع الملك الاسباني — الذي كان قد أنهى بدوره المشكلة البرتغالية بدخوله العاصمة لشبونة فاتحا يوم 31 يوليوز 1581 م — على اساس المساعدة العسكرية للمغرب لمواجهة التدخل التركي مقابل التنازل عن مدينة العرائش وامتيازات مهمة أخرى .

وامام تطور الاحداث لم يجد السلطان العثماني بدا من قبول الامور الواقع والتراجع عن غزو المغرب بأن امر علوج على بالعودة الى الشرق .

من نتائج الضغط التركي على المنصور أنه أجبر على التقرب من الاسبان منذ الشهور الاولى لتوليته ، وكانت حادثة المطالبة بجثة دون سباستيان بداية عهد جديد من العلاقات الودية بين المغرب واسبانيا ، فقد اطلق المنصور سراح السفير الاسباني في لشبونة (فككنا عن خديكم ذي شلبا قيود الاسر وعاملناه مراعاة

(57) المصدر السابق

(58) الفشتالي : مناهل الصفا ، ص 61 .

(59) الفشتالي : مناهل الصفا ، ص 62 .

(60) الفشتالي : مناهل الصفا ، ص 63 .

لقيامكم بالتسهيل واليسر) (61) . واستقبل بمراكش سفارة اسبانية تتكون من القسيس Pedro Venegas - Diego Marin وسلم اليهما الدوق الصغير De Varcelos كما اكد لها استعدادة لتلبية كل مطالب الملك فيليب الثاني .

وفي نطاق التقارب الجديد منح المنصور امتيازات خاصة لبعض التجار الاسبان (هذا الظهير السلطاني .. بيد حامله المتسك به التاجر افرنسيشسق بريـد Francisco Varredo يصوغ له ايراد بلادنا والتصرف بتجارته في مدننا وحدود ملكنا .. وابحنا له الاختلاف لبلادنا .. مخفوما باماننا برا وبحرا) (62)

ولم يغفل المنصور من جهة اخرى عن اطلاع الملك الاسباني على ثورة ابن اخيه داود بن عبد المومن بسوس وكيف تم القضاء عليها في نهاية الامر ، وقد الح المولى أحمد في احدى رسائله هذه على عودة الاستف (مرين) لاتمام المفاوضات معه خاصة ان حملة علوج على البحرية كانت في طريقها نحو المغرب .

ومن العوامل التي زادت من تقارب المنصور مع اسبانيا تخوفه من وجود الاميرين السعديين الناصر بن الغالب والشيخ بن المتوكل بين يدي فيليب الثاني بعد توحيد شبه جزيرة ايبيريا ، وفي الوثائق التاريخية ما يبرر حذر المنصور وتخوفه نقد وجه الناصر الى الملك الاسباني رسالة مؤرخة بيوم 26 سبتمبر 1580 يطلب فيها مساعدته على استرجاع الحكم في المغرب (63) .

استقبل المنصور القسيس مرين بمعسكره بتانسيغت ودخل معه في مفاوضات لوضع مشروع معاهدة عسكرية ضد الاتراك على اساس التنازل للاسبان عن مدينة المرائش التي كان الملك الاسباني يقدر اهميتها الاستراتيجية في القيام بالعمليات العسكرية ضد القراصنة الذين كانوا ينزلون بالتجارة الاسبانية في عرض الشواطئ المغربية الاطلسية افدح الخسائر (حضر جمعه العظيم رسول عظيم الملـة النصرانية طاغية قشتالة بها كان ساعثنذ بمراكش سفيرا الى حضرة امير المومنين من عند ملكه) (64) .

وقبل أن يعود السفير الاسباني حمله المنصور رسالة الى فيليب الثاني يطلعه فيها على الرحلة التي سيقوم بها الى فاس في قابل الايام .

(61) من رسالة للمنصور الى فيليب الثاني - المكتبة الوطنية - مدريد - مخطوط - 257 .

(62) يوجد نص الظهير في البصر السابق .

(63) مجلة الاندلس عدد 23 . ص 19 .

(64) الشنتالي : مناهل الصدا ص 60 .

وفي فاس تابع المنصور مع السفير مرين المفاوضات التي ابتدأت بتأسيسها
هذه المفاوضات التي دامت زهاء السنة تقريبا ، فماذا حصل والمنصور بفاس ؟

لقد استقبل غداة وصوله الى فاس سفارة تركية أرسلها مراد الثالث لتخبر
المنصور بالانتصارات العثمانية في ايران ضد الصفويين ولتؤكد له عودة العلاقات بين
المملكتين الى سالف عهدها بعد حادثة الغزو الفاشلة (ثم نظر في مخاطبة خاقان
صاحب القسطنطينية السلطان مراد خان وايفاد ارساله عليه نما تقرر من سوابق
اللفة والمهادات السالفة بينهما وبما كان السلطان مراد الاخير منهما في اتحافصاحبه
بالهدية) (65) .

وفي جواب المنصور الذي حملته سفارة مغربية تتكون من قاضي القضاة
بمراكش ابي القاسم الشاطبي والعالم ابي زيد عبد الرحمن بن منصور الشياظمي
تذكير بالبيت واشادة بالروابط بين الدولتين المسلمتين ثم التهئة بما حققته
القوات العثمانية في ايران ، ويختم المنصور خطابه بالتاكيد على دور المغرب في
الجهاد بالغرب الاسلامي (ولا طارئ بحمد الله عدا ما نحن فيه من الاهتبال بمصالح
العباد .. ثم مواصلة البكر والاصل .. باقامة فريضة الجهاد الذي هو الدثار لهذه
الهة الاسلامية والشعار .. فنحن بحمد الله دائما في الاهبة والاستعداد له وارتباط
الصافنات الجياد لارهاب اعداء الله اهل الكفر والعناد) (66) .

وقد حملت السفارة المغربية ايضا الى كل من والي الجزائر حسن باشا البندقي
وقبطان البحر علوج على باشا جوابين عن رسالتين لهما للمنصور يعتذران له عما
حصل من احداث (لما وفد على مقامنا العلى خدينا .. انهى الينا ما اصحبتموه من
كتابكم الذي ابدتم فيه لعلنا وجه الاعتذار سافرا .. فقد قبلنا عذركم) (67)

وجاء في جوابه لعلوج على (ورد على بابنا رسولنا الاثب من تلکم الابواب
العثمانية .. فانهى الينا بما تلقاه منكم .. وان تحرككم ذلك على ما حكيت ما كان منكم
لباعث نفسى .. وانكم فيه على غير هوى منكم ولا اختيار) (68) .

فهل كانت المحاولات التركية الجديدة ترمى الى بعث الطمانينة في نفس المنصور
وبالتالى للحيلة دون سيره بعيدا في تنازلاته للاسبان ؟

(65) نفس المصدر من 64 .

(66) من رسالة للمنصور الى مراد الثالث - رسائل سعية . من 18 .

(67) من رسالة جوابية بعثها المنصور الى حسن باشا . رسائل سعية . من 278

(68) من رسالة جوابية بعثها المنصور الى علوج على . رسائل سعية من 68

ان ما قام به المنصور وهو بناس يؤكد حذره ويقتضيه وسعيه في الوقت نفسه إلى تقوية اوضاعه الداخلية : فقد حصن مدينة العرائش حتى لا ينفاجاً بهجوم اسباني للأمال العريضة التي أصبح الاسبان يعلقونها عليها ، ووجه قوات عسكرية لتدعيم سلطانه على الريف وكل الشمال المغربي باعتبار ان هذه المناطق كانت محط اطماع القوتين الكبيرتين وعندها تلتقى حدودهما (كان أول شيء قدمه من اعماله .. بعض الزيادة مما يلي البحر في الحصن العظيم .. بالعرائش المعروف بحصن الفتح .. ثم نظر أيده الله في تثقيف أطراف البلاد .. فسرح كلا الى مكانه فثقت بهم الجهات وسد الثغور والمسالح .. وجهز القائد .. في جيش عرمرم من الاسل والنار الى بلاد الريف والهبط وجبال غمارة) (69) .

ومن جهة أخرى ، ظل المنصور يماطل السفير الاسباني ويعتذر بين الاوئسة والآخرى لفيليب الثاني عن هذا التأخير بحجة القيام بأعمال مستعجلة وجد هامة (ثم عنت لنا بعض أمور تجددت لدينا تقتضى مقامنا هذه المدة بهذه البلاد فاشغلنا تقاضيا وتديرها الى هذا التاريخ عن المبادرة بتشجيعه لكم في الفور كما هو المراد ، فكان المقتضى لتأخيرها ما عن لنا من هذه الاسباب كما انها أيضا سببت في تأخر هذا الجواب) (70) .

ولم ياذن للسفير مرين بالعودة الى اسبانيا الا بعد رجوع السفارة المغربية من اصطمبول وتأكده من النوايا الجديدة للسلطان العثماني (وكان من خبرهم انه لما وفدوا على القسطنطينية حضره بنى عثمان وأدوا رسالتهم الى السلطان مراد خان اهتز سرورا من أعوده لمقدمهم ولقاهم مبرة التكريم .. وكان القاضي أبو القاسم صنع له كلاما أعرب فيه عن حق الدولتين وأطرى فيه السلطان وقرر فضل اهل بيت النبوة .. وحض على اتحاد كلمة الاسلام .. ووقف السلطان على قدم البر لرسالة امير المؤمنين .. بأن تولى جوابها بخط يده فأعرب في ذلك بما لم يسمع قط عن ملك من ملوكهم الى ملك) (71) .

لقد كان للتهديد التركي خلال المرحلة الاولى من عهد المنصور اكبر الاثر في تقاربه مع الاسبان وبذل الوعود المختلفة للحصول على مساعداتهم العسكرية ومن خلال ما تتوفر عليه من وثائق معاصرة فان الاتصالات بين الجانبين قد مرت بالمراحل التالية :

(69) الشنالي : مناهل الصفا . ص 65 .

(70) من رسالة للمنصور الى فيليب الثاني — المكتبة الوطنية — بداريد — مخطوط رقم 257 .

(71) الشنالي : مناهل الصفا . ص 66 .

اولا — الظروف التي مهدت لمشروع التحالف العسكري (3 شعبان 990 / 2 غشت 1581) فقد استغل الاسبان اوضاع المنصور الداخلية وتخوفه من التدخل التركي وما أبداه من استعداد لتلبية مطالبهم (فلرغبتم بهذا المقام العلوي على الرحب والاكرام واغراضكم فيه محمولة من الاهتبال على الغريب والسنام ولـو توجهت فيما هو اكثر للقيت وجه القبول مشرق الجبين والتيسير .. فلا يمنعكم من اغراضكم بهذا المقام العلوي مانع) (72) وسعوا الى الحصول على امتيازات تتلخص في :

1 — الوعد بالنزول عن مدينة العرائش لاهيتها الاستراتيجية ودورها في مواجهة القرصنة التي تكبد التجارة الاسبانية مع العالم الجديد والشرق الأقصى اندح الخسائر في الاموال والارواح .

2 — افتداء اسرى معركة المخازن حتى لا يستفيد المنصور منهم ويستغل اليد اليد الخبيرة بوجه خاص في مشروعاته العسكرية والصناعية والعمرانية وغيرها .

3 — الحصول على امتيازات تجارية بما يشبه احتكار التجارة المغربية ليتمكن الاسبان من اغلاق الاسواق المغربية في وجه خصومهم ومهربى الاسلحة الاتجلىز خاصة .

ثانيا — التطورات الجديدة واثرها على سير المفاوضات المغربية — الاسبانية : من أبرز العوامل التي كان لها الاثر الاول في هذه التطورات : تراجع الانراك عن تهديدهم للمغرب ودخلهم في نوع من المسالمة وتبادل الود مع المنصور اي ان المولى أحمد قد أصبح يشعر بنوع من الاطمئنان النسبي اتجاه الانراك العثمانيين وهذا العامل اعطاه فرصة ثمينة للتريث والتدبر وعدم التسرع في اتخاذ ما من شأنه ان يخلق مضاعفات لا تحمد عتباها .

ويؤكد المؤقف الجديد للمنصور تصرفاته منذ ان عادت سفارة الشاطبسى والشاطبسى من الباب العالي ، والاعذار التي بدا يتذرع بها لمحاولة الاسبان وتسوينهم (ان رسلكم الاثير المرعى القسيس مرين الذي هو الآن بدارنا .. كنا عازمين كما عرفناكم على اشخاصه نحوكم .. ثم عنت لنا بعض امور تجددت لدينا تقتضى مقامنا هذه المدة بهذه البلاد .. فكان المقتضى لتأخيرها ما عن لنا من هذه الاسباب .. لكن

72) من رسالة للمنصور الى فيليب الثانى — المكتبة الوطنية — مدريد — مخطوط 257 .

هنا نحن ان شاء الله على حال اشخاصه في الفور (73) . وقبل ان يعود السفير الاسباني من فاس التي اقام بها سنة كاملة حملته المنصور مختلف الوعود والاماني بتحقيق رغبات الملك الاسباني في قابل الايام .

والعنصر الثاني الهام الذي اثر على سير المفاوضات بين المغرب واسبانيا : ظهور انجلترا على مسرح الاحداث وما ابدته الملكة ايليزابيث من جدية في تسليح الجيش المغربي وامداد المنصور بكل الحاجيات العسكرية البرية والبحرية بالاضافة الى العائدات المختلفة التي (ستستفيد) منها خزينة المنصور من جراء التجارة بين البلدين وذلك للحيلولة دون تقاربه مع الاسبان والتنازل لهم عن العرائش وتمكينهم من احتكار التجارة المغربية .

ونتيجة التتارب الجديد مع الانجليز ، حمل مبعوث الملكة ايليزابيث (هوجن Hogan) الى المولى احمد رسالة خاصة وهدية ثمينة وهي اسلحة نارية ومعدات حربية مختلفة . وفي الخطاب الذي اجاب به المنصور الملكة الانجليزية بتاريخ 20 جمادى الاولى 988 هـ / 3 يوليوز 1580 نجد الخطوط الكبرى التي سارت عليها العلاقات المغربية — الانجليزية .

فقد بادله المنصور الود والتقدير (ولقد وصل كتابك مشكور الاشارة والتصريح بمشتملا على الود الثابت والحب الصريح) (74) .

وتعهد لها بالسماح للتجار الانجليز الذين يتوفرون على اذن خاص منها بالمناجزة مع المغرب (وكذا التجار الذين لهم من خطابك الجليل حظ الايضا فلم عندنا بمقتضاه من الحظ ما يدل لهم من حقوقهم كل تمنع واستعصى) (75) .

كما ابدى كامل استعداد له لتلبية جميع رغباتها معاملة بالمثل (وقد ذكرتم .. ما عندكم من حسن القيام بما يعرض لنا من الاغراض هنا لكم والاهتمام بما يتهم نيسيره باعمال اشارتكم واقوالكم .. فاعراضك بهذه الحضرة العلية محمولة على كاهل التيسير والتسهيل) (76) .

وفي نطاق هذه الاتصالات تطورت العلاقات المغربية — الانجليزية وبلغت مرحلة خاصة لوجود عوامل اساسية تاربت بين البلدين :

(73) المصدر السابق .
(74) رسالة المنصور الى ايليزابيث — م. ص. ت. م ، انجلترا ، ج 1 ص 335
(75) المصدر السابق .
(76) المصدر السابق .

1 — في المجال الاقتصادي : وجد الانجليز في المغرب أسواقا تجارية هامة بعد ان سدت اسبانيا امامهم أسواق أوروبا الغربية .

ووجد المغرب في التجار الانجليز زبناء رئيسيين لبيع السكر وملح البارود ومختلف المزروعات والبضائع .

2 — في المجال السياسي : ادرك الانجليز ما لبناء القوات المسلحة المغربية من دور أساسي في الوقوف في وجه الاسبان وبالتالي لاحكام تطويق اسبانيا وتهديدها متى ما ضمنوا في المستقبل انضمام المغرب للمعسكر البروتستانتي . وما كان للمولى احمد وهو الحريص على تقوية سلطانه وتعزيز وسائله الدفاعية ان يتراجع عن عروض مشجعة كهذه تمده بكل انواع المعدات العسكرية الحديثة .

3 — وفي المجال الاستراتيجي : التقت مصالح البلدين في عدم تسليم العرائش للاسبان ، لان من شأن هذا التنازل ان يزيد من نفوذ الاسبانيين في الشواطئ الاطلسية المغربية ويحول بالتالي دون قيام المبادلات التجارية بين المغرب وانجلترا ومد المغرب بأسلحة النار ومعدات القتال . ويدخل في هذا المضمار دور الخبراء العسكريين الانجليز وفي مجال الصناعات المغربية المختلفة .

اما العامل الثالث الذي شجع المنصور على التراجع عن تحالفه مع الاسبان ومماطلتهم في الوعود التي تعهد لهم بها من قبل فهو انشغال الملك الاسباني فيليب الثاني بالحروب التي تجري في الواجهات الاسبانية العديدة برا وبحرا ، وما كان للاسبان ان يغامروا بحملة عسكرية ضد المغرب قد يكون مصيرها نفس مصير الحملة البرتغالية في وادي المخازن قبل أعوام قليلة ، وحتى لو حاول القيام بذلك فان الاتراك لن يقفوا مكتوفي الايدي امام التهديد الاسباني ، وفي هذه الحالة قد يحقق السلطان العثماني ما عجزت عنه حملة علوج على باشا من قبل .

ورغم ان المنصور استطاع التوصل في المفاوضات مع الاسبان الى الوعد بببادة العرائش بالبريجة (الجديدة) بدلا من التنازل لهم عنها كما كان الامر من قبل (وكذلك تامروا لاصحابكم يقبضون لاصحابنا البريجة مثل ما امرنا نحن للقائد ابراهيم يقابض لاصحابكم العرائش) (77) . ورغم الاوامر التي تظاهر باعطائها للمفاوضين المغاربة من أجل افتداء الاسرى (ان مسألة الاساري التي ذكرتم هي احق من كل

(77) رسالة من المنصور لملك اسبانيا — المكتبة الوطنية — مدريد — مخطوط 257 .

ما تكلمنا به وهى التى تعملون عليها ان شاء الله (78) . فانه لم ينجز شيئا من ذلك
معتبرا باعذار مختلفة منها :

ا - انتظار عودة ترجمانه الخاص (فتعذر علينا لاجل ذلك السبب مهم ما فى كتبكم
الواردة بخطوطكم من حيث اننا لا نريد ان نناولها لمن يقربها خشية افشاء ما
فى مضمونها وبحسب ذلك كتبنا من عندنا لخدمتكم متامنا العلى .. ليتولى كتبته
الينا بخطوطنا لكى نفهمه (79) .

ب - عدم كتمان السر من قبل الاسبان (وما ذكرت من امر الماطلة التى وقعت فى
تلك المسألة فذلك ليس سببه الا منكم لاننا كلمناكم مرارا بعد مرارا واوصيناكم
الا تفكروا شيئا من ذلك ثم ان الكلام خرج من عندكم (80) .

ج - التجاؤء الى طريقة تترك نوعا من الامل لدى مفاوضيه الاسبان ، كان يوعز
الى المفاوضين المغربيين باطلاع الاسبانين على الاوامر التى يرسلها اليهم
لتنفيذ ما اتفقوا عليه مع الاسبان (الى السلطان المعظم .. دون فيليب ..
نما نحن بصدد .. قضاء تلك المسألتين على احسن المراء .. حسبما تطالع الاوامر
العلية التى تصلكم (81) .

وتاكيدا لمواقف المنصور الجديدة من مفاوضات الاسبان عهد الى تحصين مدينة
العرائش وامدادها بقوات عسكرية للدفاع عنها (الحصنين الضخمين اللذين خيم
بهما على أنف عدو الدين بمرسى العرائش .. وابطل بهما كيد عدو الدين ودفع بهما
لصدر طاغوت الشرك (82) .

كما ازداد تمسكا بالاسرى لمشروعاته المختلفة فى النواحي الاقتصادية
والعسكرية والعمرانية ، وتطورت علاقاته مع الانجليز الى حد السماح لهم بتأسيس
(الشركة البربرية) عام 1585 التى أصبحت تنظم شؤون التجارة الانجليزية مع
المغرب وتحتكر اهم الاسواق التجارية المغربية (بما امدها به من النحاس لتفريغ
مدافع النار واطلاق ملح البارود لها بالشراء من ممالكه الشريفة وامدادها بالمعادن
التي اعوزتها ببلادها (83) مقابل امداده بكل حاجياته من الاسلحة النارية ووسائل
القتال وقطع الاسطول ولوازمه .

(78) رسالة من المنصور لملك اسبانيا - المكتبة الوطنية - مدريد - مخطوط 257

(79) رسالة من المنصور لملك اسبانيا - المكتبة الوطنية - مدريد - مخطوط 257

(80) من رسالة المنصور الى فيليب الثانى - المكتبة الوطنية - مدريد - مخطوط 257

(81) من رسالة المنصور الى فيليب الثانى - المكتبة الوطنية - مدريد - مخطوط 257

(82) النشألى : مناهل الصفا . ص 265

(83) النشألى : مناهل الصفا . ص 193

لقد انعكست علاقات المنصور مع الانجليز على سير اتصالاته مع الاسبانيين ولم يعد للملك فيليب الثانى اى شك فى عدم جدية المولى احمد فى الوعود التى يتعهد بها للمفاوضين الاسبان (ورد علينا كتابكم وانت تعير علينا فيه وتقول ما من حق رجل كبير مثلكم يأتى لحاجة وبتربص عليها هذا التربص كله ، اعلم ان تربصنا لاجل مصالح كثيرة .. فانف عنك ما تتوهم به من هذه المسالة فانها مقضية .. ولابد من ملاقاتنا معكم عن عجل ان شاء الله لنتكلم فيما يؤول نفعه على الجانبين) (84) فقرّ رأيه على سحب السفير المكلف بمفاوضة المنصور (Perdo Venegas) وقد ابدى المولى احمد إستغرابه لذلك (واستستم مبانى خطابكم عليه من استدعاء توجيه رسولكم بذر بنيغيث ذي قرطبة اليكم واشخاصه نحوكم) (85) وجدد صدق نواياه ووعوده للملك الاسبانى . (لذا كان لا ينفصل خديمكم الانباشدور هذا عن دارنا ومقامنا الا مكمل الاغراض من عندنا على التمام .. لانه على حال استكمال مآربه من هنا وجميع اربه على حال مصانطته اليكم بجميع أوطاره واسبابه راجعا ان شاء الله بكل مرغوب اليكم) (86) .

ولكن بدون جدوى لان الاوامر صدرت الى جميع الدبلوماسيين الاسبان بالعودة الى اسبانيا (والذي أوجبه الى تلك المكانة المكيئة ان ولد اخى التسييس مريـن خديمكم المتوفى الذي هو الآن بحضرتنا وفى كنف ايلاعتنا انهى الينا انه جاءه أمركم بالقدم على تلكم البلاد والتجاته بذلكم الند ولما أخبرنا عنكم بذلك ولم يكن وصل الينا فى شأنه خطاب من عندكم من هنالك) (87) .

وأول حدث يعكس التوتر الذي أصبحت عليه العلاقات المغربية — الاسبانية ان الملك الاسبانى لم يستجب لطلب المنصور بالسماح للقائد عبد الكريم بن تودة اللاجئ فى اسبانيا بالعودة الى المغرب (ولما تقرر لدينا وعلمنا ان ما تقادمون الينا فيه انتم بشفاعتكم ووسائلكم وتبعثون من أجله نحونا بارادتكم أو رسائلكم نسعفوا فيه رغبتمكم .. فالمراد منكم ان شاء الله ان تصدقوا ظننا الحسن فيكم باطلاق ذلكم الرجل الينا) (88) .

وخلاصة القول اذا كان التهديد التركى قد ضيع على المنصور فرصة القيام بتحرير قواعد الاحتلال البرتغالى فى الشواطى المغربية (سبتة ، طنجة ، اصيلا ،

-
- (84) رسالة لآحد أعوان المنصور — المكتبة الوطنية — مدريد — مخطوط 257
(85) رسالة المنصور الى فيليب الثانى — المكتبة الوطنية — مدريد — مخطوط 257
(86) المصدر السابق .
(87) من رسالة للمنصور الى ملك اسبانيا — المكتبة الوطنية — مدريد — مخطوط 257
(88) من رسالة للمنصور الى ملك اسبانيا — المكتبة الوطنية — مدريد — مخطوط 257

والبرجة) وأجبره على التقارب مع الاسبانيين ، فان تدخل الانجليز في سير المفاوضات المغربية — الاسبانية قد اثر على مجرى الاحداث بما امدوا به المنصور من اسلحة وعتاد مكن المولى احمد من مماثلة الاسبانيين وتسويغهم .

واذا كانت هناك من صفات خاصة لسياسة المنصور خلال المرحلة الاولى من حكمه اتجاه قوى الشرق والغرب فأبرزها :

1 — السعى الى تجنب كل ما من شأنه أن يثير النزاع مع احدى القوتين الرئيسيتين ويؤدي به الى الاصطدام والمجابهة ، في الوقت الذي كان يرى في تربص بعضهم للآخر اقوى الضمانات التي تحول دون تعرض المغرب لاي هجوم خارجي ، وقد أدرك مراد الثالث وفيليب الثاني هذا الجانب في سياسة المنصور وأرغما تحت وطأة المشاغل الداخلية والخارجية المتزايدة لكل منهما على قبول الامر الواقع ، فأصبح المغرب لذلك بلد الحدود بين الامبراطوريتين الكبيرتين : العثمانية والاسبانية .

3 — من دهاء المولى احمد — وحفاظا على موقفه الجديد هذا — حرص على اطلاع كل من الاتراك والاسبان على ما يببته كل منهما للآخر .

3 — لقد وجد المنصور في استعداد الانجليز لتلبية حاجياته من أجل بناء قوات عسكرية في البر والبحر ولتطوير اقتصاديات البلاد ما جعله يندفع بعيدا في التعامل معهم الى الحد الذي يمكن معه القول بأن اتصالاته المتزايدة مع الانجليز قد عادت على المغرب بأعظم الفوائد سياسيا وعسكريا واقتصاديا وجعلت المولى احمد ينحاز تدريجيا الى المعسكر البروتستانتي الذي تنزعه انجلترا للوقوف في وجه الهيمنة الاسبانية على أوروبا الغربية وشمالى المحيط الاطلسي .

وهكذا استغل المنصور الظروف الخارجية المساعدة :

وانسد على الاتراك العثمانيين محاولات التدخل عسكريا في المغرب .

وحال دون اغتنام الاسبان لفرص تقاربه معهم للحصول على مكاسب جديدة كما استفاد من تعامله مع الانجليز في بناء قواته المسلحة وتجهيزها باحدث وسائل القتال ، الامر الذي ساعده على توطيد دعائم حكمه في الداخل وبالتالي في الحفاظ على استقلال المغرب اتجاه الاطماع الخارجية .

المنصور والنزاع الانجليزي - الأسباني

ان تدخل الملكة (ايليزابيت) لدى المولى احمد المنصور لصالح الامير البرتغالي (دون انطونيو : Don Antonio) قد صادف هوى في نفس الحاكم المغربي الذي وجد في مشكلة العرش البرتغالي فرصة لتحقيق الكثير من آماله (ونجا الى ملكة بلاد نكلطيرة ايزبيل فنزل منها خير نزل فأوته وشمرت لنصرته ثم نظر في امره فرأى ان جبر صدهم وبناء ما تهدم من ملكهم لا يفتأ الا على يد أمير المؤمنين الذي في ملاكه ضرهم ونفعهم وجبرهم وصدهم (1) . واذا حاولنا ان نشرح الاهداف التي كان المنصور يرمى اليها من وراء تدخله في المشكلة البرتغالية وعلان تأييده للامير البرتغالي المطالب بعرش لشبونة ، نجد لاول وهلة ان المنصور كان يحرص على اغتنام هذه الفرصة للاستفادة منها .

1 - في تحرير مراكز الاحتلال الاجنبي بالشواطىء المغربية :

أ - بدعوى مساعدة دون انطونيو ، خاصة وان بعض مراكز الاحتلال كانت لا تزال تحت السيطرة البرتغالية .

ب - عن طريق مساومة الملك الاسباني فيليب الثاني الذي يهيم الى حد بعيد بتساء المنصور على الحياد في النزاع الاسباني - الانجليزي .

2 - تنفيذ سياسته التوسعية في السودان وجنوب غربي افريقية :

(1) الفتاوى : مناهل الصفا ص 101

ان تدخل المنصور في المشكلة البرتغالية غيه الكثير من المعاني : نصريه العلني بعبادة اسبانيا : وانضمامه الى المعسكر البروتستانتى الذي تتزعمه ايليزابيت ويضم انجلترا وهولندا وفرنسا . والذي كان في حروب قاسية مع اسبانيا . ثم سعيه الى الضغط على خصمه اللدود الذي طالما ابدى المنصور تخوفاته منه باستغلال ظروف اسبانيا الحرجة . خصوصا وان الموريسكوس كانوا لا يزالون يكتنون قوة داخلية لا يستهان بها .

فما هى العوامل التى دفعت المنصور الى السير قدما في تنفيذ سياسة الجديدة ؟ سياسة الاعتراف بأحقية دون انطونيو في عرش لشبونة ، والمجاهرة بمساعدته على استرداد عرشه ؟

من الناحية الداخلية : كان المنصور قد وطد أركان دولته بمجموع البلاد ، نعم الامن والاستقرار ، وازدهرت بالتالى سبل الحياة (فالدولة اسفحلت واستنطال جناحها واتسع نطاقها وضاعت حواضر ممالكها وثغورها القاصية والدانية بما تراكم فيها من الجند وتوفر فيها من الحامية) (2) .

ومن الناحية الخارجية اهم ما يلاحظ :

التطور الذي طرا على الادارة العثمانية بالجزائر وشمالى افريقية : فهذه البلاد كانت منذ الفتح العثمانى تخضع لحاكم تركى برتبة (بيلرباي : بكريك : اي امير الامراء) الذي كان مقره بالجزائر باعتبارها الحدود الغربية للامبراطورية العثمانية ، والذي كان نفوذه المطلق يشمل المنطقة الممتدة بين الجزائر ومصر .

وفي سنة 1587 م توفي العلج على (3) امير البحر ، فاستدعى السلطان العثمانى حسن فنزيانو (4) (البندقى) من الجزائر الى اصطامبول وولاه اميرا على البحر . اما شمالى افريقية فقد جزئت الى ثلاث ولايات هى : الجزائر ، تونس

2. الفشالى : متاهل الصفا . ص 75 .
3. العلج على : اولوج على : : الترطاس (الاترع) من اسرى نصارى كلاب بصقلية ، تولى ، في أحضان القراصنة ووصل أعلى مراكز البحرية عند الاتراك ، ولده السلطان بكرك بك افريقية ورحل الى الجزائر يوم 8 غشت 1568 ، وقد عرف ببطلونه وشدة حروبه في البر والبحر كما شارك في معركة ليبانتو الشهيرة سنة 1571 وفي فتح تونس 1574 . عين أخيرا قائدا عاما للاستطول الممانسى .

4. حسن باشا : حسن البندقى (حسن فنزيانو) من الاسرى الايطاليين تولى بكرك بك افريقيا في يونيو 1577 عرف بجده وحزمه ، وقد دعاه السلطان مراد الثالث الى اسطانبول للاحداث الداخلية التى عرفها الشرق الاسلامى سنة 1580 الا أنه أعيد الى الجزائر سنة 1583 رافعا بدور هام في اخاد اضطرابات داخلية بشمالى افريقيا . ومما عرف به اعمال القرصنة الواسعة التى قام بها في غرب المتوسط ومساعدة الموريسكوس المضطهدين باسبانيا على الانتقال نحو شمالى افريقيا . بعد وفاة العلج على سنة 1587 عين السلطان مراد الثالث حسن باشا اميرا عاما للبحرية العثمانية .

وطرابلس على أساس أن يولى على كل منها وال برتبة باشا لمدة ثلاث سنوات . وهذا التغيير يدل من جهة على أن السلطان العثماني قد سعى الى تقوية نفوذه بشمالى فريقية عن طريق تجزئتها ، ويدل من جهة أخرى على أن الباب العالى قد سلم بالوضع القائم بالمغرب ، ولم يعد السلطان كالسابق يسعى الى بسط نفوذه على الجزء الغربى من الشمال الافريقى ، لما ابداه السعديون والمونى احمد المنصور من حرص شديد على استقلالهم مستغلين الظروف الدولية لابعاد التهديد التركى عن بلادهم .

وكنتيجة لتجزئة الادارة العثمانية بشمالى فريقية ، دخلت هذه الولايات فى مرحلة جديدة من تاريخها تتميز بانتشار الفوضى والفتن والاضطرابات (5) . أي أن الامر فى مجموعة كان فى صالح المولى احمد المنصور الذي لم يعد منذ اليوم يحسب للخطر العثماني حسبا كبيرا كالسابق .

فالتخفيف من حدة الضغط التركى على حدود المغرب الشرقية جعل المنصور يغير من موقفه اتجاه فيليب الثانى الذي كانت الظروف تجبره على التقرب منه فيها مضى لرد العدوان التركى ، اما وقد خفت وطأة هذا الضغط ، فان المنصور قد وجد الفرصة السانحة للانطلاق فى سياسته الخارجية ، وخصوصا فيما يتعلق بعلاقاته مع الانجليز الذين طالما عملوا على استماتته للتدخل لصالح الامير البرتغالى دون انطونيو ضد فيليب الثانى ملك اسبانيا (ثم نظر فى امره فرأى أن جبر صدهم وبناء ما ت هدم من ملكهم لا يتأتى الا على يد امير المؤمنين) (6) ، هذا التدخل الذي وجد فيه المنصور فرصة للضغط والتدخل ضد الاسبان ، فتغيرت بذلك سياسة المنصور ، وبدلا من أن يطلب وده كالسابق أرغفه على التفاهم معه على أساس التنازل له عن بعض مراكز الاحتلال الاسبانى بالمغرب ، بحيث لم يكن هذا التنازل ليزيد المنصور الا ايمانا فى تأييد القضية البرتغالية سعيا منه فى الحصول على مكاسب اعظم .

(5) خير من يحدثنا عن اضطرابات شمالى افريقيا بعد تجزئتها سفير المنصور الى السلطان مراد الثالث : ابو الحسن على بن محمد التجروتى الذى دون رحلته من تطوان الى اسطامبول (قشت 1588 - نوفمبر 1590) فى كتابه : النحلة المسكية فى السفارة التركية . هناك نسخة مخطوطة بـدار الوثائق بالرباط (د 795) :

فى صفحة 99 يتحدث من ثورة بطرابلس بليبيا (ورد هذا الباشا بها معه من الجند بسبب قائم قام فى بلاد طرابلس وعاش فيها وفسد اوطانها واضرم فيها نار الحرب واجتمعت عليه العرب وحشدها واستولى سوى المدينة من القرى والبادية والاطوان ... واقام له ملكا فى ديارهم ٠٠ وقد كان يزعم انه يقوم بتغيير مفاكر الترك وفسخهم وبسط العدل) ثم فى صفحة 70 يذكر ، هكذا أهل افريقيا كلهم من الدل والاهانة فوجب ذلك استياعهم لكل ناعق واتباعهم بكل قام رجاء ان يجد الفرج معهم) .

(6) اللشئالى : مآهل الصفا . ص 101

ازدادت تدخلات الملكة ايليزابيث لصالح دون انطونيو ، وانتهى الامر بارسال وفد برتغالى الى المغرب فى شهر ماي 1587 م حيث استقبله المنصور واؤلاه عناية خاصة وقدم لاعضائه جوائز سنينة (7) ، ويبدو أن الامير البرتغالى قد حاول اغراء المنصور للتصدي فى مساعدته ، او أن المنصور قد حاول منذ اليوم الاول أن يستغل تقرب دون انطونيو منه للحصول على مكاسب هامة ولا سيما فيما يرجع الى تحرير بعض قواعد الاحتلال الاجنبى بالشواطىء المغربية : فقد حاول حاكم سبتة بايعاز من الملكة ايليزابيث والامير دون انطونيو ، تسليم هذه المدينة الى المنصور (8) ، لولا أن هذه المحاولة قد فشلت .

بعث المنصور سفارة الى لندن لتقدم الى الملكة اليزابيث مقترحاته حول التعاون المغربى - الانجليزى والمشكلة البرتغالية ، واعتمادا على وثيقة معاصرة بتاريخ يناير 1588 فان المنصور قد اقترح على اليزابيث أن يساعدها بالرجال والمال والمؤن ، وأن يفتح موانئه فى وجه سفنها ، وأن يقاتل بكل نبواه الى جانبها ضد عدوها المشترك ملك اسبانيا ، ولتأمين نجاح الحملة المشتركة ضد البرتغال ، رسم المنصور لايلىزابيث خطة حربية خاصة تنبنى على الخديعة بالدرجة الاولى : فهو يرى مجيء قطع من الاسطول الانجليزى الى موانئ المغرب الشمالية ، لايهام فيليب الثانى ولدفعه الى توزيع قواته الدفاعية على شواطىء اسبانيا الجنوبية ، وبذلك تخف مقاومة الاسطول الاسبانى فى السواحل البرتغالية وتنجح بالتالى حملة غزو البرتغال ويستعيد دون انطونيو عرش لشبونة (9) .

أما فيليب الثانى الذي أصبح متأكدا من انحياز المنصور ضده ، فقد وجد فى قيام ثورة بجمال غمارة فرصة للضغط على المنصور ولدفعه الى التراجع عن مواقفه الجديدة : ونحن وان كنا لا نملك وثائق معاصرة تؤكد بأن لفيليب الثانى يدا فى قيام ثورة (بن قرقوش) فى منتصف صفر 996 هـ الموافق يناير 1588 م ، الا أن :

1 - قيام اللائر بجمال غمارة (واغترب عن بلده وذهب يتقلب فى الارض . . حتى وصل الى جبال غمارة) (10) ، وقرب هذه الجبال من مراكز الاحتلال الاسبانى : سبته ، طنجة وأصيلا .

(7) م. ص. ت. م المجموعة الاولى - فرنسا - ج 2 ص 131

(8) م. ص. ت. م المجموعة الاولى - فرنسا - ج 1 ص 489

(9) م. ص. ت. م المجموعة الاولى - فرنسا - ج 1 ص 513

(10) الفتتالى : مناهل الصدا . ص. 93 .

2 - العدد العظيم من الانتصار الذين تبعوه (ثم سرى خبره في سائر بلاد الهبط وجبالها فانتالت عليه غوغاؤها من كل فج عميق) (11) وقد أصبحت ثورته لذلك خطيرة خاصة بعد أن ادعى أنه من أبناء المولى عبد الله الغالب (فلبسشارة الملك واتخذ الآلة وتسمى في كتبه بأبير المومنين فاضطربت به سائر بلاد الهبط نارا وفتنة) (12) .

3 - عدد القوات المحاربة التي أرسلها المنصور ضد الثائر وما كانت تحمل من أسلحة نارية فتاكة (وكانت زهاء ستة آلاف بين الأسل والنار) (13) .

4 - محاولة ابن قرقوش بعد انهزامه أمام قوات المنصور ، الفرار نحو إحدى المراكز الإسبانية القريبة (طالبا منجاة إلى بعض ثغور المشركين بسيف البحر) (14) .

5 - بعد القضاء على ثورة ابن قرقوش ، شنت القوات المحاربة حملات متواصلة ضد قبائل جبال غمارة وكل جبال الريف ، أي أن المنصور قد وطد دعائم سلطانه على كل الشمال المغربي حيث توجد قواعد الاحتلال الإسباني (ثم جاست العساكر خلال ديار سائر قبائل الهبط . . حتى استوعبتها . . فنصلوا إلى بلاد الريف وقد دوخوا سائر الجبال تدويخا) (15) .

كل ذلك لا يترك مجالا للشك في أن ابن قرقوش قد وجد من الأسباب كل عون وتأييد والا من أين له الأموال والوسائل التي تمكن بها من جمع العدد العظيم من الانتصار وتسليحهم بل وادعاؤه الخلافة أيضا ؟ والوقوف ضد المنصور وهو ما عليه يومئذ من قوة وحزم فهل كان الإسبان يرمون إلى احتلال ما عجزوا عنه بالمفاوضة مع المنصور ؟

وتأييدا لما ذهبنا إليه ، نشير إلى أن المنصور ولما يقض على ثورة ابن قرقوش بعد ، بعث إلى الملكة الإنجليزية اليزابيث ودون انطونيو بتاريخ 28 أبريل 1588 م يعرب لهما عن حرصه الأكيد واستعداده التام لمساعدة دون انطونيو إلى أن يسترد عرشه مما يدل على أن المنصور لم يشك قط في مساعدة الإسبان لثورة ابن قرقوش وأن ذلك مما زاد من تدخله في القضية البرتغالية ودفعه إلى العمل

(11) اللشالي : ماضل الصفا ص 93 .

(12) المصدر السابق

(13) المصدر السابق ، ص 94

(14) المصدر السابق .

ضد اسبانيا وفيليب الثانى ومما جاء فى رسالة المنصور الى دون انطونيو (هذا وان كتبكم الاثيرة ورسائلكم هذه الاخيرة قد اتصلت بحضرتنا الشريفة . . على يد رسولكم المقيم من قبل هذا فى حريم دارنا والمستقر منذ اعوام فى جوارنا . . فكل ما يبت لديكم عنا وينهيه من الخبر اليكم من لدنا فثقوا به ان شاء الله وشدوا عليه يدكم وعمرؤا به فؤادكم) (16) .

على ان التطورات التى عرفتها اوربا الغربية ، جعلت المنصور يتريث فى مواقفه من المشكلة البرتغالية ، خاصة وان فيليب الثانى ملك اسبانيا كان قد اخذ فى التهيؤ للقيام بحملة بحرية عظيمة لغزو بريطانيا التى كانت فى نظره السبب الرئيسى فى معظم الاحداث التى عرفتها اوربا الغربية ، وتلك هى حملة الارمادا Armada التى ترجع فى واقعها الى عوامل دينية وسياسية واقتصادية : فيليب الثانى اعظم ملوك اوربا الكاثوليك كان قد دخل فى صراع حاد مع ايليزابيت ملكة انكلترا وزعيمة المعسكر البروتستانتى ، واشتبكت قواتها فى مناطق مختلفة من اوربا الغربية ، كما ان البحرية الانجليزية كانت تلحق بالاضرار الفادحة بالبحرية الاسبانية عن طريق القرصنة والمنافسة .

انتهت حملة الارماد بالفشل (30 يوليوز — 10 غشت 1588) وعجلت الملكة ايليزابيت بارسال كتاب ترف فيه البشرى الى المنصور ولها تمض غير خمسة ايام على انتهائها ، ومما جاء فى رسالتها : شكرها الخالص لما يعرب عنه المنصور من استعداد لمساعدة دون انطونيو ، ثم تخبره بأن الامير دون كريستوف بن دون انطونيو سيبتى رهينة عنده فى المغرب مقابل المساعدة المادية والقرض المالى الذى سيقدّمه لدون انطونيو والمتدر بمائة الف دوكة (17) .

اما المنصور فتد سر للبشرى كثيرا ، وكتب بدوره الى ولاته يطلعهم على الامر ، مما يؤكد انشراح المنصور لزوال الخطر الاسبانى الذى كان يهدد المغرب ، ويبرز اهتمامه بكل التطورات الجارية بأوربا الغربية ، وقد تضمنت رسالة المنصور الى ولاته معلومات قيمة قل أن نجد لها مثيلا فى الوثائق التاريخية المعاصرة عن معركة الارمادا وانهزام الاسطول الاسبانى العتييد (18) .

(15) المصدر السابق .

(16) رسالة من المنصور الى (دون انطونيو) البرتغالى م. ص. ت. م. انكلترا ، ج 1 ، ص 492

(17) م. ص. ت. م. المجموعة الاولى — فرنسا ج 2 — ص 151

(18) يوجد نص الرسالة فى (رسائل سعية ص 150) وقد بعثها المنصور الى سوس وهو فى طريقه من مراكش الى فاس عام 1588 م

اثر نتائج الارمادا على الاحداث التي عرفتها اوربا والمغرب بوجه خاص :
 فعلاوة على الثورات التي ازدادت ضد الاسبان بأوربا لفقدهم بعض المكنة التي
 كانت لهم كاعظم دولة في العالم ، أخذ خصومهم الذين كانوا يقفون منهم على حذر
 لسطوتهم ، يصارحونهم العداء ويحاولون استغلال هذه الفرصة لرفع نيرهم وابعاد
 خطرهم أو للانتقام منهم . وإذا كان هذا القول يصح بالنسبة لمجموع دول أوربا
 الغربية البروتستانتية والسلطان العثماني ، فإنه ينطبق بصفة خاصة على المولى
 أحمد المنصور الذي طالما انتظر سنوح فرصة ثمينة لتحرير مراكز الاحتلال الاجنبى
 بالمغرب ، ولنصرة المسلمين بالاندلس (الموريسكوس) (19) (وهو الآن ايده الله
 لهذا العهد من عام (97) سبعة وتسعين (20 نوفمبر 1588 — 9 نوفمبر 1589)
 واتف على قدم الالهة والاستعداد . . الى التفرغ لها صرف اليه ايده الله عزمه
 وجعله تحده وهمه من جهاد المشتركين واغزاء اراضهم . . بعساكره الامامية
 وموالاة البعوث الى اقطارهم حتى ينجز الله وعده الكريم في اعلاء كلمة الحق (20)
 دخل المنصور في مفاوضات سرية مع الانجليز حول تنظيم تعاون عسكري ضد
 الاسبان او بعبارة أخرى ، لقد استجاب المنصور للتدخلات الانجليزية ولرسائل
 ايليزابيث وبعثاتها الدبلوماسية حول مساعدة الامير البرتغالي دون انطونيو ضد
 خصمه فيليب الثاني ، خصوصا وان عداوة فيليب الثاني قد جمعت بينهما ، ولان
 الظروف كانت جد مساعدة اثر انهزام الاسبان في الارمادا وما أحدث ذلك من صدى
 وتأثير داخل اسبانيا وفي مستعمراتها ومناطق نفوذها .

والسياسة التي سلكها المنصور ظهرت في المجالين العسكري والدبلوماسي ،
 بل وسارا جنبا الى جنب : فقد جرب المنصور استعمال القوة وبالاخص ضد مناطق
 الاحتلال بالمغرب ، اذ أمر أحمد النقسيس حاكم تطوان بالهجوم المسلح على سبتة ،
 وتم ذلك يوم 11 ديسمبر 1588 (22 محرم 1997) حيث فاجأت القوات المغربية
 ضواحي هذه المدينة التي كان معظم اهاليها الاسبان قد خرجوا للنزهة بها ، فقتلوا
 واسروا عددا عظيما منهم (وكادوا أن يستولوا على سبتة بما أتيح لهم من الظهور
 باستئصال عامة أهلها وانتهاز الفرصة في حاميها) (21) وعندما علم المنصور
 الخبر (اهتزله سرورا من أعواده) (22) ، مما لا يترك مجالا للشك في أن المنصور

(19) تام الموريسكوس (الغرباء) بثورة في ربيع 1588 باراغون ، نهل كان للمنصور يد في ذلك .

(20) الفشتالي : مناهل الصفا . ص 81 .

(21) الفشتالي : مناهل الصفا . ص 96 .

(22) المصدر السابق

هو المدبر لهذا الهجوم الذي كان القصد منه اغتنام وضعية الاسبان الحرجة عقب الانهزام في الارمادا لتحرير مراكز احتلالهم في المغرب ، وللضغط على فيليب الثانى واشعاره بمدى قوته وحزمه وليظهر لحلفائه الانكليز الدور الهام الستراتيجى والعسكري الذي يمكنه القيام به في حرب مقبلة ضد اسبانيا .

واما الناحية الدبلوماسية ، فلاهية الامر ، ارسل المنصور سفارة برئاسة مرزوق السيد ، وصلت الى لندن يوم 12 يناير 1589 لتقدم الى ايليزابيت وحكومتها مطالب المنصور واقتراحاته ، وقد جاء فيها : تزويده بالسلاح والذخائر وآلات الحرب وكل ما يلزمه لبناء الاسطول ، والسماح له باستخدام المهرة الانجليز في صناعة السفن ثم الاستعانة بالبحارة الانكليز والسفن الانكليزية حالة كونه في حروب ضد امير غير مسيحي .

اما اهم اقتراحاته فهي : عقد حلف انجليزي - مغربى ضد فيليب الثانى ملك اسبانيا واعرب السفير المغربى عن استعداد المنصور لتقديم القروض اللازمة لتجهيز الحملات العسكرية التى ينوي دو انطونيو القيام بها لاستعادة عرشه ، بل واكد لاييليزابيت عزم المولى احمد على التوجه على راس القوات المغربية الى اسبانيا متى وصلت اليها القوات الانجليزية (23) .

والذي يلفت النظر في هذه الاقتراحات هو حرص المنصور الاكيد على بناء قوى بحرية عظيمة وخلق اسطول مغربى مسلح ، للدور الهام الذي يقوم فى الميدان العسكري دفاعا وهجوما ، ولاهيبته الاقتصادية والسياسية ايضا (وهو بصدد الاكثار من الاساطيل رغبة فى الجهاد والاستظهار على عدو الدين . . ولفتح الاندلس . . والاقطار البعاد) (24) .

والمنصور وان لم يتوصل الى عقد اتفاق مع الانجليز ، فانه سعى مبدئيا الى نقل دون كريستوف الى المغرب ، شعورا منه بالدور العظيم الذى سيلعبه فى المجال الخارجى متى كان الامير البرتغالى بين يديه وفى بلاطه ، وقبل ان يصل دون كريستوف الى المغرب عمل المنصور على تحصين الموانئ وخاصة العرائش والمعمورة وعلى بناء السفن وتهيئ القوات المسلحة (25) . وقد غادر كريستوف لندن يوم 23 ديسنبر 1588 .

(23) البحر المتوسط (ميرناندو بروديل) ص 590

(24) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 197 .

(25) م. ص. ت. م المجوعة الاولى - بريطانيا - ج 1 - ص 476

كما تؤكد رسالة معاصرة ذلك (26) ، الا أننا نجهل كيف خرج والطريق التي سلكها من لندن الى المغرب للسرية التامة التي أحيطت بها رحلة الامير البرتغالي ، واذا رجعنا الى الوثائق التاريخية نجد بأن المنصور قد بعث مع السفير الانجليزي في المغرب سفيرا من لدنه الى ايليزابيث حيث خرج السفيران من اسفى يوم 2 نونبر 1588 ووصلا لندن يوم 12 يناير 1589 وان السفير المغربي قد عاد مصحوبا برسول من انطونيو وبعض الجنرالات الانجليز (27) ، ولا يستبعد أن يكون ذلك الرسول هو كريستوف للاهمية التي اعطيت لهذه السفارة ، حيث جعل من بين اعضائها عدد من كبار الضباط الانجليز . واعتمادا على ما أثبتته الفشتالي وزير المنصور فان دون كريستوف قد وصل الى اسفى أوائل ربيع الاول 997 هـ الموافق اوائل يراير 1589 (وأوفد عليه ابنه من بلاد لنكلطير صريخا وضارعا ففزله بأسنفي قاعدة البحر وبلغ الى أمير المؤمنين على مكناسة من طريقه لفاس خبير وصوله غرة ربيع النبوي ، فسرّح الى ابنه المولى الامير ابى فارس بالحضرة يأمره بإرسال كبير الموالى المعلقى ببابه القائد محمود لصحابته فوصل به وأنزل بسهرج المنارة من بساتين الخلافة بساحة الحضرة وأقيم له هنالك من رسوم الكرامة ما يليق بعظماء القوم أمثاله) (28) .

هل كان المنصور جادا في انجاز وعوده اتجاه الانجليز ودون انطونيو ؟ وهل كان صادقا في عزمه على قرض الامير البرتغالي مبلغ مائة ألف دوكة لتبهيء الحملة العسكرية ضد البرتغال لاسترجاع عرش لشبونة ؟

ان الاحداث التاريخية تثبت لنا بأن المنصور قد ظل حذرا يقظا ، ولم يندفع خطوات واسعة في تأييد انطونيو والانجليز ضد فيليب الثانى ، ولعلنا نجد لذلك اكثر من سبب واحد :

فرغم وصول الامير دون كريستوف الى المغرب ، ورغم تعهد المنصور بتقديم القروض والمشاركة في الحملات العسكرية ضد البرتغال ، فانه لم يف بذلك عندما هاجمت القوات البريطانية الشواطىء البرتغالية بقيادة الضابط (Drake) Norris - حيث خربت Peniche - Corogne وانطلقت للهجوم على لشبونة ، فانهمزت امام القوات الاسبانية جون 1589 (29) ، الامر الذي جعل

(26) المصدر السابق .

(27) المصدر السابق ص 482 .

(28) الفشتالي : مناهل الصنا . ص 101 .

(29) م. ص. ت. م - الهجوم الاول - بريطانيا - ج 1 - ص 527

الانجليز يلومون المنصور على عدم تقديمه المساعدات المتفق عليها ويحملونه مسؤولية انهزامهم في حملتهم ضد البرتغال (30) .

والدافع الذي جعل المنصور لا يقوم بتنفيذ ما وعد به من مساعدة مالية وعسكرية هو ان فيليب الثانى ملك اسبانيا ، قد دخل مع المنصور في مفاوضات سرية ، مبدىا استعداده للتنازل عن بعض مناطق الاحتلال الاسبانى بالمغرب ، بعد ان كان الملك الاسبانى يطالب بالمزيد من هذه القواعد كالعرائش مثلا . ونعلا فقد تم التفاهم بين الطرفين وجلت القوات الاسبانية عن مدينة أصيلا يوم 13 سبتمبر 1589 م (31) اي بعد ان تأكد فيليب الثانى من ان المنصور لم يشارك في الحملة الانجليزية السابقة ضد البرتغال وبأنه لن ينضم الى خصوم اسبانيا في المستقبل .

على ان المولى احمد قد كتب الى قائدي الحملة الانكليزية من مراكش بتاريخ 10 سبتمبر 1589 مجيبا عن الرسالة التى كانا قد بعثاها اليه لاستفساره عن عدم تدخله عسكريا ومديد المساعدة للحملة الانكليزية ، وقد برر المنصور فى جوابه عدم تقديمه المساعدة : كونه لم يكن على علم بموعد الحملة ، لان السفير المغربى مرزوق السيد قد غادر المغرب الى لندن في مطلع سنة 1589 (هذا وكتابكم قد اتصل بمقامنا العلى صحبة رسولكم المكرم . . وتلقينا منه ما ذكرتموه عن استطلاعكم الى الاشياء التى وعدكم رسولنا ان تأتيكم من مقامنا العلى والمال للسلطان دون انطونيو والطعام والبارود لعمارتكم ، اعلموا ان رسولنا هذا الذي ذكرتم كان انفصاله عن حضرتنا العلية تجاهكم من قبل ان تنحرك عمارتكم او نسمع لها خبرا اصلا . وبعد بلوغه بلادكم تعينت حركتكم وسفر عمارتكم وكيف اذ انغثرون بهذا القول ويصح لديكم اننا نعدكم بشيء ولم يتقدم لنا به علم ولا حصل لنا به خبر) (32) . فهل كان المنصور صادقا في تعليقه هذا ؟ وهل لم يسمع قط بخبر الحملة الانجليزية ضد البرتغال ؟ ان الوقائع يؤكد عكس ذلك : لقد تراجع المنصور عن وعوده بالمشاركة في الحملة ضد الاسبان ، والتقى مسؤولية عدم المشاركة على السفير مرزوق السيد ، مع ان سر تراجعه يكمن في مفاوضاته السرية مع فيليب الثانى الذي عجل بالتخلي عن مدينة أصيلا يوم 13 سبتمبر 1589 م ، اي بعد ثلاثة ايام فقط من توجيه المنصور لهذه الرسالة الى القائدين الانجليزين .

(30) م. ص. ت. م. المجموعة الاولى - بريطانيا - ج 2 ص 34

(31) نعلل النشألى القول فى جلاء الاسبان عن أصيلا . مناهل الصفا . ص 114

(32) يوجد نص رسالة المنصور الى الصابطين الانجليزين - فى مجلة نطوان عدد 9 ، ص 76

ورغم ذلك فان المنصور لم يتوان عن تقديم الوعود لمساعدة دون انطونيو والانجليز في المستقبل (غير أنه اذا كان قد وعدكم بشيء من ذلك للمستقبل فلا شك في أن هذه الامور التي ذكرتم والاشياء التي طلبتم هي كلها بحول الله أسهل علينا وأيسر مطلوب لدينا وليس فيها بحول الله ما يشق علينا أو يصعب أمره على متامنا لها بيننا وبينكم من المحبة) (33) .

ان مواقف المنصور واستغلاله للنزاع الاسباني — الانجليزي قد ساعدته على تحرير مدينة أصيلا ، احدى قواعد الاحتلال الاسباني بسواحل المغرب الشمالية على المحيط الاطلسي ، لم يكن المنصور يهدف من جملة ما يهدف اليه من تأييد دون انطونيو دفع هذا الاخير الى تحريض حاكم سبته على التنازل عنها للمنصور ؟ لقد ادرك فيليب الثاني هذا الجانب في سياسة المنصور ، فلم يكتف بالسكوت عن المطالبة بالعرش ، بل تنازل للمنصور عن أصيلا ، وهل كان المولى احمد يطمح الى أكثر من استعادة مدينة هامة وقاعدة رئيسية من قواعد الاحتلال الاجنبي بالمغرب دون خوض معارك حربية واراقة دماء ؟ من هذا يتجلى لنا جانب هام من جوانب السياسة التي كان المنصور ينفذها : سياسة الحذر واستغلال الظروف لتحقيق المزيد من الانتصارات ولا سيما التي تعود بالفوائد العظيمة ودون تكاليف تذكر (فلم يزل أمير المؤمنين يسدي في أمرها ويلحهم . . ويوعد ويعد وبنى ذلك على أساس من الكياسة) (34) .

ان موقف المنصور اتجاه انطونيو والانجليز ، لم يترك لديهم اي مجال للشك خصوصا بعد الجلاء عن أصيلا ، بأن التفاهم قد حصل بين فيليب الثاني والمنصور وان الامر يحتم عليهم وضع تخطيط جديد في محاربة الاسبان ، والبحث عن حليف آخر غير المنصور الذي اثبتت الايام بأنه غير صادق في وعوده ، وكانت المطالبة بارجاع دون كريستوف الى لندن أولى بوادر هذه السياسة حيث اشعر المنصور في شهر اكتوبر 1589 م بضرورة تنفيذ وعوده أو ارجاع الامير البرتغالي (35) ، الا أن المنصور الذي ألقت الظروف بين يديه اميرا برتغاليا لم يكن ليترك الفرصة الثمينة لتفلت من يديه دون أن يستغلها استغلالا كبيرا لصالحه ولصالح بلاده في الداخل والخارج :

(33) المصدر السابق .

(34) الشنتالي : مناهل الصفا . ص 114

(35) م. ص. ت. م. المجموعة الاولى — بريطانيا — ج 1 . ص 530

فالتجاء أمير برتغالى الى بلاط المنصور بهراكش قد اشعر المنصور بقوته ، واضفى عليه صفة الحاكم القوي العظيم اتجاه خصومه فى الداخل ، وزاد من قيمته فى الخارج بالنسبة للعالمين والاسلامى والمسيحى على السواء ، وفى ذلك اكبر ضمان للمنصور لكسب شهرة واسعة فى الشرق والغرب (ومن البشائر العظيمة . . ما اتفق من ورود ولد طاغية برتغال الذي عبر البحر الى حضرنا الشريفة . . مؤملا النصر من سيوفنا المظفرة بالله على سترداد ملكهم الدائر) (36) .

كما أن فى ذلك فرصة عظيمة لتحقيق الكثير من آمال المنصور وطموحه ، واكبر هذه الآمال التوسع نحو الجنوب بما يعرف (بالسياسة السودانية) ، هذه البلاد الاسلامية المترامية الاطراف ، المشهورة بفناها ووفرة منتوجاتها والتي كانت بعض سواحلها تخضع بالامس القريب للبرتغاليين الذين ضعفت دولتهم وانقرضت امبراطوريتهم منذ انهزامهم فى معركة وادي المخازن .

لقد كان المنصور وهو يعد العدة لفتح السودان مطمئنا الى ان الظروف الدولية لن تسمح لاي من خصميه العنيدين فى الشرق والغرب بالتحرك ضده :

فالاسبان كانوا منشغلين برد الهجومات الانجليزية ضد البرتغال واسبانيا (فكان اشداهم تكالبا عليه (اي على فيليب الثانى) واكثرهم جراة على الاجلاب على ممالكه والتضييق عليه والخذ بمخنته ايزابيل سلطانة ممالك بلاد نكلطيرا لاغراء مولانا أمير المؤمنين اياها بمناواته وشحد عزائها على عداوته ومظاهرتها على مغالبتها بما اهداها به من النحاس لتفريغ مدافع النار واطلاق ملح البارود لها بالشراء من ممالكه الشريفة التى أعوزتها ببلادها ونصبها ايده الله فى وجه عدو الدين وقبض له منها ايده الله بمقتضى عظيم حزمه وواسع تدبيره وشدة احتياطة شاغلا يشغله تفرغا واستجماعا . . واعتزت صاحبة بلاد نكلطيرة بمظاهرتيه وطاوعته على ما اغراها به وتوكت على منسات الاسناد الى جانبته والاعتضاد بعظيم سلطانه) (37) . ولم يكن فيليب الثانى يطلب ود المنصور فى وقت أكثر مما هو عليه الحال ، للحيلولة دون انضمامه الى الانجليز ومساعدة دون انطونيو . وللحروب القاسية التى كانت تخوضها الجيوش الاسبانية بأوروبا الغربية ثم لتدخل فيليب الثانى المسلح بفرنسا بدعوى تأييد الحزب الكاثوليكي ضد البروتستانت

(36) رسالة من المنصور الى سوس وهو فى الطريق من مراكش الى فاس (رسائل سعية) ص 160

(37) المشغلى : مناهل الصفا . ص 193

اوافق ذلك ما كان من تحويل جمهورا حل تلك الممالك الى الدين الحادث في الامم النصرانية المعروف بلاتريان « نسبة الى مارتن لوتر » فكان ذلك اعون على خذلان ملك الانرج لاطباق رعاياه على الانتقال لهذا الدين . . . وليس له مع ذلك وارث ملكه . . . فلم يكن اقرب اليه واحق بارثه من ابن عم له سلطان اهل نبارة (مملكة ناتار) الوارث لملكهم من طريق الخؤولة وكانوا كلهم على دين لاتريان فطمع لذلك طاعية تشتالة في ملك الانرج لانقطاع وارثه وتحول دين اهله فاعتمل في التضريب بين سلطانهم وقومه واغرى بعض اهل باريس قاعدة ملكهم بالفتك به فاستحكمت الفتره بينهم وبين سلطانهم . . . فانتقل عن باريس الى روان . . . ووصل يده بيد ابن عمه صاحب نبارة ثم عاود باريس منا زلالها فغدى اليه اولياء طاعية قشتالة ممن املوا بالفدر على يد تسييس نطعمه . . . فصار بسبب ذلك لصاحب قشتالة من مملكة انرانصة برطانية ويرجوم والبعض من نبارة وصارت باريس بعد خروج صاحب انرانصة عنها ليجيه ومعناه جماعة تدير الامر وصاحب قشتالة معهم ملى تلك اللجة كاند تلك الجماعة وكان يمدهم بجيشه الذي بافلانضس « لفلاندر » (38) . وهكذا دخلت فرنسا في حرب اهلية دامية واحتدم الصراع المسلح بين البروتستانت والكاثوليك ، وبالتالي بين انجلترا واسبانيا فازدادت مشاغل فيليب الثانى وازداد تسكه بمسألة المولى احمد المنصور .

واما الانراك العثمانيون فعلى اثر الانتصارات العسكرية والدبلوماسية التى حققتها فى ايران عقب تولية الشاه عباس الثانى فى يونيه 1587 الذى اضطر امام خطر الاوزبك فى خراسان ، الى التفاوض مع السلطان العثمانى والاعتراف بجميع الفتوحات التركية بايران اى فى جورجيا وشيرفان ولورستان وشيرزول ونيريزواذ ريجان . . . (39) توجهوا نحو اوربة الشرقية واخذوا منذ سنة 1589 ببيئون القوات والعتاد برا وبحرا لمهاجمتها ، يشجعهم على ذلك تصدع الجبهة المسيحية بأوربا الشرقية ، والحروب القائمة بينها ، وانهزام الاسبان فى الارمادا وتوالى الحروب الدينية بأوربا الغربية .

وبالرجوع الى الوثائق المعاصرة نجد بأن العلاقات المغربية — التركية قد عرفت تحسنا فى هذه الفترة ، ومن مظاهر ذلك استقبال المنصور بفاس خلال ربيع الاوّل 997 هـ / يناير 1589 (كانت الارسال الواعدة من جهة بنى عثمان بالقسطنطينية

(38) المصدر السابق .
(39) البحر المتوسط : (البروديل) ص 1012

مقيمة بناس لانتظار بلوغ أمير المؤمنين إليها (40) وقد جاء الوفد التركي (خاطبا
لسلمنا وراغبا في عقد الصلح والمهادنة معنا) (41) . ولم يخف المنصور الدواعي
التي قاربت بينه وبين الأتراك (ولعل في ذلك اجتماع كلمة الاسلام ان شاء الله
بهذا الصلح الذي آن ان نعتقد بين الدولتين ويبرم حكمه بين المملكتين عوننا على
صرف العناية بحول الله لمجاهدة عدو الدين) (42) أي استغلال انهزام الاسبان
في الارمادا للتدخل ضدهم ، ثم للتوسع في السودان (حتى ينجز الله لهذا الامر
العزیز وعده في الاستيلاء على الاقطار ان شاء الله دانيها وقاصيها) (43)

وبالمقابل ، فقد بعث المنصور سفارة الى مراد الثالث مع على النجروي
ومحمد الفشتالي (فتوجهنا . . سفيرين بهديته المباركة مع الرسل ووردنا على
الايواب العثمانية بالقسطنطينية قاعدة الملك بأقصى بلاد الروم وهي المعروفة عند
المغرب بصطنبل) (44) ، وذلك في شوال 997 / غشت 1589 حيث استقبل
السلطان العثماني السفارة بكل حفاوة (ولما حان وقت السفر وتيسر اذن لنا في
الدخول على السلطان للوداع . . وناولنا اجوبة كتب الخليفة السلطان مولاي احمد
وهدية عظيمة مكافأة وبعثوا معنا رسولين منهم) (45) . لقد هيا الاستقرار الداخلي
بالمغرب فرص التطور والازدهار الاقتصادي والاجتماعي ، وامكن المنصور — من
استغلال الظروف الخارجية المضطربة للتأثير في مقدرات حفظ التوازن الدولي وتهديد
الجو المساعد على التوسع الخارجي بالسودان وغربي إفريقية ، مما جعل لهذه
الفترة من تاريخ المغرب الحديث طابعا مميزا خاصا ان لم نقل بأنها الفترة التي
كانت تمثل الاوج بالنسبة لعهد المولى احمد المنصور .

وأبرز ما اتصفت به سياسة المنصور الخارجية خلال هذه الفترة : الدهاء
والحنكة والحزم ، الامر الذي يفسر لنا وجود أميرين في بلاط المنصور بمرآكش
كلاجئين سياسيين اهدهما من أوربا الغربية هو دون كريستوف بن دون انطونيـو
المطالب بالعرش البرتغالي والآخر من السودان هو على بن داود المنافس الخطير
لاخيه اسكيا اسحق بكاغو وكلاهما يلحان على مساعدة المنصور وعونه المادي
والمعنوي لاسترجاع حقوقهما في عرشى البرتغال والسودان .

(40) الفشتالي : مناهل الصفا ، ص 99

(41) رسالة المنصور الى سوس — رسائل سعدية — ص 160 .

(42) المصدر السابق

(43) المصدر السابق

(44) الناجروني : النفحة السكية . ص 12

(45) المصدر السابق ، ص 68 .

نهل كان المنصور جادا في بذل المساعدة التي كان يعدها كلا من الاميرين البرتغالي والسوداني ؟ أم أنه استغل وجودهما في بلاطة وبين يديه للمساومة وتحقيق ما كان يصبو اليه من توسيع خارجي في السودان منذ امد بعيد ؟

ان المنصور وهويأوي في بلاطة الاميرين اللاجئين لم يكن يرى فيهما اكثر من وسيلتين هامتين لخدمة مصالحه الخاصة أولا ومصالح بلاده ثانيا ، كما انه لم يخرج في نفس الوقت عن السياسة التقليدية التي سار عليها كل من خصميه ومنافسيه السلطان العثماني مراد الثالث وفيليب الثاني اتجاهاه بوجه خاص والمهم في الامر هو براعته وانتقائه لهذه الادوار المتناقضة ونجاحه أخيرا في فتح السودان وتأسيس امبراطورية عظيمة بغربي افريقية .

فبالنسبة لعلاقته مع الدولتين الاوربيتين : اسبانيا وانكلترا ، نذكر بأن تراجع المنصور عن نجدة دون انطونيو كان له أثر كبير في تطور الاوضاع بأوروبا الغربية : فقد كان الانجليز يعتقدون اكبر الآمال على هذه المساعدة لمهاجمة الاسبان وغزو بلاد البرتغال بصفة خاصة غداة انهزام الاسطول الاسباني في الارماد ، ويدهي ان حل المشكلة البرتغالية من شأنه أن يساعد الى حد بعيد على وضع حد للحروب الدامية القائمة بالاراضي المنخفضة وفرنسا وعلى العكس من ذلك فان نجاح فيليب الثاني في استمالة المنصور ودفعه الى الوقوف على الحياد في النزاع المسلح مع الانجليز بالتنازل له عن مدينة أصيلا ، قد ضيع على الانجليز وكل خصوم اسبانيا من المعسكر البروتستانتي فرصة ثمينة ، مما خفف من وطأة الانهزام في الارمادا ومكن الاسبان من الحاق هزيمة كبرى بالانجليز عند هجومهم على لشبونة ، ولما تمض غير سنة واحدة على الارمادا حيث اعتبرت مدريد ذلك كانتقام لانهزامهم السابق امام الانجليز ، كما شجع فيليب الثاني على مواصلة حروبه في الاراضي المنخفضة وعلى التمادي في تدخلاته العسكرية بفرنسا ضد هنري الرابع البروتستانتي ، بدعوى احقية ابنته في العرش الفرنسي وان كان في الواقع يرمى الى ضم العرش الفرنسي كما سبق له العمل في البرتغال قبل عشر سنوات .

فالاسبان قد استفادوا كثيرا من مواقف المنصور الحيادية ، وهل كان في مقدور المنصور أن يتمادي بعيدا في تأييد دون انطونيو وفي مجارة الانجليز فسي مشروعه الرامي الى غزو البرتغال والتدخل ضد الاسبان ؟

لقد كان المنصور يدرك جيدا أن بوسع الاسبان اثارة العديد من الاضطرابات ضده بالمغرب ، فبالإضافة الى قواعد الاحتلال الاسباني بالسواحل المغربية كان

فيليب الثانى ياوي أميرين سعدين من أشد المنافسين للمنصور هما : الناصر بن عبد الله الغالب ، والشيخ بن محمد المتوكل وقد كانا بلشبونة ثم نقلهما فيليب الثانى الى (Carmona) قرب اشبيلية فى شهر ماي 1589 م ، محاطين بكل مظاهر العناية والتقدير ، مما أكد للمنصور نوايا الملك الاسبانى الحقيقية والاهداف البعيدة التى كان يسعى اليها بايوائه الاميرين السعدين وتأبيدهما ، وجعله بالتالى يقف من دون كريستوف موقفا صوريا لا يتعدى التأييد الظاهري المعنوي .

وبالإضافة الى ذلك فان المنصور لم يغفل يوما عن الدور الهام الذي يلعبه الاسبان فى رد الخطر التركى عن المغرب ، كما أن الاسبان بدورهم كانوا يقدرون دوما أهمية المغرب الاستراتيجية والعسكرية فى الوقوف امام الزحف التركى وللدفاع عن ايربيا وأوربا الغربية المسيحية ، الى حد أن الخوف من التهديد التركى قد قارب بين حكام مدريد ومراكش وجعل لسياستهما الخارجية ثابعا تقليديا خاصا ، ودوره الاقتصادي لاشرافه على ملتقى التجارة البحرية بين الغرب والشرق علاوة على القواعد الاسبانية المنبئة بسواحل المغرب الشمالية والغربية .

اما بالنسبة للانجليز فالمنصور ظل يؤكد للملكة اليزابيت محافظته على الروابط الودية القائمة بينهما واستعداده التام للتدخل لصالح الامير دون أنطونيو (واعزت صاحبة بلاد انجلترا بمظاهره وطاوعته على ما أغراها به وتوكلت على منساة الاسناد الى على جنبه والاعتضاد بعظيم سلطانه) (47) ، وحسب المذكرة التى بعثها مبعوث دون انطونيو فى المغرب Jhon de Cardonas بتاريخ 18 أكتوبر 1589 فان المنصور لم يخف عنه استعداداته التامة لتقديم القروض لدون انطونيو ، الا انه اشترط اطلاعه مسبقا على موعد الحملة المزمع القيام بها ضد الاسبان (48) . الامر الذي يصعب تنفيذه من جهة ، ويؤكد من جهة أخرى مراوغة المنصور وعدم صدق نواياه ، وما كان للانجليز ، وقد خبروا المنصور من قبل أن يثقوا به من جديد ويركضوا الى وعوده والتزاماته ، وأن يطلعوه على أسرارهم وحقائق نواياهم ، فلا شئ يضمن لهم عدم تسرب هذه الاسرار الى فيليب الثانى الذي كان لهم بالمرصاد .

ان بواذر الشك وعدم الاطمئنان قد بدت فى عدد من التقارير التى أرسلت من المغرب الى انجلترا وفى بعض الرسائل التى تبودلت بين الانجليز : فالاتصال

(47) الفشتالى : مناهل الصدا . ص 193

(48) م. ص ت. م - الهجوم الأولى - بريطانيا - ج 1 ص 530 .

المباشر والقوي الذي حصل بين المغاربة والانجليز في الميادين الاقتصادية والتجارية ثم السياسية ، قد مكن المبعوثين الانجليز المستقرين في المغرب من الاطلاع عن كثب على كثير من الاوضاع الحقيقية للمنصور سواء فيما يرجع لعلاقاته مع الاتراك أو مع الملك الاسباني فليبي الثاني ، وجعلهم يدركون بعض نواياه الحقيقية ، انما الجدير بالملاحظة هو ان بعض هؤلاء المبعوثين قد بالغوا في تشويه سمعة المنصور مدفوعين بعوامل كثيرة : اما للفشل الذي منوا به في ماموريتهم لدى المنصور أو لعدم الاخلاص فيما ائتمنوا عليه ، لان التقلبات وعدم الوفاء والاخلاص كانت من سيم ذلك العصر المضطرب .

ولاجل ذلك دخلت العلاقات المغربية — الانجليزية في حالة من التوتر :

- 1 — لما أبدته اليزابيت من حرص والحاح شديدين على المنصور في أن يقوم بالتزامات القروض المالية والمساعدات العسكرية لدون انطونيو .
- 2 — التعجيل باعادة دون كريستوف والسماح له بمغادرة المغرب الى انجلترا حالة تراجعه عن وعوده السابقة .
- 3 — مطالبة المنصور بتحسين اوضاع التجار الانجليز في المغرب .
- 4 — تهديد المنصور بعرض الحال على السلطان مراد الثالث .

أكد المنصور للسفير الانجليزي Edward Prynne عند استقباله بمراكش خلال افريل 1590 (49) عزمه على مساعدة دون انطونيو عند تدخل الانجليز عسكريا ثم وجه الى اليزابيت سفارة خاصة ومعها كتاب بتاريخ 19 شعبان عام 998 هـ الموافق 23 يونيو 1590 اهم ما جاء فيه محاولة المنصور تبرير تماطله ، وذلك بسبب انشغاله بفتح السودان (هذا وانه اتصل بمقامنا العلى كتابكم الواصل صجة رسولكم المكرم . . نحيطكم اتنا كنا لا شك واعدنا رسول السلطان دون انطونيو الذي هنا بحضرتنا الشريفة بانكم اذا مددتموه انتم لهذا العام بما يطلب منكم من العساكر والاجناد وقمتم بنصرته لذلك على ساق الجد والاجتهاد نبعث اتجاهكم رسولا من قبل مقامنا العالى ووافى رسولكم الواصل في حال الابهة والاحتفال بهذه الحركة السعيدة التى اخذنا في تجهيزها ان شاء الله الى جهة السودان وهى على قدم السفر بحول الله في هذه الايام . . وبسببه قبضنا رسولكم

. . على وجه العز والكرامة بينما نفرغ ان شاء الله من تجهيز هذه الحركة السعيدة عن قريب وتنصرف بسلامة الى قصدها وسبيلها فنلتفت اليه حينئذ ان شاء الله في اغراضكم واغراض السلطان دون انطونيو ولكن بودنا ان تكتبوا لنا وتعرفون بما عندكم عن هذا الامر واي وقت عزمتم عليه لنكون على بصيرة نانا واياكم في هذا الامر واحد) (50) .

وسيتخذ المنصور من موضوع فتح السودان وانشغاله به سبيلا للمهاتلة والتحايل لعدم تقديم اية مساعدة الى دون انطونيو ضد الاسبان .
لقد تاكد الانجليز بان المنصور غير صادق فيما يدعيه من حرص على انجاز وعوده لدون انطونيو ، وأنه انما يسعى الى هدفين اثنين :

1 — التظاهر بمصادقة كل من لندن ومديرد في آن واحد : وذلك من خلال ما يؤكده للسفراء الانجليز وفي مراسلاته للملكة اليزابيت من رغبة صادقة وحرص اكيد على التعاون العسكري لصالح القضية البرتغالية والامير دون انطونيو ولما يقوم به من جهة أخرى من اتصالات مستمرة مع فيليب الثاني تتم جميعها عن جو الصداقة القائمة بينهما في الوقت الذي كان يسعى الى دفع الانجليز للدخول في حروب ضد الاسبان دون ان يشترك فيها ، ليشغلها ببعضها البعض وليضعف من شوكة الاسبان وفيليب الثاني بوجه خاص ، والعمل على توسيع رقعة الخلاف الاسباني — الانجليزي والحيلولة دون حصول أي تفاهم أو تقارب بينهما (51) ، لان ذلك ليس في صالح المنصور ومن شأنه ان يحول بينه وبين التوسع بالسودان بل ويعرض المنصور للخطر الاسباني وتهديد فيليب الثاني بوجه خاص (وقبض له منها ايده الله بمقتضى حزمه وواسع تدبيره . . شاغلا يشغله تفرعا واستجماعا الى ما كان ايده الله صرف اليه . . من تجهيز العساكر الى بلاد السودان (52) .

ب — الدخول مع فيليب الثاني في مفاوضات سرية لتبادل الخارجين عليهما ومساومته على الاميرين السعديين اللاجئين باسبانيا الناصر والشيخ بالامير — البرتغالي الموجود بمراكش دون كريستوف (53) .

ومما زاد في شكوك الانجليز اتجاه المنصور ما تعرض له بعض التجار الانجليز في المغرب من معاملة سيئة ، خاصة وان الكثير من التقارير التي وصلت الى لندن

(50) رسالة المنصور الى اليزابيت — مجلة نطوان عدد (3 — 4) ، ص 55

(51) م. م. ت. م. — بريطانيا — ج 2 ص 36

(52) اللشالي : مناهل الصفا — ص 193 .

(53) م. م. ت. م. بريطانيا — ج 2 ص 89

قد أطنبت في وصف المعاملة القاسية التي أصبح التجار الانجليز يلقونها من قبل المنصور ومن رجاله المسؤولين .

وقد استجابت الملكة اليزابيث أخيرا لنداءات مبعوثها وتجارها في المغرب وكتبت الى المنصور تستنكر معاملته للتجار وتستوصيه بهم خيرا وتطلب منه الاعتناء بهم وإطلاق سراح المعتقلين منهم ، متهمة إياه بانزال الأذى بهم والتعدي عليهم لا لجرم اقترفوه بل ابتغاء لمرضاة الإنسبان وملكهم فيليب الثاني (54) .

فهل كان الانجليز صادقين في ادعاءاتهم ضد المنصور ؟ ان الرجوع الى الوثائق التاريخية المعاصرة تؤكد بأن التجار الانجليز والجالية الانجليزية بوجه عام هي التي عرضت نفسها لنقمة المنصور وغضبه .

اننا نعلم الصلات القوية التي كانت بين الحكام السعديين والتجار الانجليز منذ عهد المولى محمد القائم وابنه أحمد الأعرج ، هذه الصلات التي عادت على الفريقين بأعظم الفوائد إذ استفاد السعديون من الأسلحة الانجليزية خاصة ، واستفاد الانجليز من متاجرتهم مع المغرب (بما أمدوا به من النحاس لتفريغ مدافع التار وإطلاق ملح البارود لها بالشراء من ممالكه الشريفة وإمدادها بالمعادن التي اعوزتها ببلادها) (55) . ويكنى الإشارة الى أن التجار الانجليز قد أسسوا سنة 1585 (الشركة البربرية) التي أصبحت بعد زمن تحتكر بالدرجة الأولى تجارة السكر المغربي ، فهل يعقل اضطهاد المنصور للتجار الانجليز أو لبعضهم دون ارتكابهم ما يستلزم ذلك ؟ (أما ما كنا عليه من العهد معكم في أمر كل من يخرج بسواحلنا من خدامكم ويصل لبلادنا من تجار بلادكم فمازلنا على عهدكم في رعيهم واحترام جانبكم فيهم ومعاملتهم بجميل العدل وحسن الانصاف في سائر أحوالهم وعامة شؤونهم) (56) .

لقد أخذ بعض التجار الانجليز بالمغرب يثيرون مشاكل خطيرة بعد الإرمادا ، نشرت الفوضى في الداخل وشوهت سمعة المغرب في الخارج ، مما اضطر معه المنصور الى اتخاذ مواقف صارمة ضد الخارجين على القانون ، ومن ذلك تنظيمهم براكش لمظاهرة عداوية ضد الأسبان حيث قصد المتظاهرون اللذين كانوا يتكونون

(54) المصدر السابق ، ص 34

(55) الفشغالي : مناهل الصفا ، ص 193

(56) رسالة من المنصور الى إيليزابيث — دار الوثائق بالرباط ، مخطوط ك 278 ، ص 195 .

علاوة على الاتجليز من هولنديين واندلسيين يبيت السفير الاسباني بالمغرب Diego Marin وقاموا باضرار النار فيه ، مما اجبر السفير الاسباني ومن معه على استعمال الاسلحة النارية ضد المهاجمين (57) .

ولما كان المنصور حريصا اشد الحرص على اقرار الامن وتوطيد دعائمه بالمغرب ، لما يترتب عن ذلك من ازدهار سياسى وتطور اقتصادي وعمرانى ، فانه لم يتوان عن عقاب المذنبين وانزال الاذى بهم لردعهم وليكونوا عبرة للآخرين (ومما نعرفكم به ان رجلا هنا ينتسب الى التجارة من اهل بلادكم قد تعدى طوره ودخل امورا لا تعنيه من اسباب الفساد والخوض فيما لا يعنى من الفضول التى خرج بها عن حالة التجار الواقفين عندهما يعينهم فبسبب ذلك امرنا بسجنه وعرفناكم بحقيقة حاله) (58) .

التجات الملكة اليزابيت اخيرا الى مكاتبات السلطان العثمانى مراد الثالث فى اول سبتمبر 1590 وطلبت منه التوسط لدى المولى احمد المنصور ، وحثه على نجدة دون انطونيو وانجاز ما وعده به من قروض مالية ومساعدات عسكرية ضد فيليب الثانى الذى ينوي امتلاك العالم والسيطرة على شعوبه (59) وقد وجد وجد السلطان العثمانى فى ذلك فرصة مناسبة للتدخل فى القضية البرتغالية واستغلالها ضد الاسبان وفيليب الثانى ، وفى المغرب ضد المولى احمد المنصور :

لقد اتسمت علاقة السلطان العثمانى مراد الثالث بالمنصور بنوع من التحسن اخيرا لما راينا من تبادل السفارات وعبارات الود والتقدير ، دون أن تغفل عين المنصور عن ابن اخيه الامير اسماعيل ابن عبد الملك ، اللاجئ عند الاتراك والذى كان يلتمس من السلطان العثمانى كل عطف وتأييد وقد كانت مشاغل المنصور بالمشكلة البرتغالية والحرص على اغتنام فرصة النزاع الاسباني — الانجليزى لفتح السودان من عوامل التقارب المغربى — التركى اذ ابدى المنصور حرصا كبيرا على مسالمة الاتراك بالشرق وفى شمال افريقيا بصفة خاصة رغم الظروف المساعدة على التدخل ضدهم : فالدالى احمد باشا قد خاض غمار حروب داخلية بشمال افريقيا وفى طرابلس انتهت بمقتله سنة 1589 ولم يتمكن خلفه خضر باشا من اخفاء هذه الفتن الا بعد جهد جهيد ، ومما تحفظه لنا الوثائق التاريخية الرسائل التى وجهها

(57) م. ص. ت. م — بريطانيا — ج 2 — ص 97

(58) من رسالة للمنصور الى ايليزابيت — فى مجلة تطوان عدد 8 . ص 81

(59) م. ص. ت. م — بريطانيا — ج 2 — ص 40

المنصور الى الوالى خضر باشا وجميعها تؤكد ما ذهبنا اليه من حرص المنصور على مسالمة الاتراك والتمسك بحسن الجوار معهم فى الجزائر (التى بمسامعنا الكريمة ما ذكرتم انكم حظيتم مقامنا العلوي قبل هذا التاريخ وتشوقتم للجواب فلم تصدر لكم مراجعة ما من علاننا فتعجبنا من ذلك ونحن قد اتفدنا اليكم الجواب على سبيل الفور . . لما تقتضيه حرمة الجوار فتقوا بأن وداكم عندنا محفوظ) (60) والاعراب عن تأييدهم المادي والعسكري (ثم اعلوا ان آتستم من جانب الكفرة دمرهم الله عارة تنشأ او اسطولا يؤم ناحيتكم واحتجتم الينا فنحن بحمد الله بانفسنا واموالنا واجنادنا موجودين بنصرتكم على اتم اهبة واستعداد) (61) .

على أن السلطان العثمانى الذى كان قد انتهى المشكلة الايرانية على حساب الدولة الصفوية قد جرب استغلال تقرب الانجليز منه للتدخل فى المغرب ، خصوصا وأنه لم يفتا بين الفينة والاخرى يلوح للمنصور بالامير اسماعيل ابن عبد الملك ، واعتمادا على وثائق معاصرة فان أمير البحر حسن باشا الوصى على المولى اسماعيل قد تحركت آماله غداة اتصال الانجليز بالسلطان العثمانى لحث المنصور على العمل لصالح دون اتطونيو ، وأنه قد أخذ يسمى لدى مراد الثالث للتدخل فى المغرب ضد المنصور بطريقة أو أخرى ، ومن ذلك ما جاء فى رسالة السفير الانجليزي فى اصطانبول Edward Barton بأن السلطان يهيئ حملة عسكرية ضد المغرب بحجة محاربة الاسبانيين (62) ، وهذه الرسالة مؤرخة بيوم 24 يونيه 1590 اي فى نفس السنة التى وصلت الى المنصور سفارة تركية تحمل طلب السلطان فى أن يمكن المنصور ابن اخيه الامير اسماعيل من مدخول بعض الاقاليم المغربية ، ويلح عليه فى ارسال ثلاثين ألف دوكة عاجلا كتعويض عن السنوات الماضية (63) .

وبالإضافة الى ذلك طالب السلطان العثمانى مراد الثالث المولى أحمد المنصور بارسال (دون كريستوف) الى اصطانبول ، كما جاء فى الرسالة الجوابية للسلطان الى ايليزابيت (64) .

(60) رسالة من المنصور للوالى العثمانى بالجزائر - دار الوثائق بالرباط . ك 278 . ص 21

(61) المصدر السابق .

(62) م. ص. ت. م - بريطانيا - ج 2 - ص 26

(63) المصدر السابق ص 46

(64) م. ص. ت. م - بريطانيا - ج 2 - ص 201

وامام اصرار الملكة الانجليزية على عودة الامير البرتغالى الى لندن ، وليقطع المنصور الطريق على الباب العالى ، سمح له بالسفر الى بريطانيا (وانكم تطلبون حيث لم يتمكن امر المال الذي كان طلب امداده به على جهة السلف ولم تظهر فائدة لجلوس ولده المستقر الآن بكريم جوارنا وفي كنف عزنا وايثارنا ، نبعث به اليكم لاجل انكم انتم الذين بعثوه الى جانبنا العلى) (65) . وقد وصل (دون كريستوف) الى لندن واخرمارس لسنة 1592 (66) .

هكذا استفاد المنصور الى حد بعيد من قضية النزاع الاسباني — الانجليزي حول العرش البرتغالى : فبين وصول دون كريستوف الى المغرب وخروجه منه (1589 — 1592) اي خلال ثلاث سنوات بلغ المنصور شأوا عظيما في الداخل والخارج وتحكم في توجيه الاحداث وفق مصالحه واهدافه ، كما اصبح في وسعه التأثير على حفظ التوازن الدولي بين قوى المعسكر الكاثوليكي والبروتستانتى من جهة ، وبين قوى الشرق الاسلامى والغرب المسيحى من جهة اخرى ، فاصبحت له بذلك شهرة عالمية تردد صداها في الشرق والغرب ، وذلك اسمى ما كان يهدف اليه ويعمل على تحقيقه كما استفاد من التجاء على بن داود أخ اسكيا اسحاق بكاغو للتدخل عسكريا في بلاد السودان وتأسيس امبراطورية عظيمة بغرب افريقيا لا تقل اهمية وغنى عن الامبراطوريتين المعاصرتين : العثمانية والاسبانية الشىء الذي رفع من قدر المنصور وجعله في مصاف الملوك العظام الذين عرفهم الربع الاخير من القرن السادس عشر للميلاد .

(65) رسالة من المنصور الى ايليزابيث مجلة تطوان — عدد (3 — 4) . ص 55

(66) م. ص. ت. م — بريطانيا — ج 2 — ص 70

الفصل الثاني عشر

فتح السودان وتأسيس الإمبراطورية المغربية

تمتد بلاد السودان على مساحة واسعة من غربى القارة الافريقية ، بين منطقتين متباينتين طبيعيا وبشريا واقتصاديا ، هما : الصحراء الافريقية الشاسعة الاطراف فى الشمال حيث لا تتم الحياة الا فى الواحات وحيث تكثر انماط حياة الترحال والتنقل ، والغابة الاستوائية المكتظة الاشجار موطن القبائل الزنجية البدائية ، فى الجنوب ، وقد اشتهرت منذ القديم بنهرها العظيم (نهر النيجير) الذى يبعث الخصب والحياة فى جميع المناطق التى يمر بها (وحسبها ببلاد آثرها الله واثراها بنهر الجنة ومنبع مياه الرحمة . . وارض كرم الله تربتها وابان فضلها) (1) ، وبزراعتها الواسعة (فقد طم بها بحر الحبوب والاقوات والادم وسال بها سيل النعم السائلة المنبث للتناسل فى المرج النضر الممتد على ضفتى النيل جناحا اخضر موشى البرود بوشيح النبات مفدق السقيا بالفيض المتراكب المزج الى محاسن لا تحصى) (2) ، ثم بمعدن الذهب (الابريز وحد النضار الذى فغرت اليه اقطار الارض انفاوها) (3) ، علاوة على (اصناف الرقيق المنيف على الذر) (4) اذ ان السودانيين كانوا ينظرون جميعهم الى القبائل الزنجية بالغابات الاستوائية كوثنيين كفرة ، تجب متانتهم وشن الغارات ضدهم ، فكان ان اتخذوا منهم بضاعة

(1) المشتالى : مناهل المصا فى مآثر موالينا الشرعا . ص 117

(2) المصدر السابق . ص 118 .

(3) المصدر السابق . ص 168 .

(4) المصدر السابق . ص 117

للمتاجرة ازدهرت مع الايام الى حد ان مناطق الغابات الاستوائية اشتهرت بتجارة الرقيق بالدرجة الاولى الى جانب الذهب والعاج وبعض التوابل .

ولهذه المزايا العظيمة ازدحم الناس واتسع العمران (غما شئت من مدن تاهرة وقرى متراصفة ومروج نضرة واسواق بالخلق والنعم زاخرة) (5) ، يقصدها التجار من جميع انحاء العالم وخاصة من شمالي افريقيا ومن اوروبا الغربية حيث كانوا يحملون المنسوجات والمصنوعات المختلفة والاسلحة والمشروبات وغيرها (. . لكثرة من ينقباها من جميع زوايا المعمور من ركاب التجار وارباب البضائع الثقيلة الذين يضربون اليها اكباد الابل من كل فج عميق) (6) .

كما عرفت بلاد السودان بتاريخها السياسى ودولها العديدة التى بلغت السودان فى عهدها مراحل هامة من التطور السياسى والازدهار الحضارى .

ومنذ ظهور الاسلام وانتشاره فى شمالي افريقيا ، أخذ نور الدين الحنيف يشرق بين جنبات بلاد السودان الى ان عم القسم الاعظم منها ، لدرجة ان مدن السودان غدت من اعظم المراكز الاسلامية بغربى افريقيا خاصة زمن حكم اسرة اسكيا المؤسسة لدولة سنغاي فى مدينة كغاغ على النيجر الاوسط ، وبحكم وضعية السودان الجديدة دخلت هذه المنطقة فى عداد بلاد الاسلام وازدادت الروابط الروحية والمادية بين سكانها وباقى المسلمين فى الشرق والغرب ولا سيما بشمالي افريقيا بحكم موقعها القريب من السودان ، ومن اهم مدن السودان . . العاصمة كغاغ وتبكتو ودجبنى وغيرهما . .

ودولة سنغاي فى كغاغ يرجع تأسيسها الى محمد اسكيا الملقب باسكيا الكبير ، الذى تمكن بعد ضعف امبراطورية مالى وانحلالها من تأسيس دولة مسلمة سنة 1493 م ، توارث حكمها ابناؤه من بعده ، وقد قاموا بأعمال هامة فى بلاد السودان سواء من حيث نشر الاسلام والعروبة او فى ما يرجع لتنظيم البلاد وضبطها وخاصة فيما يتعلق بتوسيع حدود الدولة التى أصبحت بعد زمن تحكم امبراطورية مترامية الاطراف ، من مناطق نفودها : اجاديس مدينة القوافل المزدهرة ومركز الاتصال بين السودان وتونس وليبيا ومصر ، ثم امارات الحوصة الخصبة علاوة على مناجم الصحراء المختلفة .

5، المصدر السابق من 117
6، المصدر السابق من 117

وخلال القرن السادس عشر للميلاد ، حصل تطور سياسى ببلاد السودان نتيجة قيام دولة اسلامية فى برنو ، وقد ازدهرت هذه الدولة خلال حكم ادريس الثانى وادريس الثالث (الوما) ، الذين وسعا حدود دولتهما لدرجة اصطدم معها نفوذ امراء بورنو بنفوذ آل اسكيا فى المنطقة الخصبة التى اشتهرت بالرخاء الاقتصادى ، فقد تقاسمها الحكام الاقطاعيون واسسوا بها شبه امارات صغيرة من اهمها . . كانوا ، دورا ، جوبير ، رانوا .. وقد اشتد نفوذ برنوا وكاغ فى هذه الامارات الطائفية ، مما زاد من حدة الصراع بينها وجعلها تعيش فى اوضاع مضطربة ، ودفع كلا من الحاكمين فى برنوا وكاغ الى البحث عن الوسائل المختلفة التى تحقق له القوة وتكفل له الظفر والتصر .

اما العلاقات المغربية — السودانية فتراجع فى تاريخها الى عهد بعيد وان تطورت بعد انتشار الاسلام وازدادت قوة الاتصالات التى كانت مستمرة بينها طوال العمر الوسيط حيث كانت السودان (مراث العديم ومجلبة التبر الى المشارق والمغرب فى الحديث والتقديم (7) .

ومنذ ظهور السعديين وقيام دولتهم بالمغرب ، سعموا الى البحث عن موارد ثابتة تمكنهم من توطيد اقدامهم وتساعدتهم على تطوير الاقتصاد المغربى لما فيه رهاية البلاد وازدهارها وكما استغل السعديون قصب السكر بسوس وغيره من الثروات الزراعية والمعدنية فقد سعموا الى استغلال ثروات الصحراء المغربية الجنوبية كمعادن الملح بتغازي (الذى تمتاز منه سائر بلاد السودان) (8) .

فالمولى احمد الاعرج وهو الحاكم الثانى فى السلالة السعدية ، تدخل سنة 1526 فى توات وكتب آسكيا اسحق الاول فى أن (يسلم له فى معدن تغاز) (9) ، الا ان الملك السودانى اجابه (بأن احمد الذى يسمع ليس هو اياه وان اسحق الذى سيع ليس انا اياه ما زال ما حملت به امه) (10) .

وعندما تولى محمد الشيخ ارسل سنة 1544 الى اسحق فى شأن التنازل له عن معادن تغازي حيث يستخرج الملح ولكن آسكيا اسحق رفض للمرة الثانية بل وارسل (الفين ركابا من التوارق وامرهم أن يغيروا على آخر بلد درعة الى جهة

(7) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 117

(8) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 118

(9) عبد الرحمن السعيدى : تاريخ السودان . ص 99

(10) المصدر السابق .

مراكش بلا اخراج روح احد فيرجعون على اثرهم فغاروا على سوق بينما أصبح
كيفما قام وثبت فاكلوا جميع ما وجدوا في ذلك السوق من الاموال فرجعوا كما
امرهم وما قتلوا احدا وما ذلك الا ليرى السلطان قوته (11) .

اما رد الفعل المغربي فقد جاء قبيل مقتل محمد الشيخ ، اذ ارسل سنة
1557 م حملة عسكرية قوامها نحو الف وثمانمائة فارس وصلت الى واد ان
حيث توجد سبخة اجل الشهيرة التي يستغل السودانيون ملحها ويدر عليهم ارباحا
طائلة ، وقد تقدمت منها نحو تغازي وقضت على مظاهر السلطة السودانية بها (اجلب
الامام رضى الله عنه على تغازي فانتزعها من يد سكية واستضافها للمغرب وعقد
عليه لرجاله) (12)

قاطع السودانيون ملح تغازي والقوافل التي تمتر منه ، مما اجبر المولى
محمد الشيخ على التفاوض مع الحاكم السوداني على أن يتخلى المغاربة عن
(بعض خراجها لسكية مقابلة تسريح بيع الملح الذي تستامه العير الى بلاده من
هذا المعدن فكان سكية يبعث من يحمل له نصيبه من الخراج دون أن يكون له تبض
ولا بسط في أحكام البلد والمعدن) (13) .

غير أن الاوضاع كما يبدو قد تغيرت اثر مقتل محمد الشيخ من قبل الاثراك
وبسبب الظروف الداخلية الصعبة التي عرفتها بلاد المغرب بعد مقتله ، اذ استأثر
اسكيا بمناجم تغازي لمد بعيد .

لما تولى المولى أحمد المنصور وأخذت أوضاعه الداخلية والخارجية تعرف
نوعا من الاستقرار ، بدأ في رسم سياسة توسعية خاصة ، أساسها التمرکز في
مواقع استراتيجية هامة في الصحراء المغربية تشتت بواحاتها ومعادنها وبأهميتها
في المواصلات ، ثم اتخذ هذه القواعد نقاط ارتكاز للتوسع فيما جاورها أولا ثم بلاد
السودان ثانيا .

وأولى خطوات هذه السياسة كانت عام 990 هـ عندما وهدت على
المنصور بفاس سفارة من برنو أرسلها ادريس الوما (ادريس الثالث) ، وقد حملت
اليه (ما جرت به عادتهم أن يجلبوه في مهاداتهم من غنيان العبيد والاماء المختلفة الاسنان ؛
وكان من ذلك عدد كبير ناهز المئين) (14) ، وذلك ليتقدم الى المنصور خطاب

(11) المصدر السابق . ص 100 .

(12) النشألي : مناهل المنا . ص 114 .

(13) المصدر السابق . ص 120 .

(14) المصدر السابق ص 67 .

ادريس الثالث المتضمن لطلب النجدة والمساعدة (بالعساكر والأجناد والعدة من البندق ومدافع النار لمجاهدة من يليهم فيما زعوا بقاوية السودان من الكفار) (15) .

وما من شك في أن التنافس السياسى والاقتصادي ببلاد السودان بين برنو وكاغ قد كان له أثر كبير في توجه ادريس الثالث الى طلب هذه النجدة العسكرية من المنصور ، بعد أن فشلت المحاولات التي قام بها من قبل مع السلطان العثماني (وكان هذا الرسول قد وفد قبل هذا على سلطان الترك بالاسطنبول مراد يطلب منه المدد) (16) .

كان وصول وفد برنو الى فاس واتصاله بالمولى أحمد ، بداية تطور هام في التاريخ المغربى الحديث ، لان اطلاق المنصور على احوال بلاد السودان عامة وبرنو خاصة ، قوى عزمه على الشروع في تنفيذ سياسته السودانية (فقد قارن ذلك ما كان من عزم امير المومنين قبل مجيء هذا الرسول على تجهيز العساكر يومئذ الى تدوين بلادتوات وتيكورارين وامل ان يجعلها ركابا الى استفتاح اقطار السودان والاستيلاء على ممالكهم) (17) .

ولهذا السبب فان المنصور لم ينجد ادريس الوما ملك برنو بالاسلحة والعتاد الحربى من مدافع واسلحة نارية وغيرها ، اذ لم تكن دول السودان قد تعربت على هذا النوع من الاسلحة الفتاكة بل ان محافظة السودانيين على استعمال الاسلحة التقليدية قد كانت من العوامل التي حفزت المنصور على تنفيذ خطته التوسعية خاصة وان الظروف كانت جد مساعدة حيث (نهض بالدولة حتى استقلت لعهد . . بما تراكم فيها من الجند وتوفر من الحامية) (18) .

وقد اشترط على ادريس الثالث كاساس لمساعدته اعلان بيعة الخلافة السعدية ، ورغم قبول ملك برنو الدخول في الطاعة (19) فانه لم ينجده بالاسلحة النارية ، وانما التجأ الى سياسة المماطلة والتسويق باتخاذ الاعذار المختلفة ، ولا شك في أن المنصور سيجد من طاعة ملك برنو عاملا مساعدا للاندفاع في سياسته التوسعية بالصحراء وبلاد السودان

15) المصدر السابق ص 67

16) المصدر السابق ص 68 .

17) المصدر السابق ص 68 .

18) الفشالى : مناهل السنا . ص 40 .

19) في مناهل السنا للفشالى يوجد نص بيعة امير برنو للمنصور (ص 69)

كانت الخطوة الاولى لتحقيق سياسة التوسع : الاستيلاء على منطقتين رئيسيتين بالصحراء الجنوبية - الشرقية المغربية هما : توات وتيكرارين ، فما الداعي الى القيام بالسيطرة على المنطقتين قبل غيرهما من المناطق الصحراوية ؟ الم يكن بوسع المنصور مهاجمة المناطق الصحراوية بجنوبي المغرب والنفوذ منها الى السودان ؟ لقد وجد المنصور امامه طريقَتين للوصول الى السودان : الاولى توات وتيكرارين في الجنوبي الشرقى ، والثانية عبر الصحراء الجنوبية ، غير انه اتجه صوب الطريق الاولى وارسل حملة عسكرية لاحتلال توات وتيكرارين شعورا منه بالدور الهام الذي ستقوم به هاتان المنطقتان لتحقيق اطماعه التوسعية ببلاذ السودان (فالقطران عالم من عوالم الارض . . بما جمع من الامم وتراكم فيه من التصور واتصل من العمران وتخلله من العيون) (20) .

فاحتلاله لهاتين المنطقتين يمكنه من قطع الطريق على الاتراك بالجزائر اذا ما فكروا في التوجه نحو غربى افريقيا وبلاذ السودان بوجه خاص : لغنى المنطقة الاقتصادية ووفرة ترواتها ولمركزها الاستراتيجى الهام كبلد له سواحل طويلة على المحيط الاطلسى - اداة المواصلات الاولى بين اوربا الغربية والشرق الاتمسى - يمكن استغلالها لتهديد المواصلات البحرية الاسبانية ، ولن يقدم السلطان العثمانى ما يبرر به تدخله في هذه البلاد التى تدين بالاسلام بصفته خليفة المسلمين ، خصوصا اذا ما توصل من اسكيا ملك السودان بطلب النجدة والمساعدة ضد المنصور ، خصم السلطان العثمانى العنيد (لما كان صقع بلاد توات وتيكرارين من دون سائر الاقطار القاصية بالمحل القريب من جواره راي ايداه الله ان يبدأ امره بانفتاحه ويجعله ركبا لها وراءه وسلمها لها يليه) (21) . وفى هذا يكمن سر الموقف السلبي الذى اتخذ المنصور ازاء طلب المساعدة الذى تقدم به ادريس الوما ملك بونو . خرجت حملتان عسكريتان لفتح توات وتيكرارين عام 991 / 1583 م من ناس ومراكش : الاولى بقيادة ابنى عبد الله محمد بن بركة ، والثانية بقيادة ابنى العباس احمد بن الحداد العمري المعلقى ، وبعد ان التقت القوات الفاتحة بسجلهاسة قصدت (تينهميون) قاعدة قصور تيكرارين وغرقت عليها حصارا بعد ان رفض اهاليها اعلان الطاعة والولاء للمنصور (وكانوا قدموا الى اهلها كذب امير المؤمنين بالاعذار والبراءة والدعاء الى الطاعة)

(20) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 73 .

(21) المصدر السابق .

والارشاد والدخول في حزب الهدى فأساءوا الرد ولادوا بالمنع واستعدوا للحصار (22)
وبعد معارك حربية طاحنة فتحت المدينة عنوة بفضل الاسلحة النارية الفتاكة التي
تتوفر عليها القوات المغربية (فانقاد بانتقياد تينجبون سائر قطر تيكورارين وأتوا
طاعتهم راهبين) (23) .

وبعد تيكورارين قصدت القوات المغربية (تمطيط) قاعدة قصور تسوات
ناسرع رئيسها الشيخ عمر ابن محمد بن عبد الرحمان الى اعلان طاعة المنصور
اذ (علم انه لا طاقة له بمقاومة الحصار ودناع العساكر . . فكان استئزال عمر
رئيس البلاد وزعيمها مفتاحا لانقياد سائرها (24) .

هكذا حقق المنصور الخطوة الاولى من سياسته السودانية ، واعتبر هذا
النصر بهتابة عامل مشجع على الثمادي في طريق التوسع والفتح .

اما الخطوة الثانية فقد جاءت عقب وفاة الملك السوداني أسكيا داود في رجب
990 هـ الموافق لغشت 1582 م ، الذي كانت تربطه بالمنصور روابط حسنة ، فتد
سبق للمنصور أن بعث اليه يطلب منه التنازل له عن خراج معدن تغازي ، وقد
اجاب أسكيا داود بأن (بعث له عشرة آلاف ذهبا هدية وعطية خير . . فكان سبب
المحبة والوصلة بينهما) (25) .

ارسل المنصور وفدا الى كاغ عام 991 / 1583 (ومعه هدايا عجيبات) (26)
لتقديم التعازي الى الملك الراحل ولتهنئة الملك الجديد ، ثم للاطلاع على احوال
البلاد كلها والتعرف على أسكيا الحاج محمد وموقفه من قضية معادن الملح الصحراوية
في تغازي التي كان المنصور يرى احتية استغلالها بحكم أن والده محمد
الشيخ كان قد انتزعها من السودان وضماها الى المغرب سنة 1557 م ولكنه تراجع
عن بعض خراجها لملوك السودان اللذين أصبحوا يسيطرون على كل المعدن
وعائداته الوافرة (فرأى نصره الله أن المعدن لببت المال وان اباحة ملحه
بغير قيمة فيه تضيع لمال المسلمين وحقوقهم فيه (27) . وقد كان على رأس الوفد
المغربى الشيخ مؤمن بن موسى العمري الممقلى (قس زمنه في الفصاحة وطلاقة

(22) المصدر السابق ص 74 .

(23) المصدر السابق .

(24) الفشتالي : مناهل الصفا . ص 74 .

(25) السميدي : تاريخ السودان . ص 111 .

(26) المصدر السابق . ص 120 .

(27) الفشتالي : مناهل الصفا . ص 122 .

اللسان . فسرحة بهدية ورسالة الى سكيا بكافو (28) ، واهم ما تضمنته الرسالة مخاطبة أسكيا (في شأن معدن الملاحة الكائن بتغازي) . وقدّر له فيها ما اقتضاه سديد النظر الكريم من فرض منقال للحمل على كل ما ينتابه من التوافل (29) .

أرجع أسكيا الحاج محمد الوفد المغربي مكرما وارسل معه للمنصور (اضعاف ما ارسل هو من الهدايا من خدام وسنانير الغالية وغير ذلك ومن جملة ما أرسل ثمانون خصيا (30) . واكد له في نفس الوقت عن عزمه على عدم التنازل له عن معدن الملح في تغازي . اما الوفد المغربي فانه (لم يدع من تقيير ولا قمطير الا واحاط به فهموافتله علما فتصّ ذلك على امير المؤمنين ايده الله وشجده به غرار عزمه) (31) ، وانتهى الامر بأن قرر المنصور التدخل عسكريا لانتزاع المعدن المذكور انما مهد لذلك بالسيطرة على جميع المناطق الصحراوية الساحلية الممتدة بين سوس ودرعة شمالا ونهر سينغال جنوبا حتى (يستعين بفتحها وبما تستاق العساكر من الكراع والظهر المجلوب . . . على امر الحركة الى جهة الجنوب) (32) .

خرجت حملتان من سوس : الاولى بقيادة محمد بن سالم ، والثانية بقيادة عبد المولى بن عيسى اواخر عام 1584/992 (وخاضوا القفر مع الساحل الى السودان فوصلوا اليها من بعد الجهد لتسعين مرحلة متصلة من ثغور ممالك العرب القبيلة) (33) ، فاذعنت جميع القبائل للقوات الفاتحة وكان من الذين دخلوا في الطاعة من مشايخ المنطقة (كبيرهم الموفى على الغاية في السن والهرم ابراهيم ابن رضوان يأمر فلان وموسى جوب وغولى اخويا مرفال وكلهم من ملوك السواحل ببلاد السودان ... وكان الذى استجاب لهم ودان بالطاعة والانتقاد من عرب الفلاة فقط وامهم اللذين ينتجعون الكلا في مجالات القفر الممتد من شعوب المغرب القبيلة الى ممالك السودان بالجنوب نيفا واربعين ألف خيمة) . فحصل امير المؤمنين من ذلك على ما اراد وفوق ما كان يأمل من الاستعانة بكثرة الظهر على ما اجمع عليه من الحركة الى سكيا بجهة الجنوب (34) .

(28) المصدر السابق .

(29) المصدر السابق ، ص 123 .

(30) السعيدى : تاريخ السودان . ص 120 .

(31) الفتالى : مناهل الصفا . ص 123 .

(32) المصدر السابق . ص 78 .

(33) الفتالى : مناهل الصفا . ص 78 .

(34) المصدر السابق . ص 79 .

أصبحت ظروف المنصور بعد السيطرة والتحكم في المنغذين الهامين نحو السودان خير مشجع ومساعد في آن واحد على رسم سياسة توسيعية بالسودان ، خاصة وإن أسكيا الحاج محمد قد رفض كل نوع من التفاهم مع المنصور حول استغلال ملح نغازي . والسياسة التي مضى المنصور في تنفيذها ترمى :

أولا : مهاجمة نغازي والاستيلاء عليها وتحصينها ثم اتخاذها قاعدة انطلاق للتوسع في السودان .

ثانيا : التدخل في السودان عن طريق استمالة بعض الثوار والخارجين على حكم أسكيا ، واستغلالهم لمهاجمة السودان عسكريا .

وهكذا وجه المنصور قوة عسكرية مسلحة باعثة النار لاحتلال نغازي ، وبعد السيطرة على المنطقة (بنى على ذلك المعدن حصنا أنزل به من جيش النار من يحبه) (35) وقام بغرض ميثال على كل حمل (على جميع الإبل التي ترد) (36) ، وقد تم ذلك خلال عام 994 هـ .

أما موقف أسكيا في كاغ فقد كان سلبيا ، شعورا منه بضعف إمكانياته المسلحة بالنسبة للقوات المغربية المجهزة بكل وسائل النار ومدافع البارود ، وكل ما قام به أسكيا هو إعلان متاطعة المغاربة بنغازي وعدم التعامل معهم (37) ، فرأى صاحب السودان ما يحصل من عظيم الربح والمنفعة في ذلك لأمير المؤمنين . نسعى في تعطيل ذلك وإفساده ونأدى في سائر بلاده باقتطاع ملح ذلك المعدن ومنع العير التي تمتاز منه من الورد الى بلاده) (38) .

ويبدو أن هذا الموقف قد أغضب الكثير من السدانين مما أدى الى قيام ثورة أطاحت في شهر ذي الحجة عام 994 : نوفمبر - ديسمبر 1586 بحكم أسكيا الحاج محمد وجعلت البلاد تدخل مرحلة من الفوضى الداخلية ، إذ تولى أسكيا محمد وهو أخ الملك المعزول في محرم 995 / يناير 1587 إلا أنه توفي في نفس السنة وخلفه أخوه أسكيا إسحاق الذي تمت بيعته يوم الأحد 3 جادى الأولى عام 996 الموافق 10 أبريل 1588 .

(35) المصدر السابق ص 120 .

(36) المصدر نفسه .

(37) (وفي سنة أربعة وتسعين وتسعمائة في شوال جاء الخبر بأن لا يذهب أحد الى نغاز من مثنى اليه بماله هدر) - السعيدى : تاريخ السودان . ص 121 .

(38) الفتالى : مناهل الصفا ص 121 .

قضى أسكيا إسحاق الفترة الأولى من حكمه في إخضاع الفتن الداخلية ولا سيما ثورة محمد الصادق بلمع أحد الولاة بالسودان ، فقد أعلن نفسه أسكيا بمدينة تنبكتو ولكنه انهزم أخيرا أمام أسكيا إسحاق الذي انتقم من أهالي تنبكتو وأنزل بهم سوء العذاب وذلك في شهر جمادى الأولى عام 996 هـ (39) .

ومن الذين ثاروا على أسكيا إسحاق ، أخوه على الذي التقى عليه القبض وأبعد عن السودان منفيا إلى تغازي ، واعتادا على ما أورده الفشتالي وزير المنصور في (مناهل الصفا) فان عيون المنصور بالسودان (منصور بن الفيلالي) هو الذي أشار على أسكيا إسحاق بنفى أخيه على إلى تغازي . وعلى كل فقد أبعد على إلى تغازي حيث (وكل به من أوصله إلى ولي الأمر من قبل أمير المؤمنين بتغازي مقيدا فأغد به من حينه إلى مراكش) (40) ، التي وصلها في جمادى الأولى عام 997 هـ وقد كان المنصور في زيارته الثانية لفاس (اتصل خبر وصوله بأمير المؤمنين بفاس فاهتز له من أعواده سرورا باتمام حيلته واستبشارا بفتح البلاد) (41) .

كان وصول على بن داود إلى مراكش في جادى الأولى عام 997 / مارس أبريل 1589 فرصة عظيمة مكنت المنصور من الاطلاع على خبايا الأوضاع بالسودان وما كانت عليه البلاد من فوضى وانقسام داخلي فقد أطلع على بن داود المنصور على (أخبار أهل سنغى وبما كانوا عليه من الأحوال الذميمة والطبائع الرذيلة مع ضعف القوة ، وحضه على أخذ الأرض من أيديهم) (42) . وطلب منه مساعدته العسكرية ضد أخيه أسكيا إسحاق (بأن يكتب إلى أمير المؤمنين يرغب بامداده بالعساكر ليحلب بها على أخيه السلطان اليوم بكافو) (43) .

عجل المنصور بارسال وفد إلى أسكيا لتبليغ مطالبه المستعجلة :

أولا : اطلع أسكيا إسحاق على فتاوي العلماء والفقهاء وأحقية الإمام في النظر وحده في شؤون المعادن (وما نحن قد أنفذنا اليكم بما لائمه المذهب في هذه المسألة على الخصوص وما لعلماء السنة من الحجج لتعلموا أن للإمام فيها النظر

(39) السعيدى : تاريخ السودان . ص 121 .

(40) الفشتالي : مناهل الصفا ، ص 122 .

(41) المصدر السابق .

(42) السعيدى : تاريخ السودان . ص 137 .

(43) الفشتالي : مناهل الصفا . ص 122 .

والاجتهاد (44) علاوة على قيامه بالجهاد ضد العدو الذي لولا المنصور وقواته المسلحة لتمكن من الوصول الى السودان (وهى جنود الله التى لولا ما حجزت بينكم وبين طواغيت الشرك سيوفها القاصمة . . لغاض عليكم طوفانه السائل) (45) .

ثانيا : لتبليغه أمر المنصور (بتسريح العير تمتاز الملح من هذا المعدن الذى بلاده) (46) وتمسكه بفرض مثقال على كل حمل .

ثالثا : مطالبة أسكيا اسحاق بالدخول فى طاعة الخلافة المغربية (فاننا ندعوكم الى ما فيه ان شاء الله الخير العاجل . . والدخول فيما دخلت فيه جماعة المسلمين من مبايعتنا والانتقام بشريف امامتنا) (47) .

رابعا : اطلعه على طالب النجدة الذى تقدم به أخوه على اللاجىء بهراكش (وهانحن امهلناه فى الجواب . . حتى نرى ان شاء الله ما يبدو منكم) (48) ، اى ان المنصور اخذ يلوح لاسكيا اسحاق بإمكانية مساعدة أخيه على الذى هو مستعد بطبيعة الحال لاعلان طاعة المنصور والاستجابة لرغباته متى ما استقر له الامر بالسودان

رفض اسكيا اسحاق الاستجابة لمطالب المنصور (والتسليم فى ذلك المعدن بل نبح له الكلام فى الجواب وبعث له صحيفة جوابه حرشانا ونعلن من حديد) (49) اشارة الى انه بعد انتصاره على المنصور سيضعهما فى رجليه مما اثار المنصور ودفعه الى التعجيل بالتدخل فى السودان ضد أسكيا اسحاق .

عقد المنصور مجلسا للشورى (ضم الملا من طبقات الاجناد وذوى الحل والربط وأولى البصيرة والحكمة وذوى الخبرة والنباهة بالامور الشداد . . فصعد لهم ايده الله بذات صدره وفاتحهم بعزيمته وما اجتمع عليه من تجهيز العساكر الى هذه الاقاليم السودانية والاصقاع الجنوبية معلنا لذلك الملا الا يدخر احد رابا . . وانه ايده الله غير مستكف من حق يوضحونه بحجة ولا متوقف عن الرجوع الى صواب يثبتونه ببرهان) (50) .

(44) رسالة المنصور لاسكيا اسحاق (مناهل الصفا . ص 123 .

(45) المصدر السابق .

(46) المصدر السابق .

(47) المصدر السابق .

(48) المصدر السابق .

(49) السعيدى : تاريخ السودان . ص 138 .

(50) النشأتى : مناهل الصفا . ص 126 .

وقد اتخذ المنصور من امكانية استغلال خيرات السودان للجهاد في سبيل اعلاء كلمة الله وضد اعداء الاسلام وانتقاد الاندلس وارجاعها الى حظيرة العرب والمسلمين سببا قويا لتبرير فتحه لهذه البلاد (. .) . للاستكثار من الاسطول لغزو عدو الدين والاجلاب عليه بحول الله في عقر داره (51) .

واثناء المداولة ، ابدى بعض المستشارين شكوكهم في امكانية تحقيق غزو السودان بحجة :

اولا : صعوبة اجتياز الصحراء القاحلة و (اعتراض المناور البيد والمجاهل الثغار التي لا تشتتها الرفاق القلائل الا بعد عصب الريق والانغلات من مخالاب الهلكة) (52) .

ثانيا : عدم تفكير اية دولة من الدول المغربية السابقة بغزو السودان على الرغم مما اتصف به بعضها من (وغور الاجتاد وامتداد ظل السلطان . . ولو تان ذلك في طوق امكانهم لكان همهم الذي يسرع اليه هو ابتدارهم) (53) .

وبعد تبادل الراي استطاع المنصور ان يقنع الحاضرين بوجهة نظره الرامية الى غزو السودان والسيطرة على اقاليمه او ان المستشارين لم يجدوا في النهاية بدا من موافقة المنصور على ما صمم العزم عليه . وكان المنصور قد بنى خطته هذه على :

اولا : تفوقه العسكري بما يتوفر عليه الجيش المغربي من تدريب حديث واسلحة نارية فناكة . . خلاف ما كانت عليه الحال بالنسبة للدول المغربية السابقة التي لم تخرج عن (عساكر الخيل والفرسان الرامحة وعصائب الرماة الناشبة) (54) ونفس ذلك التنظيم والعتاد كان عند السودانيين اما قواته فانها (عساكر تناذمة بشواظ النار وحصباء البندق المنهل بسحائب من البارود مركوم تزجييه الرعود القاصفة والصواعق الراجفة تتبعها الرادفة) (55) وبامكان مجموعة منها ان تحقق الكثير من الفتوحات في بلاد السودان للفارق العظيم بين قوى المتحاربين (الحصاة منها تدوخ اقصى تلك الاقطار لعدم القدرة على مقاومتها والانتصار لمحاربتها) (56) .

(51) المصدر السابق . ص 190 .

(52) المصدر السابق . ص 126 .

(53) المصدر السابق .

(54) المصدر السابق . ص 127 .

(55) المصدر السابق . ص 128 .

(56) المصدر السابق .

ثانيا : غنى السودان وضخامة مواردها وإمكانية الوصول إليها لما يتوفر عليه المغرب من أقاليم صحراوية كثوات وتيكورارين وبلاد الطوارق الساحلية ، وجميعها تعتبر منافذ هامة نحو بلاد السودان وقواعد انطلاق للقوات الفاتحة ، وقد اتخذ المنصور من التجار الذين كانوا يتاجرون مع السودان ويقطعون الفيافي والقنار للوصول إليه مثالا يمكن الاقتداء به (ثم هؤلاء التجار الخائضون لغمارها المختلفون إليها يعبرونها بأوتار البضائع الثقيلة وأحمال المتاع الجمة بين صدر وورد) (57) .

وبالرجوع الى الوثائق المعاصرة نتأكد من أن منافسة قوية قد أبداهها الأسبان في السواحل الغربية لبلاد السودان لأجل استغلال خيرات هذه البلاد ، خاصة وأن الوضعية في سزاحل إفريقيا الغربية قد اضطربت بانتهزام البرتغال في وادي المخازن وزوال امبراطوريتهم . وحسب الرسالة التي وجهها الأسبان Melchoir de Petoney الى Miguel de Moura فان جزيرة Arguin لقريبة من الرأس الأبيض وعند مصب نهر السينغال في المحيط الأطلسي والمناطق الإفريقية المجاورة لها بلاد غنية جدا بالتمح والشعير والماشية والفواكه وبمعادن الذهب وأن أهالي المنطقة يجلبون ذهب بلادهم الى المغرب أو تهبوكتو ، فلو قام فيليب الثاني ملك إسبانيا وأرسل سفنا محملة بالمصنوعات الزجاجية والخناجر والجراس والثياب والمرايا وغيرها لبادلتها مع الأهالي بالذهب لمعاد ذلك بالنفع العميم على إسبانيا بدلا من ترك هذه الخيرات للمولى أحمد . وقد استولى الأسبان فعلا على الجزيرة المذكورة وأخذوا يتاجرون منها مع المناطق المجاورة (58) الأمر الذي يمكن اعتباره كمنافسة للمنصور بغرب إفريقيا وبلاد السودان ومن العوامل التي جعلت المنصور يعجل بالتدخل العسكري في السودان لقطع الطريق على الأسبانيين (وهو الآن أيده الله لهذا العهد من عام سبعة وتسعين واقف على قدم الأبهة والاستعداد ... من جهاد المشركين وأغراء أرضهم في الجنوب بعساكره الامامية) (59) .

ثالثا - توحيد المسلمين بغرب إفريقيا :

فالمولى أحمد المنصور كأمير للمؤمنين يسمى الى جمع كلمة المسلمين بغرب إفريقيا وتوحيد قواهم للوقوف صفا واحدا أمام التهجمات الخارجية التي يمكن أن

(57) المصدر السابق . ص 127
(58) م. ص. ت. م - فرنسا - ج 2 ص 67
(59) البشتالي : مناهل الصفا . ص 81 .

يقوم بها الاسبان بصفة خاصة أو غيرهم من الاوربيين الذين كانوا يترصدون الدوائر ببلاد السودان الغنية وذات السواحل الاستراتيجية التى تتحكم فى طريق الهند- البحرية (وقصدنا بما يحصل من ذلك صرفه ان شاء الله فى مسيل الغزو والجهاد وفى ارزاق ما لنظرنا على من العساكر والاجناد التى جعلناها لنكاية عدو الديـن بالمرصاد واعتدناها للدب عن كلمة الاسلام وحيطة البلاد والعباد) (59)

أخذ المنصور فى الاستعداد لغزو السودان واهتم شخصيا بالاشراف على ما تتطلبه الحملة بالوسائل والمعدات (انتضى مولانا الامام صارم العزيمة للاحتفال وشمر للجلوس له بنفسه . . وذهب فى مذهب الاحتفال ابعد شأ) (61) فأمر بجمع الابل (اذ هى ملك السفر البعيد ومركز مداره) (62) حيث وجهت الاوامر الى جميع ولاته فى الاتاليم الصحراوية خاصة (لاعتيام كل فندية ارحبية من البزول الشديد الاسر مضطلة بشق المفاوز البيد) (63) وصنع الرحال ومستلزماتها حيث جمع لها ايدي العملة من صناعات التجارة (64) وتهىء الذخيرة من (السلاح الشاك الظاهر . . وخزائن البارود المتراكمة . . وخزائن الرصاص المعدة لحصى القذف وبندق الرى من الانفاض) (5) وبناء السفن لعبور نهر النيجر (آلة السفن والاساطيل برسم اتخاذ الفلك والجواري المنشآت لعبور النيل) (66) ثم باذخار (الازودة والاقوات) (67) اللازمة لذلك والاستعداد لهذه الحملة يبرز بصفة خاصة الامكانيات الضخمة التى كان المنصور يتوفر عليها الى حد أنه لم يدون فى (بطون القراطيس حديث معسكر بلغ فى الاحتفال والانتقاء والانتضباط على قواعد الحزم وتوفير العدد ما بلغت هذه العساكر المنصورة) (68) .

والى جانب هذه الاستعدادات حرص المنصور على استمالة علماء السودان والتعاون معهم وخاصة قاضى تنبكتو عمر بن محمود بن عمر (المسروع الكلمة فى اجيلال السودان) الذى بعث اليه فى شوال 998 هـ يعرض عليه الدخول فى طاعته التى (اوجب لنا بها سبحانه على الخلق السمع والطاعة) وليطلب منه دعوة

(60) من رسالة المنصور لاسكيا اسحاق (رسائل سمعية ص 132)

(61) انفتالى : مناهل الصفا . ص 128 .

(62) المصدر السابق . ص 129

(63) المصدر السابق .

(64) المصدر السابق .

(65) المصدر السابق .

(66) انفتالى مناهل الصفا . ص 130

(67) المصدر السابق .

(68) المصدر السابق ص 130 .

السودانيين الى امامته (لتكون اول من لبى داعيها . . ولترفعوا بها عقيرتكم فسى
تلك الاقطار) (69) وقد نوه المنصور في هذه المراسلة بمقام القاضى الربيع فسى
بلاد السودان وانه اعلم من آسكيا اسحاق بما يدعوه اليه (وانكم بالاثار الشريفة . .
اعرف من سواكم) (70) كما اعلمه في ختام الرسالة بقرب وصول الحملة المسلحة
المغربية الى السودان وأن (كل من أمنتوه من عساكرنا . . فقد آمناء . . اظهر
لمزيتكم واشعارا بمزيتكم لدينا) (71) .

انتهى الاستعداد للحملة وجرى احتفال استعراضها يوم الاثنين 16 ذى الحجة
998 هـ بحضور الخليفة المنصور والجمهور العظيم (وانجفلت الدهماء لمشاهدتهم ..
واسترسلوا في مذاهب الاعجاب لكثرة ما كان الناس يتحدثون بغرابة أمور هذه
الحركة) (72) . وفي مطلع شهر محرم لعام 999 هـ اخذت الحملة طريقها نحو
السودان بقيادة (جودر باشى . . مملوكه الشهم . . الناشئ بتهذيب الامامة الكريمة
.. المنقطع الترين) (73) . الذي جعل له المنصور هيئة استشارية عليا من كبار
القواد (وشد مولانا الامام .. أزر مملوكه .. بتقات من كفاته .. أولى الدهاء
والراي ودوي النجدة في مضايق الحروب .. يرجع اليهم في مخض زبدة الآراء
ومجال المفاوضة) (74) .

سلكت الحملة المسلحة طريقا خاصا نحو السودان عرف فيما بعد (بطريق
جودر) ، وكان من بين افراد الحملة عدد من التجار كادلة ومرشدين (الذين اخلقوا
بردة الغمر وانفتوا عينها في التردد في هذه الطريق جيئة وذهابا) (75) . فبعد
مراكش اتجهت الحملة نحو وادي درعة حيث ودعمهم حاجب المنصور ابو محمد عزوز
ابن سعيد بن منصور الوزكىتى (لتثقيف أحوال العساكر ومراقبة أمورهم عند
منتهى العمران) (76) . وفي يوم 24 صفر 998 هـ اخذوا في اختراق الصحراء
المغربية الجنوبية متجهين نحو لكانوا فتندوف وتغاري ثم كارابارا على نهر النيجر
(وعندما وصلت الحملة الى البحر عند قرية كبر فنزّلوا هناك وعمل الباشا

(69) المصدر السابق . ص 122 .

(70) المصدر السابق .

(71) المصدر السابق .

(72) المصدر السابق . ص 130 .

(73) المصدر السابق .

(74) المصدر السابق .

(75) المصدر السابق .

(76) المصدر السابق .

جودر صفرة كبيرة لاطعام الطعام فرحا لوصولهم البحر ساليين لان ذلك اشارة ظفرهم بمرادهم ونجاحهم لسعيهم . . وكان ذلك يوم الاربعاء الرابع من جمادى الاولى في العام التاسع والتسعين بعد الهجرة (77) .

وهكذا تكون الحملة قد اجتازت مسافة تقدر بنحو الفى كيلو متر خلال اربعة اشهر تقريبا منذ خروجها من مراكش اوائل محرم الى أن وصلت نهر نيجر اوائل جمادى الاولى ، وبعد أن قامت بنحو ستين مرحلة (وقطعوا هذه المفارز من لدن الثغور القبلية الى أن وردوا النيل في قريب من ستين مرحلة) (78) .

كانت بلاد السودان — الحوض الاوسط لنهر النيجر — خلال السنوات العشر الاخيرة من القرن العاشر للهجرة (90 — 999 هـ / 81 — 1591 م) تعيش اوضاعا داخلية سيئة ، بسبب عوامل مختلفة اهمها : استبداد الحكام وتمرد الولاة في المناطق المختلفة وعدم تحديد مبدأ لوراثه العرش ، الامر الذي جعل الخروج والثورة على الحاكم الطريق الوحيد لتولى السلطة ، فكان (الاسكيا) بحق (المختصب) وكانت عهودهم (أيام بؤس ومجاعة) (79) لكثرة الحروب الداخلية المستمرة وما رافقتها من تخريب وتدمير . وقد ترتب عن ذلك أن أصبحت البلاد تتعرض لسلسلة من الاحداث والنكبات لم يكن الامير السوداني على بن داود مبالغا عندما وصف للمنصور احوال السودان (بالاحوال الذميمة والطبائع الرذيلة مع ضعف القوة) (80) .

وفي تاريخ السودان للسعيدى ما يؤكد ذلك (ثم بدلوا نعمة الله كفرا وما تركوا شيئا من معاصى الله تعالى الا وارتكبوها جهرا) (81) أي أن السودان عندما وصلت اليها الحملة المغربية لم تجدها (من أعظم أرض الله تعالى نعمة ورفاهية وأمانا وعافية في كل جهة ومكان) (82) ، بل كانت تنحلل للانقسام الذي جزأ القوى الوطنية وجعل العاصمة الرئيسيتين تتزعمان حروبا اهلية طاحنة بين أسكيا اسحاق في كاغو وأسكيا محمد الصادق بلمع في تيبكتو ، ولم يتمكن أسكيا اسحاق من القضاء

(77) السعيدى : تاريخ السودان ، ص 139 .

(78) الفشتالى : مناهل الصفا ، ص 82 .

(79) السعيدى : تاريخ السودان . ص 122 .

(80) المصدر السابق . ص 133 .

(81) المصدر السابق . ص 144 .

(82) المصدر السابق . ص 142 .

على خصمه الا بعد معارك حربية عرفت بعدها تمبكتو الكثير من الالهـوال
والمحـسن (83)

منذ ان وصلت الحملة المغربية الى (كارابار) على نهر النيجر ، جددت نداءات
الامان للسودانيين (واعتقدوا مع ذلك ان كل من امنتموه من عساكرنا الطالعة براياتها
الببيض على تلکم الاقطار السودانية . . فتد أمناه ومن اجرتموه فقد أجرناه) (84)
واتام الباشا جودر حنلا كبيرا بمناسبة وصولهم (وصلوا البحر عند قرية كبر
فنزلوا هنالك وعمل الباشا جودار سفرة كبيرة لاطعام الطعام مرحا لوصولهم البحر
سالمين) (85) اي ان الحملة لم تصادف اية مقاومة من عامة السودانيين الى ان
اقتربت من العاصمة كاغو حيث راسل — كما يبدو — جودر باشا اسكيا اسحاق
لمعرفة رايه الاخير في مطالب المنصور ، فعقد اسحاق مجلسا للشورى ضم (قياده
وكبراء مملكته في المشاورة في الرأي والتدبير فكلما اشاروا اليه من الرأي السديد
برمونه وراء ظهورهم) (86) وهذا يؤكد حرص البعض من مستشاريه على مسالمة
الحملة التي لا قبل لهم بمواجهة اسلحتهم الفتاكة (وانه لا يدلّه بمقاومة قتالهم
بالنار) (87) غير ان عناد اسحاق وجهله وبقته ببعض المشعوذين ممن يدعون
السحر جعله يطمئن من ارهبتهم اسلحة النار بانه (اعد لذلك همسا بسحر ونفثا في
عقد يبطل عملها ويبعث خلها) (88) ومع ذلك فقد تخلى عنه البعض من اقرب
خواصه امثال : (على بن عيسى وكان لذلك العهد في اشياح سكية المصطنعين
لديه) (89) .

وعلى (ثلاث مراحل من كاغو) (90) جرت المعركة في موضع (يقال تنكدبغ
وهو في قرب تندي) (91) حيث توجد (غابة ملتفة الشجر صعبة المسلك من
اشتبك ادواحها فلم يات لهم قطعها على التعبئة والانتظام بل سلکوها زرامات
ووجدنا وما مرقوا منها الا وقد الفوا العدو اخذ مراكزه بحومة الوغى التي بين

-
- 83 المصدر السابق . ص 127 .
84 الفشتالي : مناهل الصفا . ص 133 .
85 السعيدى : تاريخ السودان . ص 139 .
86 المصدر السابق .
87 الفشتالي : مناهل الصفا . ص 137 .
88 المصدر السابق .
89 المصدر السابق . ص 137 .
90 الفشتالي : مناهل الصفا . ص 144 .
91 السعيدى : تاريخ السودان . ص 140 .

يديها ونظم تعبئته لمعاجل المساكين الامامية بالقتال من قبل انتظام التعبئة وترتيب
المصاف ليئت بذلك في عضدهم (92) .

لم تدم المعركة اكثر من يوم واحد ، اذ انتهت بانتصار القوات المغربية المسلحة
بالنار والحديثة التنظيم ، وذلك يوم الثلاثاء 17 جمادى الاولى 99 هـ / 12 مارس
1591 م ومن ميدان المعركة اتجهت الحملة ضد العاصمة كاغو التي فر عنها اسكيا
اسحاق (وجاشت المساكين الامامية خلال تلك الديار واجفلوهم من قاعة
ملكهم . . مدينة كاغو واحتل بها الاجناد المنصورية على الطائر الميمون واقطع عنها
العبد وحاشيته) (93) وكان دخول جودر باشا الى كاغو يوم 20 رجب 999 هـ /
13 ماي 1591 ، حيث خرج منها معظم سكانها (ولم يبق من سكانها الا الخطيب
محمود دراني وهو شيخ كبير يومئذ والطلبة ومن لم يقدر على الخروج والهروب
من التجار) (94) .

ولما وصلت البشرية الى مراكش اقيمت الافراح وكتب المنصور الى الجهات
المختلفة يرف اليها النبا العظيم ، ومن ذلك الرسالة التي ارسلها من مراكش يوم
الجمعة 7 شعبان 999 هـ / 31 ماي 1591 والتي تضمنت اخبارا مفصلة عن
الاستعداد للحملة الى ان تحقق الظفر والنصر (95) .

اما القوات المغربية المرابطة بكاغو ، فان طبيعة المناخ وتقلباته لم ترقهم
(ثم الفوها مستوثة وخيمة الهواء منحرفة المزاج لا تقتنص بها الصحة الا بشرك
علاج) (96) وبينما القيادة تبحث عن مخرج اذا بوند سوداني ارسله اسكيا
اسحاق يصل الى كاغو ليعرض على جودر باشا الصلح مقابل الاعتراف بطاعة
المنصور والتعهد بارسال خراج سنوي (في تقبل فئة على خراج ثقيل يضرب عليه
التزامه مساندة . . ونظم نفسه في طاعة مولانا الامام . . وقدم بين يدي نجواه
هدية مولانا الامام المنصور . . تشتمل على عشرة آلاف مثقال ذهب ومانتي من
الرقيق) (97) .

(92) الفتاوى : مناهل الصفا . ص 137

(93) المصدر السابق . ص 139 .

(94) السعيدى : تاريخ السودان . ص 141 .

(95) رسالة المنصور ببشرا بفتح السودان (مناهل الصفا . ص 143) .

(96) الفتاوى : مناهل الصفا . ص 146 .

(97) المصدر السابق . ص 147 .

ويبدو أن الظروف قد أجبرت جودر باشا ومن معه على قبول المفاوضات مبدئيا للتعب الذي حل بالقوات المحاربة من طول المسافة وخوض المعارك ، وللأمراض التي أصبحت تتعرض لها من جراء المناخ السيئ علاوة على إعلان أسكيا إسحاق طاعة المنصور وتعهد بالخراج السنوي ، وهكذا (أنبرم هذا العقد على شرط القبول من مولانا الإمام المنصور .. وامضائه لعقدته وإن المصير لرايه الكريم فيرد وقبول) (98) ثم تراجعت القوات المغربية من كاغو الى تنبكتو ، وكان دخولهم مدينة تنبكتو يوم الخميس 6 شعبان 999 / 30 ماي 1591 . واثناء انتظار جودر باشا لجواب المنصور عمد الى (انشاء الاساطيل والسفن لاقتحام النيل والعبور لعدوته القصوى . . مخافة أن يفاجئهم الراي الكريم بنقض ما أبرموه مع العبد سكية) (99) .

ولما وصل (بشوط على العجى) الى مراكش حاملا كتاب جودر باشا (نقم عليهم التنفيس من مخنق العبد سكية والافراج عنه .. وقرعهم بالتوبيخ على ما أتوه .. ووقع أيده الله للعبد .. اتمدونى بهال الآية الكريمة الى قوله . . اذلة وهو صاغرون) (100) .

ترك المنصور جودر باشا على ادارة شؤون البلاد المفتوحة من السودان ، وعين على رأس القوات المحاربة بها محمود باشا بن زرقون الذي أرسله على وجه السرعة الى تنبكتو التي وصلها يوم الجمعة 26 شوال 999 / 17 غشت 1591 وشرع حالا في تنظيم القوات المسلحة لمتابعة الحرب ضد أسكيا إسحاق حتى الاستسلام أو القضاء عليه .

ومن الوسائل التي اتخذها محمود باشا بناء الاساطيل والسفن لعبور نهر النيجر ولملاحقة قوات أسكيا إسحاق ، وقد اصطدم الفريقان في منطقة (بنب) شمالي نهر النيجر بين مدينتي كاغو وتنبكتو يوم الاثنين 25 دي الحجة 999 / 14 أكتوبر 1591 وانتهت المعركة بانتهازم إسحاق وفراره فتوجهت القوات المغربية نحو كاغو ومنها (تصاعد محمود باشا مع النيل وبقيّة العساكر اثر العبد سكية أبعانا في استئصاله) (101) ، خاصة وقد أخذت مقاومته تضعف لتخلى الكثير الكثير من السودانيين عنه ومن ذلك (أخوه في نحو ثلاثمائة من أخوته ووجوه

(98) المصدر السابق .
(99) الشنالي : مناهل الصفا . ص 147
(100) المصدر السابق .
(101) المصدر السابق .

عساكره ورؤساء دولته (102) الذي أخذ يتعاون مع محمود باشا ضد أخيه أسكيا اسحاق . تابعت القوات المهاجمة مطاردة اسحاق وانتهى بها السير الى (القاعدة الشهيرة الصيت المدعوة كوكية) (103) ، أما أسكيا اسحاق فقد التجأ الى (تنفى عند كنفار كرم . . وما تبعه احد من أهل سفلى) (104) . غير أن التهديد باستعمال القوة ضد الذين آووه ، قد أجبرهم على قتله ، أو لعل اسحاق انتحز بتجرعه السم خوفا من أن يسلمه هؤلاء الى محمود باشا (فان رؤساء عساكر مولانا . . تقدموا لطواغيث الشرك الذين آووه بالوعيد والإنذار ان لم يسلموه ماستبصروا في أمرهم . . وسقوه كأس الحمام) (105) .

واعتمادا على ما أورده وزير المنصور الفشتالى في المناهل فقد (انتظمت ممالك السودان في سلك الطاعة ما بين البحر المحيط من أقصى المغرب الى بلاد اكنو المتاخمة لمملكة برنو) (106) .

ولما كتب محمود باشا الى المنصور بجميع انتصاراته وفتوحاته وبالقضاء على أسكيا اسحاق (أمر بالمرحاحات غدوة وعشيا ثلاثة أيام) (107) وتقدم الشعراء الى تهنئته وتبشيره بقرب دخول العالم العربى الاسلامى تحت طاعته ، وبتحقيق الامنية الغالية : استعادة الاندلس فردوس الاسلام المفقود (108) .

أثناء دراستنا للفتح المغربى للسودان تعترضنا تساؤلات عديدة منها :

- 1 — مدى تجاوب السودانيين مع الفاتحين المغاربة .
- 2 — وإلى أي حد حافظت المغاربة على مقومات السودان الرئيسية وما مدى عدالة حكمهم .
- 3 — ومن المسؤول عن خراب البلاد ؟

كان لنداءات الايمان وحسن المعاملة كبير الاثر في تعامل الفئات المختلفة من العامة في السودان مع الفاتحين (وأخذوا في التمهيد وتسكين الشارد وتأمين الطريق

(102) المصدر السابق . ص 150 .

(103) المصدر السابق .

(104) السعيدى : تاريخ السودان . ص 149 .

(105) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 152 .

(106) المصدر السابق .

(107) البولق البجهول : تاريخ الدولة السعدية . ص 67 .

(108) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 159 .

وبسط الهدر وخفض الجناح حتى اطمأنت النفوس المستثة في مجال القلق واستقرت
الانثدة الجائشة بما خامرها من الرهب والذعر الذي ملا احشاءهم وازاغ ابصارهم
واشكت لرحبه مسامعهم من أجل جدة الدولة وثقل الوطاة وجلال السلطان (109)
وبتوالى الايام ازدادت الصلات بين المغاربة والسودانيين وتعدد مجالات تعاونهم
(وانحشرت عوالم من دهمائهم لمشاهدتها وارتاع لها اقاصيهم رادانيهم) (110) .

والى جانب الفئات الشعبية هناك العديد من حكام المناطق الذين رحبوا
بالمفاتيح وتعاونوا معهم (وجاز هو على حاله اليهم ومعه جنكى عبد الله بجيشه
وسلطان ماسته وسلطان سنقرىوبول بجيشهم) (111) . كما اعلنت العواصم
الكبرى بيعة المنصور كتمبوكتو (دخلوا في بيعة السلطان مولاي احمد بسبب هذا
الصلح (112) ودجبنى (فقام جنى مندبكرن وهو حاكم اسكيا على البلد والقاضى
بنب كنانى ، . واعيان البلد من الفقهاء والتجار فكتبوا بقبول تلك البيعة للقائد
المصطفى) (113) .

وايد المفاتيح ايضا عدد من العلماء السودانيين وفي مقدمتهم قاضى تمبوكتو
عمر بن محمود بن عمر ، وخطيب كاغو محمود رامى (وهو شيخ كبير يومئذ . .
وتلقاهم الخطيب المذكور بالترحيب والاكرام واضافهم ضيافة فاخرة كبيرة) (114) .

اما المتعاونون مع المغاربة من افراد عائلة الاسكيا فكثر من بينهم عدد من
اخوة اسكيا اسحاق (وكان ممن انخزل عنه في هذه الوثيقة اخوه (محمد كاغ) في
نحو من ثلاثمائة من اخوته ووجوه عساكر ورؤساء دولته . . راسل اجناد المنصور
ليصل يده بأيديهم مؤريا بالمظاهرة على اخيه . . واجتمعوا به) (115) .

اما عن مدى عدالة الحكم المغربى بالسودان ، فاعتمادا على ما اورده المؤرخ
السودانى عبد الرحمن السعيدى في (تاريخ السودان) ، فان سلوك اغلبية
المسؤولين المغاربة كان محمودا : فعندما رفع عبد الله بن شين الحمودى شكواه الى
المنصور فى شأن ابل له صادرها جودر (ووافقوا بابل عبد الله بن شين الحمودى

-
- (109) الشنتالى : مناهل الصفا . ص 147 .
(110) المصدر السابق . ص 148 .
(111) السعيدى : تاريخ السودان . ص 162
(112) المصدر السابق . ص 157 .
(113) المصدر السابق ص 158 .
(114) المصدر السابق ص 141 .
(115) الشنتالى : مناهل الصفا . ص 153 .

فأخذ منهم جودر مقدار حاجتهم فركب وغرب الى الامير مولاي احمد في مراكش
اشتكاء بما ناله منهم من الظلم . . وكتب له ان يعطوه قيمة ما أخذوا من ابله (116)

ولما اخذت الامور تستقر نسبيا للقاتحين المغاربة حرصوا على الحفاظ
على مقومات البلاد ونظمها العامة ، فقد مكثوا أسكيا محمد كاغ من الاساطيل
السودانية التي غنمها المغاربة من قبل (من جملة ما وقع الاستيلاء عليه الاساطيل
البحرية . . ان احتال على استرجاعها من العساكر واستخلاصها من أيديهم وأدلى
بأنها ملك للرعية الذين شملهم كنف الامان وانه لا يحسن ان يهتضم لهم جناب ولا
ينقض عليهم الامان المبذول لهم) (117) كما ابدوا احتراما للاسكيا (وأكرم الباشا
سليمان غاية الاحرام حتى جعله أسكيا عليهم (118) الذي كان يتمتع بحرية التصرف
(اخذ في تقليد الاعمال وتفريقها على رجاله وقسمتها بين خدامه) (119) .

ومن الذين اشد بهم المؤرخ السوداني السعيدى من الحكام المغاربة : الباشا
منصور (كان رجلا مباركا عدلا ذا حكم شديد في الجيش وامسك ايدي الظلمة
والفسقة عن المسلمين فصار يحبه الضعفاء والمساكين ويغضه الفسقة
والظالمون) (120) .

الباشا محمد طابع (وهو شيخ كبير من قياد السلطان مولاي عبد الملك ذو
معرفة وذو رأي وتدبير) (121) .

الباشا سليمان (كان ذاهمة عالية ورأي نائق وتدبير عجيب وحكم شديد
وسار بذلك في ذلك الجيش كله) (122) .

والقائد مامى في جنى (ثم جاء القائد مامى بنفسى الى جنى . . وولى عبد الله
بن عثمان سلطنة جنى واصلح من امور البلاد ما اصلح) (123) وفي تمبوكتو (ثم
رجع القائد مامى لتنبكت وقد استقام الحال بحيث لم يبق في تلك الناحية ما يشوش
البال وأحمد لله الكبير المتعادل) (124) .

(116) السعيدى : تاريخ السودان . ص 139 .

(117) الفشتالى : مآهل الصفا . ص 155 .

(118) المصدر السابق . ص 152 .

(119) المصدر السابق ، ص 155 .

(120) السعيدى : تاريخ السودان . ص 177 .

(121) المصدر السابق .

(122) المصدر السابق . ص 190 .

(123) المصدر السابق . ص 158 .

(124) المصدر السابق ، ص 162 .

وعن المسؤول عن خراب البلاد التي (صار الامن فيها خوفاً والنعمة عذاباً وحسرةً والعافية بلاءً وشدةً ودخل الناس يأكل بعضهم بعضاً في جميع الامكنة طولا وعرضا بالاغارة والحرابة على الاموال والنفوس والرقاب فعم ذلك الفساد وانتشر واشتهر) (125) هنال :

1 — عناد الاسكيا (اسحاق ونوح) والمحاولات اليائسة التي قاما بها اثناء الحملة المغربية ، ومن ذلك تخريب اسحاق للعاصمة كاغو (وقد كان لما صرف الوجهة تلقاء الاجناد المنصورية سولت له نفسه من عمل العزم ان امر باخلاء كاغو ونسف اقواتها ولم يدع بها عدا نزر من عجرة الرعايا فتركها افقر من جوف غير خاوية على عروشها) (126) .

2 — قيام بعض الحكام المجاورين للسودان بالهجوم على اطراف البلاد في محاولة للتوسع ، ومن هؤلاء (سناب لمد صاحب دنك فاهلك كثيرا من بلاد راس الماء واكل اموالهم على الاطلاق وقتل من قتل وكسب ما كسب من الاحرار ، وكذلك الاغرابيون اتلفوا بلاد بر وبلاد درم كذلك ، واما ارض جنى فقد اتلفها كفار بنبر شرقا وغربا يمينا وشمالا اتلفا قبيحا شنيعا وخربوا جميع البلدات ونهبوا جميع الاموال . . ومن رؤساء اولئك الكثر الذين يسوقهم مع هؤلاء الفاسدين القطاعين منس سام في ارض فندك وناي قاب في ارض كوكر هؤلاء في جهة كل واما في جهة شيلي وجهة بندق فغلان وفلان) (127) .

3 — المجاعة التي كانت تنتاب البلاد بين الآونة والآخرى ولا سيما في السنوات العشر الاخيرة من القرن العاشر للهجرة والمضاعفات الخطيرة التي خلفها في شتى مجالات الحياة .

4 — لم تكن بلاد السودان على مستوى عال من التطور الحضاري (فدار شيخ الحمار في المغرب خير من دار اسكيا التي طالعوها) (128) .

لقد اظهر المغاربة منذ اليوم الاول لفتح السودان حرصا كبيرا على اقرار الامن في البلاد ، ولم يتوانوا عن ملاحقة الخارجين عنهم ، الذين حاولوا بث الرعب

(125) السعيدى : تاريخ السودان ، ص 143 .

(126) النشئالى : مناهل الصفا . ص 150 .

(127) السعيدى : تاريخ السودان . ص 143 .

(128) المصدر السابق . ص 141 .

والقيام بأعمال القتل والتخريب (فانتبذوا لبعض الاطراف الشاسعة من هذه الممالك فكان منهم بعض عيث شبوا ناره) (129) .

ولمواجهة هذه الاحداث قاموا بتفتيش المناطق وبعض المنازل بحثاً عن المتمردين والاسلحة (ثم برحوا في البلد ان الباشا يدخل في ديار الناس غدا فاي دار وجد فيها السلاح فلا يلوم ربها الا نفسه . . فدخلوا ديار البلد وفتشوها جميعا) (130) .

ويبدو ان هذا التصرف قد أغضب بعض السودانيين وخاصة العلماء بمدينة تمبوكتو ، وان تذرهم قد قوبل بنوع من الشدة لما ادرك الحكام المغاربة ان الأمر سيتطور الى ما لا تحمد عقباه . (فقال لم يبق الا الفقهاء . . فلما اجتمع الناس في الجامع غداً اغلقت الابواب واخرج الناس الا الفقهاء . . قبضهم الباشا محمود . . وأسرههم وامر بهم الى القسبة . . ثم شرع في تسييط الفقهاء الى مراکش) (130) .

ومن جهة أخرى واجه الفاتحون الهجومات الخارجية على اطراف السودان والحقوا بالمهاجمين خسائر متوالية ، ومن هؤلاء (سلطان محمود صاحب ملو تجهز لغزو اهل مدينة جنى فبعث مرسوله لكل ساع بكر يعلمه بذلك وطلب منه المساعدة عليها وهو في بلد كنتى يومئذ . . فهزموا ملو وعسكره في طرفة عين . . ثم قام الجيش المغربى بملاحقتهم) (131) .

وخلال قيام القوات المغربية بعمليات اقرار الامن ، اظهر البعض من المغاربة نوعا من الشدة والصرامة استنكرها المنصور نفسه لما اطلع عليها وسعى الى معاقبة مرتكبيها (فآخبر السلطان مولاي أحمد بما يفعل محمود من التعديت حتى قال انه لا يعرف الا سيفه . . فغضب السلطان غضبا شديدا فقاتل رجعت لا انصر في السودان الا بسيف هذا الملعون . . ثم ان السلطان مولاي أحمد بعث القائد منصور بن عبد الرحمن الى ارض السودان برسوم قبض محمود بن زرقون وقتله) (132) . ولم يغفل الفاتحون المغاربة عن دورهم الرئيسى في حماية الاسلام والقيام بنشره في المناطق النائية من بلاد السودان وخاصة تلك التى كانت تتعرض لغزو التبشير المسيحى (هؤلاء اهل كذا لما انتهى الفتح في الجنوب الى من يليهم . . لم نزل لذلك في كل اوان نقدم اليهم مقدمات الاعذار . . ولما رايناهم قد

(129) الفتاوى : مناهل الصفا . ص 157 .
(130) السعيدى : تاريخ السودان . ص 170 .
(131) المصدر السابق . ص 182 .
(132) المصدر السابق . ص 175 .

اتوا من الغواية .. من النزوع الى دين النصرانية واستبدال الملة التوحيدية بالملة
التثليثية ..) (133) وبانتهاء أعمال الفتوحات (اجتمعت اليوم بحمد الله بانتظام
هذه الممالك كلمة الاسلام وارتقى الامر بحول الله الى الكمال) .



الحكم المغربي للسودان :

1) التنظيم الاداري المغربي بالسودان :

اوجد المنصور بالسودان ادارة خاصة لا تخلو في مجموعها من تأثيرات تركية :
فقد جعلت بلاد السودان باشوية ، وتولى حكمها ولاة يحمل كل منهم لقب باشا ،
كما تم الفصل بين السلطات الادارية والعسكرية والمالية وانتضائية سعيا من
المنصور الى تنظيم البلاد واقرار دعائم الحكم المغربي بها ونشر الامن في ربوعها ،
لها للاستقرار من اثر في المجالين الاقتصادي والعمراني ، وحرصا منه على التبعية
السياسية وعدم استبداد الولاة بالمنطقة من جهة اخرى .

وخلال عهد المنصور تولى الحكم بالسودان سبعة باشوات هم : جودر ،
محمود ، منصور ، طابع ، عمار وسليمان : منهم من تولى السلطة الادارية وحدها
ومنهم من جمع الادارة ورئاسة الجيش مثل جودر وعمار وسليمان . وقد فرضت
طبيعة الفتح ومواجهة المتمردين ظهور القادة العسكريين واتسام الادارة المغربية
بالباطع العسكري ، وكثيرا ما كان استمرار حكم الواحد منهم يتوقف على مدى
نجاحه في مامورياته العسكرية بالدرجة الاولى .

وجميع هؤلاء الباشوات اتخذوا مدينة تنبكتو عاصمة لهم : لموقعها
الاستراتيجي كنقطة انطلاق نحو جهات السودان ولتوسطها المدينتين الرئيسيتين
بالنيجر الاوسط كاغوو دجيني . والى جانب الباشوات هناك في كل مدينة :

الوالى أو القائد : ينوب عن الباشا ومهمته السهر على الشؤون السياسية
والادارية في المدينة : فالباشا محمود قبل توجهه الى محاربة اسكيا اسحاق عين على

(133) من رسالة مبتورة للمنصور .

دار الوثائق بالرباط . ك 278 . ص 187 .

تنبكتو (القائد مصطفى التركي فخلفه محمود على تنبكت) وعلى كاغو (القائد حم بركة وقد خلفه على ذلك البلد) وعلى دجيني (على المعجبى دجيني) (134) .

الامين : وقد كان مكلفا بأمور المال في المدينة ، والمنصور هو الذي كان يعين هؤلاء فهم مسؤولون أمامه وحده ، ومن الامناء : (حم بن عبد الحق الدرعى نسي تنبكت) وخلفه (الحسن بن الزبير) و (أنفاس الدرعى في دجيني) (135) . وهؤلاء الامناء كانوا يضبطون الموارد والمصروفات في دفاتر خاصة (فلما وصل القائد حم حق عرض عليه الجرائد راي فيها كثيرا من الاموال) (136) .

القاضى : للفصل في أمور الشرع ، ومن القضاة المغاربة في دجيني (أحمد الفيلالى) (137) .

الحامية العسكرية : أوجد المنصور بكل مدينة حامية عسكرية مهمتها الدفاع عن المدينة ضد الهجومات الخارجية ، وقد كانت الحاميات تقيم نسي قلاع وحصون خاصة .

والى جانب حاميات المدن ، هناك حاميات أخرى مبنية في مناطق السودان الخاضعة للمغاربة : وهى تحرص على تأمين المواصلات وتوطيد أسس الحكم المغربى ، وتسهر في نفس الوقت على حماية بعض المناجم والمعادن الثمينة التى كان المغاربة يستغلونها بالسودان (138) .

وخلال حكم المنصور للسودان لم تخل سنة من السنوات الثلاث عشرة (99 — 1012 هـ) من ارسال القوات المسلحة المغربية الى تنبكتو ، وقد تفاوت عددها اعتبارا للظروف الداخلية ، ومدى الحاجة لها اليها ، واعتمادا على ما أورده الشيخ أحمد بابا السودانى المعاصر ، نقلا عن الامير زيدان بن المولى أحمد المنصور (فان نهاية الرجال الذين صرفهم والده في المحلات من لدن الباشا جودار الى الباشا سليمان ثلاثة وعشرين الفا من خيار جيشه وهى مقيدة نسي الزمام) (139) . وقد تمكنت القوات المغربية من اخضاع أهم الاتاليم

134) السعيدى : تاريخ السودان . ص 162 .

135) المصدر السابق . ص 174 .

136) المصدر السابق .

137) السعيدى : تاريخ السودان . ص 159 .

138) الشتالى : مناهل الصفا . ص 197 .

139) السعيدى : تاريخ السودان . ص 191 .

السودانية وضمتها الى الامبراطورية المغربية (جالت العساكر خلال الاقطار
السودانية واثبتت راياتها في آفاقها الشاسعة والدانية وسارت تطوي ممالكها
بسيوف التدويخ والتمهيد أرضا وغورا ونجدا وسهلا وحزنا حتى استوعبت التمهيد
.. واقتضت الخراج وانتظمت ممالك السودان في سلك الطاعة ما بين البحر المحيط
من أقصى المغرب الى بلاد اكنو المتاخمة لمملكة برنو . . وتنهى مملكة برنو
هذه . . الى بلاد النوبة المتاخمة لصعيد مصر) (140) .

الاستغلال الاقتصادي :

ان من العوامل الرئيسية التي دفعت المنصور الى فتح السودان : استغلال
موارده الطبيعية (المعينة بخراجها المستبحر ومعادن الذهب على التوسع في
الانفاق الذي لا يخشى عيلة ولا فقرا) (141) ، والبشرية (وبالسودان الاعظم
المستاق من رقيقها على تسخير المجاذيف الثقيلة بالاساطيل) (142) ، وذلك من
اجل (ان يبلغ اهل الاسلام في الجهاد ويفتح من ارض الاندلس اقصى البلاد والاقطار
البعاد) (143) ، اي ان المنصور لم يكن يخفى عن حاشيته امانية البعيدة في
استغلال موارد السودان العظيمة لتأسيس امبراطورية واسعة الارحاء وغنية بغربي
افريقية ، بها في ذلك العمل على استرجاع الاندلس الى حظيرة الاسلام : فما مقدار
استغلال المنصور لبلاد السودان ؟ والى اي مدى وصل المنصور في تحقيق امانيه؟
تؤكد المصادر والوثائق المعاصرة بأن المنصور وادارته بالسودان ، قد
استغلت مورد البلاد وخيراتها استغلالا واسعا :

فعلى اثر انهزام اسكيا اسحاق للمرة الاولى وتقدمه بعروض الصلح لجودار
باشا (قدم بين يدي نجره هذية مولانا الامام المنصور . . تشتمل على عشرة آلاف
منقال ذهباً ومائتين من الرقيق) (144) .

وبعد دخول محمود باشا الى تنبكتو قام بجمع (الاموال والمتاع والاثاث التي
لا يحصيها الا الله ما بين املاكهم واملاك سائر الناس من الودايح . . وائسد الباشا
محمود جميع المال فشتتها شذر مذر وتكرم بها للرماة ولم يبعث للسلطان مولاي

(140) الشنتالي : مفاصل الصفا . ص 164 .

(141) الشنتالي : مفاصل الصفا . ص 197 .

(142) المصدر السابق .

(143) المصدر السابق .

(144) المصدر السابق . ص 147

أحمد (مائة ألف ذهباً) (145) . كما بعث (اثني عشر مائة مملوك من الجـواي والغلان وأربعين حملاً من التبر وأربعة سروج من الذهب وأحماً كثيرة من العاج والينوز وكور غالية وقطوط الغالية وفخائر السودان فتدخر من ذلك مولاي أحمد الذهبي وقوى ملكه وبقيت جباية السودان ثابتة كل سنة) (146) .

وفي عام 1006 هـ / 1598 (رجع الأمين القائد الحسن بن الزبير إلى مراكش بهال عظيم الذي حصل من خراج الأرض في ثلاثة أعوام) (147) .

أما جودار باشا فقد حمل معه من السودان سنة 1007 / 1599 (عشرة آلاف عبد وعشرة آلاف جارية كلهن في سن البلوغ وأربع مائة حمل من التبر وألف حمل من عظم الفيل وكسوة السودان وطره وأربعة أفيال . . فكان دخول جودار باشا لمراكش يوماً مشهوداً) (148) .

ولما تولى الباشا منصور بن عبد الرحمن وهزم أسكيا نوح عام 1003 هـ ، فسبى القائد منصور ذكورا وإناثا كباراً وصغاراً قننين وقنينات فرجع بالجبيج إلى تنبكت) وبعد أن كاتب المنصور بذلك أمره بتوجيه السبايا إلى مراكش (ونؤكد عليكم أن تنظروا فيما عليه استوليت من ذخائر العبد نوح وإثاته ، وبجميع امتعته وآلاته ، فكل ما يليق من ذلك بمقامنا العلى توجهه لابوابنا الشريفة ، وتسديه لمثابنا العلية المنيفة بحال الفور والبدار . . وأولاد سكية فالذكور منهم أبعث بهم كافة لمقامنا العلى وإما الإناث فأبحثوا في أمر آل سكية فإن صح عنهم ما قرع أسماعنا الشريفة من كون أصلهم ممالك تحت الرق وأن ذلك صحيح ورقهم عند الناس صريح وكان فيهم من تليق بمقامنا العلى أبعثها وإلا فلا) (149) .

وفيما يتعلق بالاستثمار الفلاحي : فالمنصور كان يرمى إلى تنمية الزراعة وتطويرها في بلاد السودان بتحسين وسائل الري واستثمار الأراضي الخصبة (وهو أنه يمكن منه اقتطاع الخلجان والانهار المفلقة المشعبة المذائب والجداول وأعلى البساتين المناسبة الأراقم خلال الإباطح والوهاد التي تفل ضروب المزارع وتنظم عليها الحقائق الغلب من البساتين ومعروش الشجر والثمار والأدواح الإشب

145 (السعيدى : تاريخ السودان . ص 171 .

146 (المصدر السابق .

147 (المصدر السابق . ص 178 .

148 (المصدر السابق .

149 (رسالة المنصور إلى القائد منصور باشا بالسودان . (رسائل سعية . ص 172 .

ملتفة الاغصان والرياض المخوفة الخمائل الموشعة البرود بضروب الزهر الغضى والرياحين الانيقة التى يمكن اتصالها فراسخ وبردا فتتعفى على واسطة الاتالييم زكاء نبت وكرم تربة وجيوم اقوات وحبوب وفواكه جنية قطوفها دانية) (150) ، وقد شرع المغاربة فعلا فى تنفيذ ذلك (محمود باشا اخذ فى انشاء نهر اجتلبه من غمره واقتطعه من تياره ويمكن ذلك غير ما موضع منه ، وعى قريب ان شاء الله تعود تلك الامصار تزهو على جلق وشط الفرات ويطير صيتها فى الخصب فتبهر القاصى والدانى من اقاليم السودان) (151) .

اما الاهالى فقد بدأ استخدامهم فى المرافق المختلفة المدنية والعسكرية (دفع المنصور نصف العبدان لرؤساء البحر يركبون فيه ويخدمون معهم ليتدربوا على سفره والنصف الآخر أعطاهم السلاح والخيل وزوجهم بالجواري) (152) .

وهكذا سار المنصور بعيدا فى استغلال ثروات السودان وخيراتنا فقد (حمل له من التبر ما يغير الحاسدين ويحير الناظرين حتى كان المنصور لا يعطى فى الرواتب الا النضار الصافى والدينار الوافى . وكانت ببابه كل يوم أربع عشرة مائة مطرقة تضرب الدينار دون ما هو معدود لغير ذلك من صوغ الاقراط والحلى وشبه ذلك ، ولأجل ذلك لقب بالذهبي لفيضان الذهب فى زمانه) (153) .

واعتمادا على الوثائق المعاصرة فان مجموع ما كان يتوصل به المنصور من ذهب السودان قد بلغ نحو الستين قنطارا فى كل سنة (154) .

(150) الفتاوى : مناهل الصفا . ص 166 .

(151) المصدر السابق . ص 167 .

(152) المصدر السابق .

(153) الامراتى : نزعة الحادى . ص 125 .

(154) م. ص. ت. م — بريطانيا — ج 2 ص 367

الفصل الثالث عشر

نظور العلاقات الخارجية للإمبراطورية المغربية

أصبح المولى أحمد المنصور ،مباطورا تدين لطاعته بلاد واسعة من شمالي غربى افريقيا : وهذه الامبراطورية تميزت باهمية الموقع بالنسبة لقلب القارة الافريقية ، وبستراتيجية السواحل التى تمتد مئات الكيلومترات على ضفاف المحيط الاطلسى ، الامر الذى جعل المنصور يشرف على اعظم طرق المواصلات البرية والبحرية الواصلة بين اوربا الغربية والشرقيين : الاوسط والاقصى :

ففتح السودان ونشر النفوذ المغربى فى بلاد الحوصا وبرنو حتى تشاد قد وضع طريق القوافل الواصلة بين السودان والمغرب من جهة وبين افريقية الشرقية ومصر من جهة اخرى تحت رحمة المنصور ومراقبته وشجعه على التماذي فى فتوحاته بالصحراء الافريقية وبلاد السودان وعلى امتداد هذا الطريق التجارية الهامة ، التى أصبحت أساسية لضعف الطريق البحرية المتوسطية بسبب انتشار القرصنة وغداة التوسع التركى فى الشمالى الافريقى .

وأما استراتيجية السواحل فتبدو بكل وضوح عندما نعلم بأن المحيط الاطلسى قد أصبح الادارة الاولى للمواصلات البحرية بين اوربا الغربية الناهضة والشرق الاقصى وان الاساطيل الاوربية فى ذهابها وايابها كانت تمر محاذية للسواحل الافريقية الغربية بما فى ذلك سواحل بلاد السودان والمغرب .

وقد كان لامتداد امبراطورية المنصور على المحيط الاطلسى اثر كبير فى خلق أسطول مغربى ، وفى ضرورة دخول المغرب عالم البحار الذى كان الاوربيون يحتكرون عالمه الفسيح وكل ما يتعلق بالمواصلات وحركات الكشوف البحرية ،

وكذا فيما يرجع الى دور الاسطول في حماية الشواطئ والدفاع عن البلاد والتوسع فيها وراء البحار . وزاد من رغبة المنصور هذه ، انهزام الاسبان في الارمادا وفقدتهم لمعظم قواتهم البحرية ، ثم صلاته القوية مع الانجليز الذين اشتهروا بصناعة السفن وركوب البحار علاوة على ما يتوفر عليه المغرب من امكانيات ضخمة مادية وبشرية لتحقيق ذلك (وهو اليوم ايده الله لهذا العهد بصدد الاكثار من الاساطيل .. قوى الاسر بحمد الله ... بها اتيح لسيوفه المظفرة من الاستيلاء على الممالك السودانية المعينة بخارجها المستبحر ومعادن الذهب . . وبالسواد الاعظم المستاق من رقيقها على تسخير المجاذيف الثقيلة بالاساطيل كالجناح الطير خفقتا وسرعة وطيرانا) (1).

والاهتمام بخلق القوى البحرية تجلى في نواح عديدة أهمها : بناء الدور لصناعة السفن وتحسين القواعد البحرية المهيئة لرسوها (ولما كبل بناء حصن الفتاح . . من مرسى العرائش نقله اليه وانزله به) (2) .

ثم اصدار الظهائر التنظيمية لقيادة الاسطول وطرق العمل في البحر (هذا ظهير كريم رفع للجهد اعز مئار . . وهيا للجواري المنشآت ثبج البحار امر به عبد الله تعالى امير المؤمنين .. للرئيس .. ابراهيم الشط .. ولما كان ممن علمت كفايته ، واشتهرت في الجهد عنايته .. راء ايده الله أن يقلده قيادة الاسطول) (3) .

وقد كان الاسطول المغربي الناشئ يتكون من عدد كبير من القطع البحرية أهمها : (القطائع والشواني) (4) وهي مراكب معدة للجهد في البحر لما كانت تتوفر عليه من اسلحة نارية وقوات محاربة .

والجدير بالاشارة هو أن المنصور قد حاول اغتنام فرصة تقرب الانجليز منه ، وتقدم اليهم بمطالب تهدف جميعها الى تعزيز الاسطول المغربي وتقويته فقدم طلب منهم مساعدته بالخبراء والصناع المهرة الانجليز) ، الا أن البريطانيين قد سكتوا عن هذه المطالب ، وما كان لهم أن يساعدوا المنصور على خلق اسطول مغربي يدركون قبل غيرهم عواقب وجوده سياسيا واقتصاديا ، وسكوتهم هذا دفع

(1) الفشتالي : مناهل الصفا . ص 197 .

(2) الفشتالي : مناهل الصفا . ص 197 .

(3) الفشتالي : مناهل الصفا . ص 204 .

(4) الفشتالي : مناهل الصفا . ص 197 .

المنصور الى الاعتماد على امكانياته الخاصة ، وكان من العوامل الاساسية في تراجع المولى احمد عن سياسة التعاون معهم ضد الاسبان .

* * *

واما الرفاهية الاقتصادية التى أصبحت عليها دولة المنصور بعد فتح السودان ، فقد كانت نتيجة الموارد الضخمة التى أصبحت خزائن المولى احمد تلتقيها بين الفينة والاخرى من مناطق الامبراطورية وبلاد السودان بوجه خاص ، ولكثرة الغنى ولشيوع الذهب أصبح المنصور (الامبراطور الذهبى) : فانفتحت امامه آفاق واسعة وظهرت مشروعات ضخمة كان من أهمها الاعتناء بالاسطول وتقويته ، كما ازداد عدد المتقربين منه والراغبين فى التعاون معه ، وكل هذا زاد من اهمية المنصور ورفع من قيمة دولته وامبراطوريته وجعل له وزنا خاصا فى العالم الخارجى (وهو اليوم ايدى الله لهذا العهد . . وانظر العدد والهدد مراش الجناح بما أتيح له . . من معادن الذهب على التوسع فى الاتناق الذى لا يخشى عبلة ولا فقرا) (5) واعتمادا على وثيقة معاصرة أرسلها المبعوث الانجليزي Lawrence Madoc فى مراكش خلال سبتمبر 1594 ، فان المنصور قد أصبح اغنى حاكم فى العالم (6) .

وكان الرفاه الاقتصادي ايضا نتيجة السيطرة التى أصبحت للمغرب على الطريق التجاري الصحراوي الواصل بين السودان غربا وبحيرة تشاد ومصر شرقا عبر نيسيت وتيكوات واكاديس وبرنو وتشاد والسودان ، وقد اشار الفشتالى وزير المنصور الى الامال العريضة التى أصبح المنصور يعلقها على استغلال السودان وتصريف منتوجاته عبر هذا الطريق (وعن قريب ان شاء الله تعود تلك الامصار تزهر على جلق وشط الفرات ويطير صيتها فى الخصب فتعير القاصى والدانى من اقاليم السودان) (7) .

على ان تنوع اقاليم الامبراطورية المغربية وتعدد منتوجاتها من شأنه ان يساعد على خلق رواج تجاري عظيم فى الداخل ، ويزيد من تمتين الروابط بين اجزاء الامبراطورية واحكام الصلات بين مناطقها ، ويرغب بالتالى التجار الاجانب على الاقبال على المغرب للمتاجرة معه ، وكل هذه التطورات فى صالح الاقتصاد المغربى ومن

(5) المصدر السابق .

(6) م. ص. ت. م - بريطانيا - ج 2 - ص 86

(7) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 167 .

عوامل ازدهاره ونموه ، اذ من شأنها أن تجعل امبراطورية المنصور صلة الوصل وحلقة الاتصال بين القارة الامريكية الفئنة وبين شعوب ودول العالم فى الشرق والغرب ، فتزداد غنى واهمية ويزداد المولى احمد بالتالى قوة وعظمة .



وبالنسبة للتطور الحضاري والعمرانى : فشيوع الفنى والرفاهية قد فتح مجالات واسعة للعمل امام طبقات العامة فى ميادين الفلاحة والصناعة والتجارة ومختلف الحرف اليدوية ، او كجنود نظاميين فى قوات المنصور المحاربة ، وترك اعظم الاثر فى طبقات المجتمع وفى انماط الحياة المغربية الى حد أن دولة المنصور امتازت عن غيرها بأنها الدولة التى (اثرت العديم واكسبت المحروم) (8) ، وبديهي أن شيوع الامن والاستقرار وانتعاش الحياة الاقتصادية والاجتماعية من شأنه أن يهىء الجو المساعد لتطور ثقافى وفكرى عظيم .

ورغم أننا لسنا فى معرض الحديث عن المظاهر الحضارية فى عصر المنصور الا أن التعرض الى مختلف هذه النواحي من شأنه أن يساعد الى حد كبير ، ولا سيما عند دراسة وضعية الامبراطور المنصور ، على التعرف على كثير من حقائق هذا العهد من حيث الوقوف على امكانيات المنصور المادية والبشرية العظيمة ، والمراعى البعيدة التى كان يهدف الى تحقيقها فى الداخل والخارج .

اهم ما يلاحظ على سياسة المنصور الخارجية منذ نجاحه فى فتح السودان وتأسيس امبراطورية واسعة ، السعى الى المحافظة على روابط الود مع قوى الشرق والغرب ، بدافع الرغبة فى التوسع وبسط النفوذ فى المناطق الامريكية الداخلية ، ولاستغلال خيرات البلاد المفتوحة ، ثم العمل فى نفس الوقت على تقوية الدولة المغربية وتوطيد دعائم قوتها ليظهر المولى احمد المنصور دائماً بمظهر الحاكم القوي الذي يخشى هيئته وترجى مساعدته .

على أن ظروف المنصور الجديدة قد فتحت امامه آفاقاً واسعة اذ أصبح فى وضعية استلزمت تخطيط سياسة خارجية خاصة ، تتمشى والحدود الجديدة لامبراطوريته سواء فيما يرجع الى علاقاته مع الاتراك العثمانيين أو فيما يتعلق بمواقفه من النزاع بين المعسكرين البروتستانتى والكاثوليكي بأوروبا الغربية .

(8) البعذر السابق . ص 178

أولا — العلاقات المغربية — الإسبانية :

انحصرت مشاغل فيليب الثاني ملك اسبانيا منذ انهزامه في الارمادا ، في نقطتين رئيسيتين :

1 — الحيلولة دون قيام تعاون عسكري مغربي — انجليزي ، اذ كان الاسبان يدركون جيدا الاضرار التي ستلحقهم بانضمام المغرب الى المعسكر البروتستانتي، وتعاونهم مع الانجليز والفرنسيين والهولانديين ، فمن شأن هذا التعاون أن يفتح عليهم واجهة جديدة للقتال بجنوبي اسبانيا ويهدد قواعد احتلالهم —م بشمالى المغرب للخطر ، وأن يعرض سفنهم لآعمال السطو والقرصنة أثناء عبورها لشواطئ المغرب الإطلسية ، وقد كان الاسبان يخشون أيضا حصول اتصال وتعاون بين المغاربة و (المورييسكوس) المنتشرين في جميع انحاء اسبانيا والذين كانوا على استعداد دوما للثورة وحمل السلاح لروح التعصب الدينى التى طغت على الحكام الاسبانيين ، ولآعمال الاضطهاد والتعسف التى كانوا ينزلونها بالمورييسكوس وبكل الطوائف الغير الكاثوليكية .

ولآجل ذلك سعى فيليب الثانى ونجحت مساعيه في التفريق بين المغاربة والانجليز وابقاء المنصور على الحياد بالتنازل له عن مدينة أصيلا دون قتال وعدم خلق أية مصاعب ضده فى الداخل رغم ايوائه لآميرين سعديين يقدر المنصور جيدا خطورتها عليه . وبث عوامل الشك فى نفس المنصور وتحذيره من نوايا الانجليز الحقيقية ، خصوصا بعد التجائهم الى السلطان العثمانى الذى وجد فى ذلك فرصة سانحة للتدخل فى المغرب ، ثم بالاعراب له دوما عن الاستعداد الكامل لمساعدته ضد أى تدخل تركى . ولما كان المنصور حريصا على التوسع بالسودان وغربى افريقية بالدرجة الاولى ، فقد أكد للاسبان تمسكه بحسن الجوار معهم ومحاظنته على الروابط الودية القائمة بينهما ، ولم يكن فيليب الثانى يأمل من المنصور يومئذ أكثر من ذلك حتى ينطلق بعيدا فى حروبه الدينية بأوروبا الغربية .

2 — السعى الى الانتقام من خصومه بأوروبا الغربية والثار لهزيمة الارمادا : فقد تبلورت الحروب الدينية فى أوروبا الغربية بين المعسكرين الكاثولوكى والبروتستانتى واتخذت صفة صراع مسلح مرير وقاسى بين فيليب الثانى ملك اسبانيا وزعيم المذهب الكاثوليكى من جهة ، وبين الملوك البروتستانت :

إليزابيث ملكة إنجلترا ، وميريس ناسو زعيم هولندا وهنري الرابع ملك فرنسا من جهة أخرى ، ولم يتوان كل من المعسكرين في البحث عن الوسائل الداخلية والخارجية التي تضمن له الفوز والنصر ، ومن ذلك اتصالاتهم العديدة مع المولى أحمد المنصور بهراكش .

وأهم الميادين التي اصطدمت فيها قوى الجانبين : الأقاليم الشمالية من الأراضي المنخفضة (هولندا) بعد سيطرة القوات الإسبانية على الأقاليم الجنوبية منها (بلجيكا) ، حيث اتخذ المقاومون الهولنديون من الطبيعة وتضاريسها الصعبة عوامل مساعدة لمحاربة الأسبان ، كما أن قرب هولندا من إنجلترا ساعد الإنجليز على مد الثوار بالأسلحة والمؤن والرجال .

وفي منطقة نورماندي الفرنسية التي كانت تمر منها مختلف المساعدات الإنجليزية العسكرية إلى هنري الرابع ملك فرنسا . ثم الأراضي الجنوبية من فرنسا لجاورتها لاسبانيا . ورغم تظاهر القوات الإسبانية التي كانت تحارب في فرنسا تحت قيادة Alexandre Fornès بمساعدة العصبة الكاثوليكية الفرنسية ضد هنري الرابع واتصاره البروتستانت فاتها كانت تعمل في الواقع على إقرار دعائم الحكم الإسباني بهذه البلاد وبالتالي ضم العرش الفرنسي إلى التاج الإسباني بدعوى توحيد الجبهة المسيحية الكاثوليكية بأوروبا الغربية ضد بدعة الإصلاح الديني البروتستانتى .

وتنفيذا لذلك وضعت منذ سنة 1591 حاميات عسكرية إسبانية في فرنسا ولا سيما في العاصمة باريس وانتشرت القوات الإسبانية في مختلف المناطق الفرنسية لمحاربة البروتستانت والقضاء عليهم .

وكوسيلة لإحباط مساعى فيليب الثانى ، أطلع هنري الرابع في شهر ماي 1593 (بسان دونيس) عن العقيدة البروتستانتية وأعلن عودته إلى المذهب الكاثوليكي فأيد معظم الفرنسيين الذين كانوا يرغبون في تأسيس ملكية قومية وقوية بفرنسا موقف هنري الرابع في حين أن فيليب الثانى قد أمر قواته بمواصلة القتال مما يؤكد بأن العاطفة الدينية عند العامة قد استغلت من قبل الساسة ورجال الحكم في أوروبا الغربية إلى حد بعيد ، لتحقيق الكثير من الأغراض السياسية والأهداف التوسعية .

ثانيا - العلاقات المغربية - الانجليزية :

كان الانجليز يعتقدون آمالا عريضة على تدخل القوات المغربية الى جانبهم في محاربة الاسبان : اذ سيضمون بانضمام المنصور حليفا قويا ويحصلون على قواعد استراتيجية قريبة من الاراضى الاسبانية ، ويفتحون بالتالى ضد فيليب الثانى جبهة جديدة ، مما يضمن لهم الانتصار على الاسبان ويحقق لهم التدخل خاصة في بلاد البرتغال لاعادة الامير دون انطونيو الى عرشه بلشبونة . وقد خابت كل هذه الآمال لان المولى احمد لم يكن جادا في التدخل لصالح أي من الفريقين المتحاربين بقدر ما كان يرى في ذلك الفرصة المناسبة للتوسع في افريقية الغربية ويسلاد السودان .

ورغم تدخل الانجليز لدى السلطان العثمانى للضغط على المنصور ودفعه الى محاربة الاسبان ، فان المولى أحمد لم يغير من موقفه الخارجى ، وكل ما نجح فيه الانجليز هو ارغامه على ارجاع الامير دون كريستوف الى لندن بعد ان ذهب بهم الظنون بعيدا او خشوا ان يدخل المنصور في مساومة مع فيليب الثانى على حساب اللاجىء البرتغالى .

واعتمادا على رسالة المنصور الى ايليزابيت في منتصف ربيع الثانى عام الف للهجرة الموافق ليناير 1592 م ، فان المولى أحمد لا يزال مستعدا لتلبية كل مطالب الملكة (والى هذا الذي يتقرر لديكم وتشدون عليه بكلتا يديكم أن مسائلكم عندنا كلها جليلها وحقيرها وأموركم بأسرها كبيرها وصغيرها متلقاة عندنا بوجه الاعتناء والاهتبال ومقابلة من على مقامنا بجميل الترحيب والاقبال بحيث تثقون كل الوثوق بأن هذا الجنب ما لكم فيه الا الخير والرضى والمواالة بالوجه الجميل المرتضى) . وأن في فتح السودان قوة للمغرب حليف بريطانيا (ولا يخفاكم أن زيادتهما زيادة ايضا في قوتكم وعائدة ان شاء الله بمصلحتكم) ، وعاملا مساعدا على تحقيق ما يسمى المغرب وانجلترا الى تحقيقه (ومدد من الله معين على المسالة التى اهتمنا واهتمكم) .

ومن مقترحات المنصور تحديد خطة مضبوطة (ونحن لم نزل على ما عملنا معكم لكن على أن تعينوا السلطان المذكور الاعانة التى نثق بها ونعتد بحصانة سبيلها اذ لا يحسن أن نجتمع نحن وانتم على أمر ولا ينتج ويقع تظاهرها على مسالة ولا تستفتح من مغلقتها) (9) .

(9) رسالة المنصور الى ايليزابيت . تطوان عدد (3 - 4) - ص 55 .

ويختم المنصور رسالته مخبرا بلقائه القريب مع ابنه محمد الشيخ بفاس
وبأنه سيوجه سفارة خاصة الى لندن لتطلعها على تفاصيل ذلك .

على ان خيبة امل الانجليز في المنصور قد احدثت لديهم ردود فعل عديدة سواء
نبا يرجع الى علاقات ايليزابيث مع المنصور او فيما يتعلق بمناجرتهم مع المغرب
وقد قلت لاجل ذلك التقارير السياسية في الوثائق الانجليزية عن المغرب وحصل نوع
من الضعف في العلاقات بين البلدين استمر عدة سنوات ، خاصة وان كلا من
الحاكمين قد اتجه الى معالجة قضايا الداخلية ومشاغله الخارجية : ولئن انشغل
المنصور بالسودان وتوطيد حكمه بها ، فان الانجليز قد وجهوا كامل عنايتهم الى
تقوية اسطولهم وتطويره ليصبح قادرا على تحمل الاسفار البعيدة الى حيث الغنى
والذهب في العالم الجديد ، والتوابل والمنتجات الثمينة في الشرق الاقصى ، كما
اولوا اهتماما متزايدا بتنمية بلادهم الاقتصادية بعد الهجرة الواسعة التي عرفتھا
انجلترا للصناع والتجار والعمال من مختلف جهات الفلندر ، بسبب الحروب
القائمة هناك وما اعقب ذلك من اقامة للمصانع والمعامل ودور للتجارة الداخلية
ما اثر على اقتصاديات انجلترا وأهلها لتصبح المركز الاول للمنتجات الصوفية
وغيرها في اوروبا ، وساعدها أيضا على تأسيس الشركات التجارية الواسعة في
مختلف مناطق العالم . وقد كانت حصيلة ذلك كله ان مظاهر الترف والغنى قد
اخذت تعم مختلف نواحي المجتمع الانجليزي الى الحد الذي جعل سفير البندقية في
لندن يكتب الى حكومته بأن البلاد مجهزة بكل ما هي بحاجة اليه وان الحقيقة تلزمنا
القول بأنه لا مجال للفقر بالبلاد (10) .

ثالثا -- العلاقات المغربية - التركية :

حصل نوع من التطور في سياسة المنصور الخارجية اثر اندفاعه في التعاون
مع الانجليز ضد الاسبان ولصالح القضية البرتغالية ، فقد اخذ يلوح في الافق بان
تقاربا تويا وتعاوننا فعلا سيحصل بين المنصور ومراد الثالث ، وأن الانجليز
سيلمعون دورا هاما في تقريب وجهات النظر المغربية - التركية ، للروابط الودية
والمصالح الاقتصادية التي كانت تربطهم مع كل من الاتراك في المشرق والسعديين
في المغرب ، الا أن المنصور الذي كان يسعى جاهدا الى اغتنام ظروف انهزام الاسبان
في الارمادا وتقديمهم لمعظم قواتهم البحرية المسلحة ، وتقرب الانجليز منه لصالح

(10) م. ت. م. - بريطانيا - ج 2 - ص 257

لامير دون انطونيو البرتغالي ضد الاسبان ، ثم تظاهره بمسألة الاراك . من اجل التوسع فى امريكا الغربية والسودان وبناء اسطول مغربى قوى ، قد خيب امال الانجليز وجميع قوى المعسكر البروتستانتى بأوروبا الغربية ، ودفع ايليزابيث ملكة انجلترا ، وهنري الرابع ملك فرنسا ، الى الالتجاء الى مراد الثالث السلطان العثمانى وتمتين علاقتهم به ، املا فى وساطته لدى المنصور وللضغط عليه ودفعه الى العمل ضد الاسبان بطريقه او اخرى ، غير ان ظروف السلطان العثمانى لم تساعده على اغتنام الفرصة المناسبة للتدخل من جديد فى المغرب ووضع حد لنفوذ الملك المغربى الذي اصبحت امبراطوريته الامريكية تحدد الاملاك التزكية فى الشمال الأمريكى ، فى وقت ازدادت اضطرابات هذه الباشويات وتعددت اصطدامات الاهالى مع الحكام الاتراك بسبب سوء تصرف الحاميات الانكشارية عماد الحكم التركى فى الباشوية والمضاعفات الخطيرة التى اوجدها نظام الالتزام ، ولاستبداد العناصر التركية بالمناصب الرئيسية فى مجموع الامبراطورية .

وقد زاد من خطورة الاوضاع التحول التدريجى لطريق التجارة العالمية من البحر المتوسط الى المحيط الاطلسى منذ اكتشاف اوروبا الغربية للعالم الجديد (امريكا) والطريق البحرية المؤدية الى الهند والشرق الاقصى ، فقد اخذت مع السنين مضاعفات هذا التحول تظهر فى مختلف نواحي الحياة بالامبراطورية العثمانية ولاسيما فى العالم العربى لامتداده على الضفاف الشرقية والجنوبية للبحر المتوسط الذي دخل فى مرحلة جديدة من تاريخه تنقسم بنوع من الضعف والركود وتتصف باضطراب الامن وانتشار القرصنة ، مما زاد احوال البحر المتوسط سوءا وتتسبب فى انفصام عرى الاتصال بين شعوبه واقطاره بما فى ذلك المناطق العربية التى كانت تخضع للاتراك العثمانيين .

وهكذا اخذت مظاهر الامن والاستقرار فى الامبراطورية العثمانية خلال اواخر القرن السادس عشر للميلاد تضعف وبدأت بالتالى نواحي الحياة الاقتصادية تعرف نوعا من القهقرى كما اضطربت وسائل المواصلات الداخلية ، مما كان سببا رئيسيا فى التأثير على المجتمع العربى وانتشار نوع من الجمود والركود الفكرى او بعبارة اوضح لقد اخذت عوامل الضعف والانحطاط تبدو فى مختلف نواحي الحياة بالعالم العربى والشرق الاسلامى (11) . ومع الايام ، اخذ الاستياء والتذمر فى البلاد العربية

(11) اكد الرحالة المغربى المعاصر احمد بن الفاضل فى مخطوطه (المنقى المنصور) الاوضاع السيئة التى اصبح عليها الشرق الاسلامى الخاضع للاتراك العثمانيين . ص 67 :

يشمل سائر الطبقات ويتحول تدريجيا الى اصطدام وثورة مسلحة ضد الحاكم التركي والحامية التركية التي لم تكن تتورع عن القيام بجميع انواع القسوة والتكيد ، كما اخذت بعض الحركات الاستقلالية في العالم العربي تبرز بين الالوة والاخرى وتسمى جاهدة الى الخروج عن الاتراك والحكم التركي .

وعلى سبيل المثال لا الحصر : لقد اضربت دمشق عام 1000 هـ / 1591 — 1592 احتجاجا على تعسف الدفتر دار محمود وتزعّم الحركة القاضي مصطفى بن سنّان (12) . وفي لبنان ظهر الامير فخر الدين الثاني الذي اخذ يعمل على توطيد دعائم سلطانه بلبنان والاستقلال عن الاتراك (13) .

وفي مصر (حصلت الفتن وتحركت العساكر . . ومنعت اولاد العرب من الدخول في العسكر) (14) .

اما في ليبيا فقد ثار زعيم عربي في طرابلس و (اجتمعت عليه العرب وحشدها وانام له ملكا في ديارهم . . وقد كان يزعم انه يقوم بتغيير منكر الترك وفسقهم ولبسط العدل) (15) .

وفي الجزائر ثارت قبائل زواوة ضد الاتراك ولم يتمكن احد من البشوات اخمادها واخضاع القائميين بها (16) .

ومن جهة اخرى ، حرصت الكنيسة الشرقية التي كانت تتزعّم الحلف المسيحي باوروبا الشرقية ضد الاتراك ، على استغلال الظروف الصعبة للسلطان العثماني وانطلقت في حملاتها العسكرية ضد الحكم التركي : فمنذ سنة 1594 م ثارت (ترانسلفانيا وفالاشي ومولدافيا) بزعامة (ميشيل الشجاع) وقد وجدت هذه الثورات الدينية المسلحة كل عون وتأييد من اوروبا الغربية وروسيا القيصرية في الوقت الذي اخذ السلطان مراد الثالث يشكو المرض وبدأت نهايته تقترب .

وجميع هذه الاوضاع لم تكن تخفى على المنصور الذي كانت له معرفة (باخبار

(12) (ودخل القرن الحادي عشر والبلاد في حالة شديدة من البؤس والشقاء بسبب ظلم الالوة المتعاقبين وظلم الجند في حلهم وترحالهم وشقاء البلاد بصغار اشرافها) — خطط الشام لجمال الدين محمد كرد علي . ج 2 ص 247 .

(13) فيليب حني : تاريخ سوريا ولبنان . ج 2 . ص 350 .

(14) محمد بن اسحاق : لطائف اخبار الاول ، مخطوط بدار الوثائق بالرباط . ك 2409 .

(15) التاجروني : النحلة المسكية . ص 77 .

(16) عبد الرحمن الجليلي : تاريخ الجزائر العام . ص 359 .

الأنافق الشاسعة والاطرار البعيدة واطلاع على انباء الملوك من اضداده واوليائه (والذي (" يكاد يخلو له يوم من ورود وارد بخير على بر أو بحر) . (17) .

فالى اى حد استفاد المنصور من الاوضاع المضطربة للحكم العثمانى فى الشرق العربى ؟

اتخذت محاولات تدخل المنصور فى الشرق العربى مظاهر عديدة أبرزها :

اولا - احكام الصلات مع كبار العلماء والفقهاء بالعالم الاسلامى شعورا منه باهمية الدور الذى يقوم به العلماء والفقهاء ، ولدى عامة الناس بوجه خاص .
(أردنا كى تجتمع الكلمة وانتم فى بلادكم من اعيانها فأن اذعنتم اذ عن غيركم) (18) .

وقد تبادل المراسلات العديدة معهم بدافع :

1 - الترغيب فى التاليف لخزائنه (وها خدام بابنا العلى واردون على تلکم الديار برسم جلب ما لعلکم تستفرغون فيه الوسع من الكتب لخزائننا العلية) (19) .

2 - انتماس اجازتهم له (ثم مما يكون لهذه المخاطبة الختام ؟ . استدعاء اجازة من ذلكم المقام الصديق يوجز عليها المجيز ويشرف بها المجاز) (20) .

3 - اطلاعهم على اوضاع المغرب الخارجية والداخلية واماله وامانيه للرفع من شأن الاسلام والدفاع عن المسلمين .

4 - ارسال المزيد من المعلومات عن الدولة السعدية والخلافة المغربية (اشرنا على بعض كتبه انشائنا . . بتجريد اخبار الدولة موجزة . . ويتلخيص موضوع يكون لخبار هذه الدولة الكريمة ان شاء الله الشامل المستوعب . . يعتمد عليه الفضلاء امثالكم المعنيون بهذا الشأن عليه) (21) .

وقد اغدق الهبات الجزيلة على من ساعدته الظروف على الوصول الى المغرب امثال محمد بن العقاد المكي وامام الدين خليل المقدسى والشريف المدنى ومثل احمد المقرئ التلمسانى :

-
- (17) الفتاوى : مناهل الصفا . من 207 .
(18) من رسالة المنصور لغاضى نبيوكتو (مناهل الصفا . ص 131 .
(19) من رسالة المنصور للعالم المصرى بدر الدين القرائى (رسائل سعدية . ص 33) .
(20) من رسالة المنصور للعالم المصرى زين العابدين البكرى (رسائل سعدية . ص 167)
(21) من رسالة المنصور لغاضى حلب مصطفى الجنابى (رسائل سعدية . ص 236)

(ولما تقرر عند أعيان البلاد الشرقية حب مولانا نصره الله في العلماء وبره بهم وأجزاله عطايهم نسلوا اليه من كل حذب ومن لم يمكنه الاتيان خدمه نصره الله بالتأليف ، فالف تاريخ دولته نصره الله جماعة من اكابر علماء القسطنطينية العظمى وكذا جماعة من اعلام مصر وغيرهما مما لا يحصى عدده) (22) .

وأغدق الامواق على العلماء مكافاة لهم على تأليفهم التي وجهوها الى خزائنه (هذا وقد وصل لعلى مقامنا كتابكم الذي اورد من الادب عيونه . . وانتهى لمقامنا العلى رسولنا الاثب من تلكم الابواب العثمانية . . المجلدين الذين اتحنهم بها هذا الجناب الكريم) (23) ولشراء الكتب العلمية ولنسخ المؤلفات التي عز وجودها (هذا وانه ينتهى اليكم ان شاء الله على ايدي خدمتنا دفتر قيدينا فيه بعض ما تذكرناه في الوقت من الكتب . . ان تصرفوا وجه اعتنائكم بجعلها لنا مما يتييسر ابتياعه عجل على ايديكم تحصيله . . وما لم يتفق سوى استنساخه فتوكلوا فيه على الله) (24)

وهؤلاء العلماء كانوا ينتمون الى مختلف الاقطار الاسلامية وخاصة من مصر والشام وفارس والجزائر ، ومن اشهرهم : البكري والقرافي ومصطفى الجنايبي والمقري وأبو بكر الشنواني ومحمد امين الدفكري العجمي وغيرهم .

ثانياً — ارسال الدعاة الى الشرق الاسلامي بصفة سفراء وتجار وطلاب علم وحجاج ورحالة وغير ذلك ، ومن هؤلاء : احمد بن القاضي ، على التامجروتى ، عبد العزيز الثعالبي ، أحمد الماسي ، أحمد بن عبد الجليل ، الحاج الوجاني ، سعيد الماغوسي . . واكثر ما تحفظ لنا المصادر التاريخية معلومات كثيرة عن أحمد ابن القاضي الذي (تاب له رأي في معاودة البلاد الشرقية . . وكانت له نية بالغة في نشر مآثر مولانا الامام . . في الامايق فجمع من مفاخر الدولة وامداحها وفتوحها ومناثرها ما امل بثه في الاقطار ونشره في المشارق واستأذن مولانا الامام . . فاذن له ووصله) (25) وعن التامجروتى الذي توجه الى اصطامبول في سفارة مغربية الى مراد الثالث (26) .

وقد قام هؤلاء الدعاة بالاتصال بعدد كبير من العلماء والوجهاء وكبار القوم في الشرق العربي وفي مختلف المدن والعواصم مبشرين بدعوة المولى احمد المنصور

(22) البكري : روضة الاس . ص 18 .
(23) من رسالة للمنصور (رسائل سمعية . ص 65)
(24) المصدر السابق . ص 79
(25) الشنالي : مناهل الصفا . ص 230 .
(26) التامجروتى : النعمة المسكية من السفارة التركية .

وداعين الى خلافته العربية الهاشمية (ولقد حضرت مجالس ذكر فيها من مصر والاسكندرية والصعيد وجدة ومكة والمدينة على ساكنها افضل الصلاة وازكى السلام لما طنت في آفاق العالم حصاته . .) (27) . ولم يتوانوا عن نشر دعوتهم بالعاصمة العثمانية نفسها ، الى جانب بعض مهامهم الدبلوماسية ، كالسفير التاجروتي (. . تالله لقد كان من تحدثنا معه من خيار اهل تونس واعيان مصر الذين لقيناهم بالقسطنطينية) . (28) وعلى ما يبدو فان هؤلاء الدعاة والمبشرين قد كانوا يتخذون من بيوت بعض علماء المشرق وفقهائه اماكن لنشر الدعوة ، اذ تعددت توصيات المنصور لبعض العلماء المشاركة برسله وبمساعدهم على ما هم بصدد القيام به (ثم لا تزال ان شاء الله على دابك المشكور تتعاهد من يرد هناك من قبل هذه الابواب . . بما يحمل من المساعي المرضية . . فانك اليوم ممن تقرر لهذا الجناح الكريم وداذه وخلص لهذه المثابة الحسنية اعتقاده) (29) ، وبالاخذ بايديهم (وحاملها الفقيه المذكور هو وديعة فضلكم وحفيظة سركم . . تفسحون له في كنفكم وتجعلون القيام بما يعرض له هناك من جملة اعبائكم وكلفكم) . : (30) وهكذا تمكن هؤلاء من استمالة عدد كبير من عرب المشرق الى حد ان الكثير (من اهل المشرق الذين عليهم العقد والضبط واليهام الحل والربط ، حلف لى بالايمان اللازمة المغلظة الجازمة التي لا يمكن نقضها ولا ينكث بعضها ، انه لو رأى جارية من جوارى مولانا ايده الله اقبلت بالدعاء لطاعته والانقياد اليه في امارته ، لكان اول مطيع لها هو واهله في لحظة من غير مهلة . .) (31) ، والى درجة ان العرب في المشرق قد أصبحوا يفخرون بالمولى أحمد المنصور (. . وصارت العرب من كل مملكة يفخرون بذلك على الترك بهذا الملك العظيم . .) (32) ، وانهم اخذوا ينتظرون ساعة الخلاص من الحكم التركي على يديه (. . فكادت قلوب الناس ان تنفطر شوقا اليه وودوا ان لو كانوا عنده ولديه او يكونوا تحت رايته والويته . . وبالجمله فاهل المشرق قلوبهم بأجمعها مقبلة عليه وعقولهم حاضرة لديه واحداقهم ناظرة اليه نفذ الله به كسادهم وأصلح به فسادهم (33) .

(27) أحمد بن القاضى : المنتقى المقصور . مخطوط بدار الوثائق بالرباط . من 101

(28) التاجروتي : النفعة المسكية . من 70 .

(29) رسالة المنصور الى العالم المصرى (البكرى) - رسائل سعدية . من 33 .

(30) المصدر السابق .

(31) ابن القاضى : المنتقى المقصور . من 101 .

(32) المصدر السابق .

(33) المصدر السابق . من 102

ولم يعد بعض عرب الشرق يترون بشرعية الخلافة العثمانية (. . لاشتياقتهم الى امارته العربية العلوية) (34) ولان العثمانيين (من جملة الممالك والموالي الذين دافع الله بهم عن المسلمين وجعلهم حصنا وسورا للاسلام . . وقتلوا الامر في الحقيقة نيابة وامانة يؤدونها الى من هو احق بها واهلها وهم موالينا وساداتنا الشرفاء) (35) وازداد بذلك تبرم هؤلاء بالحكم التركي وازدادت رغبتهم في أن تساعدتهم الظروف على الانتقال الى المغرب (نسأل الله تعالى أن يزعجنا عاجلا الى حضرته المقدسة الطاهرة من ادناس الجور والحيث) (36) وأن توفقه العناية الالهية الى بسط سلطانه على كل العالم العربي (أيد الله دولته الطيبة الاعراف ومملكه من السوس الاقصى الى اقصى العراق) (37) .

ومن جهة أخرى ، عكست اشعار الكثير من شعراء بلاط المنصور هذه الاماني وما كان يهدف اليه المولى احمد من بعث للخلافة الهاشمية العربية التي تنظم شمل العرب في المشرق والمغرب (38) .

على أن المنصور قد وجه عناية كبرى بمصر ، لمرکزها الستراتيجي ودورها الرئيسي كباب للشرق الاسلامي ، وسعى بشتى الوسائل الى توطيد نفوذه بها، يدفعه الى ذلك :

1 - علاقاته القوية مع العديد من كبار علمائها وتبادل له واياهم العديـد من المراسلات التي تضمنت - من جملة ما تضمنته - الكثير من :

(34) ابن القاضي : المنتقى المتصور . ص 101 .

(35) النابجوتي : النعمة المسكية . ص 147 .

(36) البكري : روضة الاس . ص 111 .

(37) المصدر السابق .

(38) من تصبذة للشاعر محمد بن علي الهوزالي : (مناهل الصفا : للشفتالي . ص 142)

لئن اسلمت أرض الجنوب مقادها
وتزور وراء العراق تمهدى اليكم
وتخفق بالوادي المقدس راية
فمن كتب تلقى مقاليدها مصر
واعناق العدا خضع صفر
عليك تهوى فيه الوبة حمر

ومن أخرى لعبد العزيز الشفتالي : (مناهل الصفا للشفتالي . ص 157)

نادرك مصر والمراق ويهم
ان شرق البلاد يرجوك شوقا
وجاء في تصبذة الشاعر الحسن بن أحمد المسفيوي (مناهل الصفا . ص 159) .

وما دون درب الشام غير التفاتة
لسوف يطوى مغربا ومشارقا
وتحل بالحرمين ربعا زاكيا
وما دون بغداد المراق سوى فتر
ويزور فجلة والفرات بمسكر
ماوى لجنك ذى السجايا الطهر

وفي تصبذة الشاعر علي بن أحمد المسفيوي (مناهل الصفا . ص 161)

وهذى الشام وهذى العراق
تسمى لكم وهى دار القرار

1 — تمجيد المنصور لخلافته العربية (. . ومتر هذه الايالة العلمية ومتبورا
خلافتنا الهاشمية الحسينية . .) (39)

ب — مطالبة العلماء بالدعاء له ولخلافته (. . فالمطلوب منكم ان لا تزال السننكم
منطلقة لهذا المقام الفاطمي واللواء النبوي بصالح الحال وبلوغ المراد . .
(والدعاء لهذا الامر العلى العلوي بما يزيده عزا وظهورا . . ويضاعف
انصاره ويظهر حمايته وانصاره) . . (فأنتم احق الناس بموالاة هذا المقام
واولاهم بالاعتناء والاهتمام) .. (والدعاء لهذا المقام العلى الاماسى بفضد
تشدد به اوأخى الاسلام واواصره) (40) .

ج — تصريح بعض كبار علماء مصر كالبركي بمعاداة الاثراك والاعراب عن
رغبته في أن يكون الخلاص على يد المولى أحمد المنصور (. . وواعجبا من
طلوع الشمس من المغرب امانا للعالم وحفظا . . استطار ذكره بين تقتطى
الشروق والغروب ، وحشرت لدعوته افئدة الموحدين فكل ينادي البدار
البدار . . غرة مولانا أمير المؤمنين وقبلة الموحدين .. فأصبح الاسلام متوجا
منه بعزة الحى القيوم .. وتشرف به تخت الخلافة على الممالك .. ينصرهم
من فتاك الاتراك ..) (41) .

2 — محاولة المنصور الاستفادة من اضطراب الحكم التركى بمصر واستياء
المصريين من الاتراك . فاعتمادا على ما دونه أحمد بن القاضى احد دعاة
المنصور بمصر فان ظلم الاتراك قد بلغ اشدّه وان الحال أصبح يهدد بالانفجار
(لما يجدونه فى قلوبهم من ألم افعال الترك واحكام حكامهم الطاغوتية فى
النفس والمال والاهل و لشدة وطأتهم على عرب مصر والصعيد) . (42)

وقد أكد ذلك التاجرونى السفير (هكذا أهل افريقية كلهم من الذل والاهانة
. . وقد رأينا منهم العجب العجاب فى كثرة اشتياقتهم وحنينهم الى حكم موالينا
الشرفاء) (43) .

(39) رسالة المنصور الى العالم المصرى البركى . (مناهل الصفا . ص 172) .

(40) المصدر السابق .

(41) اللسنالى : مناهل الصفا . ص 270 .

(42) ابن القاضى : المنتقى البصير . ص 103 .

(43) التاجرونى : النحلة المسكية . ص 70 .

- 3 — إمكانية الوصول الى مصر بحكم مجاورتها لحدود الإمبراطورية المغربية التي (انتظمت ممالك السودان . . وتنتهى الى برنو . . المتاخمة لصعيد مصر) (43)
- 4 — أمانى المنصور البعيدة في نشر لواء خلافته العربية الهاشمية على العالم الإسلامى ، ولم يخف الفشتالى وزيره الخاص هذه الأمانة عندما اثار الى أن أحد حكماء مصر كان قد تنبأ بالمنصور وبأن الخلاص سيكون على يديه : (. . فهو خليفة الاسلام العظيم الشأن القوي السلطان المفتوح له وعلى يده بتمهيد الاقطار وافتتاح الامصار والاوطان) (45) .



فماذا كانت نتيجة المحاولات التى قام بها المنصور فى الشرق العربى وفى مصر بوجه خاص ؟ لقد اشتهب الاثراك فى الاتصالات القائمة بين المغاربة والمصريين وبيدو أنهم تنبهوا الى أن شيئا ما يدبر فى الخفاء ضدهم ، فشددوا الرقابة وحالوا دون أي اتصال جديد بين المغاربة والمصريين ، الامر الذي حدا بالمولى احمد المنصور الى مراسلة الوالى التركى بمصر فى شأن التوصية بالوفد المغربى ، والتاكيد له بأن الوفد لن يقوم بأي اتصال فى مصر الا باذن الباشا (وجهنا لهذا الغرض . . الحاج احمد الوجانى وجعلنا وجهته الى بابكم وامرناه بحط رحاله برحيب فناء جنابكم . . وقد الزمناه أن لا يقطع امرا من الامور الا بأمرك ومشورتك هنالك) (46) .

ولم تخف على الاثراك النوايا الحقيقية للمنصور والرامى البعيدة التى يهدف اليها خصوصا وقد تم له فتح مناطق واسعة ببلاد السودان واواسط افريقية . ولأجل عرقلة التوسع المغربى فى افريقية ، وليحمى الاثراك بصفة خاصة جنوبى مصر من أي تدخل خارجى ، امدوا ملك برنو ادريس الومما (الثالث) بالاسلحة النارية التى طالبا سعى الى الحصول عليها باتصالاته العديدة مع الاثراك تارة ومع المنصور تارة أخرى (47) ، وغير مستبعد أن يكون الاثراك قد امدوا عددا من امراء وحكام افريقية بهذه الاسلحة ليواجهوا بها الهجومات المغربية او ليقاوموا بها الحكم المغربى ، هذا فى الوقت الذي ظل الجانبان التركى والمغربى يظهران حرصهما على روابط الود القائمة بينهما ، للمشاكل الكثيرة التى كانت تشغل بال كل من مراد الثالث فى أوروبا الشرقية والمنصور فى السودان .

(44) الفشتالى : مناهل الصفا ص 164 .

(45) المصدر السابق ص 290 .

(46) رسالة المنصور للباشا التركى بمصر (رسائل سمعية . ص 180) .

(47) الحفارات الافريقية . ص 55 .

ثورة الناصر وملايساتها الدولية

الناصر : هو ابن المولى عبد الله الغالب ، انتقل صبيحة معركة وادي المخازن الى معسكر البرتغال للانضمام الى اخيه المولى محمد المتوكل الذي استنجد بالبرتغال ضد عميه المولى عبد الملك المعتصم والمولى احمد المنصور ، ثم الى اصيلا فالبرتغال .

وعندما قام فيليب الثانى ملك اسبانيا بضم البرتغال عام 1580 وجد الناصر الفرصة وتقدم بطلب النجدة (1) ضد عمه المنصور الا ان الملك الاسبانى لم يلتفت اليه بسبب مشاغله الداخلية والخارجية والعلاقات الودية التى كانت له مع المنصور .

ولما انتهت معركة اليرموك بانهزام الاسبان وانطلق المنصور بعيدا الى الاعراب عن تأييده ومساعدته للامير البرتغالى دون انطونيو Don Antonio المطالب بعرش لشبونة ، وغالى في التعامل مع المعسكر البروتستانتى وايليزابيت ملكة انجلترا بصفة خاصة (بما امدتها به من النحاس لتفريغ مدافع النار واطلاق ملح البارود لها بالشراء من ممالكه الشريفة وامدادها بالمعادن التى اعوزتها بلادها) (2) ، ثم لما حاول استقلال ظروف اسبانيا الحرجة بأوروبا الغربية للضغط على فيليب الثانى ومساومته للتنازل له عن اصيلا ، لجأ الملك الاسبانى الى المعاملة بالمثل ونقل الاميرين السعديين الناصر والشيخ من لشبونة الى ترمونا Carmona قرب اشبيلية فى شهر ماي 1589 (3) واخذ يلوح

(1) مجلة الاندلس Al - Andalus

العدد (23) ص 19 .

(2) الشتلى : مقال الصفا . ص 193 .

(3) م. ص. ت. م - فرنسا - ج 2 - ص 218

للمنصور بإمكانية مساعدتهما للثورة ضده ، الأمر الذي يمكن اعتباره من العوامل الأساسية التي أجبرت المنصور على عدم انجاز وعوده للانجليز ودون انطونيو في المشاركة في الحرب ضد اسبانيا .

ولما كان دون كريستوف Don Cristophe بن دون انطونيو بالمغرب لاجئاً في مراكش ، نجد بعض المراسلات التي كان الاجانب المقيمون بالمغرب يبعثونها الى اوربا تتعرض الى الاتصالات التي كانت بين فيليب الثاني والمنصور حول إمكانية تبادل الخارجين عليهما أي الاميرين السعديين بالامير البرتغالي ، ولعل هذا من الدوافع التي جعلت الحكومة الانجليزية منذ أن أدركت تراجع المنصور عن التعاون معها ، تلح في إعادة دون كريستوف بل وتتدخل لدى السلطان مراد الثالث لاجل ذلك ، ادراكا لتخوفات المنصور من التدخل العثماني ، فاضطر المنصور الى السماح لدون كريستوف بمغادرة المغرب نحو لندن ، وحتى في هذه الحالة أكد لفيليب الثاني مدى حرصه على مسالمة حيث لم يمكن السلطان العثماني من الامير البرتغالي حتى لا يتخذ سلاحاً ضد اسبانيا أي أن تطورات الاحداث لم تسمح للمولى أحمد باستغلال وجود دون كريستوف بين يديه الا في مواقف خاصة ولأمد محدود ، في حين أن فيليب الثاني الذي لم يغفر للمنصور تواطؤه مع الانجليز وعلان تأييده لدون انطونيو ، والذي لا زال يأوي الاميرين السعديين ، قد أخذ يترقب الفرص لإزالة الضربة بالمنصور ، للإطاحة به أو لازعاجه والضغط عليه ، وقد واثت الفرصة المنتظرة سنة 1595 م : فما الاحداث العامة التي حصلت في هذه السنة ؟ وما التطورات الداخلية بالمغرب التي وجد فيها فيليب الثاني مناسبة للتدخل ضد المنصور ؟

في الميدان الخارجي : أهم ما يلفت النظر الاصطدامات العسكرية بين الاتراك العثمانيين وحلف شرقي أوربا : فالسلطان مراد الثالث بعد انتهائه حروب ايران توجه نحو أوربا الشرقية لاتمام فتوحاته بها ، غير أن تدخل الانجليز وتوسط الملكة ايلزابيث أدى الى عقد هدنة سنة 1591 بين الاتراك وبولونيا سعياً من الانجليز الى جر الاتراك والبولونيين الى تحالف عسكري ضد الاسبان ، خاصة بعد أن فشلوا في دفع المنصور الى محاربة فيليب الثاني ، ثم رغبة من الانجليز أيضاً في استمرار شراء الحبوب وملح البارود من بولونيا لحاجة الانجليز الملحة الى ذلك .

ولم تنجح وساطة الانجليز بين العثمانيين وشعوب أوربا الشرقية الا لأمـد

تصير لعوامل كثيرة أهمها : حرص الاتراك على - سفية أوضاعهم المضطربة بأوروبا الشرقية وتعزيز نفوذهم وسلطانهم بها ، ثم عزم شعوب هذه المنطقة على صد التوسع العثماني الذي كان يحمل بين ثناياه أخطارا سياسية ودينية أيضا ، الامر الذي قارب بين وجهات نظر المسيحيين ودفع دول القارة وشعوبها الى مديد المساعدة والعون الى المحاربين في ترانسيلفانيا (Transylvanic) ووالداشى (Valdachic) ومولدافيا (Moldavic) وما من شك في أن أكثر المتحمسين لاعانة شعوب أوروبا الشرقية ضد الاتراك ملك اسبانيا فيليب الثاني الذي كان يقدر أكثر من غيره مدى خطورة الفتوحات العثمانية بأوروبا ، هذا في الوقت الذي كان كل من بلاط مدريد واصطامبول يظهران حرصهما على التمسك بالهدنة القائمة بينهما .

وفي غمرة هذه الاحداث ، توفي السلطان مراد الثالث وتولى ابنه محمد الثالث يوم 16 يناير 1595 فوجه قوات محاربة الى أوروبا الشرقية ، الا انها انهزمت امام التحالف المسيحي ، ولندرك مدى الخطورة التي أصبحت عليها حال الحكم العثماني في أوروبا الشرقية نذكر بأن (ساع من الباب العالي جاء يأمر بأن يجتمع العلماء والصلحاء والمشايخ والفقراء وأولاد المكاتب في الجامع الاموي ويقرأوا القرآن ويدعو لعساكر الاسلام بالنصر) (4) . وقد زادت عوامل الطبيعة وظروف فصل الشتاء القاسى من خسائر الاتراك ، مما قوى عزيمة المحاربين المسيحيين وشجع الزعيم الهنغاري (ميشيل الشجاع) على التمادي في مقاومة الحكم الاسلامى العثمانى بأوروبا الشرقية .

وبالنسبة لشعوب أوروبا ، فقد اعتبرت هذا النصر فتحا لا يقل عن انتصار معركة ليبانتو (Lipanto) التى جرت قبل ربع قرن وحققت فيها المسيحية انتصارا عظيما على الاتراك العثمانيين .

تركت هذه الاحداث مضاعفات خطيرة في مناطق مختلفة من الامبراطورية : نفى الشام : اثار استبداد (كيوان باشا) سخطا عاما بعد أن شرع الوالى (يصادر الناس ويسلبهم باطنا وظاهرا وكثر القتل في أزقة دمشق والطرق والاسواق) (5)

(4) محمد كرد على : خطط الشام . ج 2 . ص 245 .

(5) محمد كرد على : خطط الشام . ج 2 . ص 246 .

وفي مصر : اضطريت لاوزاع واستاء الاهالى لتصرفات الوالى (قورد باشا)
الذي (كان اميا سادجا محبا للهو والملذات ولا حيلة له الا جمع المال) (6) .

اما في الجزائر : فقد اشتد التنافس بين الاتراك والعرب وتولى على حكم
البلاد عدد من الباشوات دون أن ينجح احدهم في اقرار الاوزاع الداخلية (7) .

فهذه التطورات الداخلية تعد من العوامل المساعدة التى جعلت المولى احمد
المنصور ينطلق بعيدا في تنفيذ سياسته التوسعية بافريقية وفي توطيد صلاته مع
البلاد العربية في المشرق ، لولا ثورة الناصر التى شجعتها اسبانيا بشمالى المغرب :
فالملك الاسبانى (فيليب الثانى) الذي كان يسعى دائما الى أن يبقى المنصور
ضعيفا ومحايذا قد اقلقته تطورات المغرب الداخلية وما آل اليه امر الاقتصاد
بالمغرب في ميادين الفلاحة وصناعة السكر وفي التجارة الداخلية والخارجية ، علاوة
على الاسطول المغربى الذي اخذت وحداته تتزايد في عرض البحار ، وما أصبح
للمولى احمد من صيت ونفوذ وغنى بعد فتح السودان . ولم يعد من جهة اخرى
يامن جانب المنصور لما يتمتع به المغرب من موقع ستراتيغى يمكن خصوم اسبانيا
متى ما نجحوا في استمالة المنصور من تهديد المواصلات الاسبانية ، وتصفية
قواعد الاحتلال الاسبانى بالمغرب ، بالاضافة الى المساعدة التى يمكن أن يقدمها
المغرب للموريسكوس الذين لا يزالون قوة خطيرة باسبانيا

ولهذه الدوافع ، وحتى لا يستغل المولى احمد انهزام الاتراك في المشرق ،
وانشغال الانجليز والاسبان بالحروب الدينية بفرنسا والاراضى المنخفضة ، لاحتراز
نصر سياسى يمكنه من التوسع وبسط النفوذ ومن الحصول على مكاسب مادية
تزيد من اوضاعه الداخلية قوة وتشجعه على الانطلاق والتدخل ضد فيليب الثانى
في شبه جزيرة ايبريا بوجه خاص ، ارسل ملك اسبانيا الامير السعدي الناصر
بن عبد الله الغالب بالله ضد عمه المولى احمد المنصور ، ليفسد عليه امته الداخلى
ومراميه التوسعية الخارجية (ولماءانس . . نار العزم تلتهب التهايا والهمم
الشريفة قد همت بتجديد الاسطول وكلفت بالاستكثار من المراكب الجهادية والالات
البحرية بما كان مولانا يؤمل من فتح جزيرة الاندلس وعبور البحر اليها بجنود الله
وعساكر الاسلام لتجديد رسوم الايمان بها) (8) ثم (لما عظم على الطاغية شأن ما

(6) محمد بن اسحاق : لطائف اخبار الاول . مخطوط بدار الوثائق بالرباط . ك 2409 .

(7) عبد الرحمن الجيلالى : تاريخ الجزائر العام . ص 360 .

(8) الفتاوى : مناهل السما . ص 170 .

أسفه من اسداء امير المومنين والحامه . . وأقلقه ذلك وحذر مغبته شمر للاعتمال
في المكاييد التي هي جنده الاقوى .. فأمل الناصر لتفريق الكلمة وتحريك حوار
الفتنة به ليثنى بذلك عزم مولانا امير المومنين ويشغله عن شأنه ويكافئه على ما
يعتمد فيه من نكايته ، فرمى به الى مليلية من سواحل العدو (9) .

والواقع ان الاستقرار الداخلي الذي كان ينعم به المغرب ، يعد من أهم
عوامل تطوره الاقتصادي والاجتماعي ، واليه يرجع الفضل في معظم المنجزات التي
حققتها المنصور في غربى افريقية وبلاد السودان ، ولم يكن يتلق بال المولى أحمد
غير الاطماع الاسبانية المتزايدة في سواحل غربى افريقيا وفي جزيرة (اركوان)
(Arguin) التي اتخذوها مركزا للمتجارة والتعامل مع القبائل المجاورة
مما اعتبره المولى أحمد منافسة خطيرة من قبل الاسبان لاهدانه التوسعية بالسودان
سياسيا واقتصاديا . واعتمادا على وثيقة معاصرة لاحد الاسبانيين (10) فإن
الاراضى المجاورة لجزيرة (Arguin) بلد غنى بالتمح والشعير والماشية
والنواكه وخاصة معادن الذهب التي يحملها الاهالى بعيدا الى المغرب او تمبوكتو ،
ولقطع الطريق على هذه الثروات وحرمان المنصور منها ، عمد الاسبان الى المتاجرة
مع الاهالى واخذوا في نقل المنتجات المختلفة اليهم ، الى درجة أن تجارة الاسبان
قد ازدهرت بهذه النواحي وان نفوذهم السياسى قد أخذ يتعزز بها ، وهذا
سيكون له اثر كبير على الحكم المغربى بالسودان في قابل الايام .

أبحر الناصر من مالقا يوم 7 ماي 1595 ومعه قوات جرارة معظمها من
الموريسكوس الذين كانوا يسامون سوء العذاب باسبانيا للتعصب الدينى ، والذين
وجدوا في ذلك فرصة للفرار من جحيم الاضطهاد ، كما وجد نبليب الثانى بالمقابل
في ذلك وسيلة للتخلص منهم ، ونزل الجميع بمدينة مليلية ، احدى قواعد الاحتلال
الاسبانى بشمالى المغرب ، يوم الثلاثاء 27 شعبان 1003 هـ الموافق 9 ماي 1595 م
واعلن منها الثورة ضد عمه المولى أحمد المنصور .

ان ما أظهره المنصور من حزم ، وما هياه من قوات مسلحة ، يعكس الى
حد بعيد ، تخوفاته من ثورة ابن أخيه الناصر بجبال الريف بالمغرب الشمالى —
الشرقى . وهناك أكثر من سبب لتفسير اهتمام المنصور بالثورة وانشغاله
بالتضاء عليها :

(9) الفشنالى : مناهل الصفا . ص 170 .
(10) م. م. ت. م — بريطانيا — ج 2 — ص 44

الاول : ظروف المنصور الخارجية حيث أن الاحداث السابقة قد باعدت بينه وبين حلفائه الانجليز الذين فقدوا الثقة في وعوده . في الوقت الذي كان السلطان محمد الثالث منهمكا في حروبه ضد الحلف المسيحي الذي صمم على التحرر من الحكم العثماني بشرقي اوروبا ، وقد امد الاسبان الناصر بقوات عظيمة وبكل المساعدات (ان عدو الدين طاغية غشّالة الذي هو اليوم العدو الاكبر للاسلام . . رام خذله الله مكانتنا على ذلك بما أمل ان يفت نسي عضدنا الاقوى . . فرمى بمخدول من ابناء اخينا عبد الله كان ربى لديه وطوحت به الطوائج منذ ثمانية عشر عاما اليه الى مليلية ادد ثغوره المصائبية لمغرب مالمكنا) (11) .

ثانيا : ان القوات التي تناصر الناصر تضم من بين عناصرها : الموريسكوس كقوة نظامية ، ووجود الموريسكوس في صفوف الناصر يجعل المنصور لا يركن الى العدد العظيم منهم الموجود ضمن قواته المسلحة .

ثالثا : العدد الكبير من قبائل المغرب الشرقي التي استجابت لدعوه الناصر للاموال الطائلة التي وزعها الناصر على رؤساء هذه القبائل ، علاوة على الوعود والاماني التي بذلها ومنهم بها بعد تحقيق الفوز والانتصار ، وقد تجمع للناصر من مجموع ذلك قوات جرارة (ثم لحق به سائر الاحلاف فالتقوا به واعلنوا بدعوته نصرخ الشيطان به في اذان غوغاء تلك الناجية من اهل الجبال المصائبية لها فطاروا اليه من كل اوب وصوب . . فالتف به منهم جموع لا تحصى) (12) . خرج بها من مليلية نحو تازة التي لم يجد صعوبة كبرى في فتحها لانضمام عدد من قوات المنصور المسلحة الى الناصر (فتخاضلت منهم فئة ومالت اليه . . فنزلها . . والقوا باليد فدخلها) (13) . وبلاستيلاء على تازة باب المغرب الشرقي اصبح طريق مدينة فاس مفتوحا امام القوات الثائرة ، كما ان هذا النصر الاولى زاد من حماس الناصر ودفع بالكثير من زعماء القبائل الى الانضمام الى الثورة واعلان تأييدهم لها (ولما دخل تازة وتسامع به المغتر بابا طيله

(11) الفشتالي : مناهل الجوا . ص 189

(12) المصدر السابق . ص 171 .

(13) المصدر السابق . ص 172 .

الواهيية . . تسائلوا اليه ينسلون من كل حذب فتكاثرت جموعه وحشوده
والنف عليه منهم عالم من العرب والبربر . . فلاح له من ذلك بارق خلب
اكذبه امنيته فقوض عن تازى وتخطاها الى امام) (14) .

رابعا : لقد اختيرت جبال الريف بالشمال الشرقى من المغرب كمركز للثورة ، وذلك
لقربها من قاعدة الاحتلال الاسبانى بمليية حيث يسهل مد الناصر بمختلف
المساعدات العسكرية ، ولصعوبة تضاريسها مما يساعد على محاربة
قوات المنصور (وجاد بالخروج الى تلك الجهة . . حذارا من المباشرة
والمعالجة بالعساكر) (15) ، ثم لاستراتيجية هذه المنطقة التى يمكن
الانطلاق منها نحو مناطق المغرب الشمالية والشرقية ، وتمكن الناصر
فى الوقت نفسه من طلب العون التركى بالجزائر أو الالتجاء اليهم عند
الانهازم (وليجد وليجة الى المروق من هنالك لجهة الشرق ان بدا له من
امره ما يكره) (16) .

اما الموقف الذى اتخذه المنصور من هذه الثورة فقد تجلى فى مظهرين :
دبلوماسى وعسكري .

1 — فالمظهر الدبلوماسى : ظهر فى مكاتبة ملك اسبانيا فيليب الثانى
بشان ثورة الناصر ، وقد كان قصده من ذلك — كما يبدو — التأكد من موقف الاسبان
الحقيقى ومدى مساعدتهم لها ، ومما جاء فى رسالته المؤرخة بيوم الخمس 6 قعدة
عام 1003 هـ / 13 يوليوز 1595 اي بعد مرور نحو شهرين على قيام الثورة .
يؤكد بان المنصور كان لا يزال يبادل الملك الاسبانى عبارات الود والمجاملة : اما
املا فى رده عن مغامرته الخطيرة ، أو ليحمله مسؤولية ما سيقع ، دون أن يففل
عن التعرض لحل بعض مشاكل الاسبانيين بالمغرب (هذا وقد وصلنا كتابك فقابلناه
على عادتنا فى كتبك الواردة الينا بوجه البشر والترحيب . . وطالعنا ما ذكرتم عن
ولد اخينا الخارج بمليية وعن اسباب خروجه وحتى خديمكم بلتزاربول ذكر لنا
ما امرتموه أن يبيته علينا وينهيه الينا والى هذا فما نحن أجبناه عن ذلك مشائمة
وكلمناه بما عندنا مواجهة ومن عنده ان شاء الله تعلقون ما لدينا وتقفون على
ما عندنا) (17) .

(14) الشئالى : منال الصا . ص 172 .

(15) المصدر السابق .

(16) المصدر السابق .

(17) توجد هذه الرسالة فى (سيمانكاس) اسبانيا . رقم 213

وبديهى ان السفير الاسباني قد حاول اقناع المنصور بعدم مساعدة فيليب الثانى للناصر ، اذ لا شىء أهم عند المنصور والحالة كما نعلم من ان يتعرف على موقف الاسبان من الثورة ، وهل اقتنع المنصور بذلك ؟ ان مجريات الاحداث تثبت لنا بان المنصور لم يكن يشك قط فى ان الاسبان هم المحركون الاساسيون للثورة (.. ؟ اعلامكم بان الناصر حليف الصليب .. كان الطاغية خذله الله تذف به الى جهة ملياية تذف النواة .. وتواه بالاموال) (18) التى لم يكن القصد منها سوى اضعاف المنصور وتشتيت شمل المغاربة الذين اخذت اوضاعهم المتطورة تزج غليب الثانى وتورقه (لما ءانس من جانب طور عنايتنا الامامية نار العزم تلتهب التهابا .. والههم كلفت بتجديد الاسطول والاستكثار من المراكب المتكلفة للغزو والجهاد بقضاء كل دين مطول وعلم ان الحديث فى هذا الاحتفال اليه يساق .. رام مكيدة الاسلام فى ذلك بما امل ان يفت فى عضدنا) (19) . لذا فقد امر المنصور بالتقاء القبض على السفير الاسباني بمراكش (Balthzar Polo) يوم الجمعة 4 غشت 1595 ووضع رهن الاعتقال ، وملاحقة الاسبانيين الموجودين بالمغرب (20) ، وذلك كتدابير وقائية لما عسى ان يقوم به هؤلاء من شغب وغوضى لصالح الثورة القائمة بشمالى البلاد .

2 — والمظهر الثانى العسكري ، تجلى فى خروج المنصور خارج مراكش (لاول ما طرق الخبر باجلااب الناصر على تازى وعزم على الزحف بنفسه .. فبرز برورا فخما اوائل شوال عام ثلاثة) (21) مما يدل على خطورة الثورة ، غير ان المولى احمد عدل عن التوجه شخصيا وكلف ابنه المولى محمد الشيخ نائبه على فاس بتوجيه حملات عسكرية ضد الناصر ، وظل هو معسكرا فى نهر تانسيفت وعلى اهبة الاستعداد للتدخل (وتلوم مولانا .. بمعسكره من باب اغمات ريثما استكمل المعسكر اهبة السفر فارتحل لنهر تانسيفت) (22) .

ومن فاس ، خرجت قوات جرارة بقيادة ابراهيم بن القائد كتيرس ومحمد ابن ابراهيم بن بجة ، وحصلت معارك بين الطرفين كان النصر فيها حليف الثورة لانضمام قسم من هذه القوات المحاربة الى صفوف الناصر . وقد شجع هذا الانتصار

(18) رسالة المنصور للعالم البكرى بمصر (مناهل الصفا . ص 189)

(19) المصدر السابق .

(20) م. ص. ت. م — تولىا — ج 2 — ص 227

(21) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 172 .

(22) الفشتالى : مناهل الصفا . 172 .

الناصر على مواصلة الزحف نحو مدينة ناس عاصمة المغرب الشمالى ، وقيل أن يصل إليها خرج اليه الشيخ على رأس قوات عظيمة ، وجرت عند سفح جبل مدغرة معركة عظيمة انهزم فيها الناصر وفر ، بعد أن أصيب برصاصة فى ركبته (فاحتبله العرب فى الهودج وطاروا به) (23) ، وقد جرت هذه المعركة يوم الخميس 26 تعدة عام 1003 / 2 غشت 1595 .

وعلى اثر هذا الانتصار الذي احرزه المولى محمد الشيخ ، كاتب المولى احمد المنصور قائد قواته بالسودان منصور باشا وجوذر باشا يخبرهما الخبر وكيف انتهى امر الثورة بالفشل ، وهذه الرسالة تعد من الوثائق التاريخية المعاصرة التى تلقى الضوء على ثورة الناصر ومدى الجهود التى بذلها المنصور فى سبيل القضاء عليها (الى كبير الممالك المتتبعين لاعمال الممالك السودانية وهما منصور باشا وجوذر باشا اسمعهم الله من البشائر ما يملأ صدوركم انشراحا . . فكتابنا هذا اليكم من معسكرنا السعيد على نهر تانسيفت . . والذي ننهيه الى جهنكم من الانباء المثيرة للفرح والسرور . . اعلامكم ان الشقى الناصر حليف الصليب . . ولم يكن الا كلا ولا حتى منحه الله الظفر فولى الشقى وجعوه الادبار . . واخذهم الله على يد ولدنا اسعده الله تعالى اخذة رابية . . هذا من بعد ان لم يأل الشقى وجعوه جهدا فى الاحتفال والاستعداد بما لا مزيد عليه عدا وعددا . . وعرفناكم بما سنى الله من هذا الفتح العظيم . . لتأخذوا من السرور بشارته . . وتشبهوه الى من هنالك من عساكرنا المؤيدة بالله والاجناد والى سائر اهل ممالكنا الشريفة بتلك البسلا (24) .

التجأ الناصر الى (دار ابن مشعل من جبل بنى يزناسن من ايلة الترك بمصمبا بها) (25) ، وهذا بعد تطورا خطيرا فى سير الثورة لان توجه الناصر نحو الجزائر كان لطلب المساعدة التركية اما لتخلى الاسبان عنه بعد انهزامه أمام الشيخ بن المنصور ، او سعيا منه الى تقوية صفوئه بالمساعدة التركية وهل كان يوسع اترك الجزائر تقديم المساعدة للناصر ؟

ثم ما هى وضعية الاسبان وما العوامل التى حالت بينهم وبين الاستمرار فى تقديم المساعدة والعون لثورة الناصر بشمالى المغرب ؟

(23) المصدر السابق .

(24) يوجد نص الرسالة فى مناهل الصفا . ص 189 .

(25) الشتالى : مناهل الصفا . ص 172 .

ان الجزائر العثمانية منذ ان أصبحت باشوية دخلت في عهد من الفوضى والفقر الداخلية ، وتعد سنة 1595 بداية تطور خطير زاد من حدة هذه الفوضى والاضطرابات : اذ في هذه السنة عزل السلطان محمد الثالث الباشا مصطفى بن قية لفشله في اخضاع ثورة (القبائل) وعين في غشت من نفس السنة خضر باشا للمرة الثانية ، الا انه لم يتمكن كسلفه من القضاء على الثورات الداخلية للتنافس الشديد بين العرب والأتراك ، الامر الذي حدا بالسلطان الى عزل خضر باشا واعادة مصطفى الباشا السابق ولكن بدون جدوى (26) . فاذا كانت هذه هي وضعية الجزائر الداخلية فمن البديهي ان الأتراك الحاكمين لن يتمكنوا من تقديم مساعدة ما للناصر ، لان الحالة تستدعي الاهتمام ومقاومة الخارجين قبل التفكير في ارسال قوات عسكرية لمساعدة ثورة منيت خلال شهورها الاولى بالفشل والهزيمة . علاوة على أن وضعية السلطان العثماني الحديث العهد بالتولية (محمد الثالث) كانت جد سيئة للانجازات المتوالية التي لحقت قواته المحاربة بشرقى أوروبا سواء بقيادة (فرهاد باشا) أو (سفان باشا) الذي انهزمت قواته عند نهر (الطونا) ، حيث غنم اعداؤه عددا عظيما من العتاد الحربي والمعدات العسكرية ، بالإضافة الى القتلى وعشرات المئات من الاسرى (27) ، مما زاد في قلق السلطان ودفعه الى حصر الاهتمام بهذه المنطقة دون سواها ، وقد بلغ من حرصه ان خرج على رأس القوات المحاربة في شوال 1004 / جوان 1596 واستطاع بعد معارك طاحنة تحقيق انتصارات على الحلف المسيحي (28) ؟ على ان المساعدات العسكرية التي ارسلتها دول أوروبا ، وأعمال الخيانة التي وقعت في صفوف القيادة التركية ، مكنت القوات المسيحية من القيام بمجموعات معاكسة ضد القوات التركية انى تكبدت خسائر فادحة ، ولولا قيام الوزير التركي (جنكالا) بصد الهجوم لحصلت للقوات العثمانية ما لا تحمد عقباه (29) .

ولما كان المنصور مطلعا على احداث الشرق وملما بحال الأتراك في الجزائر فانه لم يضطرب لتقرب الناصر من الجزائر وحكامها الأتراك ، فقد (أجمع السلطان . . على النهوض بنفسه بالعساكر والاجناد من مراكش . . وعلى الاقامة بفاس وتجهيز العساكر منها مع ولى عهده ايدهم الله الى اقتحام جبل بنى يزناسن على

(26) عبد الرحمن الجليلي : تاريخ الجزائر العام . ص 360 .

(27) ابراهيم الفندي : المصباح الساري . ص 146 .

(28) المصدر السابق . ص 147 .

(29) ابراهيم الفندي : المصباح الساري . ص 147 .

الناصر غير مكثرت باولى الايالة عاملا على الاجلاب. عليهم وعليه أن راموا النصره له والوقوف للدفاع دونه واحتفل له احتفالا عظيما (30) .

وبالرجوع الى الوثائق التاريخية التى بين ايدينا نتأكد من أن المنصور قد ظل حريصا على مسالمة الاتراك ، بل ان دور اسبانيا فى مساعدة الحلف المسيحى لاوروبا الشرقية وفى تأييدها لثورة الناصر بالمغرب ، قد تقارب بين العثمانيين والسعديين ودفعتهم الى التفاهم لصد الاخطار الخارجية ، وذلك كما تثبت الرسائل التى تبودلت بينهم : فقد بعث المولى أحمد سفارة خاصة لاصطامبول للتعزيزية فى وفاة مراد الثالث ولتقديم التهاني لابنه محمد الثالث (فالذي يحيط به علمكم أننا قد كنا لحين ما الم بنا نبأ ذلك النبأ الفاجع من قبل ورود كتابكم وموافاة خطابكم بادرنا بازعاج ارسالنا الى أبوابكم برسم التعزية والتهنئة) (31) .

وعندما وصلت السفارة التركية الى مراکش لتخبر المنصور رسميا بتولية محمد الثالث حملها المولى أحمد خطابا يعكس مدى حرصه على الود وحسن الجوار (وعندنا من موالاة ذلكم الجنب بجميل الود والمحبة المحكمة الربط والعقد والمصافاة التديمة العهد والمواخاة الاسلامية الموروثة عن الاب والجد ما لا تزال لدينا على الدوام سورة تتلى) (32) . فالظروف العامة للامبراطورية العثمانية والاضاع المضطربة لباشوية الجزائر حالت جميعها دون الاستفادة من ثورة الناصر وتلبية مطالبه : بالمساعدة ضد المنصور (الى ما تضمنه كتابكم . . الاعلام بأولئك الاشخاص الواردين عليكم من اصحاب ذلكم المخدول وما كان من عدم التفات مكانكم المكين اليهم وعدم الاصغاء لما لديهم وايعازيكم مع ذلك الى اصحابكم بتلمسان بسذ باب القبول فى وجهه وعدم اسلام الجيش الى الالتفات اليه والالتفاف عليه) (33) .

وقبل أن يأمر المنصور بهجامة الناصر فى شرقى المغرب كاتب الوالى خضر باشا مخبرا اياه بما قر عليه أمره (فلما رأيناه تقاعس عنكم لم نرد اقحامه الا بعد مفاوضتكم واعلام مكانكم . . فنحن ان شاء الله على الاجلاب عليه بعساكرنا حتى نستخرجه من نفقه ونستأصل بعون الله ما كانت أبقت من رمة) (34) .

(30) الفتاوى : مناهل الصفا . ص 172 .

(31) رسالة المنصور الى السلطان محمد الثالث . دار الوثائق - الرباط - مخطوط - ك 278 . ص 342

(32) المصدر السابق .

(33) رسالة المنصور الى خضر باشا - (رسائل سعدي . ص 254)

(34) رسالة المنصور الى خضر باشا . رسائل سعدي . ص 254 .

وبالنسبة للأسبان لقد اشتدت وطأة الحروب الدينية بأوروبا الغربية بين المعسكرين : الكاثوليكي والبروتستانتي وازدادت حدة الصراع في فرنسا وفي الأراضي المنخفضة كما أمعت بريطانيا في مضائق المستعمرات الإسبانية أن بأمريكا أو الهند والشرق الأقصى ، وفي انزال الخسائر بالسفن الإسبانية العائدة من الشرق والغرب ، بالإضافة إلى التأييد الإنجليزي للامير البرتغالي دون كريستوف بعد وفاة والده دون أنطونيو (جوان 1595) في المطالبة بالعرش البرتغالي ، وقد انتهى الأمر باحتلال الإنجليز لمدينة قادس في يوليو 1596 (وفي هذا التاريخ صمد إليه أسطول بلاد نكلطيرة في مائتي مركب ونيف مشحونة بجيوش وانرة وعساكر النار على احتلال عظيم يقدمها دون كشتوبان . . فأجلبت على مدينة قادس من مدن سواحل قشتالة وهي الباب الأعظم إلى ممالك الطاغية ومتوى التجائر الثقيلة من بلاده ومحط رحال الأموال الطائلة من أرضه ومرسى أسطوله وفرضة المجاز إلى ممالكه . . وقد تصاعد أسطول الإنجليز لهذا العهد من بعد تخريب قادس مع بحر الزقاق للعبث في سواحل الطاغية وتدمير أرضه والاجلاب على ممالكه والتضييق عليه) (35) . وفي هذا يكن سر تراجع الأسبان عن الاستمرار في تأييد ثورة الناصر الذي وجد نفسه في الأخير وحيدا في الميدان أمام المنصور الذي لم يستصغر مع ذلك شأنه ، بدليل الاستعدادات العظيمة التي اتخذها لمواجهة الثورة والتضاء عليها : فقد انجد ابنه الشيخ بالقوات المسلحة (جهز إيد الله . . مسعود بن مبارك في جيش من عساكر النار) (36) ، وأمر ابنه المولى زيدان عامل تادلا بقطع طريق سجالاسة على الناصر (ان رام النهوض إليها من دار بن مشعل) (37) ، كما (وجه عن عساكر السوس ؟ للاجلاب على الناصر ان زلت به الاقدام الى الانحدار للسوس) (38) .

ومن اجراءاته العسكرية ايضا الاوامر التي وجهت الى غوانه (بحاجة وبلاد دكالة وتامسنا وسائر العساكر المتفرقة في الممالك) (39) لتكون على أهبة الاستعداد (فتوافت الاجناد وتوالت الامداد . . فتكاملت الاهبة وعظم الاحتلال من الاستعداد) (40) .

(35) الفشتالي : مناهل الصفا . ص 194 .

(36) المصدر السابق . ص 173 .

(37) المصدر السابق . ص 177 .

(38) المصدر السابق . ص 177 .

(39) الفشتالي : مناهل الصفا . ص 178 .

(40) المصدر السابق .

أما الناصر فقد دخل في حروب دامية مع قوّات المنصور ، وأحرز في
الامطدات الأولى انتصارا بسبب تراجع بعض القبائل عن المولى محمد الشيخ ،
إلا أن هذا الأخير سرعان ما أعاد الكرة ضد الناصر للامدادات العسكرية التي
وصلته من مراكش وجرت معارك حاسمة دارت فيها الدائرة على الثائر الذي حاول
الفرار ولكن القى عليه القبض وصحبه وسبق الجميع إلى فاس (فقبضوا عليه
واستاقوه لفاس فوجهه ولى العهد برأسه وجثته لأمير المؤمنين . . بمراكش فنصب
الرأس حتى شاهده الناس تفكيسا للفساد وأخمادا لنار الفتنة الناشبة بسببه) (41)
وتم بذلك القضاء على هذه الثورة التي دامت سنة كاملة (9 ماي 1595 حتى
21 ماي 1596) .

ويكفي لإظهار خطورة الثورة أن المنصور قد أمر بإقامة مظاهر الفرح ، وجلس
لقبول التهنأت وسماع قصائد الشعراء (فكان ذلك اليوم . . بما عم الناس من
السرور وشمل من الفرح . . وبرز مولانا إلى فسطاطه الأعظم المعد للديوان العام
في التاج المذهب الفاره اللامع البروق لشمائمها على بعد مجلس للتهنئة وانثال
الناس عليه من العساكر والأجناد وأهل الحضرة . . وبرزت أرباب آلات الغناء
من الحضرة على اختلافها وقرعت الطبول وارتفعت أصوات آلات الملك) (42) .

وكتب المنصور بعد ذلك جميع ولاته في الداخل (43) يعرفهم بالنصر والقضاء
على الثورة وبعض الشخصيات البارزة في العالم الإسلامي : الدينية منها
والسياسية ، مستغلا الفرصة المناسبة لإبراز قوته وعظمته ومدى حرصه الشديد
على الدفاع عن الإسلام وديار المسلمين ، وليلطلب من كبار العلماء في الشرق
الإسلامي الدعاء له بالنصر والفتح (أن يويدنا الله على عدو الدين . . ويسهل
علينا بفضلهم ومعونته أسباب فتح الأندلس وتجديد رسوم الإيمان بها) (44) . فهل

(41) المصدر السابق .

(42) المصدر السابق .

(43) المصدر السابق .

(44) رسالة المنصور إلى العالم المصري البكري (مناهل الصفا ص 189)

كان المولى أحمد المنصور يرمى من وراء ذلك الى العمل على
استغلال الظروف لكسب شهرة واسمة فى العالم الاسلامى
فى الوقت الذي كان السلطانى العثمانى محمد الثالث يعانى الامرين من جراء حربه
فى اوربا الشرقية وبسبب الثورات والفتن التى عمت معظم ولايات الامبراطورية
العثمانية ؟ وهل كان جادا فى تحقيق امل المسلمين المنشود وانجاز ما عجز بنو
عثمان عن القيام به وهو استرداد الاندلس وهزم أكبر قوى أوربية مسيحية : قوة
اسبانيا وملكها العظيم فيليب الثانى ؟

الفصل الخامس عشر

المنصور بين التحالف مع الإنجليز والتفاهم مع الأسبان

إذا كانت هنا كمن صفات يمكن أن تتميز بها أعمال فيليب الثاني ملك اسبانيا خلال السنوات الاخيرة من حكمه ، فهي : الفشل والخيبة وتوائى الهزائم ، وان الانهزام في حملة الارمادا قد ترتبت عنه سلسلة نكبات في كل من الاراضى المنخفضة وفرنسا والمغرب والجديد في الامر هو أن المولى احمد المنصور قد اندفع نحو التعاون الجدي مع المعسكر البروتستانتي الذي طالها سعى جادا الى جر المغرب في محالفات عسكرية ضد اسبانيا لموقعه الهام ولاستراتيجية شواطئه التي تسمح بالتحكم في المواصلات البحرية الاسبانية مع الشرق الأقصى . وهذه نتيجة حتمية طالها ان الخطر الاسباني كان يهدد جميع هذه البلدان .

ويهبنا بصفة خاصة : أن نتعرف على أهداف المنصور وعلى نوع الاتصالات التي أصبحت له مع حلفائه الجدد ، وأن نقف على مدى استعداد كل من المتحالفين وامكانياتهم .

كان المولى احمد وهو يندفع الى التعاون مع المعسكر البروتستانتي، تحدوه رغبة العمل ضد فيليب الثاني، بالدرجة الاولى ، كرد فعل لما قام به من تايسد ومساعدة لثورة الناصر ، ولان احتلال الانجليز لمدينة قادس في يوليوز 1596 م ابطل اسطورة اسبانيا القوية المنيعه ، وأظهر حقيقة أوضاعها المضطربة ، كما شجع في نفس الوقت خصوم اسبانيا — وما أكثرهم — على التحالف لقهر الخصم العنيد فيليب الثاني واقتسام امبراطوريته الواسعة الغنية التي لا تفيب عنها الشمس .

فتهالكوا لهذا العهد في مضايقته ووقفوا له بمدارج النفس فضاق منهم مخنقه،
وتكالبوا عليه مع صاحب بلاد نكلطيرة كل من جهته (1) .

والحقيقة هو أن فيليب الثاني قد أغرق بلاده في بحار واسعة من الدماء لأعمال
الاضطهادات الداخلية ، وللحروب الطويلة المستمرة والمتعددة الواجهات التي
خاضتها القوات الإسبانية ، كما عرض اقتصاديات اسبانيا الى الخطر وحمل
الخزينة ما لا تطيق من النفقات المتزايدة ، دون أن يحسب حسابا للدول الاوربية
النامية التي أخذت تطور اوضاعها السياسية وتعمل جاهدة لارساء قواعد اقتصاد
قوي ومتين وتفكر ايضا في التوسع الخارجى وتأسيس المستعمرات .

واعتمادا على ما أصدره الكورتيز (Cortès) الاسباني خلال هذه الفترة
(1594) نتأكد من أن اسبانيا قد ساءت احوالها المختلفة اقتصاديا واجتماعيا :
اذ تدهورت الزراعة وتربية المواشى وتأخرت الصناعة والتجارة ، ولم يعد هناك
من منطقة في اسبانيا لم تفقد الكثير من سكانها الى درجة ان العديد من المنازل قد
أصبحت مغلقة وغير مسكونة ، وباختصار : لقد اضطلعت المملكة الاسبانية (2) .

لقد أعرب المنصور منذ الايام الاولى للقضاء على ثورة ابن أخيه الناصر ، عن
عزمه وصادق نيته في العمل ضد اسبانيا الى أن تكفل جهوده بفتح الاندلس واسترداد
مردوس الاسلام المفقود (. . . ان يويدنا الله على عدو الدين بفضلله وينجز لنا وعده
الصادق في اظهار دين الحق على الدين كله ويسهل علينا بفضلله ومعونته أسباب
فتح الاندلس وتجديد رسوم الايمان بها واحياء اطلاله الدرس حتى ينطلق لسان
الدين فيها بكلمة الله التي طالما سكنت عنها بدائه وخرس وشرق بريقه لفص
واحتبس) (3) .

وقد ظهر هذا العزم في توجيه المنصور ثلاث سفن مسلحة ومحملة باليون ،
انضمت يوم 25 يونيه 1596 (4) الى الاسطول الانجليزي والهولندي الذي كان
يحاصر قادس تحت قيادة (Charles Haward) ليؤكد للمعسكر البروتستانتي
مدى حرصه وصدق نيته في محاربة اسبانيا وليعمل على استعادة ثقة ايليزابيث

(1) اللشنتالي : مناهل الصا . ص 195 .

(2) مجموعة Clio القرن 16 م . ص 287 .

(3) اللشنتالي : مناهل الصا . ص 191 .

(4) م . ص . ت . م - فرنسا ج 2 - ص 299

ملكة إنجلترا بوجه خاص (اهتم أيده الله بالجهاد وأخذ الإهبة له والاستعداد بمجازاة عدو الذين على كل ما اعتمل فيه من كيد الاسلام وتفريق كلمته) (5) . ثم عجل بارسال سفارة خاصة الى قادس لتعرب للامير البرتغالي دون كريستوف عن تأييد المنصور واستعداده التام لامداده بالقوات المسلحة وكل ما يطلبه منه (6) ، وهذا يعد اعترافا من المنصور بسلطنة الامير البرتغالي وتأييدا صريحا منه ضد نيلب الثاني ملك اسبانيا . وقد انطلقت في الوقت نفسه قوات من الاسطول المغربي لغزو جزر كناريا (وما زال أيده الله تتوالى بها نزواته على أرض الكثر وطواغيث الشرك فتقتاد السبى والانتقال ولا كالجزائر الخالدات التي خرستها بانياها واضحت بشمرات اليد بما تستاق كل عام من سبيها) (7) .

ومن جهة أخرى استقبل المنصور في بلاطه بمراكش بعثتين سياسيتين أرسلتا من هولندا وفرنسا للقيام بمهام سياسية واقتصادية لدى المنصور :

— فالوفد الهولندي وصل الى مراكش في أكتوبر 1596 ليقتراح على المولى احمد بصفة خاصة عقد معاهدة تجارية تمكن التجار الهولنديين من التعامل مع الموانئ المغربية وتسمح لهم بالاستيراد والتصدير (8) . وقد وجد الوفد الهولندي حسن استقبال من المنصور طالبا أن الهولنديين كانوا من أشد أعداء اسبانيا وانهم لن يتوانوا عن تزويد المنصور بكل ما يحتاج اليه من ذخيرة وسلاح . وقد كانت هولندا تهدف في الواقع الى :

1 - فتح الموانئ المغربية في وجه سفنها الذاهبة او العائدة من الشرق الأقصى وحمايتها من أخطار القرصنة الاسبانية ، خصوصا وقد أصبحت للهولنديين مستعمرات في غينيا بغربي افريقية وجاوا بالشرق الأقصى .

2 - اتخاذ الموانئ المغربية الاطلسية نقط انطلاق ضد السفن الاسبانية العائدة من الشرق الأقصى لنهب خيراتها وقطع الطريق عليها .

وأما السفارة الفرنسية فقد وصلت الى المغرب يوم 13 ديسمبر 1596 بقصد نهى تعاون عسكري ضد اسبانيا (9) ، ومعلوم أن فرنسا في عهد هنري الرابع

(5) الشنتالي : مناهل الصفا . ص 187 .

(6) م. ص. ت. م. — بريطانيا — ج 2 — ص 96

(7) الشنتالي : مناهل الصفا . ص 197 .

(8) م. ص. ت. م. — بريطانيا — ج 1 — ص 27

(9) م. ص. ت. م. — بريطانيا — ج 2 — ص 160

قد دخلت في حروب متواصلة دفاعا عن أراضيها ومقاومة التدخل العسكري الإسباني ، ثم لانسداد خطة فيليب الثاني الرامية الى ضم العرش الفرنسي بدعوى توحيد قوى العالم المسيحي الكاثوليكي (واتصل اهل افرائصه وانضم بعض الى بعض فقيوت شوكتهم واستفحل امرهم وتعاضمت صولتهم فسميت همتهم السي استرجاع ملكهم ومعاودة سلطانهم وشمروا لمغالبة طاغية قشتالة على ما يليهم من ممالكه فصمدت عساكرهم الى باريز فنازلوها واجلبوا على اعماله وممالكه وزاحموه بالمناكب ولاحت لهم بوارق الظهور عليه) (10) .

وفي نطاق سياسة المنصور الجديدة راسل الملكة ايليزابيت في ديسمبر 1596 في شأن تحرير اسير كان يعمل بقادس لصالح المنصور ، مبديا استعداداه لامتدائه (11) فعادت بذلك — نوعا ما — الاتصالات المغربية — الانجليزية بعد انقطاع شبه تام استمر خمسة اعوام تقريبا . ودخل ايضا في اتصالات مع عدد من الاجانب الذين كانوا بالمغرب ، ومن هؤلاء (Pedro Ferreira) البرتغالي الاصل ومن مرافقى الامير دون كريستوف عندما كان لاجئا بالمغرب (12) ، واستنادا الى المذكرة التى بعثها البرتغالى المذكور بتاريخ 30 يناير 1597 (13) ، فان المولى احمد قد تذاكر معه غداة احتلال الانجليز لمدينة قادس وانه ابتهج لهذا الفتح ووجد فيه عزاء للخسائر الجسيمة التى نزلت بالمغرب من جراء ثورة الناصر . ثم يذكر صاحب المذكرة بان المنصور :

1 — اعرب له عن نيته فى أن يقوم الانجليز باحتلال جزر آصور ، وذلك لما تمتع به هذه الجزر من ستراتيجية وسط الحوض الشمالى للمحيط الاطلسى كنقطة هامة للمواصلات التى تربط اسبانيا مع مستعمراتها بالعالم الجديد .

2 — لم يخف المنصور من محدثه البرتغالى الامل الذى يعلقها على قيام تعاون عسكري مغربى — انجليزى ضد فيليب الثانى ولفتح اسبانيا ، اذ أن احتلال قادس قد اعطى الدليل على امكانية فتح هذه البلاد متى توحدت الجهود واتخذت كل الاستعدادات .

(10) الفتاوى : مناهل الصفا . ص 194 .

(11) م. م. ت. م — بريطانيا — ج 2 — ص 137

(12) المصدر السابق ص 110 .

(13) المصدر السابق .

3 - لقد أكد المنصور للمبعوث البرتغالي كامل استعداده لخوض غمار الحروب الى جانب الانجليز ، وانه يضح جميع ثرواته الطائلة من أجل ذلك تحت تصرف ايليزابيث ملكة انجلترا .

اما مدى استجابة الانجليز وحلفائهم لمقترحات المنصور ، فالوثائق المعاصرة تثبت بأن بواذر تحالف عسكري يضم المغرب وبريطانيا وفرنسا وهولندا قد أخذت تلوح في الأفق ، خصوصا وان المعسكر البروتستانتى كان قد بيت العزم على انزال الضربة القاصمة بالاسبانيين واستغلال بعض جوانب الضعف والتدهور فى سياسة فيليب الثانى لاحتراز انتصارات سياسية واقتصادية ، متخذين من مدينة قادس قاعدة انطلاق نحو قلب اسبانيا ، ولقطع طريق التجارة والمواصلات البحرية الاسبانية ولقد أبدع الفشتالى وزير المنصور فى تصوير الصراع الانجليزى - الاسبانى ، وفى التعرض الى النتائج الهامة التى ترتبت عن احتلال قادس . (وفى هذا التاريخ صمد اليه اسطول سلطنة بلاد نكلطيرة فى مائتى مركب ونيف مشحونة بجيوش وافرة وعساكر النار على احتفال عظيم . فاجلبت على مدينة قادس من مدن سواحل قشتالة وهى الباب الاعظم الى ممالك الطاغية ومثوى التجائر الثقيلة من بلاده ومحط رحال الاموال الطائلة من أرضه ومرسى اسطوله وفرضة المجاز الى ممالكه . وقد تصاعد اسطول الانكليز لهذا العهد من بعد تخريب قادس مع بحر الزقاق للعبث بسواحل الطاغية وتدمير أرضه والاجلاب على ممالكه والتضييق عليه والمبالغة فى نكايته) (14) .

وأول ظاهرة تؤكد استجابة الانجليز لمقترحات المنصور ، ما جاء فى الوثيقة المؤرخة بشهر مارس 1597 بأن الملكة ايليزابيث قد بعثت تطلب من المولى أحمد ان يقوم بتخريب المناطق الزراعية الموجودة حول مراكز الاحتلال الاسبانى بالمغرب وأن يفرض عليها حصارا اقتصاديا شديدا (15) . فهل كان ذلك تنفيذا لسياسة حصار اقتصادي تعقبها هجومات عسكرية ضد اسبانيا ؟ وهل أدرك فيليب الثانى وساسة الايسكوريال مدى الخطورة التى أصبحت عليها وضعية اسبانيا الداخلية والخارجية وان عليهم تدارك الامر ؟ ان الذى يبدو من دراسة الاحداث وتطوراتها هو أن الاسبانيين قد شعروا بظروفهم الحرجة وأدركوا أن عليهم القيام باحباط مساعى خصومهم حتى لا تحل باسبانيا ما لا تحمد عقباه : ولأجل ذلك أصدرت

(14) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 194 .

(15) م. ص. ت م - بريطانيا - ج 2 - ص 121

الحكومة الاسبانية عفوا شاملا عن السياسة البرتغاليين الذين كانوا يتعاونون مع اعداء اسبانيا (16) ، وقد كان ذلك ولا شك لكسب جانب عدد من البرتغاليين الذين كانوا يخدمون مصالح الاميرين دون انطونيو ودون كريستوف ، وتسخرهم ايليزابيت ضد اسبانيا . كما أثار الاسبانيون المسيحيين الكاثوليك بايرلندا ضد انجلترا ، وقد اشتعلت ثورة دينية خطيرة بالجزيرة تحت زعامة (هيواونيل) و (ايرل تيرون) ، دامت عدة سنوات ، ارتكب خلالها الانجليز من اعمال الشدة والبطش ضد الايرلنديين الكاثوليك الشيء الكثير ، بما في ذلك جماعة الرهبان الكاثوليك الذين تعرضوا للطرده والملاحقة ولم يسمح بالبقاء الا للمسجلين في سجلات الحكومة وللذين ادوا يمين الولاء للدولة الانجليكانية (17) .

ومن جهة أخرى قبل الملك الاسباني فيليب الثانى وساطة البابا (كليمان الثامن) وعقد مع هنري الرابع معاهدة (Vervins) 1598 م . التى خففت بعض العبء عن كاهل الاسبان وأحدثت نوعا من الانفراج فى سياستهم الخارجية . ولكن وفاة فيليب الثانى يوم 13 سبتمبر 1598 وتولية ابنه فيليب الثالث الذى لم يكن كأبيه قوة وحزما حيث سلم أمور الدولة الى (دون فرنسيسكو غوميت دي ساندربال) المعروف بـ (Le Duc de Larmes) ، الذى كان همه فى جمع الاموال وبيع المناصب والذي ابتدا فى عهده ما يعرف بمؤامرات البلاط ، قد زاد من سوء الاحوال الداخلية باسبانيا وجعل الاوضاع العامة تتدهور بشكل خطير كما لاحظ ذلك الاسباني المعاصر الشهير (سرفانطيس) :

وحتى فى هذه الحال ، لم تساعد الظروف على القيام بعمل ما ضد اسبانيا لان الثورة الايرلندية قد أرغمت الانجليز على توجيه عناية كبرى للتضاء عليها ، ولان هنري الرابع اهتم بتضميد جروح فرنسا وبناء ما هدمته الحروب الدينية وخاصة بعد اصدار مرسوم (نانط) (18)

والمغرب بدوره اجتاحه داء الطاعون واثّر على اوضاعه الاقتصادية والاجتماعية مما لم يعرف له مثيل من قبل (الطاعون هو وباء استئصال وطال من عام سبعة

(16) المصدر السابق . ص 110

(17) مجموعة Clio القرن 16 م . ص 387 .

(18) مجموعة Clio القرن 16 م . ص 289

والف الى عام ستة عشر والـف وعم سهل المغرب وجباله حتى افنى اكثر الناس ومات جمع من الاعيان (19) . ومن الرسائل المعاصرة الاولى التى اشارت الى انتشار الوباء بالمغرب ، رسالة مؤرخة بشهر يونيه 1598 جاء فيها بان المولى احمد المنصور قد أصبح يعيش فى خيمة خاصة وأن خيمته تنظف كل عشرة أيام (20) مما يدل على أن الطاعون قد استفحل بشكل خطير اضطر معه المولى أحمد المنصور الى مغادرة مراكش والتخيم بضواحيها . وقد تضاربت الارقام التى سجلها الاجانب عن عدد ضحايا هذا الداء فى كل يوم وان لم يكن هناك خلاف بأن نسبة الوفيات كانت مرتفعة فى المدن والاماكن الاهلة بالسكان اكثر مما هو الحال فى البوادي والمناطق النائية وبسبب انتشار الطاعون اضطرت اقتصاديات المغرب للتأخير الذى حصل فى ميادين الزراعة والصناعة بالداخل ولتوقف الاجانب عن المتاجرة مع المغرب وهذا زاد من حدة الفتن الداخلية وأغرى الطامعين والمستائين على الخروج والمجاهرة بالعصيان . ومن مضاعفات الطاعون بصفة خاصة أن الشركة البربرية التى كان الانجليز قد أسسوها سنة 1585 للمتاجرة مع المغرب قد أعلنت فى هذه السنة انلاسها كنتيجة لبيعها بالدين ولمضاربات التجار الاجانب والمهربين منهم خاصة ثم لاضطراب الاوضاع الاقتصادية العامة (21) .

ويبدو أن حدة الوباء قد خفت فى السنة الثالثة من ظهوره وخاصة فى مراكش مما جعل المولى أحمد يعود الى عاصمته (وأما أهل مراكش . . فكان أكثر وقوعه بهم . . ثم لم يزل يعود اليهم سنة بعد سنة . . وقد شاهدنا من ذلك ما الله أعلم به) (22) .

وفى مراكش استقبل المنصور خلال ماي 1599 سفارة انكليزية حملت اليه خطابا من الملكة (ايليزابيت) ترجوه فيه أن يحرر بعض الأسرى (الفلمانيكين) الموجودين بالمغرب ، وأن يسمح لرعايا دولتى هولندا وزيلندا بالمتاجرة مع المغرب وحق افتداء أسراهم (23) . وهذا يؤكد بأن الهولنديين كانوا لا يزالون يسمون الى الحصول على امتيازات من المنصور للمتاجرة مع المغرب ولاستغلال موانئه

(19) عبد الرحمان التامنارى : الفوائد الجيدة . مخطوط بدار الوثائق بالرباط . د 1420 . ص 31

(20) م. ص. ت. م - بريطانيا - ج 2 - ص 137

(21) م. ص. ت. م - فرنسا - ج 1 - ص 445

(22) التامنارى : الفوائد الجيدة . ص 31 .

(23) م. ص. ت. م - بريطانيا - ج 2 - ص 137

المتوسطة والاطلسية لارساء سفنهم في الذهاب والاياب من الشرقتين الاوسط والاتصى
وللقيام بأعمال القرصنة ضد السفن الاسبانية .

وقد استجاب المنصور لمطالب الملكة ايليزابيث ولاسيما فيما يرجع الى تحرير
بعض الاساري الهولانديين والزيلانديين ، واستغل وجود السفارة الانجليزية
بالمغرب وفاتح بعض اعضائها بنيته في اقامة تحالف عسكري مغربي - انجليزي
ضد الاسبان . واستنادا الى المراسلة الهامة التي وجهها Jasper Tomson
الى لندن بتاريخ 4 يوليوز 1599 م (24) فان المنصور قد كلف وزيره القائد عزوز
بالتباحث معه في شأن اقامة تحالف عسكري ضد اسبانيا ، وكان مما استفسر عنه
الوزير المغربي : هل في نية الملكة ايليزابيث التعاون مع المنصور لفتح اسبانيا ، لان
قيام تحالف بين البلدين كفيلا بتحقيق ذلك .

الا ان الدبلوماسي الانجليزي اجابه بانه لا يعرف شخصا شيئا عن ذلك
وان الملكة الانجليزية ليست لها نية في غزو اسبانيا ، ومن الافضل ان يوجه المغرب
سفارة خاصة الى لندن لمناتحة المسؤولين عن ذلك . وتضيف المذكرة بأن القائد
عزوز الح في الاستفهام عن مقترحاته هذه وطلب من (طومسن) ان يستقصى نية
الملكة والحكومة الانجليزية بوجه خاص .

وفي مارس 1600 م قصدت سفارة مغربية لندن ومعهما عدد من اسرى هولندا
وزيلندا (واعلمى ان النصرى الفلامنك الذي كتبت فيهم لعلى مقامنا وكانوا فى
اسرنا ها هم يصلونكم صحبة خدامنا وقدامتنا عليهم لاجل رغبتك ورعاية
جنابك) (25) .

وقد كانت السفارة المغربية مكونة من السفير عبد الواحد بن مسعود بن محمد
ابن عنوري وعضوية التاجرين الحاج ميسا والحاج يهنت ، والترجمان عبد الله
دودور الاندلسى الاصل . وعندما وصل الجميع الى (دوفر) يوم (8) غشت
1600 رفقة الانجليزي (توماس جيرارد) رئيس تجار الانجليز بالمغرب ، قصدوا
لندن التى دخلوها يوم 15 غشت حيث استقبلوا بحفاوة . وفى يوم 22 غشت
حظى الوفد المغربى بالثول بين يدي الملكة ايليزابيث بقصر Nonsuch (26)

(24) المصدر السابق . ص 142 .

(25) رسالة المنصور لايلىزابيث مجلة تطوان : عدد (3 ، 4) . ص 55 .

(26) م. ص. ت. م - بريطانيا - ج 2 - ص 197

أما المهمة التي كلفت بها هذه السفارة فهي :

1 - التأكيد للملكة بأن المنصور حريص على تلبية كل مطالبها (أن جميع ما يكون لكم من الأغراض في بلادنا وفي ممالكنا الشريفة . . فهو مقضى) (27)

2 - اعتماد السفارة المغربية والركون إلى ما يتقدم به السفير عبد الواحد (هذا وأنه يرد على مكانك المكين حامل هذا الخطاب الكريم خديم مقامنا العلى الكاتب الانجد الاثير عبد الواحد بن مسعود بن محمد عنوري وقد حملناه من الامور ما يلقيه اليكم ان شاء الله مشافهة وبيته عليكم مكاملة ومواجهة وعرفناكم لتعلموا اننا حملناه القاء ذلك اليكم وامرناه ببيته عليكم والمراد أن تصفوا إلى ما استودعناه تبليغه ان شاء الله جملة وتفصيلا حتى يتقرر لكم ذلك تقريراً أصيلاً فطالعونا حينئذ ان شاء الله بما لديكم إلى أن نكون على بصيرة من كل ما عندكم) (28) .

3 - مطالبة الملكة بنقل وفد مغربي إلى حلب للقيام بمهمة خاصة (هذا والذي أوجه لمكانك المكين أنه يرد على مملكتك خدامنا حملة هذا الكتاب الكريم الذين وجهناهم إلى حلب لقضاء بعض مآربنا مما عن من أغراضنا وقد اخترنا لهم أن يكون مرورهم على بلادك للمحبة التي بيننا وبينك . . نحسب أن تستوصوا بهم خيراً واحساناً في طلوعهم مع سفن بلادك إلى تلك الجهة وتوصي بهم أهل السفن . . كما نريد منكم أيضاً أن تعطوهم كتابك في أيديهم إلى تجار بلادك الذين يسافرون إلى تلك الجهة) (29) .

ولعظم المسؤولية التي انيطت بالسفارة ثم لتريث المسؤولين الانجليز في الامر ، استقر الوفد المغربي بلندن زهاء ستة أشهر في ضيافة الحكومة حيث لم يغادر لندن إلى المغرب الا في مطلع يناير 1601 . ونحن يهنا بالدرجة الاولى أن نتعرف على الاقتراحات التي تقدم بها المغاربة إلى الانجليز وأن نحاول الوقوف على الاهداف التي كان المنصور يتوخاها من ارسال وفد خاص إلى حلب ببلاد الشام .

أما مقترحات الوفد المغربي فقد تضمنت :

1 - التعريف بإمكانيات المنصور العظيمة : فهو يملك قوات مسلحة ويتوفر على

27 رسالة المنصور إلى اليزابيث . تطوان . عدد (3 ، 4) ص 55

28 المصدر السابق .

29 المصدر السابق .

كنوز وأموال ودخول ، علاوة على وفرة الأخشاب الصالحة لبناء الأساطيل مما يجعل بوسع المنصور تموين الأسطول الإنجليزي بكل ما هو بحاجة إليه من رجال وموؤن .

2 — اقتراح تعاون عسكري مغربي — انجليزي ضد اسبانيا . والمولى احمد يرى مهاجمة الاسبانيين في :

أ — المراكز التي يحتلونها بالمغرب ، حيث يقوم المغاربة بتموين كل الاماكن التي مستمكن القوتان من تحريرها بشواطئ المغرب .

ب — نقل الحرب الى اسبانيا وغزو الاسبانيين في عقر دارهم .

ج — الهجوم على المستعمرات الاسبانية في : غربي افريقية وجزيرة Arguin وفي جزر الهند الشرقية والغربية (30) .

وأما هدفه من توجيه الوفد الى حلب ، فيبدو واضحا بعد التعرف على احداث الشرق الاسلامي وما كان السلطان العثماني محمد الثالث يلاقيه من حروب وثورات لقد استمرت حروب الاتراك في أوروبا الشرقية وتكبد العثمانيون خسائر فادحة وبالأخص لما استولت القوات النمساوية — المجرية على قلعة (رعب) الحصينة والستراتيجية . ومما زاد من سوء احوال السلطان أن روح التخاذل والتأمر قد دبّت في نفوس قادة الانتكشارية ودفعتهم الى التمرد والعصيان وأبرز الامثلة : ما قام به عبد الحليم قره يازيحي قائد فرقة السكبان الانتكشارية ، حيث أعلن خروجه على السلطان واحتل سنة 1599 مدينة الرها ، وأصبح يشكل خطرا قويا على الباب العالي الذي لم يجد بدا من مفاوضته والتنازل له عن ولاية اماسية لاستمالته، ولكن ذلك لم يزد الناصر الا امعانا في خروجه ، وقد استفحل خطره بعد الانتصارات التي حققها على ولاية كل من دمشق وبغداد سنة 1600 م .

وهذه الاحداث الداخلية الخطيرة تردد صداها في المناطق المختلفة من الامبراطورية :

— فقد قامت (ثورات العربان ضد حلب وواليها احمد مطامن باشا . . لما قام به الانتكشارية في حلب من أعمال الظلم والنهب والقتل والحرق) (31) .

(30) م. ص. ت. م — بريطانيا — ج 2 — ص 222
(31) محمد كرد علي : خطط الشام ، ج 2 ، ص 243 .

— وجرت حروب أهلية بين الأمراء المحليين (ابن معن) و (أبا سيف) في نهر الكلب ، وبدأت قوة فخر الدين المعنى الثاني تبرز في بلاد (كسـروان وبـيـروت) .

— وفي مصر (حصل فناء بالطعن والطاعون عم الأمصار والقرى ومكث مدة) (32) فكانت نتيجة ذلك سوء الأحوال الاقتصادية والاجتماعية الى جانب تعسف الباشوات والمسؤولين .

— أما في الجزائر فقد استبد قادة الانتكشارية بالسلطة واصبحوا يقومون بتميين حكام البلاد من بينهم ، وهذا زاد من فوضى الداخل وساعد زعيما محليا وهو احمد مقران سيد بجاية على الثورة ضد الاتراك في نواحي حمزة والساحل الجزائري (33) .

وكل هذه التطورات قد ألم بها المنصور الذي كان حريصا على (معرفة اخبار الاماك الشاسعة والاطار البعيدة والاطلاع على انباء الملوك من اصدقاءه واوليائه وبث اصحاب الاخبار في البلاد دأنيته وقاصيتها وانكفاء العميون في سائر الجهات) (34) ، فهل كان المولى احمد يهدف الى الاستفادة من الظروف السيئة للسلطان العثماني ؟ وما موقف الملكة الانكليزية من هذا التدخل ؟ والى أي حد كانت اوضاع المنصور الداخلية تساعد على ذلك ؟

استقبل المنصور سفارة انجليزية برئاسة (Henry Parnnell) في اكتوبر 1600 م حملت اليه اجوبة الملكة على المقترحات المغربية السابقة :

- 1 — تشكر المنصور على استجابته لرغبتها في اطلاق سراح الاسرى الفلامنك .
- 2 — تعتذر له عن عدم تمكنها من ارسال الوفد المغربي الى حلب .
- 3 — تعتمد الضابط المذكور وترجو المنصور ان يتعرف منه على اجوبة الحكومة الانكليزية على مقترحاته السابقة .

أما عن اعتذارها عن حمل الوفد المغربي الى الشرق الاسلامي فالامر لا يحتاج الى تعليق اذ سبقت الإشارة الى احوال السلطان العثماني الحرجة وكيف أصبحت

(32) محمد بن اسحاق : لطائف اخبار الاول . ص 35 .
(33) عبدالرحمن الجبلاني : تاريخ الجزائر العام . ص 361 .
(34) الشنتلي : مناهل الصفا . ص 207 .

ثورة عبد الحليم تهدد الحكم التركي في الاناضول وفي شمالي سوريا وسواحلها ، ولما كان الانجليز قد أصبحت لهم مصالح بالشرق العربي وبالتالي ارتباطات اقتصادية وسياسية مع صطامبول يمكن تسخيرها ضد خصمهم العنيد : فيليب الثالث فان ايليزابيث قد رفضت طلب المنصور ، حفاظا على مصالحها وروابطها مع الاتراك (35) ، وبالنسبة لجواب الملكة على مقترحات المنصور بشأن التحالف ضد اسبانيا : فانها لا توافق على مهاجمة اسبانيا او قواعدها المنبئة بشواطئ المغرب في الوقت الذي تقترح على المنصور امدادها بقرض قيمته مائة الف جنيه (36) لتهيم حملة عسكرية ضد الهند ، احدى المستعمرات الاسبانية ، لاهميتها الاقتصادية ولان الاتكليز كانوا يسعون الى تركيز نفوذهم في الشرق الاقصى .

كاتب المنصور الملكة الاتكليزية من جديد بتاريخ 23 شعبان 1009 هـ الموافق لاول ماي 1601 م وشكرها على عنايتها بالوفد المغربي :

(هذا وانه ورد على مقامنا خدامنا القائلون من جهتم فاثنوا عن جنابكم المكين كل خير جزيل وصنع جميل وشكروا ما عاملهم به مكانكم الاصيل من جميل الرعى الذي تعرفوه في كل حال وفي المقام والترحال وتلقينا منهم من صميم محبتكم في هذا الجنب العلى الامامى ما لا نزال نتعرفه منكم في جميع الاحوال وكل هذا مشكورا لمكانكم المكين ووردكم الواضح المستبين) (37) .

كما أعرب لها عن قبوله اعتذارها لعدم توجيه الوفد المغربى الى حلب (وأما اقامه مكانكم من العذر عن عدم تجهيز اصحابنا الى جهة حلب فقد قبلنا في ذلك عذركم وارتضيناه وباحسن التاويل تاولناه) (38) .

واكد لها في الاخير بان جوابه عن مقترحاتها الاخيرة مستعترف عليه من السفارة المغربية (وكل ما لدينا من الجواب عن الامور التى تضمنها الزمام الواصل لمقامنا العلى مع كتابكم هذا هو مفصل في الزمام الوارد عليكم ان شاء الله صحة هذا المكتوب الكريم لتتلقوا ذلك اجمالا وتفصيلا) (39) واعتمادا على وثيقة معاصرة فان المولى احمد قد ربط تقديم الغروض المالية بمشاركة القوات المغربية في غزو

(35) البعر المتوسط : (Brandel) ص 467

(36) مجلة تطوان . العدد الثامن . ص 45 .

(37) مجلة تطوان . ك 8 - ص 81 .

(38) المصدر السابق .

(39) المصدر السابق .

المستعمرات الإسبانية وبالتالي اقتسام الاراضى المفتوحة بينهما (40) .

وامام اصرار المنصور على موافقه بعثت الملكة ايليزابيت تطلب منه السماح لجموعات من الاندلسيين الموجودين بالمغرب بالتوجه الى انكلترا لتستخدمهم في حروبها ضد الاسبان (ولما ما اشرنم اليه في مسألة من هنا من بنى فلان ببلادنا وعمالك من الغرض في عبورهم لبلادكم وجوازهم ان أمكن الى قطركم وأرضكم (40) بما يؤكد عدم ثقتها بجدية المنصور في موافقه العدائية لفيليب الثالث ويعكس فى الوقت نفسه التجارب القاتم بين الاندلسيين والانجليز ضد خصومهم الاسبانيين . نهل كانت النية مبيتة لجمع افواج المهاجرين الاندلسيين الموجودين بالمغرب والشمال الافريقى وانكلترا وغيرها لاستخدامهم في الحروب الانجليزية ضد اسبانيا ؟ ويؤكد هذا كون السفير الخاص الذي حمل مقترحات الملكة الانجليزية الى المولى احمد كان أندلسيا (وقد ورد على مقامنا العلى فلان الاندلسى وقرر لنا كل ما حمل من ثلثائكم من المقاصد والاغراض التى التيتموها اليه وقصصتموها عليه تقريراً اصفيانا اليه فيها بالاذن الواعية حتى فهمناها جملة وتفصيلا ووعينا كل ما قرر تم له تقريراً اصيلاً) (40) .

غير ان المنصور رفض هذا الطلب بحجة ان عددهم قليل لا يفي بالحاجة البطولية وان نقلهم محفوف بالاحطار (وهؤلاء المذكورين ان أمرنا بعبورهم وجوازهم نخشى ما يؤدي اليه الحال من التغيرير بهم وربما يجد العدو فيهم فرصة ينتهزها نعرضهم الى الخطر ونحن لا نريد ارتكاب وجوه الاحطار والغرر بهم لانهم لا يكون ايضا في هذا الشأن وحدهم) (40) .

ولمواجهة هذا الخصم القوي الذي (هو عدونا وعدوكم وهو كما تعلمون عدو كبير وقدره بين ملوك كذا قدر معتبر وشأنه عندهم في قوة المملكة واتساعها عظيم) لابد من القيام باستعدادات ضخمة هائلة (ولا يكتفى لاجل ذلك في مسألته الا الاحتفال العظيم والعدد الكثير والجمع القوي والعمل الكبير ؟ . ولا اقل في ذلك من مائة الف بين الخيل وعساكر النار كلها مقاتلة) (40) .

وقد اكد المولى أحمد للملكة الانكليزية استعدادده التام الى حد اعلان الجهاد المتدس (ولو رفعنا النداء بالجهاد لنهض المغرب بحد افره سهولة وجباله عربيه وبربره بجموع تملأ الارض وتغطي بسوادها الاعظم الشمس) (40)

40) رسالة المنصور الى ايليزابيت - دار الوثائق بالرباط - مخطوط - ك 278 . ص 195

وامك - الواسعة للانفاق على جميع القوات المحاربة (لا يخفاكم ان هذا العدد المدمر الذي به تخضع شوكة العدو ويقصم ظهره ويثقل عرشه وينقض من أصله ركنه يحتاج الى الاموال الوفيرة ولا يقوم بتجهيزه واعطيته وعونه واثقاله الامال عريض ووفر قوي وجهد عظيم) (41) شريطة الاحتفاظ بالبلاد المفتوحة (واذا تبسر ذلك وعلم المسلمون ان البلاد اذا فتحت تبقى لهم فان هذا الامر بحول الله وقوته اهمون شئ علينا وعليهم بخلاف ما اذا كانت البلاد تستفتح ولا تبقى لهم فان فقهاءنا وعلماؤنا لا يساعدون على ركوب الاخطار بالمسلمين واقتحام الاموال العظيمة لهم الا اذا كانت البلاد يسلم اليهم امرها ويلقى اليهم حكم ولايتها والنهوض بغير هذا الشرط لا يجوز عندهم في الدين ولا يساعدون المسلمين عليه واذا حصل الوفاق بهذا الشرط فان جيوش المسلمين حينئذ يسرعون الى النهوض لهذا الغرض الجهادي من كل اوب خيلا ورجالا وخفانا وثقالا لانه لا يخفاكم اننا نحتاج الى الانفاق العظيم على هذا الغرض واذا كنا ننفق الاموال الطائلة مع انه ما دعنا الضرورة الى ذلك ثم لا تكون البلاد مع ذلك لنا فما الفائدة التي تظهر حينئذ للمسلمين في حركتهم لهذا الامر العظيم) (41) .

ومن خلال اجوبة المنصور هذه يبدو ان الملكة الانكليزية قد واعده بتقديم اسلحة وعناد حربي مقابل السماح بهجرة الاندلسيين ، غير ان المولى احمد اكد لها مدى استعداداته العسكرية وانه لا يحتاج الا لبعض قطع الاسطول (واما ما ذكرتم عن ارسال العدة فلا نحتاج لذلك فان كل شئ هنا والحمد لله ببلادنا ونعرفكم حاجتنا الى ستة سفن من اكبر ما يكون وارادنا منكم الموافقة على جلبها من عنكم ان شاء الله واذا وافقتم نوجه اليكم الستة من الرياس برسم هذه السفن مع من يتوجه معهم من خدامنا ونحن لا نحوجكم في هؤلاء الرياس ولا في هؤلاء الخدام الى كلفة من الكلف لاننا نهدم من عندنا بهال لنفقاتهم حتى يرجعوا ولا نحتاج منكم الا الوقوف لهم حتى يحيزوا ان شاء الله بتلك السفن مما تمكن استعماله منها جديدا يستعملوه وما تمكن شراؤه واقفا موجودا يشتروه ، وهذه المسألة من اوكد امورنا عندكم تقفون لنا فيها اجمل الوقوف الموافق لصدق محبتكم في جانبنا العلى حتى تكملوا لنا فيها البقية والمراد) (41) .

وفي (مناهل الصفا) للفشتالى - وزير المنصور - تأكيد للسياسة الجديدة

(41) رسالة المنصور الى ايليزابيت - المصدر السابق .

الرامية الى تقوية الاسطول المغربى وتطويره ليتمكن من مواجهة الاسبان وغزوهم في ديارهم وللقيام بالفتوحات البعيدة (وهو اليوم ايده الله لهذا العهد بصدد الاكثار من الاساطيل رغبة في الجهاد والاستظهار على عدو الدين قوى الاسر بحمد الله وافر العدد والمدد مرائش الجناح بما اتيح لسيوفه المظفرة من الاستيلاء على الممالك السودانية الغنية بخراجها المستبحر ومعادن الذهب على التوسع في الاتفاق الذي لا يخشى عيلة ولا فقرا وبالسواد الاعظم المستاق من رقيتها على تسخير المجانيب الثقيلة بالاساطيل كاجنحة الطير خفتانا وسرعة وطيرانا . . حتى يبلغ امل الاسلام في الجهاد ويفتح من ارض الاتدلس اقصى البلاد والاطار البعاد بعزته وقدرته (42) .

فهل حققت الايام امانى المنصور ؟

اهم ميزة تطبع الفترة الاخيرة من حكم المولى احمد ، هو ذلك التحول الذي طرأ على سياسته الخارجية او بعبارة اوضح : عودة المنصور الى سياسته التقليدية : سياسة التفاهم مع الاسبان وملكها فيليب الثالث . فما هى ظروف المغرب الداخلية خلال السنوات الثلاث الاخيرة من عهد المنصور ؟ وما العوامل والاسباب التى جعلت المولى احمد ينقلب من خصم لدود الى صديق حميم للاسبان ؟

كان للاوضاع الداخلية المتدهورة نتيجة انتشار الطاعون اكبر الاثر في مجرى الاحداث التى عرفتھا الفترة الاخيرة من حكم المنصور ، فهو لم يتمكن من مواصلة اتصالاته السرية مع الانجليز للمرض الخطير الذي الم به في صيف 1010 هـ / 1601 م وقد ازداد الامر تعقيدا وبدأت الاحوال تنذر بانفدح العواقب . وتعكس رسالة التهنة بالشفاء التى وجهت الى المنصور من فاس في يوم 15 جمادى الثانية 1010 هـ المخاوف التى انتابت القوم بسبب ذلك (وعلمنا أن الله لطف بنا اللطف الخفى وانه بنا حفى حين دافع عن مولانا واهدى له الشفاء والراحة . . وفي راحتكم نصركم الله راحة العباد وفي ضمنها النعم الواكفة لصالح البلاد . . ولولاه لعظمت الاوجال) (43) .

ويبدو أن المامون ، ولى عهد المنصور ونائبه على فاس ، قد وجد في الاوضاع المضطربة من جراء الطاعون وفي مرض والده ، فرصة مناسبة للاستبداد بالسلطة

(42) الفتاوى : مناهل الصفا . ص 197

(43) رسالة اهلالي فاس للمنصور توجد بروفس الترطاس للمترى . ص 96 .

ومحاولة الخروج على والده ، وعندما كاتبه المنصور في جمادى الاولى 1011 هـ /
ماي 1602 م كان امره قد استفحل بدليل ما جاء في هذه الرسالة : (44)

1 — استمالته لكثير من القبائل التي كان المولى احمد المنصور قد نكبها بسبب
تأييدها لثورة الناصر ، مثل : اولاد طلحة ، الخلط واولاد حسين وقبائل
الجبال . (بلغنا انه قد استخدمتم هناك جماعة من اولاد طلحة . . وهؤلاء
انما يبحثون على الغرة وعورة المملكة . . وكانكم نسيتم ايضا ما عمل اولاد
حسين بالامس دون بعد من النهب وما اضرمو من نار الفساد والعيث في
البلاد) .

2 — قيام الشيخ بتسليحهم (واعلم ان من جبلة ما بلغنا ايضا ان الخلط رجعوا
كلهم رماة على يد مصطفى مع حديث عهدهم بالفساد والخلاف وكنا انتخبنا
معهم بالعمودات فاذا بهم اليوم بالمدافع وعدة النار) .

3 — اغداقه العطايا الجزيلة على كبار القادة ورؤساء القبائل (واعلم ان مما
نحتاج ان ننبهك عليه مسألة القواد الذين يريدون ان يحملوك اثقال اولادهم
.. وعملت لهم خمسمائة اوقية .. واثك قد فرضت لهم في اعطياتهم نحو خمسة
آلاف . .)

4 — لقد كانت لبعض القبائل التي اخذ الشيخ يتعاون معها حظوة كبرى واتصال
وطيد بالاتراك في الجزائر ، مما يؤكد صلة الشيخ بالاتراك (والذي شق علينا
اعظم من هذا كله واستنكرناه ولم نجد له صبورا هو ما وجدنا قد اطلع عليه
اولاد طلحة . . في اخباركم والفيانهم قد توصلوا من ذلك الى ما لم يتوصل
اليه والله احد من كبار خدامكم . . فاذا بكم تستخدمونهم بطانة واصدقاء
وتطالعونهم على اموركم واحوالكم ، مع ان القوم ما زالوا ببلد العدو وبين
اظهره والذي يطلعون عليه تقطع وتجزم بان الترك قد اطلموا عليه حتى
كانهم شاهدوه ووقفوا عليه بانفسهم . . وبالجملة فقد احرقتنا هذه المسئلة
وتفطرت لها اكبادنا وصارت قلوبنا مطعونة) (45) .

5 — لقد كان المنصور يشعر بان شيئا يدبر ضده في الخفاء وان الشيخ يتمادي في
طريق الغي والضلال ، فبعث اليه ابوه مستفسرا عن ذلك (واي مصلحة

(44) رسالة المنصور الى ابنه الهامون . الامرائي . ص 147
(45) رسالة المنصور الى ابنه الهامون . الامرائي . ص 147 .

لك في استخدام هؤلاء القوم . . بل ما في ذلك الا الفساد البين لان هذا الذي
نرضتم لا ينفي به ولا يقوم معه بكم شيء) .

6 - وقبل اقدام المولى احمد على اي اجراء ضد ابنه ، حاول اصلاح حاله
بكل الوسائل ولكن بدون جدوى (ان الحال كان انتهى في معالجة امره التي
تجاوزنا في وجه الخير اليه حد الاستقصاء واتينا في محاولة استصلاحه من
احوال السياسة المرجوة النجح ما لا يحصى . وقد جرب المنصور ايضا ان
يبعد الشيخ عن مقر سلطانه وقوته بفاس بأن اضاف اليه ولايتي سجلماسة
ودرعة وسمح له بالذهاب اليهما لجمع خراجهما (الى ما كنا سوغناه من
ولاية سجلماسة بخراجها وخراج درعة . . وابنا له التوجه اليها بجملته
وجمعه) ولكن عبثا ، لان الشيخ رفض الخروج من فاس والابتعاد عنها .

7 - لذا فقد قرر راي المنصور على ارسال قوات عسكرية ضد ابنه الشيخ بقيادة
مومن بن ملوك ولكنه تراجع لما راي ابنه يزداد تقربا من الاتراك ويستمد
لمقاومة قوات ابيه (. . لان خروج القائد مومن الخارج الآن ما كان
الا اليهم) (46) .

8 - أما الخطوات الاخيرة لقمع حركة الشيخ وتمرده فقد اتصفت بالتجاء المنصور
الى وسائل الدهاء والحيلة بأن بعث اليه كتابا يستنكر تصرفاته ويرجوه
الامتثال عن غيه ، وذلك بعدم التعاون مع القبائل السالفة الذكر وتسريح
الموجود منها ضمن قواته المسلحة . ثم الاهتمام باصلاح الادارة واختيار
الحاشية والمساعدين من أصحاب الكفاءة والنزاهة . وقد كان المنصور يهدف
من مراسلته الاخيرة كسب عنصر الوقت والتلبيح للشيخ بأنه : على الرغم
من كل تصرفاته ، لم يياس من اصلاحه ، حتى لا يندفع الشيخ بعيدا في تمرده
ويعلن الخروج والثورة والتعاون مع الاتراك . وعلى حين غفلة ، خرج المولى
احمد من مراكش في قوات مسلحة اوائل جمادى الاولى عام 1011 هـ / منتصف
اكتوبر 1602 وحاصر ابنه ، الذي لم يتفطن الى خروجه من مراكش ، والذي
لم يجد بدا من الخروج فارا من فاس يوم الخميس 15 جمادى الاولى من
نفس السنة والالتجاء الى زاوية الشيخ ابي الشتاء ببلاد فشتالة في جبال

(46) رسالة المنصور الى ابنه ابي فارس . الامرائي : ص 155 .

الاطلس . (فتلاحق به رماته الانكشارية ومتفرقة سماسرة الفتن وطلائع
الشؤم والمحن جمع عظيم وعدد جسيم (47) .

ولم يستسلم الشيخ لابيهِ الا بعد انهزام قواته « فداهمتهم بعد ذلك عساكرنا
المظفرة بالله في مصافهم دونه ودارت بين الفريقين حرب عظيم فخدمت النار
من وقت الظهر الى اوان العصر فاعلهم الله منة الحق على منة الباطل (47) .

اما الشيخ فتد القى عليه القبض وحمل اسيرا الى مكناسة (وقد حصل في
القبضة كما سبق به في القضاء والقدر وأجبر بمكان الاحتياط عليه بمكناسة
الزيتون) (47) .

وذلك قبل العشرين من جمادى الاولى اذ في هذا التاريخ بعث من فاس الى
ابنه ابي فارس بمراكش يبثه الخبر السار :

1 — اذا كان تبرد الشيخ بفاس قد فشل لتدخل المنصور السريع ، فان النتائج
التي ترتبت عنه قد تركت ابعدا في الاثر في المواقف التي اتخذها المولى احمد خلال
السنة الاخيرة من حكمه .

فرغم محاولة الحاكم التركي بالجزائر سليمان باشا التظاهر بما ينفي عنه
كل صلة له باحداث فاس وعرضه الوساطة لاصلاح ذات البين بين المولى
احمد وابنه ، فان المنصور الذي كان يدرك فوايا الاتراك منذ امد بعيد لم يزد
على ان شكر الباشا التركي (فتعرفنا منه . . ما كان من عزمكم لاول ما بلغكم
هذا الطارق على الكتب الى على مقامنا بالاستعطاف وبمقابلة جانب ولدنا بوجه
الصنع وجبيل اللطاف) (48) ومدى الصرامة والقسوة التي واجه بها
المتمردين (واما الشرمة المفسدة فحكمتنا فيهم السيف واقفناهم مرارة
البور والحتف) (48) .

ومن جهة اخرى ، هل يمكن القول بان تدخل الاتراك ضد المنصور بفاس كان
من قبيل رد الفعل لما يقوم به المولى احمد من اتصالات مع خصوم الاتراك
بالجزائر وخاصة امير كوكو عمر بن عمر ابن القاضي بالاضافة الى ابوائه
الامير الزياني محمد الواصل ؟

(47) رسالة المنصور الى ابنه ابي فارس . الامرائي . ص 155 .

لقد اطلع سليمان باشا احمد المنصور على انتصاراته العسكرية ضد امير كوكو عمر بن عمر ابن القاضى واكد له عزمه على مواصلة الحرب ضده (واما ما عرفتم به من حال ابن القاضى صاحب كوك وصلة يده بيد الطاغية صاحب اسبانية . . فيحيط بعلمكم ان هذا الخبر كان قرع اسماعنا الكريمة على السنة العوام فلم نصدقه .. الى ان جاء كتابكم فزال الشك والريب) (48) فهل يفهم من هذا ان المنصور كانت له صلة ما مع امير كوكو ؟

2 - هناك ما يدعو الى احتمال وجود هذه العلاقات :

1 - ان اماره كوكو في مجاجة قرب الاصنام المنطقة الجبلية الوعرة ، يرجع فضل تأسيسها الى قاضى بجاية الشيخ احمد ابن القاضى الزواوي ، احد القادة المجاهدين ضد الغزو الاسباني ومن مهدوا لنشـــــــر النفود التركى بالجزائر ، وعندما اغتاله الاتراك عام 933 هـ / 1527 تزعم ابناؤه المقاومة ضد الحكم التركى وربطوا لاجل ذلك صلات مع الاسبـــــــان .

2 - لقد ظلت اماره كوكو تقاوم الحكم التركى بالجزائر وتعددت الاصطدامات العسكرية بين الجانبين ، وهذه الامارة غير بعيدة عن الحدود الشمالية الشرقية لمنطقة تيكورارين المغربية ، فلا يستبعد ان تكون للمنصور صلات بهذه الامارة والا فما الداعى لاطلاع سليمان باشا المولى احمد على انتصاراته على الامير عمر بن عمر ابن القاضى ؟

3 - ومما يزيدنا يقينا بهذا الاحتمال ان المنصور قد ظل ياوي عددا من امراء بنى زيان ومنهم محمد الواثق الذي كان يجد في المنصور كل عون ومساعدة على مهاجمة خصومه الاتراك بالجزائر (السلطان الاجل . . فيليب . . كتبها محمد الواثق الشريف الزياني ابن صاحب اماره المغرب الاوسط .. وتولى مولاي احمد .. ومات ابنى فخلفت انا الحروب التى كانوا يحاربوا اهلنا مع الترك وجهزت لهم محلة في حياة مولاي احمد واخذت لهم ناحية من البلاد وكانت الحرب مرة علينا ومرة عليهم كمادة

(48) جواب المنصور للبasha التركى بالجزائر . الامرانى . ص 166 .

الايام وكنت مع مولاي احمد كأحد اولاده على وجه الضيافة وكان لى نصيب فى طاعة المغرب من بلاد واقامة وغير ذلك) (49) .

فاذا كان تدخل الاتراك بفاس من قبيل التعامل بالمثل فان عبارات التهانى المتبادلة بين المنصور والباشا التركى تؤكد بان كلا منهما قد افسد على خصمه محاولة التدخل ضد الآخر (ووقفنا على ما وصفتم لمقامنا العلى فى نهوضكم أولا الى صاحب كوك وتخريب بعض بلاده . . وتصميم عزمكم ثانيا على الكرة اليه . . جعله الله خروج خير وسعادة) (50) .

3 — ان حادثة تأمر الاتراك مع الشيخ بفاس زادت من شكوك المنصور ، خاصة وان البلاد لا تزال تعيش ظروفًا صعبة قاسية بسبب داء الطاعون ومضاعفاته الاجتماعية والاقتصادية الخطيرة ، وقد زاد من خطورة الوضع ما اظهره الانجليز من حرص على اغتنام الفرصة المناسبة لاقتطاع مناطق مغربية كبلاد سوس التى كانت تمثل فى نظرهم اغنى مناطق المغرب لوفرة قصب سكرها وتعدد معادنها ولستراتيجيتها فى المواصلات مع السودان التى يتدفق منها الذهب مصدر قوة المنصور وغناه ، يشجعهم على ذلك روابطهم الجديدة مع السلطان العثمانى محمد الثالث والباشوات الاتراك بالجزائر .

وكنتيجة للوضع الجديد ، نجح الانجليز فى فتح الجبهة الجزائرية ضد الاسبان فى محاولة منهم لتخفيف الضغط الاسبانى على الاراضى المنخفضة والبرتغال وارلندا ، ودفنوا السلطان العثمانى الى مطالبة المنصور بالتخلى لهم عن ميناء اكدير ليتخذوه قاعدة لهم (51) .

فهذه الاحداث جميعها اكدت للمولى احمد مدى خطورة الاوضاع القائمة ودفعته من جديد الى التفاهم مع خصمه التقليدى ملك اسبانيا الذى اسرع الى التجاوب معه للظروف التى كانت تحياها بلاده :

- 1 — الحروب المتعددة فى الواجهات المختلفة من اوروبا الغربية .
- 2 — اعمال القرصنة المتزايدة ضد السفن الاسبانية العائدة من امريكا الجنوبية والشرق الاقصى .

(49) نص الوثيقة فى (المجلة التاريخية المغربية) تونس . عدد 2 . ص 125 .

(50) رسالة المنصور الى الباشا التركى بالجزائر . الابرائى : ص 142

(51) م. ص. ت. م — بريطانيا — ج 2 — ص 267

3 — وكان الملك الاسبانى يقدر أهمية الجبهة المغربية والفوائد التى تعود على بلاده متى ضمن حياد المغرب وبالأحرى انضمامه لاسبانيا

لقد قاربت الاحداث المختلفة بين المنصور ومغليب الثالث وعاد ثانية السبى سياسته التقليدية فى التقارب مع الاسبان والدخول معهم فى مشروعات الاحلاف العسكرية لمواجهة الاخطار الخارجية ومن ذلك مشروع التحالف الجديد المتوقع يوم 2 غشت 1602 (52) .

أي ان المولى أحمد المنصور قبل أن يخرج من مراكش للتضاء على تمرد ابنه الشيخ المتآمر مع الاتراك بفاس خلال شهر جمادى الاولى عام 1011 هـ الموافق لآكتوبر 1602 كان قد وقع مع الاسبان مشروع حلف عسكري ضد خصومه التقليديين : الاتراك العثمانيين ولصد اطماع الانجليز فى سوس . واعتمادا على ما جاء فى وثيقتين مؤرختين بيوم 16 غشت 1602 فان قطعا من الاسطول الاسبانى المرباط بالموانئ الايطالية قد تحركت نحو السواحل المغربية لمساعدة المولى أحمد المنصور (53) .

غير أن الايام لم تهمل المولى أحمد المنصور طويلا اذ اشتد عليه المرض وشعر بد نواجله كما يبدو من آخر رسالة وجهها الى ابنه ونائبه فى مراكش أبى فارس بتاريخ 4 ربيع الاول 1012 هـ (والله سبحانه وتعالى يرعاكم ويتولى حفظكم انتم واولادكم وقد استودعناكم الله الذى لا تضيع ودائعه . . والله سبحانه وتعالى خليفنى عليكم .. وأن يعافى البلاد والعباد بمنه وفضله) (54) .

(52) م. ص. ت. م — فرنسا — ج 2 — ص 318

(53) م. ص. ت. م — بريطانيا — ج 2 — ص 216

(54) رسالة المنصور الى ابنه أبى فارس الانرانى . ص 156 .

دفن المنصور بفاس بعد صلاة عصر يوم الاثنين 16 ربيع الاول 1012 — 24 غشت 1603 م ثم نقل جثمانه الى مراكش فيما بعد ودفن ببقعة الشرفاء السعديين . وعلى شهادة قبره توجد الابيات الاتية :

به الهمالى تفتخر
لكل مجد مبتكر
بكل نهر تستمر
ان رضاه منه
ند كذكره المطهر
(دون تفسر) ذكر
عند مليك مقتدر

هذا ضريح من غدت
أحمد منصور اللامع
يارحمه الله أسرعى
وبكر الرمس بهما
وطيبى ثراه من
وانق تاريخ الوفاة
بمعد صدق داخلا

(الانرانى : نزهة الحادى — ص 170)

وكانت ابلزابيت ملكة انجلترا والمعاصرة له قد تزوجت قبله ببضعة أشهر من نفس سنة 1603 ، ولحق بها السلطان العثمانى محمد الثالث فى يوم 22 ديسمبر 1603 ، وطويت بذلك صفحة مجيدة فى مطلع العصور الحديثة .

وفي ليلة الاثنين 16 ربيع الاول عام 1012 ، 24 غشت 1603 انتقل المولى أحمد المنصور الى الرفيق الاعلى فطويت بموته صفحة مشرقة ذهبية لها عرفته البلاد بعده من محن واهوال تجلت في ثلاثى خطير : الطاعون والمجاعة والحروب الاهلية (وفي سنة اثنى عشرة الف بلغنى وفاته بمدينة فاس . . فنزل الارض بذلك ما نزلها من الفساد والفتن ما نالها طائش لها الوقور . . ووضع النفيس وارتفع الخسيس وفشى العار وخان الجار ولبس الزمن البؤس وجاء بالوجه المبوس وأوردنا الاختلاف وانضب ماء الوجوه والانتلاف وطلأ الحق رأسه واخفى الحق نفسه وتبرعت الحسنى . . ووردت المهالك وسدت المسالك وعم الجوع .. فاننا لله وانا اليه راجعون نيالها من مصيبة ما أعظمها . .) (55)

(55) التامراتى : الفوائد الجمة . مخطوط . ص 194

الفصل السادس عشر

ظاهرة الحضارة المغربية أيام السعديين

تتميز المراحل المختلفة التي عرفتھا الدولة السعدية منذ تأسيسها عام 916 هـ / 1510 م بالعمل المتواصل على : اقرار دعائم الدولة الناشئة والسعى الى توحيد الصف الداخلى ثم قيادة المجاهدين لمحاربة قواعد الاحتلال الاجنبى بالشواطىء (فجاهدوا بما حصل لهم من ذلك فى حق الله حق جهاده حتى استخلصوا من ايدي الكفار رقاب عباد الله وحصون بلادهم وأسسوا لدين الله قواعد واركانا وملكو من المغرب بلادا معتبرة واوطانا) (1) .

وعندما تمكن القادة السعديون من القضاء على الوطاسيين وفرضوا سلطانهم على معظم البلاد ، وجدوا انفسهم امام الزحف التركى فى الشرق والخطر الاسبانى والبرتغالى فى الشمال والغرب ، فاندفعوا الى مواصلة العمل على تدعيم اسس دولتهم وصد كل الاخطار عنها ، وتكيفوا بسبب ذلك مع الظروف المختلفة لمواجهة التهديدات الخارجية . وبهذه الطرق والوسائل حافظت الدولة السعدية على كيانها اتجاه قوى الشرق والغرب ، وتمززت وضعيتهم الداخلية فى وادي الخازن عندما انتصروا على البرتغال ، احدى القوى الرئيسية الثلاث فى العالم :

فالسعديون خلال الثلاثة ارباع القرن تقريبا بذلوا اقصى الجهود لتقوية دولتهم سياسيا وعسكريا وتطويرها اقتصاديا ، وانفقوا من الاموال لشراء الاسلحة النارية الحديثة ما جعل هذه التجارة تحتل المرتبة الاولى فى ميدان المبادلات التجارية بين المغرب وغربى اوربا ، بل وان كل علاقة للحكام السعديين مع الدول الاوربية كانت تقاس بما تستطيع هذه الدولة او تلك أن تقدمه من اسلحة وعتاد ونخيرة وما ترسله للمغرب من خبراء مهرة فى صناعاتها .

(1) الانرانى : نزعة الحادى . ص 65 .

فلا مجال والبلاد معسكر كبير ترابط في وأجهاته العديدة قوات المجاهدين من جميع فئات العامة أن نبحت عن مظاهر حضارية خاصة للدولة الناشئة (كانت سيرة الخلفاء رضوان الله عليهم من أول الدولة الى أيام المتوكل عفا الله عنه ، سيرة مطلقة لم تحفظها قوانين ولا قيدتها ضوابط بل كانت الامور مسترسلة وجارية على مقتضيات الحال بما كانت الدولة عربية شاذجة غير مرتاضة للقوانين التى تملك زمامها وتمسك عن الاسترسال عنانها الى أن صار الملك والخلافة للمولى عبد الملك أمير المؤمنين المعتصم رحمه الله فجنح بالدولة الى السيرة العجمية . . وحمل الناس عليها حملا عنيفا فشق عليهم ذلك لتنافر الطباع ، واضطربت الاحوال لتغيير العادة وايناس الامور الغير المعتادة . ثم جاء الله من مولانا الامام المنصور بالله أمير المؤمنين ايداه الله بالطبيب الماهر والحكيم المدبر الباهر . . فلم الشعت وجبر الصدع وسكن الهيعة ورتب الالقاب وواخى بحسن سياسته وحيد سيرته . . وجعل بين العرب والعجم رحم الخدمة الواصلة وقربى الصداقة الجامعة وندب لكل منهم أهل بلواه من الصنفين) (2) .

فما هى المميزات العامة لمظاهر الحضارة المغربية أيام المولى احمد المنصور الذهبى ؟

نظم الحكم وبناء القوات العسكرية

قامت الدولة السعدية منذ تأسيسها أوائل القرن السادس عشر ، على أساس النظام الملكى الورائى ، وقد حاول القائم بأمر الله المؤسس الاول لهذه الدولة أن يسن قاعدة لتوارث الملك ، بحيث يتولى الحكم كبير الاسرة بعد وفاة الملك (كان مولانا محمد الجد الاكبر عهد لاولاده مولانا احمد ومولانا محمد الشيخ واخوانهما الا يتولى الخلافة منهم ولا من اولادهم الا الاكبر فالاكبر فالتزموا ذلك) (3) . ولكن ذلك لم ينفذ لان كل ملك كان يسعى الى ابعاد الآخرين من اخوته وابناء عمومته ليخلو الجلو لابنه ، الامر الذي ادى الى قيام فتن وثورات داخلية ، وعرض بالتالى البلاد لتدخلات خارجية كادت فى بعض الاحيان أن تتسبب فى انهيار الاسرة الحاكمة وتقضى على كيان المغرب ووحدته .

(2) الشنقالى : مناهل الصفا . ص 200 .

(3) الامرانى : نزعة الحادى . ص 65 .

1 — الحكومة المركزية : وفي مقدمتها أولا البلاط المنصوري : مقر الحاكم ودواوين أعضاء الحكومة والكتاب ، وبه تنعقد الجلسات الخاصة مع المسؤولين وكبار المستشارين ، وهو يمثل الإدارة المركزية والسلطة العليا في كل الامبراطورية المغربية .

والمولى أحمد منذ الساعة الاولى لتوليته ، تسمى بال خليفة المنصور ، تخليدا لانتصار المسلمين في معركة وادي المخازن من جهة ، ولأن الحكام السعديين لاصلهم العربي ونسبهم الشريف — كانوا يعتبرون دولتهم من جهة ثانية بعثا وتجديدا للخلافة الهاشمية المنتزعة ، وبأنهم احق بخلافة المسلمين من الاتراك العثمانيين الذين هم من (جملة المماليك والموالى الذين دافع الله بهم عن المسلمين وجعلهم حصنا وسورا للاسلام . . وقلدوا الامر في الحقيقة نيابة وامانة يؤدونها الى من هو احق بها واهلها وهم موالينا وساداتنا الشرفاء ملوك بلادنا المغرب الذين شرفت بهم الامامة والخلافة) (4) .

وقد اتخذ المولى أحمد كل القاب الخلافة ، فهو (أمير المؤمنين وامام الجماعة . . وركن الامامة .. والخليفة المخصوص بثرات الرسالة ومالك امرة المؤمنين) (5) واستعمل جميع شاراتها من ذكر اسمه في خطب المساجد أيام الجمع والاعياد ، وضربه على السكة والنقود ، ثم الجلوس على اريكة الملك ولبس ابهى الحلل وانخضا ، كما اعطى لبلاطه وحكومته من المظاهر والصفات ما يؤكد قوته وعظمته ، وجعله جديرا بامامة المسلمين وخلافتهم العظمى (حتى اذا جاء الله بهذه الدولة العلوية والدعوة الكريمة النبوية وانبعثها لتجديد الدين ونصرة الملة ووراثه الارض واحياء معالم الخلافة الدائرة) (6) .

ثانيا : الهيئة المسؤولة ، وقد كانت تضم رجالا (ممن يوثق به في المحافظة على اسراركم ، والى هذا فلا بد من تعيين قائد المحلة وحاجب وكاتب سرک وأصحاب مشورتك وصاحب المظالم كما هو عندنا) (7) . أي أن الهيئة المسؤولة كانت تتكون من رجال سياسيين وقادة عسكريين :

(4) النحلة السكية في السفارة التركية للتاجروني . ص 76 .

(5) مناهل الصفا للشفاي ص 1 .

(6) المصدر السابق : ص 108 .

(7) نزعة الصادي للاندلسي ص 147

١ — فالسلطة السياسية كانت تتكون من :

الحاجب : المسؤول الاول في حكومة المنصور ، (حاجب الامامة الكريمة وكبير الدولة الصدر القائد أبو محمد عزوز بن سعيد بن منصور الوزكيتي) (8) والواسطة بينه وبين بقية الوزراء والكتاب (وكتبت لحاجب الباب أعرافه بالقصة ليقيم المعذرة عند السؤال عنى) (9) ، وهو موضع ثقة المنصور (وانتهى معهم لهذا الموضع تشييعا حاجب الامامة الكريمة و . . استكفاء من مولانا الامام .. لم يستتم فيها الا مثله من علية الخدام الاكابر الثقات) (10) .

كاتب السر : الذي يحافظ على سر الدولة حتى لا (يطلع عليه الاجانب وان كانوا احب من كل حبيب واقرب من كل قريب) (11) ، ويؤمن الاتصال بين الخليفة وجميع الولايات ومن الولاة الى الخليفة (وهو الذي يتولى قراعتها ويعرفكم مضمونها) (12) .

اصحاب المشورة : اي الهيئة الاستشارية التي كانت تتكون من (طبقات الاجناد وذوي الحل والربط واولى البصيرة والحكمة وخبرة الامور) (13) . وقد كان المولى أحمد يلجأ الى عقد مجالس الشورى لآخذ رأي من يهمهم الامر من كبار دولته في بعض الامور التي ينوي اقدام عليها ، وذلك كما حصل عند تفكيره في غزو بلاد السودان .

صاحب المظالم : وهو الذي يتلقى شكاوي المظلومين ويرفعها الى المنصور للبحث فيها ، وغالبا ما كان الخليفة ينظر فيها بعد صلاة يوم الجمعة (واذا كان يوم الجمعة صلى ايده الله بالمسجد الجامع . . ربما جلس هنالك لسماع المشتكين والنظر في المظالم) (14) ، وقد ينبى عنه ولده للقيام بذلك .

ب — والقيادة العسكرية : تتكون من عناصر هربية واعجية (فقد اختص رؤساء العرب واكابر الدولة منهم بالمشورة والتدبير وقيادة عساكر الخيل . .

(8) مناهل الصفا : ص 134

(9) نفس المصدر . ص 232 .

(10) المصدر نفسه . ص 134 .

(11) الامرائى : نزعة الحادى . ص 149 .

(12) نفس المصدر . ص 162 .

(13) المناهل . ص 126 .

(14) المناهل . ص 206 .

واصفى من العجم موالى انبتهم نعمته ودرتهم تربيته فنجبت طوائف عديدة (15) وقد كانت القيادة العسكرية العليا زمن المنصور تضم (منصور) (باي لارباي) لفظة عجمية معناها قائد القواد . . شرفه أمير المؤمنين وميزه بتسميته تنويها لما رماه لهذا المهدي من قيادة الانتكشارية .. وقائد جيش اهل السوس من عساكر النار) (16) ، والى هذه الهيئة يرجع أمر تنظيم الجيش وضبط وحداته وجنوده من (ضمه الحجر المتخذ لهم بايوان الخلافة العلية) (17) ، ومن الجدير بالذكر أن عوامل داخلية وخارجية قد تضافرت على إبراز دور القوات المسلحة المغربية وساعدت قيادتها العسكرية على الشعور بأهميتها خلال عهد المنصور : فالولى أحمد تولى غداة معركة وادي المخازن ، وتعرضت بلاده في الايام الاولى من حكمه للتدخل العسكري العثماني ، كما قامت ضده فتن وثورات خطيرة ، وظل شعور القلق والخوف من هجوم خارجي اسباني أو عثماني يساوره طوال حكمه .

واكثر ما برز دور القوات المسلحة وقيادتها العسكرية في الفتوحات بالصحراء المغربية وبلاد السودان الى الحد الذي اضطر معه المنصور الى جعل الاقاليم المفتوحة النائية تخضع لسلطان القادة العسكريين الذين كانوا مطلقى التصرف في سلطاتها السياسية والعسكرية ، فكان أن تميزت هذه الولايات بالطابع العسكري عن غيرها من ولايات الامبراطورية المغربية .

2 - الجهاز الاداري : نظم المنصور منذ توليته الادارة المغربية وضبطها بما لم يكن معروفا من قبل ، فقد كانت (سيرة الخلفاء رضوان الله عليهم من اول الدولة الى ايام المتوكل على الله عنه سيرة مطلقة لم تحفظها قوانين ولا قيديتها ضوابط بل كانت الامور مسترسلة وجارية على مقتضيات الحال بما كانت الدولة عربية سانحة غير مرتاضة للقوانين التي تلك زمامها وتمسك عن الاسترسال عناتها الى أن صار الملك والخلافة للولى . . الامام المنصور . . رتب الالقاب وواخى بحسن سياسته وجعل بين العرب والعجم رحم الخدمة الواصلة وقربى الصداقة الجامعة) (18) .

(15) البناكمل . ص 201 .

(16) البناكمل . ص 201 .

(17) المصدر السابق . جاء في الرسالة التي وجهها التاجر الإنجليزي George Tomson سنة 1600 من مراكش إلى الهيئة العسكرية العليا للمنصور كانت تضم القواد حوز والمومن بوكريزة وينكوز وعبد الصادق وعبد الواحد بن سعيد واخوه والباغا جونر وأحمد بن منصور . م. ص. ت. م - بريطانيا - ج 2 - ص 230

(18) مناظر الصدا للشهيد . ص 201 .

نما القوانين والضوابط التي أحدثها المنصور ؟ وما الاهداف المتوخاة منها ؟

لقد كانت القوانين التي وضعها المنصور تتسم بالطابع الاسلامى بما كانت الدولة عربية مسلمة ، ولان المولى احمد والحكام السعديين لم يفتشوا ينادون بأحقيتهم فى الخلافة وإمامة المسلمين (ما فى الارض اليوم مملكة جاءت على حكم طريق العدل وقوانين الشرع ومناهج السنة احسن من مملكته) (19) وكانت ترمى الى اصفاء الصفة التنظيمية على مختلف النواحي الادارية فى المغرب لتقوية جانب الدولة ولاحكام الصلات بين الحكومة المركزية وباقى الولايات من جهة أخرى ، الامر الذي من شأنه ان يعزز وحدة البلاد السياسية ويزيد من سيطرة المنصور على كل اجزاء امبراطوريته المتراصة الاطراف .

ومن أولى مظاهر هذه التنظيمات ، ان المنصور قد حدد اياما سماها (ايام الديوان وهى التى يجلس فيها للجمهور والوفود وأحكام الجند ومناولة امور المملكة بالنقض والابرار وخص بذلك يوم السبت ويوم الاثنين ويوم الاربعاء) (20) . فاذا كان أحد ايام الديوان (جلس اهل الايوان وأرباب المناصب وأكابر الدولة الذين عليهم مدار الامور يرقبون خروج أمير المؤمنين . . فاذا جاز وقت الزوال او كاد يخرج للجلسوس .. فيحضر خواص بساطه الكريم وكاتب سره ويناوله ما ورد على أبوابه الكريمة من الكتب من سائر الاقطار لكتب ما يخصه منها وتفريق غيره على الكتبة وتعرض عليه القضايا ومهمات الملك ، ثم يؤذن لسائر الاكابر والكتتاب وأولى المناصب فى الدخول فيأخذ عنذ ذلك ايده الله فى العلامة ان كان اليوم يومها فتارة بيده الكريمة ان كانت الكتب أجوبة أو ظهائر وتارة بالطابع ان كانت مظالم أو براءات الاشغال والعطاء ان يأخذ فى املاء الاجوبة على الكتبة أو فى سماع ما يرفعه اهل الديوان من المسائل مناوبة يستمر ذلك حتى يصلى الظهرين غالبا يوم الناس فيدخل الى قصره ايده الله وينتفرق الديوان) (21) .

واتخذ المولى احمد ايام الجمع فى الغالب لسماع المظالم ، فاذا ما رفع اليه القوم ظلماتهم سعى الى انصافهم (بأن يؤتى بالعمال ايام تعوده للفصل مترنين فى الاصفاة حتى تقضى منهم حقوق الرعايا بمجلس الحكم) (22) . واثناء غياب المنصور

(19) المصدر نفسه . ص 197

(20) الفتاوى : البنامل . ص 205 .

(21) البنامل . ص 205 .

(22) البنامل . ص 200 .

عن مراكش كان ينيب عنه ابنه أبا فارس للنظر في أمور الدولة كما كان يكلفه بالنيابة عنه لسبب من الأسباب (ودفعه الى النيابة عنه في مغيبه عنها وسماع المظالم والقعود للجم الغفير بآيوان الخلافة متى عن اللام في بعض الاحيان ما يوجب العكوف في قصوره عن مصالح المسلمين) (23) .

أما في الولايات والاقاليم فالمنصور كان ينيب عنه أبناءه ومن يتمتعون بثقته ، وحسب ما أورده الاسير البرتغالي المجهول — وهو معاصر — نعلم بأن المولى أحمد قد قسم امبراطوريته الى اثني عشرة ولاية : مراكش ، سوس ، تادلة ، مكناسة ، فاس ، تامسنا ، درعة ، تافيلالت ، الصحراء ، تيكورارين ، الطوارق والسودان (24) ونظرا لاهمية بعض الولايات من الناحية الدينية والعلمية او السياسية والستراتيجية فقد اقام بها المنصور أبناءه والمقربين الثقة : (وقسم بينهم الممالك .. فاما كبيرهم .. المولى الامير أبو عبد الله محمد الشيخ .. قلده الخليفة الامام ايده الله ولاية العهد .. وعقد له على فاس وسائر ممالكها .. فاما المولى أبو فارس .. فعقد له على السوس وسائر ممالكه .. واما المولى أبو الحسن فعقد له على مكناسة وعقد للمولى زيدان أصغرهم على تادلا) (25) .

درج الملوك السعديون منذ تأسيس دولتهم على اتخاذ فاس مقرا لولى العهد، لاهيتها الدينية والعلمية وكمركز حضاري هام لا يقل أهمية عن العاصمة مراكش، لذا فقد عين المنصور منذ توليته ابنه محمد الشيخ وكان لا يزال صغيرا (26) على ولاية فاس وجعل معه من يساعده على تدبير الأمور ، ولها كبر أصبح المتصرف المطلق في المدينة واقلبيها ، وبديهي أن الغاية من ذلك تدريب ولى العهد على ممارسة شؤون الادارة والحكم وتهيؤه لتحمل المسؤولية الكبرى في المستقبل .

أما باقى الاقاليم فقد عين عليها عددا من أبنائه وكبار موظفيه ، وكلماتم تعيين شخص للقيام بادارة اقليم او تحمل مسؤولية ما ، أصدر المنصور بذلك ظهيرا صورة مطلعة (بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله ، ثم كانت العلامة الكريمة المباركة المذهبة المنيرة المشرفة التى اختطت فيها يمين الامام وبنان سبط النبی عليه السلام اسمه الشريف المبارك الكريم بتدبير يهر العيون

(23) البناامل . ص 93 .

(24) م. ص. ت. م. — فرنسا — ج 2 — ص 236 .

(25) البناامل . ص 93 .

(26) يوجد نص ولاية العهد في بناامل الصا . ص 82 .

حسنا ورواء وفخامة ويسع منفسح البياض المعد لذلك ما بين البسلة ومبدأ الخطاب الكريم) (27) ثم يبين الظهير نوع المسؤولية وحدودها (هذا ظهير كريم . . امر به عبد الله امير المؤمنين ابو العباس احمد المنصور بالله . . لولده الاحظى . . الامير ابي الحسن وقد اقره هلاله . . فقلدناه اماره حضرة السوس الاتصى وجميع انقها السهل والجبل وفوضنا له فيها التفويض المطلق في القول والعمل) (28) ، ويعدد ما يلزمه من قوات مسلحة للسهر على الامن والنظام (والزمناء لحياطة تلك البلاد والاستعداد لتلبية داعى الجهاد الفى حصان معدودا فيها من استقر به فى الحال هنالك قراره) ، ثم يلزم من يهمهم الامر بتطبيق مقتضياته (فمن وقف عليه فليعمل بمقتضاه ولا يتعدى ما احده وامضاه) .

ومن هذا يبدو أن الولايات التى يتولاها ابناء المنصور ، كانت تتمتع بصفات خاصة ابرزها ان الامير كان مطلق الصلاحيات ، وان ادارته كانت تشبه الى حد كبير ادارة والده المركزية بمراكش (والى هذا فلابد من تعيين قائد المحلة وحاجب وكاتب سرك واصحاب مشورتك وصاحب المظالم كما هو عندنا) (29) وان الامير كان يجند قوات مسلحة يتخذها من قبائل اقليمه للمحافظة على الامن وتسيير الشؤون (بلغنا انه قد استخدمتم هناك جماعة من اولاد طلحة . . وبلغنا ايضا أن الخلط رجعوا كلهم رماة . . بالدافع وعدة النار) (30) ، ولانجاد والده عند الهجمات (وتزيدون للقائد . . الف رام ليستوفى بهم الغرض) (31) .

وبالنسبة لبعض الولايات النائية كبلاد السودان مثلا ، فقد جعلها المنصور (باشوية) وولى عليها قادة عسكريين حمل كل منهم لقب (الباشا) ، بيدهم كل السلطات العسكرية والسياسية ، فأتخذت ولاية السودان لاجل ذلك طابعاً عسكرياً محضاً . وعن الاشخاص الآخرين الذين كانت تناط بهم مسؤوليات ادارية وسياسية فى المدن والاقاليم ، هناك :

القاضى : لتطبيق الشريعة وفق الكتاب والسنة (من امر عبد الله تعالى . . يستقر هذا الظهير الجليل . . بيد الفقيه . . قضاء قبائل سجتانة . . عصابة

(27) المناهل للفتاوى . ص 74 .

(28) رسائل سمعية . ص 217 .

(29) نزعة الحادى : الامرانى . ص 150 .

(30) المصدر السابق .

(31) نفس المصدر . ص 151 .

القاما على جبينه وعهدة جعل زمامها بين علمه ودينه . . والاستضاء
بمصباح مشورة الائمة الاعلام في غياهب مشكلات النوازل والاحكام . .
فجيلة القبائل بالكون عند امره والانتقاد لاحكامه (32) .

وقد كانت للقاضى مطلق الحرية في ممارسة احكامه (وكان ايده الله
قد سوغ للقاضى توجه الحكم على من يتعين عليه حق في داره
الكريمة) (33) .

الفتى : (واولا قاضى الجماعة بحضرتهم ثم المفتى بها) (34) .

العامل : الذي يتولى حكم عمالة خاصة باسم الخليفة في المجالين السياسى
والاداري (عن امر عبد الله تعالى . . يستقر هذا الامر الكريم .. بيد
القائد الاجل .. ولما كان وفقه الله من مقلة الدولة مكان انسانها ..
اقتضى النظر الامامى ايده الله . . ان يعصب جبينه وفقه الله بتاج
ولايتها .. ناصبا له بمنصبها المعتبر عام النظر في البدو من اطرافها
والحضر موكولا من لدنه ايده الله الى ما خبر من تثبت واثاته واقامة
تسطاس العدل ورسوم سيره المستحسنة في كل حالاته معهودا اليه في
اتباع الحق .. واجتناب الحيف .. امرا خلد الله سلطانه .. لمن شملته
الولاية المذكورة من الخاصة والجمهور .. بالكون عند اشارته .. كما
حذر ايده الله عن المخالفة والصدوف والخروج في السواد عن السبيل
المعروف) (35) .

ولم يكن المنصور يتوانى عن معاقبتهم اذا ما حادوا عن الطريق
القويم وظلموا الرعية (ومن مشهور مآثره في العدل .. غلظته على جبايرة
العمال المشهورين بالحيف وارتكاب الجور وشمولهم بأنواع العذاب
والانتقام وتذفهم في السجون والمطابق مقرنين في الاصفا ومصادرة
اموالهم) (36) .

(32) مجموع مخطوط بدار الوثائق بالرباط . ك 278 . ص 14

(33) الفتاوى : مناهل الصفا . ص 204 .

(34) المصدر السابق .

(35) المجموع المخطوط بدار الوثائق بالرباط . ك 278 . ص 30 .

(36) الفتاوى : مناهل الصفا . ص 200 .

صاحب الشرطة : وهو الذي يترأس جماعة من الجند تناط بهم مسؤولية المحافظة على الامن والسهر على سلامة العامة ، ثم القبض على الجناة والمجرمين وتنفيذا لعقوبات الصادرة بحقهم ، (وعقد على الشرطة لمولاه القائد ابي عبد الله محمد بن سالم) (37) وكثيرا ما قام المنصور بمعاقبة الظالمين منهم (كما فعل ايده الله .. بأصحاب صاحب الشرطة كان بالحضرة .. وكان رجلا منبوذا عند الناس بارتكاب الجور والحيف واستحلال اموال الرعايا .. حتى شهر بذلك وجلب اليه مقتا اوجب منابزته واطراحه واقعد به عن الاستعمال في الخطط) (38) .

شيخ القبيلة : فقد كلف المنصور رؤساء القبائل بالسهر على (تأمين الطرق وكل شيخ ضمن ما يضيع في ترابه وأخذ العهد على رؤساء القبائل بذلك) (39). مسدد الناحية : المكلف بتطبيق حدود الشرع في البادية (وقد كان من حق مسدد الناحية .. ان يقيم الحد على الفاسق ويستعين على حده بمن يعينه على ذلك كشيخ الناحية واعيانها) (40) .

وفي نهاية التسلسل الإداري هناك :

أمناء الحرف : المكلفين بحل خلافات أصحاب حرفتهم .

ومقدمى الحارات : من (أهل الخير والدين كل على حومته) (41) .

وعند التساؤل : هل كانت هناك شروط معينة تؤهل لتولية منصب ما في الدولة ؟ وهل كان الحكام في دولة المنصور يتمتعون بحصانة ما ؟

نجد بأن الامر كان يتوقف على مكانة الشخص العلمية و (وفور عقله وصحة نبذه وذكائه) (42) وعلى مدى المقدرة والكناءة في تسيير الاعمال والاستقامة والاخلاص للخليفة المنصور ، الى جانب ما يحققه المسؤول من نجاح وتوفيق في أعماله (وانهجت مساعيه فاجذب ذلك بضبعه عند أمير المؤمنين ورقاه عند وصوله

(37) المصدر السابق . ص 48 .

(38) المصدر السابق . ص 199 .

(39) ابن القاضي : المنتقى البصير . ص 95 .

(40) ابراهيم الجليلي : تنبيه الولدان . مخطوط بدار التراث بالرباط . د 571 . ص 3

(41) البناامل . ص 300 .

(42) البناامل . ص 63 .

من القلم الى السيف فجعله اولاً قائد محلاته السعيدة .. ثم رقاہ الى قيادة القواد عند ولى عہدہ (43) .

وقد كان المولى احمد المنصور يخلق لمساعديه جوا من الحرية فى العمل ويشعرهم بنوع من الثقة والطمأنينة ، حتى يتمكنوا من ممارسة أعمالهم ، وليكونوا مسؤولين عن أعمالهم وكل تصرفاتهم (ولقد سمعته ايدہ اللہ مرارا يقول ويتقسم على ذلك انه ما علم من نفسه اعتمد قط السطو بأحد أو تصدى الى نكبته لمجرد غرض نفسه وحظه أو وتر له قبله) (44) .

وعندما يتأكد المنصور من زيغ أحد حكامه أو قواد جنده فانه يسرع الى عزله ومحاكمته أو يأمر بقتله ومصادرته ، (سرح الى قتلہ عظیم الدولة القائد ابا اسحاق ابراهيم بن محمد السفيانى وانفذ معه الفاتك احمد الزواوي وقريعه حدو الزواوي وعبد العزيز بن يخلف اليفرانى وعبد الله التلمسانى وكلهم قواد عشائريهم زواوة وعصابة الشراقة من جيوش النار . . وجعل يختل سيفه . . حتى امكنته الفرصة فاخترطه وأغرى احمد الزواوي بالذغالى فاوما بسيفه العضب الى سالفته وهو مستقل فطارت هامته لضربة واحدة وشد أبو اسحاق هو على محمد بسيفه فعصب جبينه . . واحتزوا رأسه وحمل مع رأس عمه فى مخاللة حتى وضعوا بين يدي أمير المؤمنين) (45)

كما كان يلزم الولاة الذين ثبت ظلمهم وتعديهم برد ما أخذوه (الزامه العمال غرم ما نحلط عليه الرعايا انهم جاروا عليهم فيه وانتهبوه منهم حيفا من غير احتياج الى اقامة بيئة احتياطاً منه ايدہ اللہ على الرعايا وكسرا لشوكة العامل) (46) .

وعن اتصال الحكومة المركزية فى مراكزها بباقي الولايات والنواحي ، نذكر بأن ذلك كان يتم عن طريق المراسلات التى كانت مستمرة بين المنصور وابنائہ وجميع ولاتہ ، وما أن ترد على (كاتب سره ويناوله ما ورد على ابوابه الكريمة من الكتب من سائر الاقطار لكتب ما يخصه منها وتفریق غيره على الكتبة . . حتى يأخذ فى املاء الاجوبة) (47) .

43) البناء - ص 63 .

44) البناء - ص 212 .

45) البناء - ص 212 .

46) البناء - ص 200 .

47) البناء - ص 206 .

وقد كانت هناك جماعة خاصة من المستخدمين تناط بهم مهمة تبليغ أوامر المنصور الى جميع الجهات في الامبراطورية (الشواش وهم الطائفة التي تقولى . . الكتب الى الجهات والاقطار بانهاء خبر او نفوذ امر او تفريع ظالم او جائر او تصفيد خارج ولها مكان في المناوبة بين الطبقات المرتبة للامانة ابواب الخلافة العلية) (48) .

ولشدة حرص المولى احمد المنصور على اسرار الدولة وسرية التعليمات الموجهة الى الامراء والولاة ، وحتى لا يطلع عليها أحد مهما كان (احب من كل حبيب واقرب من كل قريب) (49) ، عمد الى (اختراع اشكال من الخط على عدد حروف المعجم يكتب بها فيما لا يريد الاطلاع عليه من اسراره ومهمات اموره واخباره يمزج بها الخط المتعارف فيصير بذلك الكتاب ملهما مستقلا فلا يجد المطلع عليه بابا يدخل منه الى فتح شيء من معاني الكتاب ولا الوصول الى فهم سر من اسراره حتى لو تلف الكتاب أو سقط أوضاع أو وقع في يد عدو لامت غوائل الاطلاع على اسراره . . ثم نوع ايده الله هذا الخط الى انواع يخص ولى عهده منها بنوع يرجع اليه في فك معنى كتبه) (50) .

كما أنه لشدة حزمه وصرامته في تطبيق جميع تعليماته ، ولضبط امبراطوريته وسلامتها (بث اصحاب الاخبار في البلاد دانيتها وقاصيتها واذكاء العيون في سائر جهات ممالكه من داره الى اقصى المغرب بل والى قاصية السودان . . فله من رجاله المصطنعين على كل مراقبة رصدة وعلى كل ثنية نقباء وفي كل خلوة او جلوة عين اذكاهم موكلين بنقل ما يحدث من خبر او قصة او يدور على الالسنه . . ولا يكاد يخلو له يوم من ورود وارد بخبر على بر او بحر) (51) .

3 — القوات المسلحة :

وحتى يتمكن المولى احمد المنصور من اقرار دعائم الطمأنينة بالبلاد ، وليضبط شؤون الادارة والدولة ، أولى اهتماما كبيرا بالقوات المسلحة وزودها بالمعدات الحربية الحديثة كما جعلها رهن اشارته باعتباره القائد الاعلى وبيده مقاليد الامور.

(48) الـنامـال . ص 202 .

(49) الامرائى : نزمة الحادى . ص 147 .

(50) الـنامـال . ص 208 .

(51) الـنامـال . ص 207 .

وقد كان الجيش المغربى زمن المنصور على غرار (الانكشارية) عند الاتراك العثمانيين ، حيث عمد الى تدريب العلوج والاندلسيين والسودانيين وكون منهم قوات نظامية تمكن بفضلها من اقرار الاوضاع الداخلية وقمع كل الثورات التى قامت ضده ، وتحقيق الكثير من امانيه وخاصة المتعلقة منها بالتوسع فى غربى فريقيته وبلاد السودان (اصطفى من العجم موالى انبتتهم نعمته ودربتهم تربيته فنجبت طوائف عديدة ليس منهم فتى الا أضخم حالا وأعظم شانا وجلالا . . وقسم الجند الى اقسام واصناف وانواع وعلى كل قائد يسوس امرهم ، واخترع الالقباب والاسماء ليمتاز بها البعض من البعض وجعل الجيش والقواد طبقات متفاوتات فى الحظوة وعين لكل من الاقسام والطبقات محلا ومكانا يقف به وعملا يخصه (52) .

وقد كان القواد وكبار الجيش ضمن حاشية المنصور ، أما الجنود فيوجد عدد مهم منهم بالعاصمة مراكش حيث قدر السفير الانجليزى (Henry Robert) فى تقريره المؤرخ بيوم 3 افريل 1603 عددهم بنحو اربعين الف مقاتل موزعين بين العلوج والاندلسيين وزواوة والاتراك والمخازنية وغيرهم (53) والباقى موزع بمختلف المدن والولايات وفى القلاع والحصون ، وهؤلاء الجنود يأخذون رواتبهم كل اربعة اشهر ، وفى زمن الحرب يحصلون على تعويضات خاصة والدولة هى التى تتكفل لهم بالملابس وتوزعها عليهم سنويا (54) . والقلاع الموزعة فى انحاء المغرب كانت ماوي الحماية المنتقاة من جيش النار ودار قائداهم وخزائن العدة والسلاح والبارود والرصاص واهراء الطعام وجبات المياه . . مستكثرا فيها من الانفاط القاذفة ببارج البارود وشواطئ النار والاكوار المعدنية والصخرية التى تذر الجبال كثيبا مهيبا (55) والجنود بصفة عامة يخضعون لتدريبات خاصة (وتوضع لهم دراهم معدة لذلك فمن اصاب الغرض بسهمه وقرطسه شاد بذكره المشيد وصدع باسمه فيتناول الحصة المعلومة لذلك فتنبعث المنافسة الواقعة بين القوم فى ذلك على مزيد التدريب والتخريج فى الرماية) (56) .

(52) البناهمل : ص 201 .

(53) م. ص. ت. م - بريطانيا - ج 2 - ص 463

(54) مجلة (Hesperis)

العدد - (3 و 4) . لعام 1957 . ص 179 .

(55) البناهمل . ص 264 .

(56) البناهمل . ص 174 .

وكثيرا ما كان المنصور يحضر استعراضات عسكرية في المناسبات المختلفة (ولما تكامل الاستعداد . . اضطريت المحلات ضاحية بظاهر الحضرة . . فبرزت العساكر الامامية من الحضرة . . وانتظموا في اوعب ترتيب . . انجفلت الدهماء لمشاهدتهم وغصت بهم فوهاء الشوارع) .

وقد اناط المنصور ببعض فرق الجيش مهمة حراسة البلاط الامبراطوري والسهل على سلامة الخليفة والاسرة المالكة ، كما اتخذ منهم حرسه الخاص ولمواكبة المؤكب الملكي اثناء تجواله وخلال تنقلاته ، وفي الحفلات والمواسم والاستقبالات الرسمية ، مما كان يضاف على المنصور مظهر الابهة والعظمة (وانتقامهم للتصرف بين يديه وخدمة بساطه . . ومولات ركابه . . واتخذ من هنا الجنس الذي هو جنس العجم ايضا الصنف المسمى البياك . . والسلاق . . وبردروش) (57)

اما القوات المحاربة فتتكون من (جيش الاصباحية من جيوش النار) و (جيش الموالى المملوكى من عساكر النار المعروف بجيش الانكشارية) و (جيش الاندلس من جيوش النار) وكانت تخضع لتسلسل في الرتب العسكرية هي : (الباشوات والقواد والكواهي والمقدمون والباشوظطات وبلكباشيات والضباشيات وولضاش والاجناد) (59) . وقد ابدى حرصا شديدا على تزويدها باحدث وسائل القتال واسلحة النار (وعساكرنا قاذفة بشواظ النار وحصباء البندق المنهل بسحائب من البارود مركوم تزجيه الرعود القاصفة والصواعق الراجعة تتبعها الرادفة) (60) وعلى أن تكون دوما على اهبة الاستعداد حتى لا تخلد الى الراحة (من اصلاتها نار الحرب ورميها المئازق الجلال دؤبا على الدربة بها وارتياضا على صدق المصاع في ضنك المواقف وخوض غمرات الهيجاء وبعيدا عن الاخلاص الى الراحة والركون والسكون الى الدعة لما يؤدي اليه ذلك من وهن عزائمهم ولين عرائكهم وفل شبي شوكتهم عند الحاجة اليهم) (61) ومتشعبا بروح الطاعة والامتثال (وسار ذلك الجيش على وثيرة الانضباط . . ولما مدثوا عليه من الانضباط . . حتى لو سيمو اسم الخياط لووسعهم مجالا . . سيرة دربوا عليها حتى صارت

(57) النماهل . ص 202 .

(58) النماهل . ص 201 .

(59) عبد الله كنون : رسائل سمدية . ص 118 .

(60) النماهل . ص 126 .

(61) المصدر السابق .

لهم سجية وغريزة طباع (62) . وقبل التوجه الى القتال (.. عقد الراية المذصورة بالله في وسط جامع المنصور بعد أن ختم عليها أهل الله حملة القرآن مائة ختمة وصحيح البخاري وضجوا عند ذلك بالتلهيل والتكبير والصلاة والسلام على البشير النذير والدعاء له وللإسلام بالنصر والتمكين والفتح الشامل الشامخ المبین) (63) .

وقد برزت قوة هذا الجيش في جميع حروبه الداخلية والخارجية (فلم يرعهم عند انقضاءس بازي الصبح على غراب الليل الا ابيضاض الارض بما جللها من القباب ومحميات الاجناد ولمعان الافق ببريق السيوف ووميض الدروع وشهب الخرسان وخفق الرايات ثم هدرت الطبول وازعدت رعود النار اشعارا بالبلوغ فاهتزت الارض وربت وضج الافق من هول اليوم وصواعقه فظن اهله ان القيامة قد قامت) (64) .

ومن المعارك ايضا (فرحفوا اليهم وترجل سائر الفرسان والابطال من جيش الاسل يومئذ عن خيلهم واستلاموا وتظاهروا في دروعهم ونصبوا الدرق امامهم واشهروا سيوفهم وسابقوا الرماة من عساكر النار حتى وقفوا لصق سور قصبتهم فارعدت رعود النار وضج الافق من صواعقها الهائلة بالرصاص المنهل انهلال الطر وحصى الحيد المنبعث من افواه الانفاس الذي يدك الجبال ويصدع الصخر) (65) .

ومن حسن التدبير ، وتلاف لكل استبداد بالسلطة ، جعل المولى احمد مسؤولية قيادة الجيش المكلف بالغزو أو الفتح بيد جماعة من كبار القادة العسكريين والزمهم بالمشورة فيما بينهم قبل الاقدام على أي إجراء عسكري (وعقد مولانا الامام . . على هذه العساكر لمملوكه الشهم . . جوذر باشى . . وشد مولانا الامام . . ازر مملوكه . . بثقات من كفاته وحماته من قواد الاسل أولى الدهاء والرأي المطبق لمفاصل الخطوب . . يرجع اليهم في مجال المفاوضة شدا لاواخى الحزم) (66) .

ويدخل في هذا المجال تغيير القيادة واستبدال القوات المحاربة والمرابطة في منطقة ما من الامبراطورية بقوات أخرى ، كلما مرت فترة من الزمن (.. بنقل

(62) البناهمل . ص 134 .

(63) الانرانى : نزمة الحادى . ص 65 .

(64) البناهمل . ص 79 .

(65) البناهمل . ص 78 .

(66) البناهمل . ص 130 .

قبائل المغرب اليها وانزالهم عليها وادالة العساكر الاولى بالاخرى لاراحتها من طول
المغيب ومعانات الحروب .. لمدة من ثلاثة أعوام (67) .

وهكذا كانت للمنصور امكانيات عسكرية قوية مستعدة دوما لتنفيذ أوامره ،
يعززها كرديف لها قوات (عرب الدولة) وهم القبائل الموالية للدولة ، وحسب
تقدير السفير الانجليزي في مراكش (Henry Robert) فان هذه القبائل كانت
على أهبة الاستعداد دوما لانجاد المنصور بقوات من الفرسان والمشاة يصل
تعدادها الى مائتى الف مقاتل (68) وكان عرب الدولة قد (تميزوا بشعار الجندي
ولبسوا شارتها والحق روساءهم بطبقات القواد واقطعهم ما شاءوا من البلاد) (69)
ويضاف الى هذا القوات المغربية في السودان (فان نهاية الرجال الذين صرفهم
والده في الحملات من لدن الباشا جودار الى الباشا سليمان ثلاثة وعشرون الفا
من خيار جيشه وهى مقيدة في الزمام) (70) .

وقد كانت القوات المغربية موزعة في المدن والاقاليم للمحافظة على الامن
والاستقرار ، ولتدعيم سلطان المنصور وتوطيد اركان دولته ، (فالدولة استغللت
.. واستطال جناحها واتسع نطاقها وضاعت حواضر ممالكها وثغورها القاصية
والدانية بما تراكم فيها من الجند وتوفر فيها من الحامية) (71) بحيث كانت تقيم
في قلاع وحصون ذات مواقع استراتيجية : ففى الشرق وعند الحدود الجزائرية
يوجد حصن تازة (وليس الحصن الذي اختص أيده الله تعالى على بلاد تازى ببعيد
من هذه الاثار الضخمة والحصون الفخمة تشييدا وتوطيدا ومنعة وتحصينا) (72) .

وفى الشمال بفاس خاصة ، يوجد (المعقلان الضخمان اللذان انشاها .. بالجانب
الشرقى .. وبمقابلته بالجانب الغربى .. قريعه لابل كبيره الذي يلفه على عظمته ..
ذو العمل الضخم .. فجاء بها آية الاعجاز توطيدا وتشييدا وتحصينا .. ماوي
الحامية المنتقات من جيش النار ودار قائدهم وخزائن العدة والسلاح والبارود
والرصاص .. مستكثرا فيها من الانفاط القاذفة بهارج البارود وشواط النار والاكوار
المعدنية والصخرية التى تذر الجبال كثيبا مهيلا) (73) .

-
- 67 البناهاسل . ص 164 .
68 م. ص. ت. م - بريطانيا - ج 2 - ص 463
69 البناهاسل . ص 192
70 السميدي : تاريخ السودان . ص 97 .
71 البناهاسل . ص 75 .
72 البناهاسل . ص 265 .
73 البناهاسل . ص 264 .

وفي الغرب اقام عدة قواعد بحرية في :

١ - العرائش (واذا انتهيت الى الاثرين العظيمين .. والحصنين الضخمين . .
بمرسى العرائش العديمة النظير في مراسى المعمور سعة وانفساحا . .) (74)

ب - في اصيلا وازمور وآسفى (وأما ما أصلحه ايده الله تعالى ورهه وزاد فيه
فتممه بمدينة آسفى وبلدة آزمور . . ومدينة أصيلا وسائر الاطراف
والثغور . .) (75) .

والى جانب القوات البرية ، هناك الاسطول البحري الذي وان لم يبلغ شوا
عظيما لعوامل مختلفة ، فان المنصور قد حاول خلقه وتطويره ، وكان من المؤمل
ان يعظم امر الاسطول المغربى لولا :

١ - اهتمام المنصور المتزايد بالقوات البرية لاقرار الاوضاع الداخلية ولصد اي
خطر خارجى .

2 - احتكار الانجليز خاصة تجارة المغرب الخارجية وتزويدهم المنصور بكل ما
هو بحاجة اليه من عتاد واسلحة علاوة على قيامهم فى الغالب بنقل السفارات
المغربية والوفود من المغرب الى أوربا وبالعكس .

3 - وجود مراكز احتلال اجنبى بسواحل المغرب وهى موانئ هامة ذات مواقع
استراتيجية ولما كانت علاقات المهادنة فى غالب الاحيان قائمة بين المنصور
والاسبان فانهم استفادوا من ذلك للمتاجرة مع المغرب والقيام بعمليات
التصدير والاستيراد .

4 - انتشار عمليات القرصنة فى عرض البحار ، الامر الذي كان يتسبب فى كثير
من المشاكل ويعرض علاقات الدول للخطر والتوتر وقيام الحروب .

5 - ان خصوم المنصور من اترك واسبان بالدرجة الاولى هم الذين كانوا يهددون
البلاد بين آونة وأخرى بالهجوم والتدخل العسكري ، اي ان المولى احمد كان
بحاجة الى قوات دفاعية لصد اي تدخل خارجى بالدرجة الاولى .

وعندما انهزم الاسبان فى الارمادا (Armada) وتحطم القسم الاعظم
من الاسطول الاسبانى ، ثم لما انشغل الاتراك العثمانيون بحروبهم فى أوربا

(74) البناهل . ص 265

(75) البناهل . ص 265 .

الشرقية ، سعى المنصور الى اغتنام الفرصة المناسبة لتأسيس اسطول مغربي قوي (وهو اليوم (عام 1596 م) ايده الله لهذا العهد بصدد الاكثار من الاساطيل رغبة في الجهاد والاستظهار على عد والدين .. وافر العدد .. بما يتيح لسيوفه المظفرة من الاستيلاء على الممالك السودانية المعينة بخراجها المستبحر ومعادن الذهب على التوسع في الانفاق .. وبالسواد الاعظم المستاق من رقيقها على تسخير المجاذيف الثقيلة بالاساطيل كاجنحة الطير خفقانا وسرعة) (76) .

وقد عمد المولى احمد المنصور من اجل تحقيق ذلك الى :

1 — بناء الدور لصناعة السفن (ثم صرف همهته الى اتخاذ الاسطول برياط سلا امه الله فتعددت مراكبه) (77) .

2 — تحصين بعض الموانئ المغربية الصالحة لرسو الاسطول (لما كمل بناء حصن الفتح من مرسى العرائش نقله اليه وانزله به) (78) ، ومن بين قطع الاسطول المسلحة كانت (القطائع والشواني) (79) .

3 — تنظيم قيادة الاسطول بان (عقد على رياسته لرجل من اهل المغرب يدعى الرايس ابراهيم الشط المثل المضروب في الشجاعة والمعرفة بأحوال البحر) (80) وبعد الرايس الشط تولى قيادة الاسطول (الرايس شعبان فهو اليوم (عام 1596 م) قبطان الاسطول الامامي الجهادي ورئيس الجماعة من رؤساء المراكب الجهادية والقطائع البحرية) (81) .

ومن الملاحظ ان فاعلية هذا الاسطول قد برزت بصفة خاصة عند الفتح المغربي للسودان ، وذلك لصعوبة التنقل وحمل آلات الحرب والقتال في البر ، فاستغلت القوات الفاتحة نهر النيجر لنقل القوات والعتاد وللتوغل بعيدا في اقصى مناطق بلاد السودان وفرض سلطان المنصور عليها (وارسلت في النيل ارسال الاجادل المنقضة تقطع انفاس الرياح وتستقل بالفيلق الجم والوقار الثقيلة من اليضائع .. وكانت الاساطيل التي اتخذت سبيلها في البحر القاها اليم بالساحل من كاغو .. فارسلت على نفق الشقي المخذول فانكما اليها فالتاها تلتظ فاعرة امواه الحنف اليه

(76) البناهل . ص 197 .

(77) البناهل . ص 204 .

(78) البناهل . ص 205 .

(79) البناهل . ص 205 .

(80) البناهل . ص 205 .

(81) البناهل . ص 205 .

جالبة أسباب الحين عليه (82) وكذا في مهاجمة كنفاريا (وما زال ايده الله تتوالى بها نزواته على أرض الكفر وطواغيت الشرك فتقتاد السبى والانتقال ولا كالجوائز الخالدات التي ضرستها بأنبيائها واضحت مشمرات اليد بما تستاق كل عام من سبيها) (83) . فهل كللت جهود المنصور لتنظيم ادارته الداخلية بالنجاح ؟ وإلى اي حـد ؟

لقد نجح المولى احمد المنصور بفضل حزمه وحسن ادارته من ضبط البلاد ونشر الطمأنينة بها (مسكن زعازع هوله أولا واقتلع جرثومة اهل البغى والشقاق من اجناده ثانيا واستأصل شافة الخوارج والثوار على الدولة ثالثا وطاب الجنى وذرت اخلاف الجباية فامتلات بيوت المال وغصت بالعبوب مخازن الاقوات ثم جاء نصر الله فذرت الفتوح واتسع نطاق الملك وبلغت الدولة الى اشراف نصابها) (84) .

4 - ولاية العهد :

كان المولى احمد المنصور يعتبر ان تسمية من يخلفه في امامة المسلمين بعده حق من حقوقه الشرعية كأمر للمومنين ، لذا فقد أعلن بيعة ابنه المولى محمد الشيخ ، مما يؤكد حرصه على استمرار العرش السعدي وسلامة الدولة المغربية ، وحتى لا تختلف الكلمة وتنترق الجهود بعد وفاته ويحصل ما لم يكن في الحساب ؟ وقد تمت بيعة المولى الشيخ بالمصافحة اذ (ازدحم الناس على تقبيل يده ومصافحته بالبيعة واقتضيت منهم الايمان) (85) ، ثم لما كبر أبناء المنصور جدد البيعة لابنه الشيخ واخذ من بقية ابنائه عهدا بذلك (فسمعوا واطاعوا ووقعوا على الرسم علامتهم بالتزام البيعة والرضى والتببول) (86) .

وبالنسبة لجمهور العامة (أمرنى ايده الله بالقيام على رؤس الاشهاد برسم البيعة فرمعت بقراعه عقيرتى ليتادى الى الناس فهمه . . وقام الى جنبى قاضى الجماعة .. مفسرا لما أشكل من احكام البيعة التى تضمنها الرسم الكريم . . ونادى

-
- (82) المناهل . ص 118 .
(83) المناهل . ص 197 .
(84) المناهل . ص 151 .
(85) المناهل . ص 60 .
(86) المناهل . ص 82 .

الناس بالسمع والطاعة والرضى .. واندفعوا للبيعة واعطاء صفقة الايمان (87) ويعد نص البيعة بولاية العهد من الوثائق التاريخية الهامة المتعلقة بتاريخ الخلافة السعيدية في المغرب (88) .

5 — التبادل الدبلوماسي :

بعد انتصار المغاربة في معركة وادي المخازن سنة 1578 م ، وقضائهم على الجيش البرتغالي دخل المغرب في صلب السياسة الدولية وظهر السعديون كحكام اقوياء يمكن الاعتماد على تحالفهم والركون الى جانبهم . وازدادت اهمية المغرب الخارجية بعد تطور الصراع العثماني — الاسباني واشتداد الحروب الدينية بين الكاثوليك والبروتستانت بأوروبا الغربية ، بفضل موقعه الاستراتيجي وتحكمه الى حد بعيد في طريق الملاحة البحرية والمواصلات بين أوربة الغربية والشرق الأقصى .

واذا كانت للمولى أحمد المنصور من صفات يتميز بها ، فان أبرزها حسن دهائه السياسي وبراعته في اغتنام الفرص وارغام الخصم على التسليم له بمكاسب مادية وسياسية (فجرد أمير المؤمنين أيده الله صارم عزمه . . وأرهف لذلك حد تدبيره . . فلم يزل أمير المؤمنين يسدي في أمرها ويلحم ويسرج ويلجم ويوعد ويعد وبني ذلك على أساس من المكائد كأنها لحصافتها بكل مفان الفتل شحت ليزبل) (89) وبعد فتح السودان وتأسيس الامبراطورية المغربية ، ذاع صيت المولى أحمد المنصور وأصبح من الحكام العظماء لا يقل قوة وغنى عن معاصريه في : صطامبول وموريد ولثــــــدن .

واتسعت بذلك مجالات اتصالاته الخارجية وأصبح له تبادل دبلوماسي مع اعظم الدول المعاصرة في الشرق والغرب . وتشهد الوثائق التاريخية ورسائل المنصور العديدة التي بين ايدينا على عظم اتساع افق الدبلوماسية المغربية ، مما يمكن اعتباره بداية للتمثيل السياسي في تاريخ المغرب الحديث .

فما الاعراف الدبلوماسية المغربية التي كانت في عهد المولى أحمد المنصور ؟

1 — اعتماد السفراء المغاربة :

لقد تبادل المنصور مع الملوك المعاصرين له السفراء والبعثات

(87) البناهل . ص 82 .

(88) البناهل . ص 82 .

(89) البناهل . ص 114 .

الدبلوماسية ، وعرف قصر البديع بمراكش نشاطا سياسيا متزايدا لكثرة ما ورد على المنصور من وفود اجنبية من المشرق والمغرب . وكانت العادة أن يعجل المولى أحمد بارسال الجواب دليلا على حرصه واهتمامه ، مع سفير مغربي يذهب في الغالب صحبة الوفد الاجنبي العائد الى بلاده (برز الاذن السلطاني .. فتوجهنا .. مع الرسل ووردنا على الابواب العثمانية بالقسطنطينية) (90) ، والمنصور هو الذي كان يتولى اختيار سفرائه ، وغالبا ما كان ينتقيهم من طبقة العلماء النابهين (فاهتز السلطان (العثماني) لذلك .. واستنبل فيه احوال القاضى وحسن تطفه في الابانة عن اغراضه واستدل بذلك على شرف مرسله وهيمته في انتقاء امثاله للسفارة عمن ابوابه) (91) .

وقبل أن يسافر المبعوث الدبلوماسي المغربي يتسلم من المنصور كتاب اعتماده ، يتضمن التعريف بالسفير ومدى حظوته ومرتبته العلمية والسياسية (هذا وانه يرد على مكانك المكين حامل هذا الخطاب الكريم خديم مقامنا العلى الكاتب الاتجد الاثير ..) (92) ويلتمس من الملك المرسل اليه ان يعتمد على السفير المغربي ويستمع الى اقواله (وقد حملناه من الامور ما يلقيه اليكم ان شاء الله مشافهة ويثنه عليكم مكالمة ومواجهة ، وعرفناكم لتعلموا اتنا حملناه القاء ذلك اليكم وامرناه بيثنه عليكم والمراد ان تصفوا الى ما استودعناه تبليغه ان شاء الله جملة وتفصيلا) (93) . هذا فيما اذا كانت المهمة التى كلف بها السفير تستلزم السرية التامة ، واحيانا يصرح المنصور فى رسائله بكل ما يرغب فى اطلاع مخاطبيه عليه (هذا وقد وصلنا كتابك .. وطالعنا ما ذكرتم عن ولد اخينا الخارج بمليلية وعن اسباب خروجه وحتىى خديمكم .. ذكر لنا ما امرتموه ان يثنه علينا وينهيه لنا) (94) .

وجميع مراسلات المنصور الخارجية كانت تفتتح بالبسملة والتصلية ثم الاشادة بالخلافة السعدية الشريفة وذكر المدينة التى صدرت عنها ؛

(90) النعمة المسكية فى السفارة التركية ، التاجرونى ، ص 25 .

(91) المناهل للفشتالى ، ص 66 .

(92) من رسالة للمنصور الى ايليزابيت ملكة بريطانيا - مجلة تطوان - عدد 8 - ص 80 .

(93) المصدر السابق .

(94) من رسالة للمنصور الى فيليب الثانى ملك اسبانيا - المكتبة الوطنية - مدريد - مخطوط رقم 257

وتخلص بعد ذلك الرسالة الى اعتماد السفير المغربي والتعرض الى الغرض المقصود ، وفي الختام نجد تاريخ صدور الرسالة باليوم والشهر والسنة .

ومن الجدير بالملاحظة أن المولى أحمد كان يطلع سفراءه على رموز شيفرة خاصة كان قد ابتدعها وذلك لاتخاذها اساسا في المراسلات بينهم (كتابسة الفقيه عبد الواحد بن مسعود عنون وجدنا في براءة بخطه رمز فيها بأخبار لمولانا أبي العباس أحمد المنصور المعروف عندهم بالذهبي عن أخبار سلطنة النصاري .. ببلاد الاندريس في عام تسع والف) (95) .

2 — استقبال الوفود الاجنبية :

وجد السفراء والبعثات السياسية من المولى أحمد المنصور كل الحفاوة وكرم الضيافة وحسن الاستقبال ، وقد جرت العادة أن يقام حفل خاص يقدم خلاله السفير أوراق اعتماده وكتب ملكه الى المنصور ، ومن ذلك الحفل الذي اقيم لسفير مملكة برنو وملكها ادريس الثالث (ألوما) ، إذ (جلس لهم أمير المؤمنين أفخم جلوس بالقبتين التوامتين .. واستوقفه الموالى والمماليك سباطين من التوامتين الى القبة العربية .. فغودي بالرسول يخترق السباطين حتى انزل بالديوان وكان الملا من اكابر الدولة وصدور المملكة جلوسا به . . فجلس الرسول هنالك مليا ثم غودي به على سبيل الترقى الى القبة العربية فتلث بها ريثها جاء الاذن الكريم بإيصاله الى مقر الامامة الكريمة .. فغودي به الى التوامتين فمثل بين يدي أمير المؤمنين .. فأدى الرسالة وقضى فرض التهنئة وسنة الهدية (96) .

واستنادا الى ما ذكره السفير الانجليزي في المغرب Henry Robert فإنه قد وجد في استقباله عندما رست سفينته بميناء آسفى قائد المدينة الذي أرسل رسولا خاصا الى مراكش ليعلم المنصور بوصوله . واثناء اقامته بآسفى وضعت تحت تصرفه دار فخمة وأنيقة وعدد من الجنود لحراسته . ولها جاء أمر المنصور بالتوجه الى مراكش هيا له القائد خيولا ليركبها وصحبه وبغالا لحمل الاثقال ثم خرج نحو العاصمة مخفورا بقوات مغربية .

95 مجلة (Hesperis) : لعام 1927 . ص 221 .

96 البناسل . ص 67 .

وفي الطريق وعلى ضفاف نهر تانسيفت أقاموا له خيما تحت اشجار الزيتون كما خرج لاستقباله عدد من التجار الاجانب . وفي مراكش انزل السفير في دار جميلة بالملاح (حى اليهود) ثم استدعى لمقابلة المولى احمد المنصور بعد ان استراح ثلاثة ايام ، وتسليم كتاب الاعتماد الذي اعتمدته به الملكة ايليزابيت سفيرا لدى المنصور وليبلغه مطالبها (97) .

ومن الاعراف الدبلوماسية في هذا العهد أيضا :

- 1 — ما يشبه كتاب (الامتراج) عند الرغبة في تعيين السفير الجديد الذي يستحسن أن يكون ممن عرف البلاد وعاداتها ويتوفر على خبرة وتجربة (لما مرت عليه هنا في هذه البلاد سنون عديدة .. حصلت له بسبب ذلك . دروية وممارسة .. ولاحث له مخايل النجدة والنجابة .. فاخبرناكم بأهليته) (98) .
- 2 — العناية بالسفراء الاجانب وتيسير مهامهم (ثم نثنى اليكم أن رسولكم الاثير المرعى .. الذي هو الآن بدارنا واستقر به العز والاكرام في كريم جوارنا) (99)
- 3 — التثويه بالسفير عند نجاحه في مهامه (ولقد شهدنا له من خصال نصحكم وقيامه بواجب حقكم .. فانه لا ينفك عن أبواب مولانا امير المؤمنين .. مجتهدا في اغراضكم التى نهج فيها جادة السداد والصلاح) (100) .
- 4 — التعجيل بالجواب الا اذا حصل ما يستوجب التأخير ، وفي هذه الحالة توجه رسالة خاصة تعلم بذلك (ثم عنت لنا بعض أمور تجددت لدينا . فاشغلنا تقاضيتها وتدبيرها الى هذا التاريخ عن المبادرة بتشجيعه لكم في الفور كما هو المراد فكان المقتضى لتأخيرها ما عن لنا من هذه الاسباب كما أنها أيضا سببت في تأخير هذا الجواب) (101) .
- 5 — تمكين بعض المبعوثين الاجانب من رسائل توصى مرسلهم بهم والانعام عليهم (هذا وموجب اصداره اليكم .. أن خديكم القبطان .. مد لعلائنا الرغبة في ان نكاتبكم في شأنه لتفسحوا له من قبولكم محل المراعاة وتبوءه من

(97) م. ص. ت. م — فرنسا — ج 2 — ص 510
(98) نص الرسالة في مخطوط المكتبة الوطنية ببغداد . ص 257
(99) المصدر السابق .
(100) المصدر السابق .
(101) المصدر السابق .

ملاحظتكم وموالاتكم مكان الرعى والمبالاة فاسعفنا رغبته . فعاملوه بما يناسب قصده (102) .

6 — وعند انتهاء مهام السفير يتوصل المنصور بخطاب خاص يعلمه بذلك (وانه اتصل بنا كتابكم .. فوقفنا منه على ما قصدتم اليه .. من استدعاء توجيه رسولكم .. اليكم واشخاصه نحوكم) (103) .

وقد كان السفراء الاجانب يتمتعون في المغرب بحصانة دبلوماسية تشمل اشخاصهم ومنازلهم وكل ما يتعلق بهم (وانه اتصل بنا من قبلكم كتاب .. ووقفنا منه على ما كتبتم فيه لعل مقامنا من ابقاء الحرمة على دار الباشدور دون فرنشيشا و .. والى هذا فاما حرمة الدار فما زالت عنها ولاحالت بل ابقيناها عليها كما كانت) (104) .

كما كان هناك ايضا القائمون بالاعمال ولهم نفس امتيازات اسفراء (وما ذكرتم عن بلتزاربول وانه في هذه الساعة يكون هو الذي يبلغ الينا كتبكم ويعرفكم بها فانه وانكم ما زلتم تبعثون الينا رجلا آخر يكون في مكانه ليستوفى فرضنا واغراضكم فعلى بركة الله فما نحن ننزله بهذه المنزلة الى ان تبعثوا ان شاء الله من يكون في مكانه كما ذكرتم) (105) .

ومن الاعراف الدبلوماسية التي جرى بها العمل زمن المنصور : ان يتقدم السفراء المسلمون على غيرهم للسلام على المولى احمد (وكانت ارسال بنى عثمان ملوك القسطنطينية العظمى وارسال طاغية قشتالة حاضرين .. فاذن لهم فسى السلام .. فتقدمت للسلام اولا ارسال بنى عثمان لمزية الاسلام) (106) .

وان تحضر البعثات الدبلوماسية الاجنبية في المغرب الحفلات الرسمية (.. حضر جمعه العظيم رسول عظيم الملة النصرانية طاغية قشتالة بما كان ساعته بمراكش سفيرا الى حضرة أمير المؤمنين من عند ملكه فاستأذن المقام العلى الامامى ايده الله في البروز يوم اللقاء لمشاهدة شعار الاسلام فاسعف الى ذلك وسار من الحضرة الى مخيم عساكر المسلمين) (107) .

102) المصدر السابق .

103) المصدر السابق .

104) رسالة المنصور — سيانكاس 197

105) المصدر السابق .

106) البناهل . ص 99 .

107) البناهل . ص 60 .

وقد حصل نفس الامر بالنسبة للسفراء العثمانيين ٢ وكانت الارسال الوافدة من جهة بنى عثمان بالقسطنطينية مقيمة بفاس .. فاذن لهم يومئذ بالصعود على سطح الدار المعدة لنزولهم بالرياض من البلد الجديد لها سالوا ذلك (108) .

وفىما يتعلق بطريقة المراسلة التى كانت تتم بين المولى أحمد المنصور وبقية الملوك المعاصرين له ، تؤكد وثيقة معاصرة بأنها كانت تجرى وفق قواعد خاصة وطرق معروفة متفقا عليها . ومن ذلك :

1 — استعمال خط معروف (ثم ان الذي ينهيه اليكم ونقرره لديكم ان هذا الكتاب الواصل من تلقائكم قد تأملناه فوجدنا خطه مخالفا للخط المعتمد من كتبكم) (109)

2 — ان يختم الكتاب بطابع خاص (وطابعه أيضا مخالف لطابعكم) (110) .

3 — وحتى طريقة الكتاب كانت تتم على صورة خاصة (وحتى طيه غير الطى الذي يأتى من عندكم) (111) .

اما لغة المخاطبة ، فالمولى أحمد المنصور لم يكن يستعمل فى رسائله الا اللغة العربية ، وفى دار الوثائق الاسبانية اليوم بسيمانكاس (Simancas)

يوجد العديد من رسائل المنصور الى فيليب الثانى باللغة العربية ومعها ترجمة اسبانية مما يؤكد بأن رسائل المولى أحمد كانت تترجم بالايسكريال قبل تقديمها الى الملك الاسبانى للاطلاع عليها (113) .

وبالمقابل كان الباب العالى يخاطب المنصور باللغة العربية ، بينما ملوك اوربوا يرسلونه بلغاتهم الوطنية (جاءنا اصحابكم ووفدوا على ابوابنا العليسة بكتبكم .. الواردة بخطوطكم .. وبحسب ذلك كتبنا من عندنا لخدم مقامنا .. ليتولى كتبه الينا بخطوطنا لى نفهمه) (114) كما كان السفراء الاجانب يحادثون المنصور بواسطة الترجمان الخاص (115) .

108 البناهل . ص 99 .

109 نص الرسالة . سيمنكاس — اسبانيا — رقم 197

110 المصدر السابق .

111 المصدر السابق .

112 على بعد 12 كم من مدينة (الوليد Villadolid) بالشمال الغربى من اسبانيا توجد قرية (سيمنكاس Simancas) التى تضم خزانها الوطنية ازيد من ثمانية ملايين وثيقة .

113 فى المكتبة الوطنية ببدريد مجموع مخطوط لترجمان الملك الاسبانى الخاص يضم مسودة احدى وخمسين رسالة للمنصور الى فيليب الثانى .

114 نص الرسالة . بالمكتبة الوطنية ببدريد . مخطوط رقم 257 .

115 م. ص. ت. م — فرنسا — ج 2 — ص 512

أما مدى نجاح المولى أحمد في دبلوماسيته ، فقد (جرد أمير المؤمنين إياه
الله صارم عزمه .. وارفف لذلك حد تدبيره .. فلم يزل أمير المؤمنين يسدي نسي
أمرها ويلحم ويسرج ويلجم ويوعد ويعد وبنى ذلك على أساس من المكائد كأنها
لحاصفتها بكل مغان الفتل شدت ليزبل (116) الأمر الذي مكنه من تحقيق مكاسب
سياسية عظيمة وجعل له مكانا خاصا بين معاصريه (ومكث هو في تلك الأمر
سبعة وعشرين عاما ونصفا مخرج فيها عجائب وغرائب من الذكاء والمعرفة بجميع
الاشياء والهمة العلية والسعادة الدنيوية ومواتاة الليالي والايام حتى قال انه ما هم
شيء قط الا يأتيه ونق ما أراد بل فوق ما نوى) (117) .

(116) الفتاوى : مناهل الصفا . ص 114 .

(117) السعيدى : تاريخ السودان . ص 208 .

المظهر الاقتصادي

أظهر المولى أحمد المنصور منذ توليته حرصا كبيرا على توطيد دعائم الأمن في البلاد ، وظل طوال حكمه حريصا على ذلك ، لما للاستقرار من أثر في ازدهار الحياة الاقتصادية وتطورها . وقد حقق المنصور بفضل الأمن النسبي الذي كان يعم دولته الكثير من المنجزات داخل البلاد وخارجها ولاسيما في المجالات الاقتصادية المختلفة (الى أن جاءت دولة أمير المؤمنين أيده الله فرفض التقليد واتسع التوليد والاختراع .. وعظمت الانفة من الاقتصار على الكفاية فجاءت الآثار بادرار الفتوح ونبالة الصنائع وتحكم الحضارة ولطف الاختراع والتوليد وسعة الدرع وضخامة الشكل بحيث لا تشبيه بينها وبين ما تقدم زمانها) (1) .

وعند البحث عن العوامل التي ساعدت الى حد بعيد على ازدهار اقتصاديات المغرب زمن المولى أحمد المنصور ، نجد :

أولا - انتعاش البادية المغربية :

وقد حصل ذلك بفضل الاهتمام بالزراعة والري اذ ادرك المنصور دور الزراعة الرئيسي في الاقتصاد المغربي لسببين أساسيين : وجود الاراضى الخصبة الواسعة المنتشرة في مختلف المناطق المغربية ، ثم النسبة العظيمة من السكان في البوادي الذين يعتمدون عليها ، لذا فقد أولى عناية كبرى بالاراضى الفلاحية والفلاحة بوجه عام ، وظهر ذلك في مظاهر أربع :

(1) البناهل ص 209 .

1 — تنظيم الزراعة ومختلف أنواع المزروعات من حبوب وغلل وفواكه وخضر وزيتون وكربة وتُخيل وغير ذلك من المنتجات التي دفعت السفير الانجليزي (Henry Robert) في المغرب الى الاشادة بها والتقوية بخصوبة الاراضى المغربية وامكانياتها الانتاجية الواسعة (2) .

2 — الاهتمام بالماشية من قطعان البقر والغنم والماعز للاستفادة من عائداتها والخيل والجمال والبغال التي تستخدم للاسفار وحمل الانتقال ، الى جانب الحيوانات الداجنة . وقد أشاد بها السفير الانجليزي أيضا ونوه بثروة المغرب الحيوانية العظيمة (3) .

3 — الاهتمام بالري وسقى الاراضى الزراعية عن طريق استغلال الودية العظيمة والشبكة المائية الغزيرة التي تتوفر عليها الاراضى المغربية : ففى أقاليم مراكش ، كان الفلاحون يستغلون الودية التي تنحدر من جبال الاطلس الكبير لسقى اراضيهم ، وذلك بحفر مجار مائية خاصة واقتنية تحت الارض بما يعرف بالخطارات .

وفى السودان قام المغاربة بتنظيم واسع لعمليات ري الاراضى الزراعية (محمود باشا اخذ فى انشاء نهر اجتلبه من غمره واقتطفه من تياره ويمكن ذلك فى غير ما موضح منه ، وعن قريب ان شاء الله تعود تلك الامصار تزهر على جلق وشط الفرات ويطير صيتها فى الخصب فتثير القاصى والدانى من أقاليم السودان) (4) .

4 — السهر على توزيع الاراضى الزراعية على القبائل لزراعتها والاهتمام بها الى الحد الذي كان يجبر معه احيانا بعض القبائل الرحل فى البادية على سكنى الارض والاستغلال بالزراعة (فيسكنها اهل البادية وأجرى لهم على ذلك من اقطاع الارض ما يكتفيهم) (5) . وقد وزعت الاراضى على المهاجرين الاندلسيين أيضا (واقطعتهم الدولة اراضى نسيجة بالجاناب الغربى من فحصها الانبيح فاغترسوا بها جنات معروشات وغير معروشات وحصلوا

(2) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب : انجلترا . ج 2 ص 325 .

(3) المصدر السابق . ص 327 .

(4) المصدر السابق ص 167 . الفشتالى : مناهل الصفا . ص 167

(5) ابن القاضى : المفتى المقصور . ص 95

من استغلال ذلك الى اليوم على ما أنساهم ذكر وطنهم واعتاضهم مما
فاتهم به (6) .

فازدهرت الحياة الزراعية وتعددت منتوجاتها وكثرت قطعان الماشية كما
نشط العمران بظهور مراكز حضارة في البوادي المغربية .

ب — فتح مجالات اقتصادية واسعة للكسب أمام سكان البادية : اذ زيادة
على أعمالهم الزراعية ، مهد المنصور الى تنشيط الناحية التجارية لدى سكان
البادية وتشجيعهم على أعمال البيع والشراء ، فقد كلف سكان المراكز الحضرية
في القرى المستحدثة بالبادية ، بتقديم كل ما يلزم المسافرين من طعام وشراب
وبالسهر على خدمتهم ، مقابل تعويضات مادية يدفعها المسافرون (وأمرهم ببيع
الشعير والطعام واللحم والسمن والعسل وغير ذلك مما يحتاج اليه المسافرون
ودوابهم) (7) . وفي هذا مكسب مادي لسكان البادية وتشجيع هام للتجارة الداخلية
ومحاولة لاقرار دعائم الامن في البوادي المغربية من جهة أخرى .

ج — اقامة قرى صناعية في البادية ، وذلك نتيجة الاهتمام المتزايد بزراعة
تصب السكر وما تطلب ذلك من اقامة للعديد من معاصر السكر ومصانع :
(وهى الامور التى انفرد ايدى الله بتدبيرها ف جاء للناس منها بنايات الاعجاب) (8)
وقد ازدهر العمران بهذه القرى الصناعية الناشئة (لكثرة ما ضمته من العملة
وحشرفته من الخلق ولا تسل عن هولها ولغط الاصوات بها على عظمة شأنها
وضخامة أحوالها على ضخامة الملك وسعة نزع الدولة) (9) .

وبانتعاش البادية المغربية بوجه عام للعوامل التى أسلفنا (طاب الجنى وذرت
اخلاف الجباية فامتلات بيوت المال وغصت بالحبوب مخازن الاموات) (10) .

وقد لمس العديد من المعاصرين الاجانب ما بلغته البوادي المغربية زمن
المولى أحمد المنصور من ازدهار وانتعاش في مجالات الزراعة وتربية المواشى
والدواجن ومدى تأثير الاحوال الاقتصادية المتطورة على أحوال البلاد وتزايد عدد
السكان في المدن والـبوادي (11) .

(6) البناهل . ص 42

(7) ابن القاضى : المنتقى البصير . ص 95 .

(8) البناهل . ص 297 .

(9) البناهل . ص 40 .

(10) البناهل . ص 209 .

(11) م. ص. ت. م — بريطانيا — ج 2 — ص 437

د - وتجلّى تشجيع المنصور للبادية المغربية في حذفه لضرائب كانت تثقل كاهل الفلاح ومن أهمها (النائية التي ثقل لمخالفاتها للشرع على الاذان سماعها وخرجت عن حد السنة أوضاعها) (12) .

ثانيا - اتساع نطاق الحياة الاقتصادية :

فقد تطورت الصناعة وازدهرت بصفة خاصة : الصناعات التي كانت الدولة المغربية تقوم باستغلالها وتدر عليها أرباحا عظيمة .

ومن أهم تلك الصناعات : صناعة السكر ، صناعة الاسلحة ، عمليات استخراج المعادن ومختلف الصناعات اليدوية والحرف المحلية .

١ - صناعة السكر وتأسيس معامل للدولة :

فقد نمت هذه الصناعة بفضل ازدهار زراعة قصب السكر والتوسع فيها (ثم انطلق العمل وعم الاغتراس بالقصب الاوطان) (13) .

وأهم مزارع قصب السكر كما اثبتت المصادر المعاصرة وأيدتها الحفريات الحديثة : وادي القصب عند مدينة الصويرة ، سهل سوس ، وفي غربي تارودانت ، ثم في وادي ماسة وضواحي كولمين (14) .

علاوة على مزارعه بضواحي طنجة وسبتة وسلا (15) . وهذه المزارع كانت تستقى بفضل شبكة ري خاصة وحرصا من المنصور على تصنيع قصب السكر ، أمر بتوسيع عمليات غرس القصب السكري (وهو اليوم . . . قوي العزم على الاستكثار من المعاصر حتى ينمو العدد ويتضاعف الخراج) (16) .

أنشأ المولى أحمد مصانع سكرية عديدة من أهمها :

أربع مصانع شمالي الاطلس الكبير عند مدينتي شيشاوة والصويرة ، وعشر مصانع بسوس وتارودانت وما حولها (من أعظم آثاره . . . المعاصر السكرية التي

(12) عبد الله كنون : رسائل سعيدة . ص 145 .

(13) المناهل . ص 209 .

(14) مجلة البحث العلمي . العدد الاول . ص 33 .

(15) المصدر نفسه .

(16) المناهل : ص 210 .

ابتدع رسومها واخترعها ببلاد حاحة وشوشاوة من عمل مراكش . . . وشأن هذه المعاصر شأن الخوارق الخارجة عن طوق البشر جناء وعظمة وتوطيد أو تشييدا ، ما شئت من برك رحيية وجفان كالجوابى وقدور راسيات ولوالب فلسفنيات وحركات هندسيات . . . فانطلق العمل وعم الاغتراس بالتصب الاوطان المرتادة له . . . ثم أجرى لاستدارة رحاها العظيمة الاخشاب الجانية الاجرام النهر المعروف بأسيف أنوال (17) .

وجميع مزارع السكر ومصانعه كانت بيد الدولة التى تتعاقد لاستغلالها مع الذميين لمدة معلومة وحسب قدر من المال (وقد قطعت معاقدة الكراء فيها اليوم لطائفة من اهل الذمة حسب مبلغ سنوي) (18) .

ب - مصانع الاسلحة :

لحاجة القوات المسلحة الى الذخيرة والعتاد الحربى ، اهتم المنصور بانشاء هذه المصانع وتطويرها ، واهم هذه المصانع تلك التى كانت بالقصبة الملكية بمراكش (واما ما يفرغ مع الايام من مدافع النار ومكاحلها بدار العدة المائلة قرب ابوابهم العلوية من قصبتهم المحروسة المذكرة بزفير الاكيار وزير الحديد لفتح جهنم) (19) .

وندرج ضمن مصانع الاسلحة : دور صناعة السفن التى عمل المنصور على تأسيسها بالموانئ المغربية ، املا منه فى خلق الاسطول المغربى (ثم صرف همته ايده الله الى اتخاذ الاسطول برباط سلا آمنه الله فتعددت مراكبه . . . وهو اليوم . . . لهذا العهد بصدد الاكثار من الاساطيل) (20)

ج - استخراج المعادن :

هناك بعض المعادن التى كانت تصنع بالمغرب ، وبعضها الآخر الذى كان يصدر خاما الى الخارج ، ومن أهمها : ملح البارود ، ومعادن النحاس والحديد والرصاص ثم ملح الطعام . . . (واذا وصلت الى هضاب الاكر الحديدية والحجرية

(17) المناهل للفشتالى ص 209 .

(18) المصدر السابق . ص 210 .

(19) المصدر نفسه . ص 210 .

(20) المصدر نفسه .

والرصاص المائل كالجبال الراسية والبارود المنبت في الدهاليس الندية والمخابن
الرحبية رايت ما يبذل الفكر ويوجب البهت (21) . ولقد استغل المنصور معادن
الملح المستخرج من الصحراء وتغازي بوجه أخص استغلالا عظيما (ووظف على
هذا المعدن منها مثقالا على كل حمل على جميع الإبل التي تردده وتؤمه من سائر
الاماق وتقصده ، وكانت بحرا لا ساحل له) (22) وكذلك مناجم الذهب
بالسودان (وأوعز مولانا . . . الى مولاة وعامله على البلاد جوذر باشا بملك أمر
معادن الذهب الثلاثة التي اكتفتها هذه الممالك وأمره بالبناء عليها واختطاط
الحصون الجاثمة عليها وترتيب الجيش فيها لحياطتها) (23) .

د - الصناعات اليدوية :

لقد عرفت الحياة الاقتصادية بوجه عام تطورا ملموسا بفضل نشاط الزراعة
والصناعة ، وشمل الازدهار الحرف والصناعات اليدوية كالنجارة (جمع لها أيدي
العملة من صناعات النجارة) (24) والخياطة (وأعلم أنى تركت عند أولئك المعلمين
أعنى بركاض السلالتى برسم ابتنتا) (25) . ومطاحن الحبوب ومعامل الشموع
(ويعكف على خدمة رياض الشموع التي تجلوا محاسن هذه الدعوة الجهادية الذين
يبارون النحل في نسيج أشكالها لطفا وادماجا) (26) ومعامل الحسك (واستحضر
من أنواع الحسك أمام الحضرة كل قوراء مصنوعة من النشب) (27) وآلات
البخور (ومثلت أمام الحضرة الامامية لوقود العنبر آلة ضخمة الشكل فضية
الصوغ بديعة النقش) (28) .

وتؤكد الوثائق المعاصرة بأن المولى أحمد كان يحرص على استقدام المهرة
من الصناع الأجانب مما ساعد على ادخال بعض الصناعات الحديثة الى المغرب
لتعدد مشروعاته العمرانية والحربية (حشد له الصناع وأرباب الحكمة من كل
أرض حتى من بلاد الامرنجة فكان يجتمع فيه كل يوم من أرباب الصنائع ومهرة

-
- (21) نفث المصدر .
(22) المناهل . ص 120 .
(23) المناهل . ص 165 .
(24) المناهل . ص 129 .
(25) الانراني : نزعة الحادي . ص 162 .
(26) المناهل . ص 237 .
(27) المناهل . ص 238 .
(28) المناهل . ص 238 .

الحكمة وجهابذة البناء وأولى المعرفة والكفاية في التثقيق والتشديد ومن سائر الفعلة
واساري الدولة خلق عظيم (29) .

ويجدر بنا التعرض في هذا المجال الى الملاحظة القيمة التي أوردها أحمد
المقري في (نفح الطيب) وهو معاصر ، عن ازدهار الحياة في البوادي والحوضر ،
وعن الدور العظيم الذي قام به المهاجرون الاندلسيون الى المغرب في سبيل
ذلك (ان اهل الاندلس تفرقوا بعد الفتنة في المغرب الاقصى . . . فمال اهل البادية
الى ما اعتادوه فاستنبطوا المياه وغرسوا الاشجار واحدثوا الارحى الطاحنة بالماء
وعلموا اهل البادية أشياء لم يكونوا يعلمونها فكثرت مستغلاتهم وعمت الخيرات .
ومال اهل الحواضر الى المدن فاستوطنوها ففاق اهل الصنائع اهل البلاد وصيروهم
اتباعا لهم ومتصرفين بين ايديهم ومضى دخلوا في شغل عملوه في اقرب مدة وامرغوا
فيه من انواع الحذق والتجويد) (30) .

3 - نمو التجارة الداخلية والخارجية :

1 - التجارة الداخلية :

نمت بفضل الامن والاستقرار ، وليس من شيء يهيب بالتجار الى توسيع
نشاطهم التجاري وأعمال الاستيراد والتصدير ، كاستقرار دعائم الامن والطمأنينة .
والمغرب في عهد المنصور عرف امنا منقطع النظير لما ابدته الدولة من حزم وسلطة
ويفضل ازدهار الزراعة في البادية ثم بسبب نمو الصناعات بالمدن ، حصل تبادل
بين هذين القطاعين : فانتعشت التجارة الداخلية وظهرت في تزايد عدد القيساريات
والفنادق في المدن ، والاسواق الاسبوعية والمواسم الفصلية والسنوية تسمى
البوادي (فقد عمل على تمهيد الطرق على المسافرين بعمارة المنازل والاماكن
المخوفة) (31) .

واعتمادا على شهادات معاصرة فان الاسواق التجارية بكبريات المدن المغربية
كناس ومراكش ، كانت مزدحمة بالدكاكين الملوئة بالبضائع والمنتجات المختلفة ،
وان الشوارع الرئيسية لهذه الاسواق كانت مغطاة ، وذلك لوقاية الزبناء والبضاعة

(29) البناهي . ص 254 .

(30) المقري : نفح الطيب . ج 2 . ص 764 .

(31) ابن القاضي : المنتقى المتصور . ص 95 .

من أمطار الشتاء وحرارة الصيف . وفي البوادي كانت الأسواق تقام في المراكز الهامة حيث تباع فيها الحبوب والماشية والجلود وأنواع البضائع والمنتجات . وقد كان التجار يتومنون بالتجوال بانتظام في مختلف أسواق البادية ويتصدون بوجه خاص المواسم الفصلية والسنوية التي تشبه تماما المعارض العامة وذلك للبيع والشراء ولتبادل المنتجات والبضائع على نطاق واسع جدا (32) (وكثير البيع والشراء في أيامه) (33) .

وهكذا وبفضل جهود دولة المنصور ، اخذ دور التاجر المغربي يبرز تدريجيا كدليل على تطور مرافق الحياة الاقتصادية بالبلاد (وما زال يبيع منها في كل عام بآلاف من الذهب العين حتى صار بذلك في عداد الاغنياء وأهل الثروة والرفاهية) (34) وغير خاف بأن الطبقة البورجوازية المغربية الناشئة كان لها دور رئيسي في أعمال التوسع والفتوحات الخارجية التي قام بها المنصور في الصحراء المغربية وبلاد السودان :

1 — لقد اشداد المنصور بالتاجر المغربي ، اثناء المناقشة التي دارت في مجلس الشورى قبيل فتح السودان ، وقوة جلده وصبره (ثم هؤلاء التجار الخاضعون لغمارها المختلفون اليها يعبرونها بأوقار البضائع الثقيلة واحمال المتاع الجمة بين صدر وورد) (35) . وكان من بين افراد الحملة العسكرية كادلية ومرشدين عدد من التجار المغاربة (الذين اخلقوا بردة الغمر وانفتقوا عينها في التردد في هذا الطريق جيئة وذهابا) (36) .

وبعد فتح الصحراء المغربية وبلاد السودان ، اتسع نطاق التجارة المغربية لتنوع منتجات الاقاليم المغربية والصحراوية والسودانية : فاصبح هؤلاء التجار يتأجرون بمزروعات المغرب ومصنوعاته ، وبملح الصحراء ثم بذهب وتوابل السودان ورقيقه . (وهكذا استقطبت الدولة اليوم لعهد الكريم وتفرقت التجارة) (37) .

(32) م. م. ت. م. — بريطانيا — ج 2 — ص 367

(33) البناهل : ص 229

(34) البناهل : ص 127 .

(35) البناهل : ص 127

(36) البناهل : ص 128 .

(37) البناهل : ص 114 .

2 — وبتأثير البورجوازيين المغاربة ، دخلت دولة المنصور في منافسة وتسابق حاد مع الاسبان الذين احتلوا جزيرة Arguin القريبة من الراس الابيض عند مصب نهر السينغال ، لان هذه المنطقة تمتاز بستراتييجيتها كنقطة اتصال بين المغرب والسودان وبغناها الوافر الزراعى والمعدنى وخاصة معادن الذهب والتبر وقد كان الاهالى في هذه السواحل الصحراوية يحملون المعادن الثمينة الى المغرب او الى تمبوكتو بالسودان ، ولكن احتلال الاسبان للجزيرة واتصالهم بالقبائل الصحراوية المجاورة لها ، قد اخذ يفسد على المغاربة استغلالهم لهذه الخيرات . واعتمادا على ما بين ايدينا من وثائق معاصرة فان المنصور قد دخل مرارا في مفاوضات سرية مع الانجليز للقيام بحملة مشتركة ضد القواعد الاسبانية بغربى فريقية وضد هذه الجزيرة بصفة خاصة وهو الآن ايده الله لهذا العهد من عام سبعة وتسعين واقف على قدم الابهة والاستعداد . . . من جهاد المشركين واغزاء ارضهم في الجنوب . . بمسأكره الامامية) (38) .

3 — كانت الطبقة البورجوازية المغربية تعلق آمالا واسعة على نشر النفوذ المغربى في بلاد السودان واواسط فريقية ، وأكثر ما كانت تهدف اليه هو وضع اليد والتحكم في الطريق التجاري الهام الذي كان يربط بين بلاد السودان والمغرب مع افريقية الشرقية ومصر ، سعيا الى استغلال هذا الطريق لتصرف منتوجات بلاد السودان الخصبة بالدرجة الاولى اي لايجاد أسواق خارجية (وعن قريب ان شاء الله تعود تلك الامصار تزدهوا على جلق وشط الفرات ويطير صيتها في الخصب فتبهر القاصى والدانى من بلاد السودان) (39) .

4 — وما يبرز تأثير الطبقة الغنية الناشئة ، ما قام به المنصور من حذف لجميع الحواجز الجمركية الداخلية (وقد رفع في اقطار ملكه عن رعيته انواع الامكاس كلها كاشعار السلع في المراسى والابواب وغير ذلك من الوظائف السلطانية التى عمت البرايا وعظمت بها الرزايا وكثرت بها البلايا كما هو في سائر البلاد من الامصار والاقطار) (40) .

(38) م. م. ت. م — بريطانيا — ج 2 — ص 44 مناهل الصفا : ص 81 .

(39) المناهل . ص 167 .

(40) ابن القاضى : المنتقى المنصور . ص 28 .

وبين الآونة والاخرى ، كان الحكام السعديون يوجهون نداءات الى ارباب التجارة يحثونهم فيها على التقيد بقوانين الشرع الاسلامى فى كل اعمال البيع والشراء (كتابنا الكريم هذا اسماء الله تعالى نعهد به لكافة التجار اهل حضرتنا فاس حرسها الله تعالى ، معتمدي حوائيت القبة الكبرى من قيسرتها والقبة الصغرى والشماط وما بها من الروائع والجهات ومن يتعاطى الحياكة ونسج البز وثيات الحرير والمتسبين فى اصناف الملح وانواع التجارات ان تكون فعالهم على مناهج الشريعة سالكة . . . وان يقتنوا آثار الشرع العزيز فى بياعاتهم وشراءاتهم ويسيروا على طريقته المستقيم فى كل تصرفاتهم ومعاملاتهم ويتجنبوا الخداع وكتمان العيب ولا يتعاطوا من الامور ما فيه شائبة الشك والريب . . . ولا يرتكبوا الربا ولا ما يجبر الى حرام) (41) .

اما عن طرق المواصلات فقد كانت منظمة ومضبوطة تربط بين اهم المدن والاقاليم ومن شواطئ البحر المتوسط شمالا حتى أقصى السودان جنوبا (فالفاوز والقفار لم يتعذر بها السلوك من كل وجه بل هى سابلة للتجار ومدرج غلهم . . . وهم فى كل صدر يصدرونه يجلبون من الرقيق صنوغا وضروباً . . . وهم يقطعون عرض هذه السباسب سعيا على الاقتدام . . . ويعبرونها باوقار البضائع الثقيلة واحمال المتاع الجمة بين صدر وورد) (42) .

وجميع طرق المواصلات الداخلية ، استطاع المنصور — والى حتما — ان يضبطها ويجعلها صالحة للسفر وأمنة للمسافرين وقوافل التجارة (فقد عمل على تهيئة الطرق على المسافرين بعمارة المنازل والاماكن المخوفة بانزال اهل اخصاص وخيام امر بسكنائها على الطريق وبين المنزلة والمنزلة ما يقرب من اربعة وعشرين ميلا فيسكنها اهل البادية واجرى لهم على ذلك من اقطاع الارض ما يكتفيهم ثوابا على سكنائهم هنالك وامرهم ببيع الشعير والطعام واللحم والسمن والعسل وغير ذلك مما يحتاج اليه المسافرين ودوابهم . . . وان باتت عندهم قافلة يحرسونها طول الليل ويحيطون امتعتهم وان ضاع شئ منها عندهم ليلا ضمنوه لربهم فيما بينهم . . . وان كان ضياعه فيما بين المنزلتين نهارا ضمنه اقربهما منه . . . فتجد المسافر فى حالة ذهابه وايابه كانه فى بيته وبين اهله وقربته ففى

(41) محمد ميارة : نصيحة المفترين . مخطوط بدار الوثائق بالرباط . ك 923 . ص 25

(42) المناهل : ص 127

بلاده . . . وان الانسان يكون في احواله من التبر والياقوت عدد عديد فلا يخشى عليها في الطريق شيئا) (43) . ويدخل ضمن تنظيم المواصلات الداخلية : بناء الجسور والقناطر على الاودية وفي الممرات الصعبة (ومنها بناء القناطر المتعددة كقنطرة تانسيفت كنت بمراكش حين ذهب السيل بنحو الاربعة اقواس منها بناها نصره الله . . . وكذا قنطرة ام الربيع السفلى وكنت أيضا هنالك حين ذهب بها السيل . . . وكذا قنطرة بين المدن بمحروسة فاس بناها أيضا في هذه السنة وأخبرت أيضا أنه مشتغل هذه الايام ببناء القنطرة العظيمة على وادي سبو) (44) .

أما المواصلات مع السودان وغربى افريقيا فقد كانت تتم بصفة خاصة بواسطة الطرق الساحلية التى تنتهى بمدينة المحمدية (تارودانت) ومنها نحو باتى البلاد . وعندما أصبح للمغرب اسطول بحري ، ساهم بدور فعال في ميدان الاتصالات الخارجية مع الشرق والغرب .

والحديث عن التجارة الداخلية وطرق المواصلات يجر الى التساؤل عن وسائل السفر : فقد تطورت وسائل المواصلات باستعمال العربات (وأعمل في نقلها العجل) (45) واتخاذ الابل (اذ هي ملاك السفر البعيد) (46) . وكثيرا ما كان التجار والاجانب منهم خاصة يستأجرون ترجمانا مغربيا يكون دليلا لهم في نفس الوقت ومعه خيم وعدد من المساعدين للسهر على خدمة هؤلاء المسافرين الاجانب ولحراستهم (47) . وهناك أيضا وسائل السفر في البحر والانهر وتعتمد على السفن ، وقد استخدم المغاربة في السودان السفن للتنقل بين ضفاف وادي النيجر وروافده ، كما كان السفراء المغاربة والبعثات الدبلوماسية يستقلون سفنًا عثمانية أو انجليزية واسبانية وغيرها في ذهابهم للقيام بأعمال أنسفارة في الشرق والغرب (خرجنا من فاس . . . فوردنا ثغر تطاوين . . . وأقمنا بالثغر ثلاثة أشهر ننظر ورود السفينة علينا من الجزائر . . .) (48)

أما المولى أحمد المنصور فقد كان يستعمل في أسفاره (افراك) وهو القصر المعد لمنزلهم أيدهم الله بمحلاتهم السعيدة ذو السياج المحيط بالخيام والقباب من

(43) ابن القاضى : المنتقى المتصور . ص 95 .

(44) المقري : روضة الاس . ص 22 .

(45) البناهل : ص 129 .

(46) البناهل : ص 129 .

(47) م. ص. ت. م - بريطانيا - ج 2 - ص 495

(48) الناجورنى : النقة المسكية . ص 13 .

كتان مترف (49) ، ويستعمل أيضا (السياح وهو قصر اتخذه مولانا الامام . . من الخشب المؤلف ذات الالواح بعمل عجيب ممره فيرتمل به في الاسفار القريبة (50) وقد كانت العادة ان تتكفل المنطقة التي يرحل اليها المنصور بجميع حاجياته (فهذه تمام النزالات التي ينزل فيها سيدنا . . . وكل نازلة يدفع فيها أهلها المؤونة حتى يقوم منها) (51) .

ب - التجارة الخارجية :

كان للعلاقات السياسية الواسعة مع الخارج اثر كبير في نمو تجارة المغرب الخارجية ، حيث اقبل التجار الاجانب من جميع اقطار اوربا الغربية الى المغرب ، يشجعهم على التعامل معه انتشار الامن والطمأنينة ورغبة المنصور الملحة في الحصول على الذخيرة الحربية ومختلف انواع الاسلحة (الى ما يجلب مع الاحيان على يد المعاهدين من تجار الحربيين من السيوف الهندية والقسي الرومية والمكاحل النارية) (52) ، وفي تنمية التجارة الخارجية بوجه عام لعائداتها العظيمة على خزينة الدولة ، بالاضافة الى مشروعات المنصور العمرانية وما تطلبت من استيراد لبعض مواد البناء كالرخام مثلا لاستعماله في مباني قصر البديع بهراكش . فقد جلب المولى احمد (المرمر الكثير العدد الضخم المعمد الصافي الجوهر الناصع البياض المعتم من المعادن النفيسة تتبارى التجار من اهل الحرب في نقله وجلبه طوع اقتراح مولانا . . . من قاصية بلاد البنادقة متهاكين في تجشم المشقة البعيدة وتحمل الاعباء الثقيلة ولقيا العنت برا وبحرا في نقل اجرامه الجانية التي يودي حملها السفن الضخمة حتى لربما غرق بعضها) (53) . وقد عقد لاجل ذلك اتفاقا تجاريا مع (دوق طوسكانا فرانسوا الثاني) لجلب المرمر وللاستعانة بالمهندسين والفنيين الايطاليين في اعمال بناء البديع (54) .

ويدخل في هذا المجال : الامتيازات التي كان يمنحها لبعض التجار الاجانب :
(هذا الظهير السلطاني . . بيد حامله المتمسك به التاجر افرنسشوق برير . .

49) البناهل . ص 178 .

50) البناهل . ص 215 .

51) مخطوط خصاص .

52) البناهل . ص 210 .

53) البناهل . ص 260 .

54) مجلة (Hesper's)

— العدد (3 — 4) لعام 1957 . ص 204 .

اننا اضغينا عليه من ارادة اماننا ما يصوغ له ايراد بلادنا والنصرف بتجاره في
مدننا وحدود ملكنا . . . ولا تمد اليه يد الاساءة فيما يتعاطاه من مآربه (55) .
وفي سماحه للتجار الانكليز بتأسيس شركة خاصة عرفت (بالشركة البربريسية)
لتنظيم امور التجارة بين المغرب وانكلترا ، وضبط احوال التجار الانكليز بالمغرب .
وقد بلغ الامر بهذه الشركة ولما يمض غير وقت قليل أن أصبحت تحتكر تجارة
المغرب الخارجية تقريبا وبالاخص تجارة السكر الذي كان تدر منه أرباحا طائلة .

وبالرجوع الى الوثائق العديدة المعاصرة نجد أن التجار الانجليز كانوا ينقلون
الى المغرب : مختلف الثياب الرفيعة ذات اللون الازرق الغامق (برناتا Bernatha
والازرق الفاتح (برايا Bria) ، التي كان المغاربة يصنعون منها
انواعا خاصة من الملابس : كالبرنس (السلهام) والجلابة للرجال ، و (القفطان)
للنساء ، وأن هذا الثوب أصبح رمزا للطبقة الموسرة وكون محلى خاص (56) .
وبالاضافة الى الثياب هناك الطرايش الحمر وانواع الاسلحة والاشخاب
اللازمة لصناعة المعدات الحربية والسفن بوجه خاص (57) .

وبالمقابل فقد كان التجار الانجليز يستوردون من المغرب : السكر الناعم
والغليظ والتمور والشموع ومختلف الحبوب ثم الزرابى ومعادن الذهب وملح
البارود والنحاس وغيرها (58) ، وقد أكد وزير المنصور في (مناهل الصفا) نشاط
التجار الانكليز الواسع في المغرب (بما أمدھا (اي المنصور لايلازبايت) به من
النحاس لتفريغ مدافع النار وأطلق ملح البارود لها بالشراء من ممالكه الشريفة
وامدادها بالمعادن التي اعوزتها ببلادها) (59) ، والامتيازات الكبيرة التي أصبحت
لهم الى حد أن النشاط التجاري قد طور العلاقات السياسية بين البلدين (وتوكلات
(اي ايليزابيت) على منساة الاسناد الى على جنبه والاعتضاد بعظيم سلطانه
والاستمداد من شريف ايلاته وضخامة ممالكه) (60) .

وقد ضبط المولى أحمد المنصور التجارة الخارجية بشكل انه كلما اشترت
الدولة من اي تاجر اجنبي بضاعة ما ، سلم اليه المسؤولين المغاربة وصلا

(55) المكتبة الوطنية - مدريد - مخطوط رقم 257 .

(56) م. ص. ت. م - بزيطانيا - ج 1 - ص 237 .

(57) المصدر السابق .

(58) المصدر السابق ص 239 .

(59) المناهل . ص 193 .

(60) المناهل ص 194 .

يثبت ذلك (الحمد لله قبض بدار العدة من التاجر النصراني ارتوس الانجليز ستة آلاف ومائتين وأربعة وخمسين درعا من النخلى لتفصيل الاخبية لرامات الجند المنصور وقبده للبيان في الثاني والعشرين من محرم اثنين وتسعين وتسعمائة) (61) على أن يتم الاداء فيها بعد .

واذا ما رفع التجار الاجانب شكوى ظلم واعتداء ، أمر المنصور باجراء تحقيق في ذلك (ومما نعرفكم به ان رجلا هنا ما ينتسب الى التجارة من اهل بلادكم قد تعدى طوره ودخل امورا لا تعنيه من اسباب الفساد . . . فسبب ذلك امرنا بسجنه) (62) . والتجار الاجانب عندما كانوا يغدون على المغرب ، يتصدون في الغالب الملاح ، وهو الحى الخاص باليهود والموجود بالقرب من القصبة الملكية ، او يحلون في الفنادق الخاصة المعدة لذلك ، حيث يدمنون واجب الجمارك : والديوانة عبارة عن فندق كبير به مخازن عديدة وفسيحة وله ابواب عظيمة تفتح نهارا وتطلق ليلا (63) .

وفي الملاح او الفنادق يتم اتصال التجار الاجانب مع السماسرة الذين كانوا في الغالب اندلسيين او يهود لهم معرفة والمام باللغات الاجنبية ، وعن طريقهم تتم عمليات بيع البضائع والمصنوعات الاجنبية الى تجار الجملة والتجزئة المغاربة الذين يحملونها بدورهم الى الداخل لبيعها في المدن والقرى وفي الاسواق والمواسم بالبادية .

واهم الموانئ التي كان التجار الاجانب يحلون بها عند قدومهم الى المغرب : آسنى كميناء للعاصمة مراكش ، واكادير بالنسبة لبلاد سوس حيث تزدهر زراعة قصب السكر ، والعرائش كميناء للمنطقة الغربية على الاطلسى وبالنسبة لفاس عاصمة الاقليم الشمالى ، وقد كانت تطوان تعد ايضا ميناء لمدينة فاس وشمالى المغرب . وهناك ايضا موانئ الرباط وسلا واصيلا وازمور وغيرها على المحيط الاطلسى .

وعن العملة المغربية خلال هذا العهد ، تؤكد الوثائق المعاصرة من جهة ، وما بين ايدينا في متحف النقود بمدينة مراكش من جهة اخرى ، بأن المولى احمد المنصور

(61) م. ص. ت. م - بريطانيا - ج 1 - ص 431

(62) مجبوغ مخطوط بدار الوثائق بالرباط . ك 278 . ص 198 .

(63) م. ص. ت. م - بريطانيا - ج 2 - ص 370

قد ضرب نقودا ذهبية وفضية وبرونزية ، في عدة مدن مغربية وخلال سنوات عديدة من حكمه :

1 — وبالنسبة للنقود التي ضربت زمن المنصور ، هناك :

أ — الدينار الذهبى ونصفه : اذ كان (ببابه كل يوم أربع عشرة مائة مطرقة تضرب الدينار) (64) .

ب — الدرهم الفضى : (فكان يتمشى له في كل شهر من لدن مقدمه الى حين منصرفه تسعمائة درهم) (65) .

ج — النقود البرونزية .

2 — وبالنسبة لمراكز ضرب النقود ، نجد : فاس ، مراكش ، المحمدية ، لاكتاوا ، سجلماسة ودرعة (66) :

3 — أما تواريخ ضرب هذه النقود فهناك السنوات التالية الهجرية : 986 — 989 — 992 — 993 — 995 — 996 — 997 — 998 — 999 — 1000 — 1001 — 1002 — 1003 — 1004 — 1005 — 1006 — 1007 — 1008 — 1009 — 1010 — 1011 (67) .

4 — وعن بعض ما جاء في هذه النقود :

أ — غداة معركة وادي المخازن واثـر دخول المنصور الى فاس ، ضربت نقود خاصة باسمه بقيمة الدينار ونصف الدينار الذهبى ، وقد جاء في هذا الدينار : (بسم الله الرحمن الرحيم ، عن أمير المؤمنين المجاهد في سبيل الله أمير المؤمنين أبى العباس ، ضرب بمدينة فاس عام ستة وثمانين وتسعمائة) (68) .

(64) نزعة الحادى . الامرانى . ص 157 .

(65) البناهل 234

(66) Contribution à l'histoire du Maroc par les recherches numismatiques. (J. D. Brethes) Casablanca page 202

(67) المصدر السابق .

(68) المصدر السابق . ص 202 . يحمل هذا الدينار رقم 1450 . وزنه 3.80 ج

ب — وفي سنة 992 هـ ضرب المنصور بمدينة المحمدية ديناراً ذهبياً ، جاء فيه :
(بسم الله الرحمن الرحيم عبد الله الامام أبو العباس أحمد المنصور
بالله بن الامام الخليفة محمد الشيخ المهدي بن الامام القائم . يريد الله
ليذهب عنكم الرجس أهل البيت . ضرب في المحمدية عام اثنين وتسعين
وتسعمائة) (69) .

ج — وفي سنة 998 هـ ضرب المنصور بمراكش ديناراً به :
(بسم الله الرحمن الرحيم عبد الله الامام أبو العباس المنصور بالله
أمير المؤمنين . لا اله الا الله . الامر كله لله . لا قوة الا بالله) (70)

د — وضرب المنصور في عام الف للهجرة بمراكش ديناراً يتضمن :
(بسم الله الرحمن الرحيم عبد الله الامام أبو العباس أحمد المنصور
بالله أمير المؤمنين ابن الامام أبي عبد الله محمد الشيخ المهدي بن
القائم بأمر الله الشريف الحسنی . ضرب بحضرة مراكش عام
الف) (71)

هـ — وفي عام 1004 هـ ضرب المنصور بمدينة لاكتاوا نصف دينار ذهبى جاء
فيـــــــــــــــــه :

(عبد الله أحمد المنصور بالله أمير المؤمنين بن الامام المهدي أمير
المؤمنين . ضرب بحضرة الكتاوا عام أربعة والف) (72) .

و — ومن الدراهم التى ضربها المنصور تلك التى صنعت بمراكش من
الفضة ، وبها :

(لا اله الا الله محمد رسول الله . أبو العباس أحمد المنصور بالله
أمير المؤمنين) (73) .

(69) نفس المصدر . رقم العملة 1466 . وزنه 4ر5 ج

(70) نفس المصدر . رقم العملة 1482 . وزنه 2 ج .

(71) نفس المصدر . رقم العملة 1484 . وزنه 4ر5 ج .

(72) نفس المصدر . رقم العملة 1499 . وزنه 1ر9 ج .

(73) نفس المصدر . رقم العملة 1524 . وزنه 6 ج .

ز - وكاملة عن النقود البرونزية تلك التي ضربت بمراكش عام 1007 هـ (74) .

4 - الادارة المالية في دولة المنصور :

لقد سعى المولى أحمد ، ونجح الى حد كبير ، في توطيد أركان الامن فسي
امبراطوريته الواسعة ، وحرص على فرض سلطانه عليها ، كما أمن وصول جميع
العائدات من مختلف الولايات الى خزائنه بالبلاط الملكي في مراكش .

ومن جهة أخرى فقد أوجد تنظيما دقيقا وجهازا ماليا محكما ائاط بسـه
مسؤولية القيام بالادارة المالية والسهـر على تسيير شؤونها ، ومن أهم عناصره :

1 - (صاحب خزائن الدار) (75) : وهو المشرف على أموال الدولة بالقصر
الملكى والساهر عليها بما يشبه وزير المالية .

2 - الامناء : في المدن والاقاليم ، وقد كان المنصور هو الذي يعينهم وهم
مسؤولون أمامه وحده ، ولا يخضعون لسلطة الولاة والعمال في الاقاليم وكثيرا
ما كان يولى هذا المنصب أحد التجار (أنما وقع الاحسان اليه لأميرين الاول
الذمة لاته بماله فلا يخشى ان شاء الله على مالنا) (76) .

3 - عمال الخراج : المكلفون من قبل المنصور بجمع خراج المناطق (رجع . . .
الى مراكش بمال عظيم الذي حصل من خراج الارض في ثلاثة أعوام) (77) .

4 - عمال مخازن الاقوات .

5 - حفظة اخماس الغنائم .

(74) نفس المصدر . رقم العملة 1509 . وزنه 8ر5 ج .
كان الدينار الذهبى المغربى خلال القرن (16) يساوى (10) ريالات اسبانية من فضة او
(14) درهما مغربيا من فضة (21 درهما في آخر القرن) .
ومن اثنان بعض الحاجيات كما أورد ذلك Diego de Torres البرتغالى الذى اتر بالمغرب
بعد معركة وادى المخازن :

50 كيلو من القمح بقيمة دينارين اثنين .

50 كيلو من الشعير بدينار واحد .

ثمن الكباش الواحد عشرة دراهم .

مجلة Hesperis-Tamuda لسنة 1974 . ص 127 .

(75) البناهل : ص 201 .

(76) البناهل : ص 67 .

(77) السميدي : تاريخ النودان . ص 97 .

6 — المكلفون بدواوين أرزاق الجند (78) .

وجميع الاعمال المالية كانت تدون في دفاتر خاصة (فلما وصل اليه القائد . . . عرض عليه الجرائد رأى فيها كثيرا من الاموال فسأله عنها بعدما دفع له ما معه منها) (79) . ولم يكن المنصور يولى هذه المناصب الا للثقة دون أن يغفل عن مراقبتهم (وفوض له الاشراف على ما يورده الجبابة والعمال ببيوت الاموال ومخازن الاقوات وامتقادها في كل الاوقات ومحاسبة حفظة اخماس الغنائم . . . وضبط دواوين أرزاق الجند والخراج) (80) .

أما واردات بيت المال فأهملها :

1 — غنائم معركة وادي المخازن :

فقد غنم المغاربة الكثير من الكنوز والنفائس ومختلف المعدات الحربية والمؤن والذخيرة بعد انهزام الحملة البرتغالية ، ولعل أهم ما غنمته دولة المنصور آلاف الاسرى من مختلف الاجناس الاوربية (وناهيك من يوم أجلى عن . . . ثمانين الفا من المشركين ما بين قتيل وأسير حسبما تقرر في موضعه) (81) . ويأتى في طبيعة الاسرى كبار القوم البرتغال (اكابر دولتهم واقتنائهم وبطارقتهم وقمامستهم واساقفتهم) (82) الذين افتدى البعض منهم مقابل اموال عظيمة (الى خديم ابوابنا العالية القسيس مرين . . . هذا وإن موجب اصداره اليكم يصلكم التاجر افرنستق برين وصاحبه افرنستق بوطلشطه تعطونها احدى وعشرين ألف اوقية وخمسمائة اوقية وخمس وستين اوقية . . . تعطونها ذلك من قابل ما ترتب لنا بذهبتكم) (83) .

ويمكن القول : ان الامجاد التى شيدها الملوك البرتغال طوال قرنين والثروات العظيمة التى تكسدت خلالها فى خزائن لشبونة قد اضعافها (دون سياسيتان) فى معركة وادي المخازن وما تبقى منها دنع كتعويض لافتناء أسرى المعركة فى المغرب .

(78) . مجموع مخطوط بدار الوثائق بالرباط . ك 278 . ص 77 .

(79) السعيدى : تاريخ السودان . ص 97 .

(80) . مجموع مخطوط بدار الوثائق بالرباط . ك 278 . ص 77 .

(81) المناهل . ص 39 .

(82) المناهل . ص 170 .

(83) المكتبة الوطنية — مدريد — مخطوط رقم 257 .

2 — عائدات البلاد المفتوحة وبالأخص بلاد السودان (وهو اليوم أيده الله لهذا الجهد . . . قوي الأسر بحمد الله وافر العدد والممدد مراش الجناح بما أتيح لسيوفه المظفرة من الاستيلاء على الممالك السودانية المعينة بخراجها المستبحر ومعادن الذهب على التوسيع في الاتفاق الذي لا يخشى معه عيلة ولا فقرا) (84) .
واعتمادا على ما حفظته لنا المصادر المعاصرة ، فإن استغلال المنصور لبلاد السودان قد ظهر في عدة نواحي :

فعند انهزام أسكيا اسحاق الاول طلب الصلح من المنصور وقدم (بين يدي نجواه هدية مولانا الامام المنصور . . . وهي تشتمل على عشرة آلاف مثقال ذهبا ومائتين من الرقيق) (85) .

وعندما استولى محمود باشا على مناطق واسعة من السودان (جمع من الاموال والمتاع والاثاث اللاتي لا يحصيها الا الله . . . ولم يبعث للسلطان مولاي أحمد الا مائة الف ذهبا) (86) .

وتوصل المنصور أيضا من الباشا محمود (بائني عشر مائة مملوك من الجواري والغلان وأربعين حملا من التبر وأربعة سروج من الذهب واحملا كثيرة من العاج واللينوزوكور غالية وقطوط الغالية وفخائر السودان فتذخر من ذلك مولاي أحمد الذهبي وقوي ملكه وبقيت جباية السودان ثابتة كل سنة) (87) .

ولما رجع القائد الحسن بن الزبير حمل معه خيرات كثيرة (رجع الامين القائد الحسن بن الزبير الى مراكش بمال عظيم الذي حصل من خراج الارض في ثلاثة أعوام) (88) .

أما جودر باشا فعند عودته نهائيا الى مراكش بعد غياب طويل بالسودان ، حمل معه (عشرة آلاف عبد وعشرة آلاف جارية كلهن في سن البلوغ وأربعمائة حمل من التبر والف . حمل من عظم الفيل وكسوة السودان وطرهه وأربعة أنيال . . . فكان دخول جودر باشا لمراكش يوما مشهودا) (89) .

(84) البناهل . ص 197 .
(85) البناهل ص 147 .
(86) السميدي : تاريخ السودان . ص 79
(87) المصدر السابق . ص 83
(88) المصدر السابق . ص 87
(89) الامرائي : نزعة الحادي . ص 197 .

وجه منصور باشا حاكم السودان الى المنصور سبائا كثيرة وغنائم عظيمة لا تحصى (ونؤكد عليكم أن تنظروا فيما عليه استوليتم من ذخائر العبد نوح وأثائه ، وجميع امتعته وآلاته ، فكل ما يليق من ذلك بمقامنا العلى توجهه لابوابنا الشريفة وتسديه لمثابنا العلية المنيفة بحال الفور والبدار . . . وأولاد مسكية فالذكور منهم أبعث بهم كافة لمقامنا العلى وأما الاناث . . . وكان فيهن من تليق بمقامنا العلى أبعثها والا فلا) (90) .

وقد شمل الاستغلال المغربى لبلاد السودان الميادين الزراعية أيضا ، اذ زرعت الاراضى الخصبة (التى تغل ضروب المزارع وتنظم عليها الحقائق الغلب من البساتين ومعروش الشجر والثمار والادواح الاشبه ملتقة الاغصان والرياض المفوفة الخمائل الموشحة البرود بضروب الزهر الغض والرياحين التى يمكن اتصالها فراسخ وبردا فتعنى على واسطة الاقاليم زكاء نبت وكرم تربة وجوم اقوات وحبوب وفواكه جنية وقطونها دانية) (91) .

وهكذا انطلق المنصور بعيدا فى استغلال خيرات السودان و (حمل له من التبر ما يغير الحاسدين ويحير الناظرين حتى كان المنصور لا يعطى فى الرواتب الا النصار الصافي والدينار الوافى . . . ولأجل ذلك لقب بالذهبي لفيضان الذهب فى زمانه) (92) .

3 — استثمار المناجم المختلفة : ومن أهمها :

أ — بالسودان : مناجم الذهب التى (اكتنفتها هذه الممالك . . . واختطاط الحصون الجائئة عليها وترتيب الجيش فيها لحياطتها) (93) .

ب — بالصحراء : مناجم ملح الطعام فى تغازي وغيرها (نقد وظف على هذا المعدن منها مثقالا على كل حمل على جميع الابل التى تردده وتؤمه . . . وتضاعف خراج المعادن) (94) .

(90) دار الوثائق بالرباط . مخطوط — ك 278 . ص 180 .

(91) المناهل . ص 167 .

(92) الامرائى : نزعة الحادى . ص 184 .

(93) المناهل ص 165

(94) المناهل ص 120

ج - بالمغرب : معادن النحاس والحديد والرصاص وملح البارود وغيرها (بما أمدها به من النحاس لتفريغ مدافع النار وأطلق ملح البارود لها بالشراء من ممالك الشريفة وإمدادها بالمعادن التي أعوزتها ببلادها) (95) .

4 - عائدات مصانع السكر :

وقد كان الظميون هم الذين يقومون باستغلالها مقابل قدر معلوم من المال في كل سنة (وقد قطعت معاهدة الكراء فيها اليوم لطائفة من أهل الذمة حسب مبلغ سنوي) (96) ولعائداتها الواسعة أنشأ المنصور العديد منها (وناهيك من أمام يستنتج بسديد رايه . . . هذا القدر من الخراج الوافر الذي لا يزال بيت المال هنيئا بمرى أخلافه مع الأيام أن شاء الله بباب دار الملك . . . عفوا من غير احتياج الى ما تحتاج اليه الجباية من تجهيز العساكر المعينة على انتزاع نواجدهم) (97) .

5 - مداخيل الديوانة والمكوس :

وقد وصلت الى 30 ٪ على الواردات و 10 ٪ على الصادرات (98) ، وفي الداخل ما قيمته ربع دينار عن حمل (وان الانسان يكون في احواله من التبر والياقوت عدد عديد . . . ولا يعطى على ذلك كله الا ربع دينار عن كل حمل في باب المدينة فقط) (99) .

6 - التلزييم :

اذ كان المنصور يعمد الى تلزييم الولايات (لكن انما وقع الاحسان اليه لامرين الاول الذمة لانه بماله فلا يخشى ان شاء الله على مالنا الثاني ان خراج درعة سهل معلوم) (100) .

(95) البناهل ص 193

(96) البناهل ص 210 .

(97) البناهل ص 210

(98) م. ص. ت م - بريطانيا - ج 1 - ص 347

(99) ابن القاضى : المنتقى المنصور . ص 96 .

(100) الامرانى : نزعة الحادى . ص 162 .

7 - الخراج أو عشر المنتوجات الفلاحية :

وقد كانت تدفع من نوع المحصول ، ويدخل هنا (عشر الزيت . . . لاستئثار خزانة السلطان بها في سائر الامق المراكشى) (101) .

وهناك الضرائب المختلفة المفروضة على انواع التجارة من حوانيت وأرحية وإمران ودور معاصير الزيت والجنات والعيون والسواقي وملازم الابواب والرحاب وملازم التجارة وضريبة الكانونة (فرض عليهم بيضة الدجاجة لكل كانونة . . . ثم جعل خمسة عشر كانونة الدخان بسرجة ليسهل طريق المخزن على عماله وعلى الدفع . . . وفرض السلطان الذهبي على القائد ثمانى مؤزونات لكل سرجة عام بعام) (102) .

ونشير في هذا المجال الى ان المولى احمد كان قد قام بالقاء بعض الضرائب واعمال السخرة التى منها (النائبة التى ثقل لمخالفتها للشرع على الاذان سماعها وخرجت عن حد السفة اوضاعها . . . وبحسب هذا رأينا . . . ان نجري وظيفتها اللازمة على قوانين الشرع . . . ذلكم بان يكون سبيلها فى الفرض على اقطاع ما تحت ايديكم من الارض حتى تنتهى الى ما انتهت بحسب الفريضة على الارض اقسامها) (103) .

ومن اصلاحاته فى هذا المجال ايضا انه (رفع فى اقطار ملكه عن رعيته انواع الامكاس كلها كاعشار السلع فى المراسى والابواب وغير ذلك من الوظائف السلطانية) (104) حرصا منه على تطوير الاقتصاد المغربى ولاسعاد عامة الناس .

اما اوجه صرف هذه الاموال : فالمنصور كان مطلق التصرف فى الانفاق ، وجميع اموال الدولة بين يديه يصرف منها على حاجياته ولتسيير امور الدولة ثم لتجهيز القوات المسلحة المغربية الساهرة على سلامة البلاد وتدعيم أسس الامن باقطارها .

(101) البناء - ص 229 .

(102) مخطوط خاص معاصر .

(103) رسائل سعدية - ص 145

(104) ابن القاضى : المبتقى المتصور . ص 28 .

ومن أوجه صرف الاموال أيضا المشروعات الكثيرة التي قام بانجازها فى
مياادين الزراعة والصناعة والتجارة وفى المنشآت العمرانية المختلفة فى شتى
المدن ، والتحصينات العسكرية التى لا تحصى ولتشجيع العلم والعلماء .

ويضاف الى جميع ذلك انفاقه الواسع على الرعاية فى مختلف الظروف
والمناسبات (وكان لمولانا أمير المؤمنين ايدى الله صدقات فاشية واسعة عظيمة
الفائدة يجريها على ايدي ثقات من رجاله فمنها الاموال التى يخرجها ختم كل
رمضان ويعم بها ذوي الحاجات . . . ومنها المهرجان الذى يقيمه يوم عاشوراء كل
سنة لختان ذرية ضعفاء من مساكين الحضرة واحوازا . . . وأما ما جرى على
يده ايدى الله فى سائر الاوقات من انواع البر والصدقة ووجوه الاقتراب والزلفى
من مال فى سبيل التوسعة على الفقراء يقسمه وطعام فى اوقات المجاعة يخرج
وديون غرماء مغاليس تقضى ورقاب ارقاء تفك واساري تفتدى فلا يدخل تحت
ضبط) (105) .



وهكذا وبفضل حزم المنصور وحرصه على تنظيم ادارته السياسية والاقتصادية
اجتمع له ما لم يتوفر لغيره : جاه وعظمة وغنى ، مما ساعده على تحقيق الكثير
من مشروعاته فى الداخل والخارج : اذ ازدهرت احوال البلاد فى شتى النواحي
الاقتصادية وانعكست تأثيرات ذلك فى معالم الغنى والرفاهية التى اخذت تشمل
نواحي مختلفة من مظاهر الحياة الاجتماعية والعمرانية وبالنسبة لمختلف طبقات
الشعب المغربى ، الى الحد الذى لقب معه المولى احمد (بالمنصور الذهبى) واتصفت
دولته بأنها (قد اثرت العديم واكسبت المحروم) (106) .

(105) البناهل . ص 303 .

(106) البناهل . ص 146 .

ولم يخرج المنصور في سياسته الاقتصادية بوجه عام عما كانت عليه دول أوروبا الغربية المعاصرة فقد كانت فلسفة العصر الاقتصادية تهدف الى استغلال الاقتصاد لتتوية الدولة اي (الاقتصاد للقوة) (107) . ولتكون الدولة قوية يجب أن تتوفر على ثروات عظيمة من الذهب والفضة والمعادن الثمينة ، وان تسعى بشتى الطرق لجمع هذه المعادن والحيلولة دون خروجها من البلاد . وهذا عين ما هدف اليه المولى احمد : اذا استغل اقتصاديات المغرب لتتوية دولته : وكنز الذهب والفضة لتبقى الدولة عظيمة وقوية وليحسب لها الجميع كل الحساب ، فيرهبها العدو ، ويطلب الصديق ودها وعطفا (كان جماعا للمال مستكثرا من ذخائر الملك مولعا باقتناء نفيسها طامح العين الى كل مرمى بعيد) (108) .

107 : تاريخ المذاهب الاقتصادية ص 67

108 : البناهل . ص 25 .

الأحوال الاجتماعية

كان للامن والاستقرار النسبيين اثرهما الكبير في ازدهار معالم الحياة الاقتصادية في المغرب وبالتالي في تطور مظاهر المجتمع المغربي زمن المولى احمد المنصور ، اذ امتزجت تيارات حضارية مختلفة : تركية ، أندلسية ، أوروبية وسودانية مع مظاهر الحضارة العربية الاسلامية التي كانت تطبع المغاربة في كثير من نواحي حياتهم .

وقد نتج عن هذا الاتصال أن اخذت انماط الحياة الاجتماعية تتطور وان كان ذلك لم يحصل في كل البلاد للتباين الحاصل بين المدن والقرى . واكثر ما ظهرت هذه التأثيرات الخارجية في المدينة والمدن الكبرى المغربية بوجه خاص .

وسنحاول التعرف على الخطوط الكبرى للتيارات الخارجية التي اثرت في المجتمع المغربي وبرزت بعض معالمها زمن المنصور أولا ، ثم ننفذ منها الى دراسة الظواهر الاجتماعية المختلفة ثانيا ، وذلك للتوفيق على الكثير من معالم المجتمع المغربي وكشف النقاب عنها .

1 - التأثيرات الخارجية :

أ - فالأتراك العثمانيون بلغوا أوج مجدهم السياسي خلال القرن السادس عشر ، وقد تطورت لذلك مظاهر حضارتهم وكانت القسطنطينية تعد من أهم مواسم العالم مجدا وحضارة . وعندما زار المولى احمد الجزائر العثمانية كلاجئ سياسي زمن حكم ابن أخيه محمد المتوكل ، تعرف على الكثير من نواحي الادارة والحكم والحضارة عند الأتراك ، وسمى بعد توليته الحكم الى ادخال عدد كبير منها الى المغرب (كانت سيرة الخلفاء من اول الدولة الى أيام المتوكل سيرة مطلقة لم

تحفظها قوانين ولا قيدتها ضوابط بل كانت الامور مسترسلة جارية على مقتضيات الحال بها كانت الدولة عربية سادجة غير مرتاضة للقوانين التي تملك زمامها وتملك عن الاسترسال عنانها الى أن صار الملك والخلافة للمولى . . . المنصور ايده الله . . . فأحال الصبغة وألف الطباع ولم الشعت . . . وجعل بين العرب والعجم رحم الخدمة الواصلة (1) .

فما هي التأثيرات التركية ؟

لقد اختلفت التأثيرات التركية وتعددت مظاهرها ، واكثر ما تجلت في الميدان العسكري لان المنصور هدف منذ توليته الى تكوين جيش مغربي حديث على غرار الجيش التركي (الانتكشارية) فقد (اصطفى من العجم موالى انتنتهم نعمته وربتهم تربيته فنجبت طوائف عديدة ليس منهم فتى الا أضخم حالا واعظم شانا وجلالا) (2) ، أي أن المنصور قد عمد الى تربية الصغار على غرار ما كان الامر عند الاتراك بالشرق وكون منهم فرقا عسكرية نظامية اتخذها من الاتراك والاندلسيين والعلوج والسودانيين . وما دام المولى أحمد قد اقتبس النظم المتبعة عند الانتكشارية ، لذا فقد اخذ عنهم بعض الالقاب والرتب ، انها الملاحظ هو وجود القاب خاصة عند الجنود المغاربة ، فهل المنصور هو الذي ابتدعها ؟ (واخترع الالقاب والاسماء ليمتاز بها البعض من البعض) (3) .

وفيما يتعلق بوضعية الاتراك داخل المجتمع المغربي ، نلاحظ بان هؤلاء كان لهم في مدينة مراكش العاصمة حى خاص نظرا لعاداتهم وتقاليدهم ولغتهم الخاصة ، ولكن مع الايام أخذوا يتفاعلون مع السكان تدريجيا لعامل الدين الاسلامى الذي يجمع بينهم ، فأخذ عنهم المغاربة نظما وعادات فى المأكل والمشرب والملبس وفى ميدان البناء والعمران ، ولا تزال حتى اليوم بعض المناطق بمراكش تحمل أسماء تركية مثل (حى الدباشى) نسبة الى القائد الدباشى التركى أحد قادة المنصور (4) .

(1) بناهل الصفا للشنتالى . ص 200

(2) البناهل . ص 201 .

(3) المصدر السابق .

(4) (دوبردان) : مراكش ص 267 P . . . Marrakech : Deverdun

ب - أما الاندلسيون :

فقد كانت تأثيراتهم أعظم من أي عنصر خارجي آخر ، بحكم عامل الدين الاسلامي أولا ، والجوار ثانيا ، ولأن المغرب والاندلس تبادلا التأثيرات السياسية والحضارية منذ الفتح العربي الاسلامي . وعندما اخذت اوضاع الاندلس تضطرب ، قصدت المغرب وفود المهاجرين الاندلسيين وتزايدت هجراتهم بعد النكبة الكبرى وسقوط غرناطة (1492 م) . اذ انتشروا في جميع المدن والقرى واستقروا خاصة في بعض المدن مثل تطوان وفاس ومراكش والرباط وغيرها ، وقد آواهم المغاربة وتفاعلوا معهم الى حد بعيد (لما انقرضت دولة الاسلام بالاندلس . . . نجا من استتفك من ذل الكثر . . الى بلاد المسلمين بالعدوة . . واقطعتهم الدولة اراضى فسيحة بالجانب الغربى من فحوصها الاصح فاغترسوا بها جنات معروشات وغير معروشات وحصلوا من استغلال ذلك الى اليوم على ما أنساهم ذكر وطنهم واعتاضهم مما فاتهم به) (5) .

وكحقيقة تاريخية هامة نشير الى أن وجود الاندلسيين بالمغرب قد اثر كثيرا على حركات الجهاد التي عمت المغرب في أواخر القرن الخامس عشر وخلال القرن التالي في البر والبحر وغداة الغزو الاجنبى الاسبانى - البرتغالى للسواحل المغربية بوجه خاص ، وكان للاندلسيين أيضا دور في قيام الدولة السعيدية وتوطيد دعائمها في المغرب ، سيما وأن الحكام السعديين ما فتئوا يعلنون عن عزمهم على استرداد الاندلس : مردوس الاسلام المفقود .

وإذا كان من الصعب استقصاء جميع التأثيرات الاندلسية في المجتمع المغربي ، فاقنا نكتفى بالإشارة الى أن العديد من مقومات المجتمع المغربى الحديث ترجع في أصولها الى المهاجرين من الاندلس ، (أن أهل الاندلس تفرقوا بعد الفتنة في المغرب الاتصى . . . فمال أهل البادية الى ما اعتادوه فاستنبطوا البياه وغرسوا الاشجار وأحدثوا الارحى الطاحنة بالماء وعلموا أهل البادية أشياء لم يكونوا يعلمونها فكثرت مستغلاتهم وعمت الخيرات ، ومال أهل الحواضر الى المدن فاستوطنوها ففاق أهل الصنائع أهل البلاد وصيروهم أتباعا لهم ومنصرفين بين

أيديهم ومتى دخلوا في شغل عملوه في اقرب مدة وافرغوا فيه من أنواع الحنق والتجريد (6) .

ج - وعن التأثيرات الأوروبية :

نذكر بأن المغرب زمن المنصور قد دخل في السياسة الأوروبية للدور الهام الذي لعبه المولى احمد في حفظ نوع من التوازن بين الشرق والغرب من جهة وبين دول الغرب الكاثوليكية والبروتستانتية من جهة اخرى ، ففتحت لذلك ابواب المغرب امام الاجانب الاوربيين من مختلف الجنسيات ، الذين وصلوا بصفة سفراء وبعثات دبلوماسية او متفاوتين ، ثم بشكل تجار نظاميين أو مهريين ، كما قام البعض منهم بالرحلة الى المغرب للمغامرة والتجسس ، في حين ان قسما آخر قد تعاقد مع الدولة للعمل بالمصانع والمعامل . وهناك الاسرى ورجال الدين المسيحيين الذين كانوا يقومون بعمليات انتكاك الاسرى وتبادل المسجونين .

وبفضل هؤلاء الاجانب الذين زاروا المغرب خلال عهد المنصور لسبب من الاسباب ، ثم بفضل ما كتبه عن دولة المولى احمد وعصره في مختلف النواحي ، استطعنا التعرف على الكثير من مظاهر الحياة المغربية وان كان ذلك يتصل احيانا بالمبالغة او التحامل ، ويدل من جهة اخرى على جهل كبير بحقيقة الامور ، غير ان مقارنة ما كتبه غالبا ما تساعدنا على الوصول الى حقائق هامة وتكشف لنا النقاب عن خطأ بعض الاخبار وعدم صحتها .

فالدبلوماسيون الاوروبيون كانوا يجدون من المنصور وحكومته كل ترحاب وحسن استقبال مما جعلهم يشيدون بالاعراف الدبلوماسية المغربية التي تضمن لهم حصانة تشمل اشخاصهم ومنازلهم وسائر مرافق حياتهم (انه اتصل بنا من قبلكم كتاب . . ووقفنا منه على ما كتبتم . . من ابقاء الحرمة على دار الباشدر . . . فاما حرمة الدار فما زالت عنها ولا حالت بل ابقيناها عليها كما كانت) (7) .

واما التجار فقد كثر عددهم بالمغرب للارباح الطائلة التي كانوا يجنونها من متاجرتهم مع المغاربة ، وبحكم التعامل اليومي فان هؤلاء التجار الاجانب قد

(6) المقرئ : نوح الطيب . ج 2 . ص 764

(7) المكتبة الوطنية بباريس - مخطوط رقم 257

تعرفوا على عادات مغربية كثيرة وتقاليد مختلفة ، كما أن المغاربة بدورهم قد اطلعوا على مظاهر حضارة أوروبية — وان كان ذلك في نطاق خاص — وتعلم بعضهم لغات أجنبية أيضا .

ومن الاوربيين الذين استعربوا في المغرب : الفرنسي Arnoult de Liste (8) الذي استقر بالمغرب بين 1588 — 1599 م ، وتعلم اللغة العربية الى درجة انه أصبح استاذاً للغة العربية في Collège de France بباريز ، ثم الفرنسي Etienne Humbert (9) الذي وصل الى المغرب سنة 1598 وتعلم العربية واتقنها ، ولما عاد الى فرنسا حمل معه كثيراً من المخطوطات العربية الهامة كما أصبح استاذاً للعربية بكلية الطب في باريز .

على أن الاوربيين الذين اختلطوا كثيراً بالمغاربة : هم أولئك الذين كانوا يعملون في المصانع ومختلف المعامل كخبراء وصناع مهرة وعمال (حشد له الصناع وأرباب الحكمة من كل أرض حتى من بلاد الافرنجة) (10) ، والاسرى بحكم استخدامهم وتسخيرهم في شتى مرافق الحياة المغربية ، ومهما قيل عن معاملة المغاربة للاسرى الاجانب فقد امتازت بكثير من التسامح ، مما لم يكن له نظير في اوطانهم بأوروبا حيث التعصب الديني الاعمى ، وأعمال الذبح والقتل لمجرد الشك والريبة .

د - إما التأثيرات السودانية :

فانها لم تترك أثراً حضارياً لتخلف البيئة السودانية ، ومع ذلك فإن عشرات الآلاف من السودانيين الذين حملوا الى المغرب ، قد أحدثوا نوعاً من التغيير في المجتمع المغربي ، إذ أخذنا نجدهم كمستخدمين في المنازل والمتاجر والمصانع ، وكأماء وجواري ، ثم كجنود في صفوف القوات المحاربة ، علاوة على استغلالهم بفاعة عند تجار الرقيق (. . . وبالسواد الاعظم المستاق من رقيقها على تسخير المجازيف الثقيلة بالاساطيل) (11) .

(8) مراكش : دوفردان . ص 342

(9) المصدر السابق ص 343 .

(10) البناامل . ص 254 .

(11) البناامل . ص 197 .

ومن تأثيرات السودانيين في المغرب : عادة التدخين (. . . وبسبب دخولهم . . .
ظهرت هذه العشبة الخبيثة المسماة تبغة لان السودان الذين قدموا . . . يشربونها
ويزعمون أن فيها منافع فشاعت عنهم في درعة ومراكش وغيرها من بقاع
المغرب (12) .

هذه هي أهم العناصر الخارجية التي تفاعلت مع المجتمع المغربي ، وبديهي
أن هذه التأثيرات لا تظهر للعيان الا بعد اجيال ، وليس تعرفنا عليها الا للتأكيد بأن
المجتمع المغربي في عهد المنصور لم يكن منعزلا عن التيارات الخارجية التي تفاعل
معهما وتأثر بها . وبان المغاربة قد امتازوا بالتسامح والرغبة في الاتصال بغيرهم
والسعى الى طلب المعرفة للنهوض بالبلاد ولتطوير شؤون حياتهم . فما هي أهم
مظاهر المجتمع المغربي ؟ وما الاعراف والتقاليد التي كانت سائدة بالبلاط المنصوري
والمتبعة في المناسبات الرسمية والحفلات الخاصة ؟

يعد المؤرخ المجهول (لتاريخ الدولة السعدية) من الذين انفردوا بوصف
المولى أحمد المنصور ، فقد ذكر بأنه (كان أسمر اللون غائر العينين وأمر اللحية
له شروط على خده اليسر غليظ الجسم جهير الصوت له لثة في كلامه يبدل الشين
المعجمة سينا مهمل ، وأمر الثياب يسحبها بالارض حتى تغطي أقدامه ، يكساد
في مشيه أن يطأ على كعبيه) (13) .

كان الخليفة المنصور يحيى في بلاطه وبين أفراد عائلته حياة خاصة كأمير
للمومنين تدين لطاعته شعوب وأجناس عديدة ، وكامبراطور قوي وغنى تخضع
لسلطانه كثير من الولايات والاقطار في غربي إفريقية وبلاد السودان .

نفى داخل القصر الملكي هناك :

— ترمانية الدار : وهي المكلفة بالاشراف على الاماء والجواري اللواتي يقمن
بخدمة نساء القصر (الحريم) . (واستدعوا أم المان ترمانية الدار واعطه
برسم دارنا وأمرها أن تعطيه لهن) (14) .

(12) نزهة الحادي ، الامرائى . ص 146

(13) تاريخ الدولة السعدية . المؤرخ المجهول . ص 64

(14) نزهة الحادي : الامرائى . ص 162 .

- صاحبة بيت الثياب : المسؤولة عن خزائن ثياب القصر وعن الادوية ايضا
(. . . أن يخرج لك من عند صاحبة بيت الثياب القدر المحتاج) (15) .
- كبير الموالى العبدى : المكلف بالاشراف على الخدم الموجودين بالقصر
(. . . الى قائد القصر وكبير الموالى العبدى بأبواب دور الخلافة عنبر
الخصمى) (16) .
- قائد الرواء : وهو الذي يسهر على خيول القصر (عثروا على بغل رجل
عليه سمة دواب أمير المؤمنين . . . فرفعوه الى قائد الرواء) (17) .
- خدام القصر : المكلفون بالسهر على خدمة الخليفة داخل القصر (واستكنائهم
في خواص أمور الملك والثقة بأمانتهم على المهجة وانتقاهم للتصرف بين يديه
وخدمه بساطه) (18) .
- وقد كان خدام القصر على مراتب باعتبار المهام التى يقومون بها ، فهناك :
الشنشيرية : (وهم الذين يتولون مناولة لطعامه ونسعا ورفعها وغسلا
ومسحها) (19) .
- القبجية : (وهم حفظة الابواب وحراسها . . . وخدمة سريره الكريم
وانماط جلوسه وسدنة كرسيه) (20) . وتناط بهم أيضا حراسة (الابواب ليلا
وتطوف على مساييف السور المحيط بقصور الخلافة) (21)
- الشواش : (وهم الطائفة التى تتولى ضبط . . . ولها مكان فى المناوبة بين
الطبقات المرتبة للامانة أبواب الخلافة) (22) .
- اما قاعة عرش المنصور ، فيوجد بها سرير الملك (ذو التاج المذهب الفاره
اللامع البروق لشمائها على بعد) (23) .

-
- (15) المصدر السابق .
(16) البناءل . ص 200
(17) البناءل . ص 198 .
(18) البناءل . ص 202
(19) البناءل . ص 202
(20) المصدر السابق
(21) المصدر السابق .
(22) البناءل . ص 178 .
(23) البناءل . ص 202 .

وعندما يخرج المنصور من القصر للذهاب الى المسجد الموجود داخل القسبة الملكية او للتجوال داخل حدائقها ، يحمل المظلة العظيمة قائد فرقة البياك (وهم اهل القائنس الصفرية المذهبة ذوات الاعراف من ريش النعام الملون) (24) ، وتسير عن يمينهم وشمالهم فرقة السلاق (وهم اهل القلائس الطويلة البينة) (25) ، ثم الفرقة المعروفة (بلبردروش وهم اهل اللقايف وهى رماح قصار غليظة المعصى مغطاة بالحرير . . . ومرصعة بمسامير بيض) (26) .

اما عند خروج الخليفة الى صلاة الجمعة او العيدين او لحفل رسمى ، فإن العساكر تمتد (امام موكب العظيم حبلين يتقدم الحبلين لواء من كل واحد منهما عند منتهى الحبل وكل قائد من قواد عساكر النار يقف عند انبعاث حبل جيشه تحت الويته محفوظا بجيش من رؤساء جنده اهل الخيل الذين يدعون باكباشيات فاصلا بذلك بين جيشه وجيش من يردفه من خلفه) (27) .

وقد جرت العادة (ان يتقدم أولا جيش السوس ثم يردفه جيش الشراقة . . . ثم يردفهما العسكران العظيمان : عسكر الموالى الملوچى . . وعسكر الاندلس . . وترفع على رأس كل واحد . . الالوية والرايات . . ثم يتصل بهذين العسكرين الداخلة . . المؤلفة من الساك والسلاق ولبردروش . . فاما البياك فهم الذين يلون ركاب أمير المؤمنين يحف به بعضهم يمينا وشمالا . . . ومنهم صاحب مظلته العظيمة المرفوع على رأسه كالقمامة) (28) .

وامام الموكب يتقدم (جيش الاصباحية . . . ويرفع اللواء العظيم الابيض الذي هو علامة على شعار الدولة المدعو باللواء المنصوري على رأس أمير المؤمنين) (29) .

ويضم الموكب الملكى أيضا (الطبل العظيم الذي يسمع دوي صوته على البعد ومن خلفه الطبول الاخرى التى تقرع مع الزامير) (30) .

(24) المصدر السابق .

(25) نفس المصدر .

(26) نفس المصدر .

(27) النماذج . ص 203

(28) النماذج . ص 203 .

(29) المصدر السابق .

(30) نفس المصدر .

ومن العادات أيضا عند سفر المولى أحمد ، اقامة حفل دينى خاص يحضره (الفقهاء ومشايخ العلم والطلبة من المدينة) وقرىء البخاري سردا فى المصحف بين يدي أمير المؤمنين على الرسم المتعارف فى ذلك عند الخلفاء رضوان الله عليهم عند ارادة الاسفار) (31) . واثناء الطريق ، يخرج لاستقباله الامراء والولاة الذين يمر الموكب الملكى بأراضيمهم (فارتحل ايده الله لتادلا وتلقاه بأطرافها ولده أميرها المولى أبو الحسن فى جيش عرمرم من جندها واستاق اليه هدية من العين والجياد والبغال وخيم بمحلاته على نظير منها) (32) .

ويهل أن يصل المنصور الى فاس ، يلتحق بموكبه وفد من علماء القوم وعليتهم لمرافقة الركب الملكى (وتلقاها وفد أهل فاس من مشايخ العلم والاشراف يوم ارتحاله من حواته واعتسفوا اليه الشقة البعيدة وتجتشموا الأمطار المسترسلة . . . فلقاها بالبر والترحيب) (33) .

أما استقبال الامراء أبناء المنصور لوالدهم المولى أحمد ، فيتم فى حفل عظيم ، ومن ذلك استقبال ولئى العهد المولى محمد الشيخ لابيهِ فى تامسنا (ولما كان يوم وصول ركابه العالى . . فوقف فى الاجناد واقبل المولى الأمير . . فى كتابته . . فى أفخم زي وأحسن أبهة . . وانبرت الكتائب تتسرب للسلام على أمير المؤمنين فوجا من بعد فوج . . وتدافع المولى أبو عبد الله فى موكبه . . ولما هوى الى الأرض ساعيا على اقدامه الطاهرة للثم الركاب العلى الامامى . . وقضاء فرض التحية راجلا برز أمير المؤمنين . . وتقدم وحده للقائه مرحبا وشفيقا ومتبسطا حتى أمكنه من لثم قدمه . . وحتى متطاطا من صهوته على رأسه حتى قبله واستركبه الى جنبه وسارا معا فى الولاية والعساكر) (34) .

وعن استقبال العامة وجمهور الشعب للمولى أحمد ، فابرز صورة نثبتها فى هذا المجال الفرع الذى خامر المغاربة لها علموا بشفاء المنصور من المرض الخطير الذى ألم به (وتسامع الناس بخبر ظهوره فنسلوا اليه من كل حدب . . . فتهاقت الناس عليه ايده الله تهاقت الفراش وكادوا أن يختطفوه شوقا اليه وشغفا به . . . فازدحموا على رويته وتقبيل بساطه ولثم اطرافه) (31) .

(31) البناءمل . ص 66 .

(32) البناءمل . ص 98 .

(33) المصدر السابق .

(34) البناءمل . ص 60 .

(35) البناءمل ص 53

وأخيرا لقد كان من عادة المنصور أن يخرج في فصل الربيع الى النزهة في نواحي مراكش (وتلوم شهرين أو نحوهما يتقلب في البسيط الممتد من الحضرة لاغمات حتى قصى وطرا من النزهة وتبلى من الراحة) (36) .

2 - أما المجتمع المغربي :

فقد كان يتكون من فئتين متباينتين : سكان المدن وسكان البوادي :

1 - سكان المدن : وقد كانت نسبتهم ضعيفة بسبب قلة عدد المدن ، وهذه المدن قسما :

في القسم الاول : مراكش العاصمة السياسية وفاس العاصمة العلمية والمحمدية بسوس .

وفي القسم الثاني : بقية المدن الاخرى المتطورة .

وقد حفظت لنا بعض المصادر والوثائق المعاصرة معلومات قيمة عن العواصم الرئيسية الثلاث :

فمدينة فاس بها مدينتان : فاس البالي والجديد (المدينة البيضاء) ، وفي هذه الاخيرة توجد القسبة والقصر الملكي ومنازل كبار القوم والمتاجر والديوانة .

وفي فاس البالي توجد العدوتان : عدوة الاندلس وعدوة القرويين التي تمتاز بالمسجد العظيم الذي به مئات من الاعمدة الرخامية وعدد من الابواب يفضى كل منها الى حى خاص .

وفي مدينة فاس توجد عدة احياء : بعضها للتجارة حيث الخانات الفخمة المزينة بالنوافذ والشرفات وذات الغرف الواسعة والاروقة الطويلة ، وحيث القيساريات الواسعة ذات الشوارع المنظمة التي تصطف حولها عشرات الدكاكين، وقد غطيت لوقاية الزبناء والبضائع المعروضة .

وهناك احياء للسكن ، وقد امتازت دور فاس عامة بالاناقة وجمال المظهر ، وغالبا ما تتكون من طابقين ، ويخترقها جيعا وادي فاس الشهير (37) .

(36) البناهل . ص 221

(37) م. م. ت. م. - بريطانيا - ج 2 - ص 491

أما اليهود فلم يخلو من سور وليس له إلا باب واحد يتناوب على حراسته حراس مغاربة ، وبالقرب منه مقبرة خاصة بسكانه اليهود (38) .

ولما كانت مدينة فاس البالي تمتاز بتعدد مساقط المياه لاختراق وادي فاس المدينة ، فإن ذلك قد ساعد على ظهور العديد من المطاحن المائية التي تعد من مميزات هذه المدينة (39) .

وبين الأحياء توجد عدة جسور حجرية لمرور الناس ولعبور العربات والدواب . ومما كان يثير انتباه الرحالة في فاس : العدد العظيم من المساجد والزوايا والكتاتيب ، الى جانب الحدائق الغناء الجميلة (40) والمستشفيات التي يوجد بها أطباء مهرة وأنواع من الأدوية لمعالجة المرضى .

أما العاصمة مراكش ، فحسب التقارير العديدة : تقع في سفوح الجبال المكلفة بالثلوج ، وذلك في سهل عظيم وبين أشجار النخيل والحدائق الجميلة ، وتنحدر الينا أودية كثيرة يستفاد منها في سقى المزروعات (41) .

وبمراكش القسبة الملكية التي تعتبر وحدها مدينة مستقلة ، وهي تقع في جنوبي المدينة ومن أهم محتوياتها : قصر البديع مقر الخليفة المنصور ، وهو يقع في الزاوية الشمالية الشرقية من القسبة ، وملحقاته العديدة ثم حدائقه الجميلة التي تحيط به شرقا وجنوبا ، علاوة على مسجد القصر الواقع في الزاوية الشمالية الغربية من القسبة (42) .

وبالقسبة أيضا دار الديوانة : دار كبيرة بها مخازن عظيمة يحل بها التجار مع بضائعهم عند الاستيراد والتصدير ويؤدون بها واجب الجمر ، وقد أوكل المنصور أمر الديوانة الى أشخاص انيطت بهم مهمة السهر على التجار الأجانب وسلامة بضائعهم التجارية (43) .

(38) المصدر السابق .

(39) مجلة تطوان . العدد العاشر . ص 115

(40) المصدر السابق .

(41) مجلة Hesperis العدد (3 - 4) لسنة 1957 . ص 204 .

(42) المصدر السابق .

(43) مجلة تطوان . العدد العاشر . ص 118 .

ومدينة. مراكش تنقسم الى احياء تجارية : تضم عددا كبيرا من الفنادق الشاهقة المحاطة بالاسوار حيث يضع التجار بضائعهم ، وأخرى للسكن تقيم بها عناصر السكان : الاندلسيين ، العلوج ، الاتراك والاجانب . بالاضافة الى الملاح الحى الخاص باليهود . ولا تزال حتى اليوم بعض الاحياء بمراكش تحمل اسماء ترجع الى عهد المنصور ، مثل حمام الذهبى : ودرب بوشنتوف ودرب الدمشاشى . . . (44) .

وقد لاحظ الاجانب المعاصرون الاختلاف الواضح بين الاحياء الخاصة بكبار القوم والاغنياء ، عن غيرها من الاحياء الشعبية :

فالاولى امتازت بشوارع منظمة . حولها دور جميلة شاهقة مزينة بالشبابيك الزجاجية والمزخرفة بأنواع القاشانى والجبس والزليج .

أما الاحياء الشعبية فضيقه بكثر بها الاوحال فى الشناء . ومنازلها مبنية من التراب والجير ، وهى صغيرة ومنخفضة .

ومما انصفت به العاصمة ايضا وجود الحدائق العامة . وحدائق الحيوانات ، والمستشفيات والمساجد التى لا تحصى ودكاكين لبيع الادوية . و اعتمادا على مادونه العلامة احمد بابا السودانى المعاصر عن مراكش (رأت أسباب السعادة بها متيسرة وازمة الامانى فيها مبذولة غير متعسرة) (45) .

اما مدينة المحمدية (تارودانت) فهى (من مشيدات مولانا الامام المهدي رضي الله عنه قاعدة بلاد سوس وام القرى والامصار وملاك باب السودان ذات القصور المشيدة والاواوين الموطدة والرباط المفوفة والانهار المطردة والمساجد المزخرفة والمآذن المقرطة بلالىء النجوم المشتفة الى معاصر السكر الجائمة حوالها جنوم اهرام مصر . . . اذا ذكرت المحمدية لف كل منهما راسه استحياء وحسبما شهادة العيان) (46) .

ب — واما سكان البادية :

فيكونون الاغلبية العظمى فى المجتمع المغربى ، لانتشار الحياة القبلية وبسبب

44) دوفردان : مراكش . ص 267

45) احمد بابا السودانى : ذيل الابتهاج . ص 1

46) المناهل . ص 254 .

اعتماد البلاد على الزراعة وتربية الماشية كمورد أساسى للحياة . ولقد اهتم المنصور بالبادية اهتماما متزايدا ظهر فى الحرص على نشر الأمن وتوزيع الاراضى الزراعية على القبائل لزراعتها ثم اجبار بعض القبائل على سكنا الارض وفلاحتها بدلا من الاستمرار فى حياة الترحال . فازدهرت الحياة الزراعية وكثر العمران بالبادية بشكل قرى ومداشير لانتشار البيوت الحجرية . ومن أهم العوامل التى ساعدت على تطوير العمران فى البادية ظهور انواع ثلاثة من القرى :

1 — القرية الزراعية : التى اقامها المنصور فى البادية (فيسكنها اهل البادية واجرى لهم على ذلك من اقطاع الارض ما يكتفيهم ثوبا على سكتانهم هناك) (50) وقد ازدهرت الزراعة لذلك واتسع العمران .

2 — القرية التجارية : فقد اوجد المنصور لسكان البادية المقيمين مجسالات اقتصادية هامة تدر عليها ارباحا وتعود عليهم بأعظم الفوائد ، اذ (امرهم ببيع الشعير والطعام واللحم والسمن والعسل وغير ذلك مما يحتاج اليه المسامرون ودوابهم) (51) .

3 — القرية الصناعية : للاهتمام المتزايد بزراعة قصب السكر وما تطلب ذلك من اقامة للعديد من معاصر السكر ومعامله التى انتشر حولها العمران (لكثرة ما ضمته من العملة وحشرفته من الخلق ولا تسئل عن هولها ولغظ الاصوات بها تدل على عظمة شأنها وضخامة احوالها على ضخامة الملك وسعة ذرع الدولة) (52) .

وهكذا انتعشت البادية المغربية وتطور عمرانها وازدادت مظاهر النعم والترف بها (طاب الجنى وذرت أخلاف الجباية فامتلات بيوت المال وغصت بالحبوب مخازن الاقوات) (53) ، وقد لمس ذلك الاجانب ودونوه فى مختلف تقاريرهم كما اشدوا بالأمن والطمأنينة التى كانت تعم دولة المنصور .

وهناك مظهر آخر فى البادية المغربية : القبائل الرحل التى كانت تنتقل الى

(50) المنتقى المنصور . ابن العاصى . ص 95 .

(51) المصدر السابق .

(52) البناهل . ص 210 .

(53) البناهل ص 40 .

حيث الكلاً والعشب والمياه والتي كانت تستعمل الخيم وتهتم بالماشية وتربيتها ، وحسب انطباعات بعض الرحالة الاوربيين فان سحب الخيام السوداء كانت تغطي مساحات واسعة من السهول الخصبة ، وبأن قطعان الغنم والماعز كانت تشتشر في الحقول والمراعى (54) .

ترجع القبائل المغربية الى اصول مختلفة عربية وبربرية ، نال بعضها الحظوة لدى الدولة بأن (الحثم بديوانه فتميزوا بشعار الجندي ولبسوا شاراتها والحق رؤسهم بطبقات القواد واقطعوا ما شاءوا من البلاد) (55) بما كان يعرف (بعرب الدولة) (56) في حين ان البعض الآخر لكثرة الاضطرابات والتمرد تعرض للمحن وتوالى النكبات بأن (انتزع خيلهم وارجلهم كائنة وضرب عليهم الخراج ونظمهم في سلك الرعايا الفارمة جزاء بما اتوه من شنيع اعدوثة في الغدر) (57) .

فهل بالامكان وضع تصنيف عام لطبقات المجتمع المغربي ؟ وما مميزات كل منها ؟ :

1 — في قمة الهرم الاجتماعى نجد البلاط الملكى وافراد الاسرة السعدية الحاكمة ، وقد كان المنصور يولى البعض منهم مهام سياسية أو يقطعهم ولايات خاصة مع الاحتفاظ بهم في بلاطه وبين يديه (ثم عقد على مكناسة لداود بن أخيه المولى الامير عبد المؤمن وجعل امرها الى نظرة ورتب بها من انتقاء للنيابة عنه فيها من الخدام وصحبه هو لمراكش وأسكنه بها بازائه) (58) .

2 — ثم طبقة كبار القوم من الحكام السياسيين والقادة العسكريين الذين كانوا يحيون حياة خاصة للانعامات والهبات المتوالية التى يفدتها المنصور عليهم في مختلف المناسبات والظروف (ومن كرمه الذي كاد أن يكون كالسنة الجارية الصلات والعوائد التى يصل بها أيده الله خاصته وأهل بساطه) (59) ثم للاقطاعات التى كانت تقدمها لهم الدولة ، مما جعلهم يحيون حياة الترف

(54) م. م. ت. م — انجلترا — ج 2 — ص 437

(55) المناهل . ص 191 .

(56) نفس المصدر .

(57) المصدر السابق .

(58) المناهل ص 56 .

(59) المناهل ص 229

(هذا وإيامه الهنية على جناب مريح وحى منيع ورياض أريضة ودنيا عريضة) (60) . ويدخل هنا فى هذه الطبقة رؤساء القبائل ومشايخها من عرب الدولة (والحق رؤساءهم بطبقات القواد وأتطعوا ما شاء ومن البلاد فبهت بذلك أحوالهم وكانت لهم به المزية الظاهرة على سائر أقبالهم) (61) .

3 — والطبقة الثالثة من المجتمع كانت تتكون من (شرفاء وقضاة وفتهاء وكتاب وشعراء . . . واجناد ورؤساء وأشياخ نبهاء وعمال) (62) .

وتلى هذه الطبقة : جماعة التجار المغاربة ممن كانوا يكونون نواة الطبقة البورجوازية الناشئة وقد أخذت هذه الطبقة فى الظهور بفضل ازدهار أعمال التجارة الداخلية والخارجية ولتشجيع المنصور المتواصل ، فنكدست الاموال بيدها (حتى صار بذلك فى عداد الاغنياء وأهل الثروة والرفاهية) (63) .

ويرجع الى الطبقة البورجوازية المغربية بعض الاثر فى أعمال الفتوحات التى قام بها المنصور فى الصحراء وبلاد السودان ، وفى اقرار دعائم الامن والاستقرار بكل انحاء البلاد بل وفى تأسيس مراكز تجارية ومحطات للتجار وقوافلهم (وأمرهم ببيع الشعير والطعام . . . مما يحتاج اليه المسافرون ودوابهم . . . وان باتت عندهم قافلة يحرسونهم طول الليل ويحوطون أمتعتهم وان ضاع شىء منها عندهم ليلا ضمنوه لربهم فيما بينهم . . . فنجد المسافرين فى حالة ذهابه وإيابه كأنه فى بيته وبين أهله) (64) . وقد أيدت طبقة التجار المولى أحمد المنصور فى أعمال الفتوحات ونسى بلاد السودان بوجه خاص ورافق عدد منهم القوات الفاتحة كادلأ ومرشدين ، وبالمقابل أحدث المنصور اصلاحات داخلية لصالح هذه الطبقة مثل حذف الحواجز الجمركية بين المدن ومختلف الأقاليم .

4 — أما قاعدة الهرم الاجتماعى فكانت تضم فئات العامة من أرباب الحرف وطبقات الجند وجمهور الشعب فى المدن والبوادي وفى السهول والجبال . وقبل أن نتعرض الى مختلف مظاهر الحياة الاجتماعية من عادات وتقاليد يهنا بوجه

(60) البناء — ص 28

(61) البناء — ص 192

(62) البناء — ص 237

(63) البناء — ص 229

(64) ابن العاضى البنتى البصور ص 95 .

خاص أن نتعرف على وضعية الجماعات الغير المسلمة وأنماط معيشتها داخل المجتمع المغربي ، فهناك :

اليهود :

وقد هاجر عدد عظيم منهم من الاندلس الى المغرب بعد سقوط الاندلس ، ونتيجة أعمال الاضطهاد والتعسف التي قام بها الملوك الكاثوليك في اسبانيا والبرتغال . ولجل حماية اليهود كذمين بنت لهم الدولة احياء خاصة حصينة للاقامة بها (الملاح) لا تبعد كثيرا عن مقر الحاكم . وقد كانوا يمارسون بكل حرية طقوسهم الدينية كما كانت لهم مقابر خاصة . ولما كان هؤلاء على جانب هام من الثقافة ومعرفة باللغات الأجنبية ولهم خبرات واسعة في أعمال التجارة فقد أصبحوا يقومون بدور الوساطة في الأعمال التجارية والسياسية بين المغاربة والأجانب ، وفي عمليات افتكك الأسرى . واعتمادا على تقرير بعثه الإنجليزي (George Tomson) من مراكش سنة 1600 م فإن المنصور كان له مستشار خاص من اليهود يعتمد عليه كثيرا ويستشيريه في بعض القضايا وهو ابراهام بن واش (65) .

وعن نشاط اليهود التجاري تؤكد الوثائق المعاصرة بأن ادارة معامل السكر التي اقامتها الدولة المغربية كانت تدار في الغالب من قبل اليهود (وقد قطعت معاهدة الكراء فيها اليوم لطائفة من اهل الذمة حسب مبلغ سنوي) (66) ، كما كانوا يتولون شؤون املاك الامراء وكبار القوم . وهذه الوضعية بمجموعها فتحت امام اليهود مجالات واسعة للاتصال بالطبقة الحاكمة وبالأجانب على مختلف المستويات والاجناس وساعدتهم على تكوين ثروات ضخمة استفادوا منها في نواح عديدة من النشاط الاقتصادي . ولعل احوالهم هذه تفسر لنا أسباب الحقد والغيرة التي طالما اعراب عنها الأجانب من دبلوماسيين وتجار وغيرهم . اذ لم يتمكن هؤلاء الأجانب من الصمود طويلا في وجه المنافسة اليهودية وحتى التجار الانكليز الذين أسسوا (الشركة المغربية) سنة 1585 م سرعان ما فشلت تجارتهم وأعلنت شركتهم الافلاس سنة 1598 للمضاربة اليهودية بوجه خاص . (67) .

(65) م. م. ت. م. - بريطانيا - ج 2 - ص 230

(66) البناها - ص 210

(67) م. م. ت. م. - انجلترا - ج 2 - ص 476

الاجانب المسيحيون :

لقد اختلفت وضعية هؤلاء في المغرب اذ كان منهم السفراء والدبلوماسيون والتجار والرحالة وكان منهم رجال الدين الرهبان والاسرى . واكثر ما يهتما في هذا المجال التعرف على موقف الطبقات العامة المغربية من هؤلاء الاجانب المسيحيين والذين كانوا يحتكون بهم في حياتهم اليومية لسبب من الاسباب . ومن بين الوثائق التى تتحدث عن ذلك رسالة لرحالة انجليزى زار شمالى فريقية مع جماعة من التجار الاجانب : فقد ذكر بأن المعاملة الحسنة التى لقيها هو وصحبه من الاهالى المغاربة لم يحظوا بمثل لها فى الباشاويات التركية المجاورة (68) .

وهؤلاء الاجانب على مختلف مستوياتهم غالبا ما كانوا يقيمون بالملاح ، في حين ان الاسرى المسيحيين كان لهم حى خاص به كنيسة للصلاة ومقبرة لدفن موتاهم . وقد اشاد بعض هؤلاء الاسرى بالروابط القوية التى كانت لليهود معهم ، وكيف ان اليهود كانوا يعملون على تحريرهم ونقل الاموال لافتكاكهم كاليهوديين - ابراهيم جبير وبن حليم اللذين نقلتا اموالا من طنجة وايطاليا الى مراكش حيث كانت الاغلبية العظمى من الاسرى .

وقد ساهم في عمليات الامتلاك ايضا رجال الدين الرهبان والاباء الفرنسيكان منهم بوجه خاص . الذين كانت لهم مطلق الحريات في القيام بشعائر الديانة في الكنيسة مما كان يخفف بعض الاسى والالام عن الاسرى ويبعث في نفوسهم الامل (70) .

أما الاعمال التي كان الاسرى المسيحيون يقومون بها فعدة كل حسب اختصاصه وحرفته ، وكانوا يسخرون ايضا في اعمال البناء والعمران وفي المصانع والمعامل ، ومن مهامهم حمل الشموع ليلة عيد المولد النبوي الكريم (والافلاك المؤلفة من الاخشاب لحمل جذوعها يحملها اسارى الدولة) (71) .

المعدات والتقالييد :

أهم ميزة تطبع المجتمع المغربي : التمسك بالاسلام والتحمس له خاصة وان

(68) المصدر السابق

(70) المصدر السابق .

(71) المناهل . ص 236 .

حركات الجهاد التي انطلقت مع الغزو الاجنبى للشواطىء المغربية قد توجت بالنفوز
فى معركة وادي المخازن :

وعن العادات والتقاليد التي عرفها المجتمع فى عهد الدولة السعدية :

لبس البياض (ثم يقتعد اريكة تبنه وسرير ملكه وعليه خلع البياض شعار
الدولة الكريمة) (72) واستعمال الطيب (ولم يزل فى خلال دولة الانشاد يختلف
الظرفاء من الخدام على الناس لاختزال الملابس بماء النعيم المصعد من نثير الورد
والازهار الارجية يسكب عليهم رشها بطاقات الرياحين والاس سكباً عدداً فى الحجر
والارذان) (73) والبخور (مثلت امام الحضرة الامامية لوقود العنبر آلة ضخمة
الشكل) (74) .

ثم من العادات استعمال الزيت والشموع للاضاء والتنوير (واصطفت امام
القبة جذوع الشموع المبارية للاذان والنخيل) (75) .

والاعتناء بالطعام والشراب (ثم تنهل على الحفل عارض النعمة من ابواب
القصور الكريمة ويخص بالجفان والاخونة والصحون والطيايف الرحية الاقطار
جامعة للحم المسارح وأنواع الطير ودواجن البياض . . . فلا تسئل عن التفتن
فى المطابخ والتنويع فى الماكل والارضاخ فى النعمة . . . ويشرح مجمل الارضاح
بانسكاب الحلاوي المتنوعة والمربيات المتفنتة) (76) .

ومما عرف به المغاربة الاعتناء بالحيوانات والسهر على تربية الخيول
(وأوصيكم . . ان تتفقدوا فرسنا الاحمر . . ولا تتركهم يعطونه القصيل لئلا
يكثر لحمه . . بل انظر له من يركبه كل يوم) (77) . وقد جرت .عادة أيام المنصور
ان تقذف المدافع طلقات خاصة فى العيدين وعند ورود البشارة (واذا استهلكت
رعودها فى العيدين عند العود من المصلى أو لورود بشارة عظمى . . .) (78)

(72) المناهل . ص 236 .

(73) المناهل . ص 236 .

(74) المناهل . ص 237 .

(75) المناهل . ص 237 .

(76) المناهل . ص 237 .

(77) الامرانى : نزهة الحادى ص 162

(78) المناهل . ص 264 .

وان تقام الحفلات في المناسبات الخاصة (فامر بالمفرحات غدوة وعشيا ثلاثة ايام
نرحا) (79) ويتقبل المنصور تهاني كبار القوم (واثاه . . القواد . . والعلماء
 . والامناء . . يهنئوننه) (80)

ومن العادات في عصر المنصور اقامة الاستعراضات العامة في الشوارع
حيث يجتمع (عالم من النظارة في سباطين بحا في الطريق . . . قد جللوا جنبتي
الطريق وركبوا الاسوار والاسطاح وبرزت ريمات الحجال من اعلى المنازه
والصروح) (81) .

وفي المناسبات تقام حفلات خاصة كما هو الحال عند التوجه الى بيت الله
الحرام لاداء مناسك الحج (82) وخلال شهر رمضان (83) . وفي يوم عاشوراء
يقام المنصور حفلا (لختان ذرية ضعفاء من مساكين الحضرة واحوازا وذوي
الحاجة من أهلها يدخل بذلك ايده الله السرور على اولاد المؤمنين . . . وتجاوبت
الالحن واصطحبت اصوات المزاهر . . . وتقدم الصبية افواج افواجا فكل من
تناوله الختان اعطيت له اذرع من الكتان وحصاة من الدراهم وسهم من
الحمم) (84) .

اما الاحتفال بعيد المولد النبوي الكريم فيمتاز عن غيره من المناسبات ، اذ
توجه (الرقاع الى الفقراء ارباب الذكر على رسم الصوفية من المؤذنين . . .
نيهوون للدعوة من الاماكن النائية) (85) ويقام ليلة العيد استعراض عمام
للشموع (حتى اذا كان ليلة عيد الميلاد الكريم . . . وحضر وقت زفاف العذارى
من رياض الشموع الى الابواب العلية الشريفة وحضرت الالة الملوكية . . . انتظم
عالم من النظارة سباطين بحا في الطريق . . . وبرزت جذوع الشموع كالعذارى
... فارتفعت اصوات الالة وقرعت الطبول وضج الناس بالتهليل والتكبير والصلاة
على النبي الكريم) (86) .

(79) تاريخ الدولة السعدية . المؤرخ المجهول . ص 67 .

(80) المصدر السابق .

(81) المنام . ص 130 .

(82) المنام . ص 188 .

(83) المنام . ص 172 .

(84) المنام . ص 252 .

(85) المنام . ص 237 .

(86) المصدر نفسه .

أما في يوم العيد (فإذا حضرت صلاة الفجر برز مولانا أمير المؤمنين أبده فيصلى بالناس ثم يقتعد أريكة قبته . . . وتسائل الناس من البلد على طبقاتهم . . . تقدم أهل الذكر والانشاد . . . ثم حضرت دولة انشاد الشعراء . . . ولم يزل في خلال دولة الانشاد الظرفاء من الخدام على الناس لاختلال الملابس بماء النعيم . . . ثم تنهل على الحفل عارضة النعمة . . . ويشرح مجمل الارضاح بانسكاب الحلاوي المتنوعة . . . ثم يختم بالشكر والدعاء . . .) (87)

ومن العادات الحيدة التي تميز بها عهد المولى أحمد المنصور ، وزادت من تعظيم الطبقات الشعبية ومحبتها له ، ما كان يخرج من (صدقات فاشية واسعة عظيمة الفائدة يجريها على أيدي ثقات من رجاله فمنها الاموال التي يجريها ختم كل رمضان ويعم بها ذوي الحاجات . . . وما يجري على يده الله في سائر الاوقات عن أنواع البر والصدقة ووجوه الاقتراب والزلفى من مال في سبيل التوسعة على الفقراء يقسمه وطعام في أوقات المجاعة يخرج وديون غرماء مغاليس تقضى ورقاب أرقاء تفك وأساري تفتدي . . .) (88) .

ومن جهة أخرى فقد كان المنصور ينعم على البعض من كبار القوم والشرقاء والوجهاء بظواهر التوقير والاحترام التي تخول لهم امتيازات اجتماعية واقتصادية خاصة أبرزها : اعفائهم من جميع الضرائب والتكاليف المفروضة على (أصولهم ببلادهم . . . وحوانيت وأرحية وأمران ودور ومعاصر للزيت وجنات وعيون وسواقي . . . كما يحاشون من جميع الوظائف المخزنية والكلف السلطانية ومن الطواف والحركات والسخر البدنية وسائر الاشغال العملية وملزم الإبراب والرحاب . . . ومن ملازم التجارة . . . ويوكلون في تفريق عشر معشراتهم من الصوب بعلا وسقيا وخرص مخرصاتهم من الغلل والثمار على الفقراء وذوي الحاجة الى المعروف من أمانتهم والمالوف من ديانتهم . . . بحث لا يطالبون عن ذلك ولو بمجرد الاشراف على ما لديهم والاطلاع على ما يقىء الله عليهم) (89) .

ولما كان ركب الحجاج المغاربة يتوجه سنويا الى الحجاز لاداء مناسك الحج ، فقد جرت العادة بتسمية رئيس الوفد (يستقر هذا الامر الكريم . . . بيد الشيخ

(87) المصدر نفسه

(88) البناء ص 252 .

(89) مجموع مخطوط بدار الوثائق بالرباط ، ك 278 ، ص 42 .

الاجل . . فقلده اداخ الله امره . . شياخة الركب الحجازي يقتصر على نظره المستقيم
أموره) (90) وتكليفه بحمل رسالة خاصة الى شريف مكة والمدينة (91) .

ويدخل في هذا المجال قيام البعض من الموسرين المغاربة بتحبيس بعض
ممتلكاتهم على أوجه البر والاحسان (وتنافس الاشراف والاناضل في اقتناء
الاماكن السنية وانشاء المساجد الدينية . . فكان ممن حاز فضيلة السبق . . مملوك
المقام العلى . . انشا مسجده المبارك السعيد . . بالحومة المدعوة . . بحضرة
مراكش . . وجعل من تحبيسه عليه جميع نصف العين الذي كان ملكه خارج باب . .
من ابواب مراكش . . مع ما احتوى عليه من الغرس والاشجار . . جعل ذلك كله
حسبا مؤيدا ووقفا مخلدا على مسجده المذكور يصرف خراجه في مصالحه من مرتب
اباه ومؤذنيه والقراء به والقيم بمصالحه . . وما يحتاج لاصلاحه . . وعلى ان يكون
نظر ذلك كله . . موكلا الى نظر . . قاضى القضاة بالحضرة) (92)

على أن هناك عادات اجتماعية ظهرت لدى بعض الفئات من طبقات العامة
بسبب انتشار الجهل الذي فسدت معه الاخلاق وساءت بالتالى احوال الناس
الدينية والدنيوية ، من ذلك مثلا : انتشار اعمال المجون والتدجيل والاقبال على
الوشام ثم التعامل بالربا (93) . . . ولطالما استنكر المصلحون والدعاة هذه
العادات واستقبحوها وحملوا في الوقت نفسه الحكام والعلماء مسؤولية ما عليه
طبقات العامة وحثوهم على مقاومتها والضرب على ايدي القائمين بها .

فهل كان لنداءات الوعظ والارشاد والترغيب من اثر في الرجوع الى الطريق

(90) المصدر السابق . ص 46 .

(91) مناهل الصفا : ص 187 .

(92) مجبوع مخطوط بدار الوثائق بالرباط . ك 278 . ص 91 .

(93) جاء في الفية الامام الهبطي وهو معاصر : (مخطوط في ملك الاستاذ محمد المنونى)

قالوا تعالوا نحو هذا الصالح
بل كلهم انوه حيث كان
من كل حالة تمين الاتجاس
كرقصهم اذن مع التمسوان
والشطح والغنا اذن جهارا
فابن انت من حديث الوشام
على فساد العقل والايان
لديهم في جملة الانسواق
والتزموا الغباوة التزاما
يدعو الى الصلاة والتوحيد
يدعو الى الهدى بصدق النية
والظلم والجور على العباد

ومن اتاهم بالحال الواضح
ما فيهم من كذب الكهان
للو رأيت ما لهم في الاعراس
على فساد الدين والايان
قد جوزوا الكسوف والزاهرا
وان دهك ما سمعت من كلام
علامة دلت بلا نوان
اباحت الربا على الاطلاق
قد جهلوا الحلال والحرام
او من لنا بمالهم رشيد
او من لنا بسيد الصوفية
فكان ما ترى من الفساد

المستقيم (اهل . . هذا وانه منذ استرعانا الله النظر في أموركم . . كلما لمخاضا
صدعا في جانبكم من أمر دينكم أو دنياكم تلافينا جبره أو تراءى لنا صنم بدعة
بادرنا بمعاول السنة كسره أو ميلا عن الصراط المستقيم اخذنا بنواصيكم، السى
محجته . . . أو اهمالا لبعض الشرائع ندبناكم اليها ثم حملناكم طوعا أو كرها عليها
حرصا على الامة ان لا تضل ولا تشقى وعلى معالم الدين الا تبلى) (94) .

ولا يفوتنا في مجال الدراسة عن الاحوال الاجتماعية في عهد السعديين ان
نشير الى ما كان يصيب البلاد والعباد بين الاونة والاخرى من اوبئة وانواع
الطاعون ، ومهما كانت هناك من اسباب لهذه النكبات ، فان من أهمها : الحروب
الداخلية وما تسببت فيه من قتل لآلاف الضحايا وخاصة ما وقع منها في الربع
الاخير من القرن السادس عشر حيث بلغ معدلها حربا واحدة كل ثلاث سنوات
تقريبا . ومن أشد الحروب الداخلية : ثورة الناصر التي دامت سنة كاملة (95 -
1596) والتي عم البلاد اثرها طاعون خطير (ولما وقع هذا الطاعون بالمغرب
سنة خمس الى سنة ست عشرة وألف . . كان أول ما وقع بالحواضر . . واما اهل
مراكش وتارودانت ففترقوا في البادية والجبال فكان أكثر وقوعه بهم وانقرض جل
أعيانهم حتى استولى الخراب من ذلك على الحاضرتين . . . وقد شاهدنا من ذلك
ما الله أعلم به) (95) .

ونتيجة انتشار الطاعون اضطربت الاوضاع الاجتماعية بشكل خطير ومخيف
(ولما تتابع الوباء على مدينة تارودانت من عام ستة بعد ألف الى ست عشرة
تفرق الناس منها وخلت جوامعها وأسواقها وتعطلت مرافقها الدينية والدينيوية خرجت
لبلدنا فائحة تهنث وطال بها مكثى) (26) .

وقد بذلت حكومة المولى أحمد المنصور جهودا متواصلة لمواجهة الداء :

- 1 — باتخاذ كل وسائل الوقاية .
- 2 — باستعمال الادوية الناجمة وقد نشطت لذلك ابحاث الاطباء ومهرة الصيدلة

(94) عبد الله ككون : رسائل سعنية . ص 262 .

(95) عبد الرحمان التامناوتى : الفوائد الجبة . مخطوط بدار الوثائق بالرباط (د 1420) . ص 31

(96) المصدر السابق . ص 164 .

3 - استدعاء أطباء أجنبية .

4 - امداد الجهات المتضررة بكل المساعدات (97) .

ولعل ابلغ وصف للمضاعفات الخطيرة التي أحدثها انتشار الطاعون في المغرب ، ما جاء في مخطوط (الفوائد الجمة) للتامرتي وهو معاصر للاحداث : (ولما دخلت الحاضرة (تارودانت) فرأيت مجالس الكبار وملاعب الصفار خاوية كساها الايحاش . . . ورأيت ملعب صبية حومتنا يقبله الجامع الكبير بها فاقد انسهِ وملحق عبرة يومه بعبرة امسه وكان اكثر ما وقع الوباء في الشباب . . . فخنقتني الدموع . . .) (98) .

العمران في عهد المنصور :

(هم الملوك اذا ارادوا ذكرها فسألن الشعراء والبنيان) (99) .

اول ما ينصرف اليه الذهن عند محاولة التعرف على مآثر المنصور العمرانية : (قصر البديع) المدين المثل : (ايروم اللسان وصفا لشيء ما له في الدنيا مثال وشبهه) (100) .

فقد اختار المولى احمد الزاوية الشمالية - الشرقية من قصبة مراكش التي كانت تغطيها الحدائق منذ أيام الموحدين ، لبناء قصر البديع ، وشرع في البناء خلال شهر شوال من عام 986 هـ اي في الشهر الخامس لتوليته ، واستمر العمل (الى هذا العهد وهو عام اثنين وعشر مائة لم يتخللها فترة) (101) . وسبب بنائه (اني اذا نظرت الى اثار سلفنا الكريم اجد اثار الموحدين . . وبنى مرين . . وافقت لاهل النبوة ان يكون الفضل والشفوف لاثار من دونهم من الدول على آثارهم فلم ارض الا بما يعنى على آثار الدولتين) (102) .

وقبل أن يشرع في البناء (حشد له الصناع وارباب الحكمة من كل ارض حتى

97 الامرائي : نزعة الحادي . ص 156 .
98 التامرتي : الفوائد الجمة . ص 196 .
99 البناهل . ص 252
100 البناهل . ص 253
101 البناهل . ص 254
102 البناهل . ص 253 .

من بلاد الافرنجة فكان يجتمع فيه كل يوم من ارباب الصنائع ومهرة الحكمة وجهابذة البناء واولى المعرفة والكفاية في التعميق والتشييد ومن سائر الفعلة واساري الدولة خلق عظيم (103) والمولى احمد المنصور هو الذي اعطى القصر الجديد اسم البديع (لاحتوائه على كل نوع من انواع البدائع وغرائب المعاني) (104) .

كان مدخل قصر البديع يتسم بكل مظاهر الروعة والعظمة اذ (يشرع اليه من الابواب في مدخل عظيم عريض المسلك تسامر فيه الخطى وتكل القوى بعيد الشقة يسبح منه العابر في بحر المديد الطويل لا تحصى لياته وتعاريفه ، والمدخل المفصى من الباب الاقصى لهذا القصر الكريم . . . عنوان المحاسن وترجمان المعاني . . . ويسحر بمحاسنه العيون والالباب) (105) .

و اول ما يواجه الزائر لهذا القصر (الدار الكبرى مثنى الامام نفسه . . . فهناك يخرس اللسان وتحار الانهال ويملك الدهشة الجنان) (106) وهذه الدار (بديعة الشكل متناسبة الاوضاع متقابلة المحاريب والتماثيل تزخر من بركها الخمس بحار طامية العباب قد مثلت في رؤوسها دوائر المرمر المختلفة الالوان العظيمة الاجرام ترقص فيها المياه الغزيرة على ايقاع طيور الادواح المفومة ويخترق صحنها الفسيح لها رجاء من هذه البرك البركة العظيمة الرموقة الارحاء بنجوم الفواقع الطافية من اضطراب احشائها . . . وعلى ضفة هذه البركة سباطان حافلان من ادواح النارجع الباسق الافنان . . . بمائى الزليج المتنم الواشى) (107) .

وتضم هذه الدار عشرين قبة (وتنتهى قباب الدار الى عشرين قبة) (108) الا ان الاربع المتقابلة منها هي اعظمها :

1 — في الناحية الشرقية : قبة الزجاجيات التى (تختص بسقف الزجاج الملون . . . وقد تبدع مسقفها الى سبع قباب تفننت فيها الصنائع المقربة الخشبية والمسطرة وتلومت بها آلات النقش تعميقا وتكريشا . . . وتزهوا هذه

(103) البناء . ص 254

(104) البناء . ص 254

(105) نفس المصدر .

(106) نفس المصدر .

(107) البناء . ص 254

(108) المصدر نفسه

القبة ببهوها المتبرج الزينة البديع النظرة الى المشتى الروض المنظر
بالبديع شرقا (109) .

2 - فى الناحية الغربية : القبة الخمسينية التى هى (انموذج الكمال وعنوان
سعة الهم مثلت بين القباب مئول عقيلة القصر المتربة على كرسى الجبال
وضخامة الجلال أبرزها الاتقان وحيدة فى مصانع الدنيا جفاء ووصفا وتأنقا
وتقنا وزخرفا . . . وتبرز هذه القبة بسقفها البالغ أقصى مبالغ الجفوة والفخامة
يملك الدهش الناظر اليه . . حتى عام فى بحر من الجص . . وتماجنت النقوش
وتفشت الصنائع . . وتحرشفا وكتابة . . ويتصل بشط هذا البحر من أسفل
نطاق المرمر الفضى . . مذبجا بالشعر فى وصف البناء واضح الكتابة بهمرمر
سبحى اللون قد بين فيه الخط الأبيض من الخط الأسود وساح تحته الزليج
البراق الملون . . ويشق القبة بركتان انيقتان بين فوارات لجينيه وتماثيل
مذهبة ومفضضة ما بين أسود فاعرة الافواه تقذف بأغصان اللجين أشكالا
. . وبهذه القبة الرحب الفناء ذهب بمحاسن البناء تمويهها وزخرفها
وابوابها المقرنسة الموهة ومضاربها الضخمة تذكر سد ياجوج جفوة وعظما
. . مسيل الوادي المتدافع يغور فى الأرض من تحتها ومعبر على جسر
من المرمر متعدد القسى تكتننها من عن يمينها وشمالها بركتان عظيمتان قام
جناقيهما سباطان من ادواح النارنج المتفنى الظلال (110) .

ومما تمتاز به القبتان : قبة الزجاجيات والقبة الخمسينية (تيجان مطلية
الجيد ضخام العمائم المعتمدة اكوار نحاسية تراكب الذهب والابريز على
سطوحها فيكاد سنا برقه يذهب بالابصار) (111) .

3 - وفى الشمال : قبة النصر (الآية المحكمة والمثل المضروب فى مصانع الأرض
جفاء ورحبا وزخرفا ونقشا وتمويهها وصيفا لا تتناهى أوضاعها وأغراضها من
محاريب وتماثيل ومقاصر وخزائن ومساجد ومخازن ومغابن ومناقب . . .
أبرت بسقف بهوها المعنام من منحوت العاج والابنوس وبسقفها الضخم . . .

(109) المصدر نفسه .

(110) البناء من 256 .

(111) البناء من 256 .

بالصنائع المقرسة التى تحار فيها . . . وفى زليجها المنظوم الازر بالفرش
تصار الازهران (112) .

4 — أما فى الجنوب فتوجد قبة التيجان (ذات الإبهاء الرحبة الفنان فى طلق
.. وتتميز هذه بشعار شفف الخشب الذى عقد سماواتها منه بالصنائع
المقرسة .. الى محاريب ومنايل ومقاصير ومساجد وخزائن بادية التنيق
رافلة فى حل الانتان (113) .

وعن حدائق هذه الدار التى تتوسط القباب الاربعة ، فقد غرست بها (الاشجار
ومنابت الدوح فلا يرى أهلها الا الغصون الملد وغلائلها الخضرة وزهرها الغض
وثمارها الدانية القطاف قد افترشت ماشى حدائقها القباب المتخفضة عن الدار
وأرض القبو الهائل الواصل بين أجزاء الدار بالزليج .. ترقص الفوارات المرمية
بالمياه السلسالة بحيث يرى المنحدر إليها دنيا من تحت الأرض قد توارت
محاسنها (114) .

أما عن الفرش ومختلف التحف التى احتواها البديع ، فقد (مهدت فيه
فرش ألوان الحرير ونظرت فيه المراتب التى لم ينظر مطلقا فى بيت وصفت فوقها
النمارق .. وتدللت الاستار ..) (115)

وحول البديع توجد حدائق ورياض غناء أهمها : المشتى (الروض المنظوم
بالبديع شرقا) (116) .

وبستان النهر (الروض الأخذ ما بين لابتى سور القصبة قبله . . . النهر الذى
أخذ أيدى الله فى إجراءاته الى تصوره الشريفة .. عريض المسلك .. يشق ما بين
أدواح هذا الروض المفوف صفوفا بشجر النارج والاس متدافع السيل . . . حتى
ينتهى الى قرابة من القبر المعد له تحت القبة الخضراء بروض المجاز ومركب
السفينة (117) .

112 المناهل . ص 256

113 المناهل . ص 257 .

114 المناهل . ص 257 .

115 النفعة المسكية . التاجرونى . ص 158

116 المناهل . ص 257 .

117 المناهل . ص 257 .

أما المسرة فهو الروض (المنتظم ببستان النهر) (118) وقد وضع على شكل يثير الدهشة (رايت العجب العجاب . . . وعدد ما اشتملت عليه من اشجار النارنج ستة عشر الفا فاذا كان هذا العدد نارنجا فما بالك بغيره ، وبها صهرج عظيم لا نظير له عظمها وعليه مباني مؤنقة) (119) .

وتحيط بالدار الاولى ديار عديدة ، من أهمها تلك التى توجد بشرقى البديع (واذا بلغت الديار التى يفضى اليها من البديع من على يمين الخضراء متصاعدا مع الدرب المالك لآبوابها حتى تنتهى الى اقصاها من الجانب الشرقى رايت برنامج المحاسن فى انهودج الكمال . . . فانتظمت دوائرها المتركة بعضها على بعض فى الهواء) (120) ، وقد كانت هذه الديار الشرقية مخصصة لسكنى المنصور وبها نساؤه وأهل بيته (فاصبحت هذه الديار مكحلة الراء متممة المآرب قد ختم عليها التحصين والمنعة وأرعى عليها الاحتجاب سدوله بحيث لا يخلص اليها الطيف) (121)

ومن مباني المنصور فى هذه الناحية (المصرية الشامخة الانف الغربية الشكل المستوية على عمد الرمرر الشامخ فيها بحكم الجص حتى فى الشابيكة البديعة . . . ذات الغرف الاثيرة والمجالس الكريمة . . . بالاطلال على بستان النهر الذى تسافر معه العين الى رياض وبساتين الملك التى تسرج خلالها القصور المنيفة كالنجوم) (22) و (الديار المنظومة . . . فى حلل الزين اللائذة بالمعقيلة الكريمة من قبة النصر التى سمت عليها ذبول عزها وانامتها من خلفها تحت خفارة السور الاعظم الطامح الغرف المحيط بأقطار الدار) (123) .

واخيرا هناك الحمام الذى امتازت به مباني قصر البديع بمراكش (حمام هذا القصر العظيم الذى تبوأ مقعد العز وشرف المنزلة الدالة على حسن الاختبار . . . ذو الابواب الاربعة التى يفضى منها الى قصر مولانا . . . ثم الى حصى المعقيلة الكريمة قبة التيجان ثم الى باب البديع ثم الى باب القصر . . .) (124)

(118) البناهل . ص 257

(119) البقرى : روضة الاس . ص 25 .

(120) البناهل . ص 254

(121) البناهل . ص 254

(122) البناهل . ص 254

(123) البناهل . ص 254

(124) البناهل . ص 254

ولقد امتازت منشآت المولى أحمد بمراكش وانفردت بعدة صفات :

1 — استعمال الرخام على نطاق واسع جدا (فلقد دارت قورا الدار الكبرى من قصوره الشريفة خمسمائة عمود مرمرية مائلة كالجبال الرواسى ضخمة وجفاء وتسموا القباب وبراطيلها على مائة منها . . . ثم يتوزع الاربعمائة الجدار المحيط بأقوار الدار ما بين المثلثات الاشكال والمفردات النابذة تحت السواري الازرية لصق الجدار الى اعمدة ضخمة الاجرام زمردية الالوان . . . واما ما تضمنت الحمامات والمساجد والمجالس والقباب والديار والمصانع فلا يعد ولا يحصى . . من بيضائها وصفرائها وخضرائها . . رافلة من ذلك فى محاسن تكل العين عنها) (125) .

2 — مد اثنايبي المياه الباردة والحارة الى جميع منشآت القصر (وتمتاز المياه الدافقة بالبارد والسخن من الحمام المنتظم ببنيتها شرقا ذي البركة العظيمة المفروغة للوقود من تحتها . . . تتنابها القواديس الفاغرة الامواه اليها من كل جانب فتملا حواصلها وتساخر بها لهذه الديار وقد اخذت الالهة لمصبها فى النقر المرمرية بكل دار من اثنيوبين ينبجس احدهما بالبارد والاخر بالسخن . مندين بلوالب تنجذب عند الفتل طوع اليد) (120) .

3 — انها كانت عالما خاصا بها لعظمة مبانيها واتساع رقعتها وتعدد منشآتها (فاصبح البديع السعيد من هذه الاثار الفضة نسيج وحده فى مصانع الارض) (127) .

وعن هندسة قصر البديع وزخرفته ، فبالاعتماد على اوصاف المعاصرين ، ذو اصل عربى اندلسى ، لم يفرق فى مخططة العام عن تصور الاندلس الشهيرة كالحمرء بغرناطة مما يؤكد التأثير القوي الذي كان للمهاجرين الاندلسيين فى المغرب ، مع تأثيرات اوربية وايطالية بوجه خاص ، وذلك لوجود العدد الكبير من الفنيين المهرة فى فن البناء ، الذين جلبهم المنصور من فلورانس (فقد حشد له الصناع وارياب الحكمة من كل ارض حتى من بلاد الافرنجة) (128) ونائيرت أخرى غير

(125) البناهل . ص 254 .

(126) البناهل . ص 254 .

(127) البناهل . ص 255 .

(128) البناهل . ص 254 .

ذلك . والملاحظ في هذا المجال هو أن المولى أحمد المنصور كثيرا ما كان يتبادل الآراء مع كبار المهندسين والبنائين حول تصاميم البناء وطرق العمل (أحضر عرفاء المباني فاقترحها لهم وأخذ أيده الله يرشدهم بحاسة الوصف الى أشكالها التي تصورها فلم يكونوا ليهدتوا حتى تولى لهم رسمها ببنائه الكريم في قرطاس فلمسوه بأيديهم . . . ثم قاموا بتشبيدها وفق الاقتراح الكريم) (129) .

ولو قدر لقصر البديع أن يعمر طويلا لكان من اعظم المآثر العمرانية في تاريخ المغرب الحديث (130) .

وبالنسبة لبقية المظاهر العمرانية في هذا العهد نلاحظ بأن الامراء وكبار القوم واغنياءهم قد قلدوا المنصور فاشادوا الدور الجميلة الشاهقة البنيان والمزينة بالشبابيك الزجاجية ، وذات الزخرف البديع بأنواع القاشاني والجص والزليج . وقد كانت هذه الدور في معظمها تتكون من دورين علوي وسفلي وباحة واسعة في الوسط مع رياض عناء خاص ملحق بها (131) .

وقد انعكست آثار النعمة والرفاهية على مختلف نواحي الحياة اليومية في الملبس والمشرب والمأكل حيث كانت الطبقة المؤسرة تلبس الفاخر من الثياب الانجليزية ذات اللون الازرق الغامق (Bernatha) والازرق الفاتح (Bria)

وتصنع منها البرنس (السلهام) والجلابة للرجال و (القنطان) للنساء (132) وقد أوجد المنصور اللباس المعروف (بالمنصورية) حتى اليوم : (وهو لباس من ملف لم يكن مستعملا قبله وهو أول من اخترعه وأضيف اليه فتيل : المنصورية) (133) .

وبرزت تطورات المجتمع ايضا في اقامة الحدائق العامة وفي الخروج الى المنتزهات طلبا للراحة . ولم يخف الرحالة الاجانب المعاصرون اعجابهم بمظاهر التطور العمراني في المغرب زمن المنصور ، التي برزت بصفة خاصة في بعض كبريات المدن المغربية ، مما حدا ببعضهم الى تشبيه فاس بغرناطة ومراكش

-
- (129) المناهل . ص 253 .
(130) يعد قصر الايسكوريال (Escorial) باسبانيا من القصور المعاصرة للبديع اذ بناه فيليب الثاني كما بنت ايليزابيث بانجلترا قصرها التاريخي . Hardwicke Hall
(131) م. م. ت. م - بريطانيا - ج 2 - ص 257
(132) المصدر السابق .
(133) الامرائى : نزهة الحادي . ص 128 .

باشبيلية ، وفاس ومراكش في مصاف العواصم الكبرى في العالم الاسلامى مثل
اصطامبول ودمشق والقاهرة . . . (134) .

وقد شملت ظاهرة التطور العمرانى مناطق واسعة في البادية المغربية بفعل
توزيع الاراضى على القبائل والزمامها بزراعة الارض والاقامة حولها واقامة
المراكز والمحطات التجارية ومعامل السكر ومصانعه ، اذ ظهرت تجمعات بشرية
ومراكز عمرانية بشكل قرى زراعية وتجارية وصناعية ، واخذت ظاهرة البيوت
الحجرية تعم هذه النواحي دليلا على الامن والاستقرار واتساع العمران .

وهكذا ازدهرت الحياة بوجه عام في البوادي والمدن وتحسنت احوال الناس
على مختلف اوضاعهم وازداد عددهم الديموغرافى ، حيث اوصل عدد الاجانب
سكان كل من فاس ومراكش الى المليون نسمة فلا عجب والحال كما ذكرنا اذا ما
وصف الوزير الفشنالى دولة المنصور بأنها الدولة التى (اثرت العديم واكسبت
المحروم) (135) .

ومن منشآت المنصور العمرانية ايضا المسجد العظيم بحارة ياسر بمراكش
والقبة العظيمة بصحن جامع القرويين والخزانة العليا به (بعث الخصة العظيمة
لجامع القرويين مع كرسى من المرمر توضع عليه وزنها مائة تنطار وهذه الخصة
هى التى تحت منار الجامع المذكور) (136) . ثم الحصون العديدة بفاس وتازة
والعرانش والقناطر على تاتسيفت وأم الربيع ووادي فاس . واخيرا هناك مقبرة
السعديين بمراكش وقد جاءت آية في الفن المعماري مما لا يزال دليلا قويا على
مدى الروعة في الزخرف والتألق في عصر المنصور الذهبى .

(134) م. م. ت. م - بريطانيا - ج 2 - ص 357

(135) الفشنالى : المناهل . ص 178 .

(136) الانرانى : نزهة الحادى . ص 144 .

الحياة الثقافية

ازدهرت الناحية الفكرية بوجه خاص زمن المولى احمد المنصور ازدهارا عظيما تجلى في تزايد معاهد العلم والدراسة ، وفي كثرة العلماء وطلبة العلم وتعدد مجالات اختصاصاتهم .

واذا كانت الثقافة العربية الاسلامية في المغرب قد حافظت على اسسها ومعالها ، فانها نظرا للتغيرات التي شملت مختلف نواحي الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، قد اخذت تعرف نوعا من التطور ، مما يتلاءم والوضعية الجديدة التي كان المنصور يعمل لها ويهدف الى تحقيقها اي نهضة البلاد في جميع مظاهرها لتساير ركب الدول الحديثة المعاصرة .

فطالب العلم يلتن اولا بمبادئ القراءة والكتابة ثم يشرع في حفظ كتاب الله العظيم ، وبعد آن ، يأخذ في دراسة مختصر خليل ، الرسالة ، مقدمة بن آجرم ، الفية بن مالك ، لامية الاعمال ، علم الحساب علم العربية ، الالفية ، اصول الدين ، كبرى السنوسى ، حاشية الصفوى ، حاشية الكبرى : شرح بن زكرياء الكبير والصغير ، ايساغوجى والشمسية في المنطق ، علم العروض ، تلخيص المفتاح والايضاح ، الكتب الخمس ، الحديث والفقه المالكي . . . (1) (وانفقت في صحبتهم من العمر الطارف والتلاد وقطعت ازهار دروسهم وجنيث من ثمرات غروسهم ما راق السمع والبصر والفؤاد ولقطت من درر علومهم ولالىء حكمهم ما أنجد الحثائب وأثقل الاكتاد وسمعت من مروياتهم وطالعت من مستنداتهم ما لا يقال الا باغلاذ الكباد وكنت معهم في وقت الطلاب ارى وأسمع وأتائق واجمع

(1) مناهل الصنا . الفشتالى . ص 265 .

ووجه التهاني يشرق ويلمع حتى انظم الجزع ثاقبه وابصر الجمل طالبه وتفتح
للرغب بابها وتفتجر على الطالبين عبابه (2) .

وبعد الدراسة والتحصيل تسلم لطالب العلم اجازة خاصة (وقرات عليه
أوائل الكتب الخمس بل البخاري والترمذي ومسلم واجازنى فيها وفى باقى الكتب
الخمس بسند متصل مذكور فى فهرسته التى كتب برسمى واجازنى فيها بكل ما
له من مترو ومسموع) (3) .

ونص الاجازة كما جاء فى بعض الوثائق المعاصرة (الحمد لله وحده والصلاة
على من لا نبي بعده ، وبعد فقد اجزت لك ان تروي عنى جميع ما يجوز لى متلفظا
بها بشرطه المعتبر عند أهلها وكتبه محمد بن أحمد بابا بن أحمد بساذن
والسـدده) (4) .

ولاخذ صورة واضحة عن الدراسة والجو العلمى فى بعض كبريات المدن
المغربية زمن المولى أحمد المنصور ، نرجع الى ما دونه ابراهيم الجلالى فى مخطوطه
القيم عن فاس ومعاهدها العلمية الكبرى ، وهو معاصر لهذه الفترة :

1 — فيما يتعلق بأهم مراكز العلم بفاس ، هناك :

- جامع القرويين (من جامع القرويين شرفها الله بدوام ذكره) (5) .
- جامع الاندلس (كان رحمه الله . . . يقرأه بجامع الاندلس) (6) .
- مدرسة العطارين (وكان بيده كرسى المرادي بمدرسة العطارين) (7) .
- المدرسة المصباحية (وكان يقريء تهذيب الباردعى للمدونة بقبة المدرسة
المصباحية) (8) .
- مدرسة الحلفاوين (ثم يسير الى مدرسة الحلفاوين يقريء مدونة أخرى) (9)

(2) الفوائد الجمة : للتابنارتى . ص 95 .

(3) المناهل . ص 266 .

(4) الفوائد الجمة : التابنارتى . ص 45 .

(5) تنبيه الولدان : ابراهيم الجلالى . مخطوط بدار الوثائق بالرباط . ك 571 . ص 16

(6) نفس المصدر . ص 17

(7) نفس المصدر . ص 18

(8) نفس المصدر . ص 18

(9) نفس المصدر . ص 22

وقد كان لكل جامع ناظر يشرف على شؤونه (أتى ناظر القرويين . . .) (10)
وامام يؤم الناس في أوقات الصلاة (وكانت بيده إمامة مدرسة العطارين) (11) .

2 — كراسى العلم والتدريس والاساتذة القائمون بها وأوقات دراساتهم :

فاعتمادا على المخطوط المذكور ، كان بجوامع فاس خمسة عشر كرسيًا
للتدريس ، يسهر على القيام بكل كرسي منها عالم من العلماء الاجلاء ، تعددت
اختصاصاتهم ، ولكل منهم زمن معين وأوقات خاصة يحاضر خلالها :

1 — (من جملتهم رئيس المحققين في وقته . . . أبو العباس سيدي أحمد بن علي
المنجور . . . قرا رحمه الله احباسبه شتوة ذلك العام . . . وكان رحمه الله
يقرا التفسير على الكرسي الكاين عن يسار الداخل من البآاب المقابل لباب
القرائين من جامع القرويين) (12) .

2 — (. . . وكان رحمه الله يقرأ صبيحة يوم الخميس ويوم الجمعة قصيد ابن
زكري في التوحيد على الكرسي عن يمين الطالع للمستودع الكاين من باب
الحنا لجامع القرويين) (13) .

3 — (وكان بين المغرب والعشاء يقرئ صحيح مسلم على الكرسي القريب من
باب الكتبيين من الجامع المذكور) (14) .

4 — (وكان له كرسي يقرأ عليه بعد صلاة الظهر أسفل السبع الكاين عن يسار
الداخل من مسجد الجنائز للجامع المذكور) (15) .

5 — (وكنت في ذلك اليوم ملازما لمجلس شيخنا سيدي محمد الشريف . . .
التلمساني في رسالة الشيخ بالكرسي الكاين بظهر الخصة من الجامع
بعد صلاة الصبح كل يوم) (16) .

(10) نفس المصدر . ص 20

(11) نفس المصدر . ص 18

(12) المصدر السابق ص 18

(13) المصدر السابق ص 18

(14) المصدر السابق . ص 18

(15) تنبيه الولدان . لابراهيم الجلالى . مخطوط ص. 16

(16) المصدر السابق ص 16

- 6 — (وكان شيخنا سيدي يحيى السراج حينئذ يقرأ التفسير على الكرسي الكائن عن يمين الداخل من باب عتبة السبطيين للقرويين (١٠٠٠ صباحاً) (17) .
- 7 — (تولى سيدي أبو القاسم بن سودة الكرسي الكائن عن يمين الداخل من باب مسجد الجنابر بعد صلاة الظهر كان يقرأ مختصر ابن الحاجب وصفري الشيخ السنوسي) (18) .
- 8 — (وتولى أبو النعيم الكرسي الكائن عن يمين الطالع للمستودع الكائن عن يمين الداخل لباب الحفا من القرويين وكان يقرأ عليه بين المغرب والعشاء صفري الشيخ وبعض الرسالة ، وبعد صلاة الخميس والجمعة قصيدة ابن زكري رحمه الله) (19) .
- 9 — (كان الشيخ سيدي عبد الواحد الحميدي يقرأ التفسير على الكرسي المستند لظهر الجامع عن يمين الخارج من الباب المقابل لدرب ابن حيون بانحراف) (20) .
- 10 — (ومن جملة من أدركته حيا الفقيه الحافظ . . . سيدي أحمد بن علي الزموري رحمه الله كان رحمه الله . . . له تفسير يقرأه بجامع الاندلس عدوة الصباح عن يمين الداخل من الباب المقابلة لمدرسة الوادي وعن يسار الداخل من الباب المقابلة للمدرسة الصفري هنالك) (21) .
- 11 — (وكان له في القرويين كرسي السير خلف ظهر الصومعة) (22) .
- 12 — (وكان بيده كرسي المرادي بمدرسة العطارين بعد صلاة العصر) (23) .
- 13 — (ومن جملة من أدركته حيا وقرأت عليه . . . العالم العلامة . . . أبو محمد سيدي عبد الواحد بن أحمد . . . كان رحمه الله في فصل الشتاء يقرأ

-
- (17) المصدر السابق ص 16
(18) المصدر السابق ص 17
(19) المصدر السابق ص 17
(20) المصدر السابق ص 17
(21) المصدر السابق ص 17
(22) المصدر السابق ص 18
(23) المصدر السابق ص 18

الله . . . يخرج أصحابه لاقراء الرسالة بين النداء بأول الظهر وصلاتها
عند باب مسجد الجنائز . . . وجلوسه على الارض) (31) .

3 — (وكان رحمه الله يقرئ مختصر الشيخ مع جماعة من الطلبة يجلس بالارض
عن يمين الداخل من باب السماعين للقرويين بالموضع المنسفل هنالك من نداء
أول الظهر الى الصلاة) (32) .

4 — (كان رحمه الله يقرأ مختصر ابن الحاجب الفرعى زمان المصيف بالارض
بموضع كرسى تفسيره) (33) .

5 — (وكان رحمه الله يقرأ بعد تفريق مجلس تفسيره مختصر الشيخ قرب باب
المقصورة مسندا ظهره الى حائط القبلة من ناحية الخزنة) (34) .

4 — أما حلقات العلم وكيف يتم التدريس بها :

فالعالم الاستاذ يجلس على الكرسى أو فوق بساط في الارض مسندا ظهره
الى حائط أو سارية ، وحوله الطلبة مجتمعون على شكل دائره ، حيث يقوم احد
الطلبة البارزين بالسرد ثم يشرع العالم الشيخ في الشرح والتفسير (وكان قارئ
مجلسه في الدونة والمختصر . . . عبد الرحمن بن أحمد بن عثمان المكتاسى) (35) .

ولحظة العلم احترام وآداب يراعيها الطلبة كثيرا : فعليهم ان يفتبهوا الى
العالم المحدث وان يدونوا اقواله ، ويمنع عليهم الكلام أثناء التدريس اذ ان مجرد
اللغو قد يعرضهم الى غضب الاستاذ وسخطه (وكان كثير الصياح على من تكلم
في مجلسه) (36) . ويستحسن عدم الاسئلة الا بعد ان يأذن لهم الاستاذ بذلك
(ومن جملة ما وقع له مع الشيخ . . . انه اراد سؤال الشيخ المذكور وهو في
أثناء تقريره وتعبيره فأشار له الشيخ بيده اليمن ان اصبر فسكت حتى فرغ الشيخ
من مراده فبحثه عن سؤاله) (37) . وللطلبة كامل الحرية في مناقشة اساتذتهم بعد

(31) المصدر السابق . ص 17

(32) المصدر السابق . ص 18

(33) تنبيه الولدان . ص 20

(34) تنبيه الولدان . ص 21

(35) تنبيه الولدان . ص 19

(36) تنبيه الولدان . ص 21

(37) تنبيه الولدان . ص 16

الانتهاء من الدرس (وكان كثير البحث مع الشيخ . . . حتى يقع ملل الطلبة من ذلك) (38) .

ويبدو أن العادة قد جرت بأن يكون الاستاذ العالم المحاضر حسن الهندام وأن يلبس الجلابة والبرنس والعمامة وأن يجلس متربعا فوق الكرسي أثناء التدريس (وكانت صفة جلوسه على الكرسي مخالفة لجلوس غيره من الفقهاء وذلك أنه كان يجلس على محل الجلوس منه ويضع رجلاه على درجة الكرسي كجلوس الامام على المنبر ولا ادري هل تلك عادة أو أن ذلك لضرر به وكان الطرف المحنك به من عمامته الكائن تحت ذقنه يقربه من فمه) (39) .

وهذه الحلقات العلمية لم تكن وقتنا على الطلبة ، بل كان يحضرها عامة الناس أيضا ، وقد كانت نسبة الحاضرين من الطلبة والعامة تختلف باختلاف موضوعات التدريس وحسب مقدرة المحاضر وفصاحته (وكان رحمه الله فقيها مطلقا بارعا اديبا . . . حاز درجة السبق في العلم والرياسة ذا وجهة عند الخاصة والعامة) أو ضعف صوته وكبر سنه (وكان رحمه الله لا يجلس لسماع مجلسه في ذلك الا القليل من الطلبة والعامة وكان ضعف صوته ومن عادته الامتناع بتدقيق النقل وتدقيق معانيه وتنقيحه ونفوس العامة تنافر من ذلك) (41) .

وفي الحلقات التي يتم خلالها ختم تفسير كتاب الله عز وجل يحضر الملا العظيم من الطلبة وجمهور الناس وحيانا بعض اكابر القوم وعليتهم (وبه خرجت ختمة تفسير رحمه الله حضر خروجها الخاص والعام) (42) .

وتعظيها من المولى احمد المنصور للعلم ورجاله وطلبته ، فقد كان يحضر مجالس الدراسة بالقرويين عند حضوره الى فاس ويكرم القائمين على ذلك (ولها قدم مولانا احمد رحمه الله من مراكش عام الثلجة (اي عام 1589) قدم معه جماعة من طلبة مراكش . . . وكان يحضر المجلس المذكور مع فقهاء اهل فاس) (43) .

(38) تنبيه الوردان . ص 16

(39) تنبيه الوردان . ص 16

(40) تنبيه الوردان . ص 18

(41) تنبيه الوردان . ص 15

(42) تنبيه الوردان . ص 21

(43) تنبيه الوردان . ص 20

ولم يقتصر عمل العلماء المحاضرين على التدريس بجامع معين ، بل ان بعضهم كان يدرس في جوامع عديدة بفاس (وكان من عادته رحمه الله في فصل الشتاء اذا فرغ من اقراء المختصر حيث ذكر يمشى لمدرسة العطارين يقرئ هناك المدونة على الكرسي المتقابل وجه الداخل لتبنتها فاذا فرغ يرجع الى المتصورة ثم يسير الى مدرسة الحلفاويين يقرئ هناك مدونة اخرى له عليها حبس) (44) كما كان البعض الآخر يقوم الى جانب التدريس بالافتاء (وبعد نزوله عن الكرسي المذكور صباحا ينصرف الى السارية القريبة لمقصورة فتياه فيجلس هناك مستدير الحائط القبلة) (45) او بمهمة الخطابة (تولى الخطابة في الاعياد بهولانسا السلطان) (46) ، وامامة الناس في اوقات الصلاة (وكانت بيده امامة مدرسة العطارين) (47) ، كما كان البعض الآخر يكلف بحضور ايام الديوان (وغالب امره انه كان لا يقرأ يوم الاربعاء من اجل حضوره ديوان السلطان وكان في بعض الاوقات يقوم لديوان السلطان يوم الاثنين او يوم الاربعاء في زمن الربيع للدار البيضاء ويرجع من وقته الى باب المدرسة ينزل عن فرسه ويضعها ويدخل الى الاقراء) (48) .

وقد كان لهؤلاء العلماء الافاضل بالتقويين مثلا مكان خاص للاجتماع والتذاكر فيما بينهم (وكانت عادة جلوسه في غير الاقراء داخل باب الصفر الخارجة لمقبة السبطيين كان يجتمع هناك مع اصحابه) (49) .

وعندما تحصل وفاة احد كبار العلماء من اصحاب الكراسي ، فان النابهين من طلبتهم هم الذين يخلفون اساتذتهم (كان رحمه الله يقرأ التفسير كما قدمنا لما مات سيدي احمد المنجور انتقل لكرسيه) (50) او ان العالم الشيخ عندما يشعر بالضعف والاعياء لكبر سنه او مرضه يختار من بين طلبته من يخلفه في مهام التدريس (وكان له في التدريس كرسي السير خلف ظهر الصومعة فوله لتلميذه شيخنا وبركتنا سيدي علي بن عبد الرحمن بن عمران السلاسي) (51) .

(44) تنبيه الولدان . ص 22

(45) تنبيه الولدان . ص 16

(46) تنبيه الولدان . ص 22

(47) تنبيه الولدان . ص 18

(48) تنبيه الولدان . ص 20

(49) تنبيه الولدان . ص 16

(50) تنبيه الولدان . ص 21

(51) تنبيه الولدان . ص 18

وقد كان العلماء الاجلاء يحظون باحترام كبير لدى الطلبة اذ من جهتهم يقدرّون الطلبة ويسمعون الى تعليمهم وتثقينهم (وكان رحمه الله حريصا على محبة الطلبة ونعمهم بعلمه ودنياه) (52) بل ويعطفون على ذوي الحاجات منهم (وكان الشيخ . . . حريصا على محبة الطلبة مشفقاً عليهم ويشترى في أول فصل الشتاء عدة عديدة من الحياك ويفرّتهم على الطلبة بقبة المدرسة وغيرها) (53) .

وبالمقابل فقد كان الطلبة يكونون كل الاحترام لاسانذتهم ، وكانت عامة الناس تشاطر الطلبة هذا التعظيم والتبجيل (وكان رحمه الله . . . ذا وجهة عند الخاصة والعامّة) (54) . وأكثر ما يتجلى هذا التجاوب عندما يمرض العالم أو يتوفاه الله اليه (وكان يوما عظيما خلت الديار من النساء والاولاد فضلا عن الرجال لحضور جنازته حتى كاد الناس ان يقتتلوا ازدحاما) (55)

ومن مظاهر احترام الطلبة ايضا الاستجابة لمطالب اسانذتهم والحرص دوما على رضاهم (ولها وصلت حاشية الامام اللقاني على لحادي ابن هشام الى مدينة فاس وكانت عزيزة الوجود كلغنى رحمه الله نسخها له فكتبها له ويوم اكملتها اثنته بها ففرح بذلك وقال لى رحمه الله ان الكلب اذا كنب ولم يقابل كان كالشهد اذا شهد ولم يؤد ، فكلغنى مقابلتها معه فقابلنها معه وهو آخذ بالاصل في داره بالمعادي) (56) .

اما الوافدون على فاس ، فقد كانوا يقيمون في احياء خاصة او في بعض المدارس المهيأة لاقامتهم ، واعتمادا على مخطوط ابراهيم الجيلالى فان من بين تلك المدارس ، هناك :

- المدرسة المصباحية (واستوطنت معه بيتا في المدرسة المصباحية) (57) .
- مدرسة الحلفاوين (وكان ماواة حينئذ بمدرسة الحلفاوين . . . وكلهم كان ماواهم بالمدرسة المذكورة مع جماعة غيرهم ممن لا معرفة لنا به اذاك) (58)

(52) تنبيه الولدان . ص 19

(53) تنبيه الولدان ص . 20

(54) تنبيه الولدان . ص 18

(55) تنبيه الولدان . ص 21

(56) تنبيه الولدان . ص 18

(57) تنبيه الولدان . ص 15

(58) تنبيه الولدان . ص 16

— زاوية الشيخ سيدي يوسف الفاسي (. . . كان ساكنا بمدرسة الحفناوين قبل انتقاله منها الى زاوية الشيخ سيدي يوسف الفاسي بالمخفية) (59) .

— مدرسة العطارين (وكان أيضا من الملازمين للمجلس المذكور . . . المستوطن بمدرسة العطارين) (60) .

أما في العاصمة مراكش فإن كبريات مساجدها قد شهدت نشاطا علميا واسعا مثل جامع الشرفاء الذي كان يدرس به أبو العباس أحمد بابا السوداني (لما تصدر للقراء بجامع الشرفاء بمراكش ورد مجلسه لسماع الحديث وأخذ الرواية عنه اكابر فضلاء مراكش وصدور العلماء) (61) . وقد غدت عاصمة المنصور السياسية بفضل حركتها العلمية (منبع العلم في الديار المغربية . . . معمورة بالعلم مأهولة . . . وسوقا للمعارف نافذة) (62) .

ومما امتازت به مراكش أيضا في المجال الثقافي حلقات الدرس التي كانت تعقد خلال شهر رمضان المعظم (ومنها قيام رمضان واحياء ليلاليه المباركة . . . ينتقى لذلك مشيخة القراء والاساتيد المبرزين في السبع وحسن الاداء والتلاوة ويستفترهم لشهود رمضان معه . . . ثم يبرز صباح كل يوم من ايامه لسماع الحديث الكريم أيضا وسرد الجامع الصحيح للبخاري بين يديه يعتقد ذلك مجلسا حافلا من اهل العلم ومشيخته برسم المذاكرة والتفهم في اسرار الاحاديث النبوية ويحضر لذلك من كتب الفن بقصد الرجوع اليها فيها اشكل) (63) .

ومما اشتهر به المولى أحمد تشجيعه العلم والعلماء وطلبة العلم : فالعلماء يؤثرهم المنصور (بالمواكلة معه في مائدته متى عن حضور بعضهم . . . ويتاحنهم بهداياه . . . وكل ذلك اجلالا للعلم ومحبة في اهل الخير وتوددا لاهل الدين) (64) .

وأما طلبة العلم فيشجعهم على الاقبال على العلم داخل المغرب وخارجه ، بتقديم المساعدات المختلفة (وتضعيف الجرايات لهم وايثار المجتهد ذوي الفهم منهم بمزيد العناية والانتبال) (65) وبتوجيههم الى الشرق الاسلامي ومصر خاصة

(59) تنبيه الولدان . ص 19

(60) تنبيه الولدان . ص 16

(61) الفوائد الجبة في اسناد علوم الآلة . التابنارتى . مخطوط . ص 45

(62) ذيل الابتهاج . أحمد بابا السوداني . مخطوط . ص 3

(63) البناهل ، الفشتالى . ص 213

(64) الفشتالى : مناهل الصنا . ص 225

(65) المصدر السابق .

طلبا للعلم (ووجهنا اليكم . . الفقيه . . القادم على تلکم البلاد بنية طلب العلم ولتاء مشيخته ورواته وجلب الذخائر الثمينة من مصنفاته) (66) .

وقد اخذت سياسة تشجيع العلم والعلماء والطلبة تؤتى اكلها (اذ تنافس الناس لهذا المعهد الكريم من أجل ذلك في اقتناء العلم والاحتراف بصناعته الشريفة لاعتزاز اهله وسعة ارزاقهم حتى كثر حاملوه واستبحر جهابذته فتعددت المشايخ وكثر التلميذ ونبع التأليف في التصنيف) (67) . وفي روضة الآس لاحمد المقرئ وهو معاصر عاش فترة من الوقت في فاس ومراكش زمن المنصور ، نجد تراجم لاربعة وثلاثين عالما مغربيا نبغوا في علوم الدين والحديث واللغة وفي ميادين الطب والهندسة والحساب والتنجيم وباقي فنون الاداب والمعرفة (68) .

ومن مظاهر تشجيع المنصور للعلم ، حثه العلماء على التأليف في شتى أنواع المعرفة (وشجد امير المؤمنين ايده الله بهم وأغرى بكل من اهله وجذب بضع كل فهامة فتنافس الناس ونبع التأليف في ايامه السعيدة) (69) . وقد كان المولى احمد من الذين ألفوا تأليف عديدة (تسامت همته الشريفة ايده الله الى تدوين كتاب في علم السياسة وسمى ايده الله هذا التأليف الشريف بكتاب المعارف في كل ما تحتاج اليه الخلائف) (70) .

وقد دل هذا التأليف على مدى النزعة العلمية التي كان يتمتع بها المنصور ومدى تجاوبه مع واقع بلاده وظروف عصره .

وهكذا كان لحرص المنصور على :

1 — تنظيم دولته والسهر على شؤون ادارتها وجميع مرافقها اثر كبير في القيام بأبحاث ادارية هامة (انه ايده الله رعا كل من تعرض الى التدوين في هذا الفن قصاره الوقوف عند السياسة العلمية .الراجعة الى المصطلح في الوزير والنديم المشير وتنمية الخراج والعدل في الرغبة وسيره المملكة في

(66) رسائل سمعية . ص 33

(67) المناهل . ص 225

(68) المقرئ : روضة الآس العاطرة فيمن لقينه من أعلام الحضرتين مراكش وفاس .

(69) المناهل . ص 216

(70) المناهل . ص 238 .

الركب والملبس ونحو ذلك . . . وكل اكتفى بالقول واضرب صفحا عن العمل . . . فأرى ذلك مولانا . . . أن يجمع بين الفائدتين (71)

2 — وللرغبة في تجهيز وسائل الدفاع الكنيابة برد أي خطر خارجي عن بلاده قام بأبحاث تتعلق باقامة الحصون والقواعد العسكرية ومختلف وسائل التحصين و (حياطة البلاد لما يفيد من المعرفة التامة بتحصين الحصون واختطاطهم) (72) .

3 — ومن أجل تعبئة القوات المحاربة وتدريبها على أنواع القتال بما في ذلك المدافع واسلحة النار حرص على التأليف في ذلك (وتعبئة الحروب ومكائدها وآلاتها وخدعها وأنواعها والحصار وآلاته والرمي وأدواته ومعرفة أنواع مدافع التذف والرجم وأسمائها والقابها وكيفية عملها طولا وقصرا وخفاء وتفرغ ذلك ممن يقتضيه غرض الرمي الى البعد أو القرب أو الى السماء أو الى الأرض وإلى الاستقامة وإلى الانحراف . . . والتي يرمى بها شواطئ النار وتعداد أنواعها وقسمتها الى الحجرية والمعدنية وغير ذلك مما تقتضيه السياسة العلمية والعملية حتى في اقامة الحدود) (73) .

وقد جاء في مطلع الكتاب قول المنصور : (نحمدك اللهم على ما أثبت من رياسة وعلمت من سياسة ووهبت من ملك ونظمت من سلك . . . وبعد فبنا حاجة الى تكميل نفوسنا في قواها البشرية باستعمالها في حقائق المعلومات العملية) (74) .

وتجأت عقلية المنصور التنظيمية في الميدان المعماري ووضع تصاميم البناء (أحضر عرفاء المبانى فاقترحها لهم وأخذ أيدى الله يرشدتهم . . . ثم تولى رسمها لهم بينائهم الكريم في قرطاس فلمسوه بأيديهم) (75) . كما ظهر بنوغي في أشكال الحروف التي اخترعها (كشيفرة) خاصة للتراسل مع ولاته وسفرائه وأكابر دولته (اخترع اشكالا من الخط على عدد حروف المعجم يكتب بها فيما لا يريد الاطلاع عليه من أسرارهم ومهمات أموره وأخباره يمزج بها الخط المتعارف فيصير

(71) المصدر السابق .

(72) المصدر السابق .

(73) المصدر السابق .

(74) البناهل . ص 302 .

(75) البناهل . ص 258 .

بذلك الكتاب ملمعا مستغلتا فلا يجد المطلع عليه بابا يدخل منه الى فتح شيء من معانى الكتاب ولا الوصول الى فهم سر من اسراره (76) . وقد كانت (الشيفرة) عبارة عن (اشكال على ترتيب ابجدي) كما اكدت وثيقة معاصرة ذلــــك .

ومن جهة أخرى فقد بذل المولى أحمد جهودا متواصلة مع ملك اسبانيا لنقل التراث الاسلامي بالاندلس الى المغرب (77) كما قام باحياء المخطوطات العلمية بأن امر بنسخها (ومات الشيخ رحمه الله وتركه منتبذا في مسودته بين اوراق خزانته ولم يبرزه للناس فتلا في مولانا الامام . . امره وبحت عنه . . فتوجهت اليه العناية الكريمة فانظم جمعه . . من لفيف الاهمال وانتاذه من لهوات التلف) (78) فنشطت لذلك صناعة النسخ وحرفة الكتابة .

وهناك ظواهر أخرى برزت في الناحية الثقافية خلال حكم المنصور ، تستوقف بعض التوقف ، وهى : اهتمام المولى أحمد بتعريب العلوم ، وبالاختراعات العلمية التى ظهرت في بعض دول اوربا الغربية الناهضة :

ا و لا — ففيما يتعلق بحركة التعريب التى ظهرت زمن المنصور :

نشير الى أن عوامل هامة قد ساعدت على ظهورها وتطورها ، فبالاضافة الى رغبة المنصور العالم والاديب ، هناك : وجود العدد العظيم من الاندلسيين الذين هاجروا الى المغرب بعد نكبة الاندلس ، والذين كانوا على مستوى عال من الحضارة والثقافة وعلى اطلال واسع على بعض اللغات الاوربية ، ثم الجاليات الاجنبية والاوربية منها بوجه خاص كسفراء وتجار ورحالة واسرى واحتكاكهم بالمغاربة على مختلف المستويات ، مما احدث تأثيرات متبادلة . ونضيف الى ذلك مراكز الاحتلال الاسباني والبرتغالي المنبثة على طول السواحل المغربية وتعاملها اليومى مع المغاربة ، ووجود العدد الكبير من الاسرى المغاربة في مختلف مدن اوربا ، واخيرا حرص المنصور على الاستفادة من النهضة العلمية بأوربا الغربية . وما بين أيدينا من مصادر ووثائق يؤكد بأن حركة علمية نشيطة قد ظهرت بالمغرب

(76) البناهل . ص 258

(77) مجلة الاندلس . عدد (23) لعام 1958 . ص 19 .

(78) البناهل . ص 303 .

في هذا العهد ، حيث شجع المنصور تعريب هذه العلوم وحث اصحاب الاختصاص على التأليف فيها . وقد نشط الاندلسيون بصفة خاصة في هذا المجال وقاموا بترجمة كثير من المؤلفات العلمية الاوربية وتعريبها : فقد عرب ابو القاسم الفسائسي الشهير بالوزير الاندلسي الفاسي للمنصور (جيلة تأليف رفعها الى المقام الاحمدي المنصوري العلوي منها : مغنى اللبيب عن كتب اعداء الحبيب ، ذلك انه قدم على امير المؤمنين بعض اكابر الروم فاتخذ بهذا الكتاب مكتوب بالقلسم الاعجمي فعربه الشيخ ابقاه الله وجعل له خطبة وزاد فيه زيادات واسماه بما ذكر) (79) . وعرب العالم الاندلسي الشهاب احمد الحجري في هذا العهد كتابا تحت عنوان : (كتاب العز والمنافع للمجاهدين بالمدافع) (80) تعرض فيه الى اختراع البارود والالات الحربية ، وعدد انواع المدافع النارية والحجرية وطريقة صنع قنابل المدافع .

ثانيا :

واما حرص المنصور على الاطلاع على المخترعات العلمية باوروبا الغربية والاستفادة منها ، فيؤكد التقرير الذي وجهه التاجر الانجليزي بالمغرب (Thomas Bernher) الى العالم الرياضسي المخترع الانجليزي بلندن (Edward Wright) بتاريخ 24 يونيو 1600 م ، ذكر صاحب التقرير اهتمام المنصور بأبحاث علم الفلك وجميع التجارب التي تجرى لكشف المزيد من اسراره ، واكد لصديقه بأن المولى اهتم لن يتوان عد تقديم اي مبلغ من المال مهما عظم في سبيل الحصول على بعض الاختراعات العلمية وطرق استعمالها ، كما نصحه بأن يعرض على السفير المغربي الموجود بلندن آخر اختراعاته مثل : الآلة الفلكية المعدنية لقياس الاميال ، والادوات المتعلقة بأحداث الشمس والقمر والكرة والساعة وجميع الخرائط المتعلقة بعلم الفلك وحركات السماء ، وبالاخص طرق استخدام الابرة المغناطيسية من أجل التعرف على الجهات الاربع التي تستلقى اهتماما عظيما من المنصور ، سعيا منه الى استخدامها في الرحلات التي يقوم بها المغاربة الى الصحراء وبلاد السودان (81) .

(79) البقرى : روضة الاس . ص 127

(80) اللسان العربي : ج 1 . يونيو 1964 . ص 67 .

(81) م. م. ت. م - بريطانيا - ج 2 - ص 532

ثالثا - في مجال الطب والصيدلية :

كان لانتشار الاوبئة وداء الطاعون بين الآونة والاخرى في المغرب اكبر الاثر في ظهور عدد من الابحاث الطبية والصيدلية لاكتشاف عقاقير وادوية تساعد على مقاومة الداء الخطير ، فمن أشهر اطباء في هذا العهد : أبو عبد الله محمد طبيب المنصور الخاص ، وقد (كان من مهرة الفن وآية في العمل والتجريب) (82) ، والحسن المسفيوي الذي (له قدم راسخ في علم الطب) (83) .

واهم المؤلفات الطبية (حديقة الانهار في شرح ماهية العشب والعقار) للوزير الفسائي و (مغنى الطبيب عن كتب اعداء الحبيب) للفسائي أيضا ، ثم (القانون المفيد في علاج الحصى بقول سيد) لابن مسعود (84) . وقد توصل اطباء الى تركيب ادوية كان لها بعض المفعول في العلاج من داء الطاعون (لا تغفلوا عن استعمال الترياق فالزموه واذا استشعرتهم منه بسلامة بحرارة وتخوفتموها فاستعملوا الوصف من الوزن المعروف منه) (85) .

وعند التساؤل عن مدى استفادة المغرب في هذا العصر من مختلف الاختراعات العلمية نجد :

1 - معاملة الدولة لعصر قصب السكر (وشأن هذه المعاصر شأن الخوارق الخارجة عن طوق البشر جفاء وعظمة وتوطيدا وتشجيذا ، ما شئت من برك رحبية وجفان كالجوابى وقدور راسيات ولوالب فلسفيات وحركات هندسيات . . . ثم أجرى لاستدارة رحاها العظيمة الاخشاب الجافية الاجرام النهر المعروف . . .) (86) .

2 - معاملة الاسلحة ودور صناعة قطع الاسطول ، ولا سيما المدافع والبنادق (وأما ما يفرغ مع الايام من مدافع النار ومكاطلها بدار العدة . . .) (87)

(82) الفتاوى : البناهل . ص 53

(83) المقرئ : روضة الاس . ص 172

(84) المصدر السابق .

(85) الامرائى : نزعة الحادى . ص 156

(86) البناهل . ص 209

(87) البناهل . ص 210

التي كانت تصنع بمراكش ، والسفن التي كانت تصنع بالرباط (ثم صرف
هفته أيده الله الى اتخاذ الاسطول برياط سلا . . . فتعددت مراكبه) (88) .

3 — وظهرت الاستفادة من الاختراعات العلمية في وسائل سد انابيب الماء الى
مبانى المنصور بمراكش ، وقد كانت هذه الانابيب على نوعين : حارة وباردة
(تمتاز المياه الدافئة بالبارد والسخن من الحمام المنتظم بينيتها شرقا ذي
البركة العظيمة المغروغة للوقت من تحتها . . . فتنبأها القواديس الفاغرة
الانواء اليها من كل جانب فتبلا حواصلها وتسائر بها لهذه الديار وقد أخذت
الاهبة لمصابها في النقر المرمية بكل دار) (89) . حيث ينتهى كل انبوب
بحنفية خاصة (من اثنوبين ينبجس احدهما بالبارد والاخر بالسخن مفدين
بلوالب تنجذب عند الفتل طوع اليد) (90) .

4 — كما تجلت الاستفادة ايضا في الفانوس المتخذ بباب دار الحريم (لقد بلغ
الاحتقال مبالغ الاغياء الى اتخاذ منحوت على شكل الفانوس الكبير مغشى
بصفائح النحاس الاصفر الصقيل قد مثل بجدار كل دار منه شكل معتم
لمناولة ما يرد من المرافق والمآكل والمشارب على الديار يدور بوجهه عند
الداعية من الاماء والخدم القائمات بخدمة سيداتهن من اهل الحجاب العالى
فيلقين في جوبه من وراء الجدران . . . ثم يدور بوجهه لداخلها لمنزل فتقع
المناولة من غير أن تتراعى الى الاشخاص أو تبدو منها للعين قلامة ظفر
اغياء في الاحتجاب) (91) .

5 — وهناك الميدان المعماري والاستعانة بالمهندسين المعماريين الاوربيين ، ومن
فلورانس خاصة (حشد له الصنائع وأرباب الحكمة من كل أرض حتى من
بلاد الامرنجة) (92) .

6 — وظهرت الاستفادة من الناحية العلمية خلال هذا العصر أيضا في استعمال
الخاتم لطبع المراسلات (قياخذ عند ذلك أيده الله في العلامة ان كان اليوم
يومها فتارة بيده الكريمة . . . وتارة بالطابع) (93) .

(88) البناءل . ص 210

(89) البناءل . ص 210

(90) البناءل . ص 259

(91) البناءل . ص 259

(92) البناءل . ص 254

(93) البناءل . ص 232

وقد كان خاتم المنصور على هذا الشكل (كانت العلامة الكريمة المذهبة التي اختطت فيها يمين الامام . . . اسمه الشريف بتدبير بيهر العميون حسنا وفخامة ورواء) .

7 — وهناك ايضا ميدان طبع النقود الذهبية والفضية والبرونزية (كان بيباه كل يوم أربع عشرة مائة مطرقة تضرب الدينار) (95) .



ولما كان المولى احمد المنصور قد اشتهر بتشجيع العلم والعلماء فنان بلاطه بمراكش قد قصده العديد من رجال العلم والادب في المغرب والمشرق (قد ارتحلت اليها الشعراء من الاقطار الشاسعة وضربوا الى بابيه اكباد الابل) (96) . ووجد الجميع منه كل احترام وتكريم (وأما صلاته الجزيلة . . . للشعراء ومن يفد على حضرته العلية . . . فاجل من أن يحصى) (97) .

وهناك عدد من العلماء المشاركة الذين لم تساعدهم الظروف على التوجه الى المغرب أرسلوا اليه مؤلفاتهم العلمية واجازته البعض منهم كتابة (98) .

ومن أشهر هؤلاء العلماء (الذين اجازوه ايده الله كتابة ومراسلة من الشرق الى الغرب الشيخ الامام العالم الصدر الكبير الشهير رئيس ائمة العلم بالديار المصرية وقبلة أهل الارض قاطبة علم الطريقة ومركز دائرة الشريعة والحقيقة حجة الاسلام وعلم الاعلام وقدوة الانام الشيخ الامام الاوحد الغوث الرباني ولي الله أبو عبد الله محمد بن أبي الحسن البكري الصديقي) (99) .

-
- (94) المناهل . ص 131
 (95) الامرائى : النزعة . ص 157
 (96) المناهل . ص 267
 (97) المناهل . ص 267
 (98) اعتمادا على الوثائق التي تتوفر عليها والتي يتضمنها الملحق الوثائقي للدولة السعودية فان المنصور قد راسل القاضي أبا علي حسن خلال عام 990 هـ وبمقتضى يطلب الاجازة من العالم البكري في عام 991 هـ وقد اجاز العالم البكري البولي أحمد في شهر ربيع الاول عام 992 هـ ثم راسل المنصور المؤرخ مصطفى بن حسن في عام 992 هـ وطلب الاجازة من العالم القرائى عام 998 هـ فاجازه هذا الاخير في جمادى الاولى عام ألف هـ . وفي العام التالي بمقتضى اليه المنصور يشكره أي عام 1001 هـ وأخيرا راسل المنصور العالم البكري في ربيع الاول عام 1005 هـ .
 (99) الفتاوى : مناهل الصفا . ص 268

والعالم الكبير (الشيخ الامام نخبة الفضلاء الاعلام تاج الملة علم الائمة فخر العلماء الجلة تاضى القضاة المالكية بالديار المصرية الفقيه الجليل العالم العلم الفاضل الشيخ بدر الدين القرامسى) (100) .

وقد اثبت أبو فارس عبد العزيز الفشتالى فى (مناهل الصفا) نصوص الاجازتين ، وهما من الوثائق التاريخية الهامة التى تضمنها الكتاب والتى تعطى صورة عامة وشاملة للنشاط الثقافى والعلوم الدينية فى مصر خلال النصف الثانى من القرن العاشر الهجرى (101) .

والمؤلفات الضخمة والعظيمة التى اشتملت عليها خزانة المولى احمد المنصور خير شاهد على ازدهار العلوم فى هذا العصر (وقد اشتملت الخزانة الكريمة العلية الامامية الشريفة اليوم على عدد جم من تصانيف اهل العصر فى كل فن حتى فى الطب والهندسة) (102) . وأهم التأليف العلمية والدينية التى تضمنتها : مؤلفات العالم أبى عبد الله محمد بن أبى عبد الله الرجراجى الذى جمع بين (تقييدى الامامين البسلى والسلوى عن شيخهما صدر الائمة . . . أبى عبد الله بسن عرفة) (103) ومؤلفات الشيخ (أبى العباس أحمد بن على المنجور على رجز ابن زكرياء فى علم الكلام) (104) ومؤلفات (الشيخ الامام الاوحد الفذ الفريد استاذ المغرب فى وقته فى علوم القراءات وسبويه زمانه فى العربية والنحو الشيخ أبى العباس أحمد القدومى) (105) ، وتأليف (الفاضل العلامة . . . الرحالة الحاج أبى جمعة سعيد بن مسعود الماغوسى التى منها شرح لامية العجم املاه بالبلاد المشرقية ورفعته الى حضرة مولانا الامام ايده الله وقد وسمه باسمه الشريف وعليه تقریظات علماء مصر وفضلائها وبعض علماء الشام) (106) ، ثم ديوان (الشريف الفاضل السرى محمد بن أبى الفضل المكى وهو الذى جمع فيه مدائحه فى مولانا الامام) (107) .

ومما تضمنته الخزانة الملكية ايضا (الكشف فى علم التفسير وحواشيه

-
- | | |
|-----|-----------------|
| 100 | المناهل . ص 272 |
| 101 | المناهل . ص 269 |
| 102 | المناهل . ص 304 |
| 103 | المناهل . ص 304 |
| 104 | المناهل . ص 304 |
| 105 | المناهل . ص 305 |
| 106 | المناهل . ص 305 |
| 107 | المناهل . ص 305 |

للطبيب وسعد الدين والسيد والفارسي وابن خليل السكوني وللعلامة ابن البناء وتفسير البيضاوي وحواشيه للشيخ زكرياء والحافظ الاسيوطي . . . وكتاب الرضاع على أي المغنى ومراقى المجد الى أي السعد من تأليف العلامة . . . أبى العباس أحمد المنجور . . . ومغنى اللبيب في العربية وحاشية الشموني عليه وشرح ابن الدمامين وحاشيته . . . والارشادات لامام الحرمين في علم الكلام . . . والمعالم الدينية للفخر . . . وشامل ابن عرفة الذي حاذى به طوابع البيضاوي والصحائف وشرحها للسمرقندي والمقاصد وشرحها لسعد الدين التفتازاني والمواقف لعبد الملة والدين وشرحها للسيد الجرجاني وحاشية حسن جبى على شرح السيد والاربعين للامام الفخري والقطب في علم المنطق على الشمسية . . . ومنطق الثمنا لابی على بن سينا . . . وكافية ابن الحاجب . . . وشرح ابن الدماميني على تسهيل ابن مالك (108) . ونضيف الى ذلك تأليف العلامة السوداني أحمد بابا مثل (ذيل الابتهاج بالذيل على الديباج) وقد ذكر في مقدمته (بوصولى الى منبع العلم في الديار المغربية حضرة الامام العلية والمولوية الهاشمية الاحمدية المنصورية . . . بادرت الى كتب ذلك الذيل . . . وأردت ان اخدم خزانته المشتتة على الطم والرم من كتب العلم اهديته وان كنت في صنعى كجالب تمر الى هجر أو قارض شعر لدى اهل حضر) (109) .

تأليف أبى فارس عبد العزيز الفشتالى وزير المنصور التى من أجلها (مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا) (110) . ورغم أن الايام قد انتلفت القسم الاعظم منه ، فان ما بين أيدينا ليؤكد مدى اتساع أفق المؤلف وغزارة علمه وبراعة شاعريته .

ومؤلفات أحمد المقرئ ، وخاصة (روضة الاس العاطرة الانفاس في ذكر من لقيته من اعلام الحضرتين مراکش وفاس) (111) الذي ترجم فيه للعدد الجم من كبار العلم والسياسة في عهد المولى أحمد المنصور . .

ثم مؤلفات أحمد بن القاضي (112) التى منها (المنتقى المتصور على مآثر

(108) المناهل . ص 268

(109) أحمد بابا السوداني : ذيل الابتهاج . مخطوط بدار الوثائق بالرباط . د 766 . ص 1

(110) أبو فارس عبد العزيز الفشتالى : مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفاء .

دراسة وتحقيق الدكتور عبد الكريم كريم . الرباط 1972 .

(111) أحمد المقرئ : روضة الاس . طبع في المطبعة الملكية بالرباط . 1964

(112) ابن القاضي : المنتقى المتصور . مخطوط بدار الوثائق بالرباط

الخليفة المنصور) ، و (درة الحجال في غرة اسماء الرجال) ثم (جذوة الاقتباس فيمن حل من الاعلام مدينة فاس) وفي خزانة القرويين بفاس اليوم ستة وعشرون مخطوطا في موضوعات شتى ، وهي ما تبقى من المخطوطات العديدة التي كان المنصور قد أوقفها على هذه الخزانة (حبس عليها نصره الله من غرائب الكتب ما لم يسمع مثله قط) (113) ، ويرجع أقدمها الى أواخر رمضان من عام 1001 هـ وقد جاء في وثيقة وقف هذا الكتاب (اللامشى في أصول الفقه) بعد البسملة (حبس مولانا الامام كهف الاسلام ظل الله في الانام كافل أمة النبي عليه السلام . . مولانا أبو العباس المنصور بالله أمير المؤمنين . . على كل من يقرأ فيه من طلبه العلم) (114) وبأعلى وثيقة الوقف يوجد توقيع المنصور ونصه (الماطر أسفله صحيح وكتب بخط يده عبد الله سبحانه أحمد المنصور بالله أمير المؤمنين . . . خار الله له ولطف به وبجميع المسلمين) (115) .

من خلال ما قمنا به من دراسة للمجالات الثقافية في عهد المنصور ، نلاحظ بأن بلاط الملك وكبريات المدن المغربية قد استأثرت الى حد كبير بهذا النشاط العلمي الواسع ، فما المستوى الثقافي الذي كانت عليه طبقات العامة وجمهور الناس ؟

لا نملك والاسف الشديد الا القليل المحدود من المصادر المعاصرة التي تعرض البعض منها للنواحي الثقافية عند الطبقات الشعبية في هذا العصر ، ففي البوادي المغربية كانت توجد جوامع وكتاتيب في قرى خاصة يعلم بها فقهاء

(113) المصدر السابق . ص 75 .

(114) محمد العابد الفاسي : الخزانة العلوية بالمغرب . ص 48 .

(115) المصدر السابق .

يوجد اليوم بخزانة الايسكوريال (Escorial) باسبانيا نحو الف وخمسمائة مجلد عربي مخطوط ، وهي ما تبقى من مخطوطات المنصور التي كانت بخزائنه بهراكش . وسبب وجودها بالاييسكوريال اليوم يرجع الى الفترة التي أعقبت وفاة المنصور وتنازع أبناءه من بعده ، فقد قام ابنه زيدان بنقل أمواله وكتبه وكتب والده من مراكش الى آسفى وذلك للانتقال منها الى اكادير بحرا وانفق مع بحارة فرنسيين لنقله مع أمنته الى اكادير ، غير أن بعض البحارة الذين كانت بسفهم أحوال المخطوطات بدلا من النزول جنوبا نحو اكادير توجهوا شمالا أملا منهم في بيعها أو ربما اعتقدوها أموالا وكنوزا وذخائر ، وبينما هم في عرض مضيق جبل طارق اعترضت طريقهم سفن اسبانية وأسرتهم وقام البحارة الاسبان بنقل الكتب خاصة الى الايسكوريال العاصمة السياسية باسبانيا والتي كان فيليب الثاني قد أقام بها قصر الايسكوريال الذي لا يزال حتى اليوم . ولما وصلت الكتب أمر فيليب الثالث بوضعها في مكان خاص ، وقد بذل الملوك المغاربة السعنيون منهم والعلويون بوجه خالص جهودا جبارة متوالية لاستعادة الكتب على أن حريقا قد شب في الجناح التي توجد به الكتب فالتف عدة مات منها ولم يبق اليوم الا نحو 1500 مجلد مخطوط وهي اعظم ما في خزانة المخطوطات بالاييسكوريال وكل اسبانيا بل وفي غربى أوروبا بوجه عام .

ومعلمون مبادئ الدين وطرق القراءة والكتابة (قدمت من بنى ورياغل مع أخى وشقيقى سيدي أحمد للحضرة الفاسية بقصد القراءة والتعليم فى شهر ربيع الاول من عام أربعة وتسعين وتسعمائة (مارس 1586 م) وكنت حفظت القرآن العظيم والنية ابن مالك والكراريس بباديتى (116) .

على أن الاتاليم النائية والمناطق الجبلية هى التى يظهر أنها قد غالت فى الجهل والضلال وانحطت أحوالها العامة وبالتالي مستواها الثقافى (117) .

وقد ازداد الأمر سوءا عندما حل الطاعون بالبلاد وذهب بالعديد من العلماء وطلبة العلم فى مختلف المناطق (تقهقر الزمان وذهب العلماء الاعيان وانقرض الاكابر والاقتران ورحلوا عن الدروس الى الرموس وآل الأمر من بعد عمارتهم الى الدروس فتعطلت مصادر الطلب وموارده واقوت مجالسه ومعاهده وأفلت أو كادت من معظم آفاق المغرب شمسه (118) .

116) ابراهيم الجيلالى : تبيينه الولدان . مخطوط بدار الوثائق بالرباط . ص 15
117) مما جاء فى اللية الامام الهبطى من العابة : (نأى خير يرتجى لقوم ليراهم تريحة فى علم)
118) التامنارتى : النوائد الجمة . مخطوط بدار الوثائق بالرباط . ص 96

المغرب بعد المولى أحمد المنصور

(وفي سنة اثني عشرة ألف بلغنى وفاة أبى العباس المنصور ملك المغرب في هذا العصر رحمه الله وكانت وفاته بمدينة فاس . . . فنزل الارض بذلك ما نزلها ونالها من الفساد والفتن ما نالها طاش لها الوقور . . . ووضع النفيس وارتفع الخسيس وفشا العار وخان الجار ولبس الزمان البؤس وجاء بالوجه العيوس وأوردنا الاختلاف وانضب ماء الوجوه والانتلاف وطأ الحق رأسه وأخى المحق نفسه . . . ووردت المهالك وسدت المسالك وعم الجوع . . . فانا لله وانا اليه راجعون فيا لها من مصيبة ما أعظمها) (1) .

بهذه الاوصاف عرف عبد الرحمن التمانرتى وهو معاصر الاوضاع التى سادت المغرب بعد وفاة المنصور ، نتيجة تنازع أبنائه وحفدته على السلطة وما رافق ذلك من حروب وفتن واضطرابات في وقت كانت الاوبئة والطاعون لا يزال يفتك بالعديد من الارواح : فالمولى زيدان بويج بفاس واخوه أبو فارس عبد الله نودي به ملكا على مراكش ، وازداد الامر تعقيدا عندما استطاع الاخ الثالث محمد الشيخ المامون الحاق الهزيمة بزيدان وتنصيب نفسه ملكا على فاس . ودخل بذلك الاخوة الثلاثة وابناؤهم في حروب دامية استمرت حدثها طوال العشر السنوات الاولى من وفاة المنصور ، الى درجة يمكن معها القول بأن هذه الحروب الداخلية استنفذت قوى الامراء السعديين وأطمعت فيهم من جهة أخرى كثيرا من الطامعين ، وقد كان من أخطر مضاعفاتها أن مناطق في الشرق والغرب من البلاد قد تعرضت لهجمات خارجية : فالباشوات الاتراك بالجزائر الذين طالبوا الفرص

(1) التمانرتى : الفوائد الجبة . مخطوط بدار الوثائق بالرباط . (د 1420) . ص 194

للتوسع قدوا تتهم الظروف المناسبة وبسطوا سيطرتهم على مناطق من المغرب الشرقى وتمركزوا بمدينة وجدة بوجه خاص تمهيدا للتدخل فيها جاورها ، واغتم الاسبان بدورهم فرصة الحروب الاهلية وحاجة المتحاربين الى الاسلحة والعتاد والقوات المقاتلة وداهموا قواعد في الشواطىء الغربية : العرائش والمعصورة واصيلا ، مما اعد الى الازدهار عهودا مظلمة سابقة عندما قاد البرتغال والاسبان حملات صليبية ضد الشواطىء المغربية على المتوسط والمحيط الاطلسي .

على أن استقرار الامر نسبيا للمولى زيدان بمراكش منذ عام 1022 هـ مكنه من العمل على اقرار بعض الاوضاع الداخلية المضطربة ، خاصة وان حدة الحروب الاهلية قد خفت اثر مقتل اخويه : عبد الله أبى فارس (1017 هـ) ومحمد الشيخ (1022 هـ) وساعده على تنظيم مقاومة الغزاة الاسبان بالشواطىء المغربية (فسال السلطان زيدان بن احمد الذهبي عن يلى بقولية ذلك الثغر والقيام بوظيفته وينواحيه فقبل له سيدي محمد العياشى فكتب له بالقولية لذلك فنهض باعباء ما حمل من ذلك . . . وكان كلما بعث بما يفتح الله به عليه من خمس الغنائم والاساري الى السلطان زيدان بمراكش ازدادت شهرته وتناقل الناس حديثه) (2) .

وهذه الجهود المتواصلة التى بذلها المولى زيدان لاستعادة النفوذ السعدي الى بعض المناطق المغربية لم تستمر طويلا ، فبعد وفاته عام 1037 هـ سقط ما بقى للسعديين من هبة في اعين العامة وبدأ الطامعون يعلنون خروجهم ويستقلون تدريجيا بمناطق نفوذهم .

واذا كان السلطان السعدي قد أخذ ينحصر في العاصمة مراكش وما حولها خلال الثلاثين سنة الاخيرة من عهد الدولة السعدية زمن حكم عبد الملك (37 — 1040 هـ) والوليد (1040 — 1045 هـ) ومحمد الشيخ (45 — 1064 هـ) وابنه احمد (64 — 1069 هـ) فان المناطق المختلفة من البلاد قد تقاسمها قادة محليون أشهرهم :

1 — (بودميعة) بسوس ودرعة والصحراء وبلاد السودان .

(2) عبد القاهر بن محمد ابو ملاق : (الخبر من ظهور المياشى) مخطوط بدار انوثائق بالرباط (د 91) . ص 3

2 — العياشي بالسواحل المغربية الاطلسية .

3 — محمد الحاج الدلاي بالمنطقة الوسطى من المغرب .

ويظهر هذه الامارات المتنازعة انقسمت البلاد الى وحدات سياسية وضعفت بالتالى قوى المعسكر الوطنى ووحدته واصبح الامر ينذر بأفدح العواقب (بعد موت زيدان . . . تطاولت أيدي رؤساء القبائل وعمالها الى الاستبداد على الدولة لمرضاها وهرمها وشاركهم من له شوكة قوية وصاروا كملوك الطوائف بالاندلس) (3).

ومما زاد الوضعية الداخلية تدهورا حرص بعض الطامعين على التوسع وبسط النفوذ فازدادت لذلك الاصطدامات العسكرية وتعددت واجهات الحروب بينهم ، وهذا كله ضاعف من تنكك القوى الوطنية واغرى بالتالى الاسبان على موالاة الغزو والتوسع (فلا يعزب عن فطنتكم كيدهم وتربصهم بالمسلمين الدوائر عليهم دائرة السوء وانكروا وانكروا المسلمين كيف كان استيلاؤهم على الجزيرة واستيصالهم اياها اعادة الله دار اسلام لهذا العهد وكانت أضخم ملكا من هذه العدو وأكثر عددا وعددا بل هى محشر العساكر فلم يزل ينزلها من اطرافها ويطاول من جهاتها . . حتى انتظمت كلها فى سلكهم . . وها هو قد عبر البحر البنا ومد الصليب بهذه السواحل زراعيه علينا . . الله الله فى الاسلام ادركوه قبل أن يموت وخلصوه قبل أن يفوت) (4) .

فلا عجب اذا ما توجهت القلوب المؤمنة الواعية الى السماء تطلب العون والهداية وترجو من الله الخلاص للبلاد والعباد : فبالبلاد أصبحت بحاجة الى قيادة جديدة تستجيب لمطالب العامة المؤمنة بوجوب وحدة الصف الداخلى وتعبئة كل القوى الوطنية المجاهدة للوقوف فى وجه الغزاة ولتحرير السواحل المحتلة ، اذ وحدة الصف والقيام بالجهاد شرطان أساسيان لتطور البلاد وازدهار احوال العباد ، فهل كانت هناك من بواد لظهور القيادة الجديدة المرجوة بعد ان فقدت الامل فى الزعامات المحلية المتنازعة فى (زمن اطفاف فيه الضلالة انوار الهداية وذلك حين فسدت الدولة السعدية فذهبت ربيع سطوتها التهقرية وكثر الثوار فى غالب

(3) بلقاسم الزيانى : (البستان الطريف) . مخطوط بدار الوثائق بالرباط (د 1577) . ص 7

(4) عبد القاهر أبو ملاق : (الخبر عن ظهور العياشى) . ص 30 .

الاقطار . . . ولم ييسر الله تعالى لواحد منهم أمرا وقد كانت عاقبة أمر بعضهم
خسرا (5) .

ان الامام المتطلع اليه هو (من رفع الصلبان عن الامة وكشف عن الاسلام وقد
طالت شكواه لاهله الغمة ، ففتح باب الجهاد للانام الذي طال الاستفهام واجاب
بالاقتلام والرماح والسنة الصفاح داعية) (6)

وخير الامامة : القرشية الهاشمية (فانكم أردتم معهم من مورتهم من جدكم
مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم قرّة عيننا وعينهم فانه نهانا عن طلب ما
ليس لنا فقال : الخلافة في قريش والغير متغلب وهم احق بذلك من قريش في
المغرب) (7) .

نشأة القيادة العلوية :

استقر المولى الحسن الداخل ، الجد الاول للعلويين ، بسجلماسة قادما
من الينبوع بالحجاز عام 664 هـ وقد كانت سجلماسة مركزا دينيا وملتقى استراتيجيا
هاما (فهي قاعدة القرى الصحراوية . . . دار علم ودين وصلاح ومستراح القاصدين
والواردين ومتجر الارباح) (8) .

ولما كان المولى الحسن الداخل ممن عرفوا بالعلم والصلاح والورع فان
العامة قد اقبلت عليه كما ازدادت شهرة عائلته لما قام به ابناؤه من جهاد نفي
الاندلس كالمولى على الشريف الذي (توجه الى الاندلس برسم الجهاد واقام بها
مدة طويلة وعندما عاد الى سجلماسة كاتبه اهل الاندلس يطلبون منه الرجوع
اليهم ويحضونه على الاعتناء بأمور الجهاد ويظهرون له ضعف الجزيرة وانها شاغرة
من تجمع عليه القلوب) (9) .

ومن جهة أخرى فقد كان الشرفاء العلويون بسجلماسة يحظون بعناية
السلطات الحاكمة المرينية والوطاسية ، وازدادت مكانتهم زمن حكم ابناء عمومتهم
السعديين ، وعندما ضعف أمر الدولة السعدية بعد المنصور وتجزأت البلاد الى

(5) سليمان الحوات : (البدور الضاوية) . مخطوط بدار الوثائق بالرباط (د 261) ص 119

(6) عبد القاهر أبو ملاق (الخبر عن ظهور العياشي) . ص 47

(7) المصدر السابق . ص 75 .

(8) المختار السوسي : ايلخ . ص 137 .

(9) الامرائي : روضة التمرير . مخطوط بدار الوثائق بالرباط (ح 58) . ص 18 .

امارات متحاربة ، أصبحت سجالسة موضع اهتمام الدلائين والسوسيين وملقى نفوذهم ، ويبدو أن الجانبين قد اعتبرها بلد الحدود بينهم خاصة وان المولى الشريف العلوي كانت له المكانة الاولى فيها (بايع اهل الصحراء مولاى الشريف وكان يدافع عن بلادهم ويرفع ظالمهم عن مظلومهم ويمهد سبلهم) (10) .

غير أن القائد السوسى (بودميعة) سرعان ما اغتتم فرصة نزاع داخلى حصل بين العلويين وجيرانهم الزيريين وتدخل بسجالسة فى محاولة لاختصاصها لنفوذهم ، حيث لقى القبض على المولى الشريف ونقله اسيرا الى ايليج عاصمة سوس ، وهذا التدخل المسلح اثار الدلائين واستنكره رئيسهم محمد بن أبى بكر الذى السح فى مراسلاته مع (بودميعة) على اطلاق سراح الامير الاسير (واما ما قلت من أن نترك سجالسة للشريف المذكور كغيرها من البلاد التى بيد غيره فلا اتركها) (11) .

وامام اصرار القائد السوسى على التمسك بسجالسة هدد الدلائيون باستعمال القوة (ولقد كثرت استغاثتهم باخوانهم المسلمين وأوجبوا بالشرع انقاذهم واستخلاصهم مما هم فيه . . . وهذه البلاد بينكم وبينها نحو ثلاثين مرحلة وبينها وبيننا ست مراحل) (12) .

أخذ الاهالى بسجالسة ينظمون امرهم لمقاومة (بودميعة) وجوره (لما ملك الثائر أبو الحسن على . . . بلاد الصحراء لم يترك لاهلها بيضاء ولا صفراء وكان فظاغشوما) (13) ، وقد استمرت الاستعدادات السرية فترة من الوقت الى أن كان عام 1050 هـ / 1640 م حيث اعلنت سجالسة بيعة المولى محمد بن الشريف اميرا فابتدأت بذلك الصفحات الاولى من تاريخ الدولة العلوية . وقد اثبت المولى محمد جدارته عندما واجه قوات (بودميعة) وانتصر عليها فى عمليات عسكرية متوالية انتهت باخراجها من سجالسة ومن درعة أواخر عام 1051 هـ . ويبدو أن (بودميعة) اضطر الى اطلاق سراح المولى الشريف وقبول الامر الواقع سيما وان

(10) الزياتى : الترجمان العربى . ص 369 .

(11) البدور الخاوية . ص 119 .

(12) السوسى : ايليج ص 135 .

(13) المصدر السابق . ص 125 .

سياسة الدلائيين تد تفيرت بتولية محمد الحاج الذي أعلن دعوته جهارا وأخذ يسلك سياسة استعمال القوة لفرض سلطانه (قام أهل المغرب بدعوته وأذعنوا لامره وطاعته وبيعوه بالخلافة) (14) .



من أهم التطورات التي عرفتھا السنوات الأولى من بداية النصف الثاني من القرن الحادي عشر للهجرة ، أن الزعامات المحلية قد تبلورت في :

1 — الدلائيون بالمنطقة الوسطى للمغرب .

2 — المجاهد العياشي بالسهول الشمالية — الغربية على الاطلسي .

3 — (بودميعة) بسوس والجنوب المغربي .

4 — العلويون بسجلھاسة ودرعة .

الى جانب السلطان السعدي محمد الشيخ الذي انحصر نفوذه بمراكش وما حولها . فالقائد (بودميعة) أولى اهتمامه لسوس والصحراء المغربية وبـلاد السودان واصبحت له بذلك علاقات خارجية واسعة مع دول غربي أوروبا ، باعتبار أن التجار الاجانب قد ازداد اقبالهم على التجارة مع غربي افريقيا وبلاد السودان التي اشتهرت منذ القديم بالذهب والتوابل وتجارة الرقيق . وبتابع (بودميعة) لهذه السياسة ابتعد بعض الشيء عن الاحداث الداخلية بالمغرب .

أما المجاهد العياشي الذي بدأ أعماله الجهادية منذ عام 1020 هـ فقد اتسع نطاق عملياته من سبتة الى البريجة في البر والبحر واكسبته أعمال الجهاد هذه شهرة واسعة (كان أبو عبد الله محمد العياشي أكثر توجهاته مصروفا الى الجهاد والاستعداد له ما استطاع من حشر الاجناد حتى كان له من الفتح المبين ما لم يكن لغيره) (15) . وهذه الانتصارات المتعددة التي أحرزها على قوات الاحتلال الاجنبي التي كانت تحاول مهاجمة الاراضي المجاورة زادت من التطلع اليه هو ومن

(14) المصدر السابق . ص 229

(15) البدور الضاوية . ص 119

معه من المجاهدين (شجعان أهل سلا ورباط الفتح ومن لهم تلا من أهل القصر والهبط والخلط وبنى مالك وطوائف المسلمين رضى الله عنهم أجمعين) (16) .

والذي يثير الانتباه في مراسلات المجاهد العياشى مع السلطان السعدي الوليد ابن زيدان أن المجاهد قد استنكر تقاعس السعديين عن الدعوة الى الجهاد (فلا يمتري في تعيين فرضه ووجوب القيام لله تعالى به في أرضه والخطاب بذلك يعم الأمة ويخص بالتعيين الائمة . . .) (17) ، أي أن المجاهد العياشى قد ينس من السعديين بهراكش فأخذ يوجه رسائل الى المدن المجاورة له يحضها على الجهاد ومقاتلة الأعداء . وهذه التطورات الجديدة في الحركة العياشية اصطدمت بكل من :

1 — الدلائيين الذين كانت لهم أطماع في التوسع بالمناطق الوسطى من البلاد (فقد طرق اسماعنا أن أهل الساحل قد أغروا على من تحت إيلتنا وأمرنا) (18) .

2 — السعديين الذين توجهوا الى الدلائيين ضد العياشى (وتكنى أمر الوافدين من السادات الاشراف السعديين . . . فانهم أرسلوا إلينا كتابا أفصحوا فيه بأنك ضيقت عليهم وعلى من تحت طاعتهم وغلبت على القبائل المجاورة وعزمت على استئصال شأفتهم وانك تزعم أنك تريد الجهاد وليس تصدك إلا جمع الأموال وتملك البلاد واستبعاد العباد وطلبوا منا اعانتهم على قتالك) (19) .

تضاعفت حدة الخلاف بين العياشى والدلائيين وتعددت الاضطرابات الدموية بينهم وقد انتهى الأمر باغتيال المجاهد العياشى يوم 19 محرم 1051 هـ (قتلته بعض اللصوص من قبيلة الخلط غدرا بموضع يسمى عين القصب ودفن بازاء روضة الوالى الصالح سيدي بوشة) (20) . وبالقضاء على العياشى انطلقت قوات محمد الحاج الدلائى فاتحة وادخلت في طاعتها معظم النواحي الشمالية والوسطى من المغرب (قام أهل المغرب بدعوته وأذعنوا لأمره وطاعته وبويع له بالخلافة فيه) (21) وبذلك فتحت أمام الدلائيين آفاق جديدة نتيجة الاتصالات الواسعة التي أصبحت لهم مع دول غربي أوروبا التي كانت تتطلع الى تطوير علاقاتها التجارية مع المغرب .

(16) أخبار العياشى . ص 15

(17) أخبار العياشى . ص 48

(18) أخبار العياشى . ص 76

(19) أخبار العياشى . ص 76

(20) ظهور العياشى : ص 85 .

(21) البدور الشاوية . ص 230

ولا شك في أن الحاكم الدلائي وهو يعمل على تمتين علاقاته مع الخارج كان يقدر مدى الفوائد التي ستعود على دولته الناشئة في المجال السياسي والاقتصادي فيها لو تمكن من بسط نفوذه على سبلماسة : باب الصحراء والطريق الموصلة الى السودان بلد الذهب والتوابل والرقيق .

انطلق الدلائيون لتنفيذ السياسة الجديدة ومهدوا لذلك باصطناع انتصار لهم (كالشيخ مففر في اولاد عيسى بالرتب والسيد الطيب في قصر السوق والسيد احمد ابن على العثماني في بنى عثمان من الخنق وقصر قلبية في وطن اغريس وسرير في بلد فركلة) (22) . وكرد فعل لهذا التدخل جرت معركة حاسمة بين المولى محمد بن الشريف ومحمد الحاج الدلائي يوم السبت 18 ربيع الاول عام 1056 هـ (كانت واقعة القارة ويقال لها القاعة بين سيدي محمد الحاج الدلائي وبين صاحب سبلماسة مولاي محمد بن الشريف فوقعت الهزيمة على مولاي محمد ودخل سبلماسة مغلوبا مهزوما وتبعه مولاي احمد الحاج . . . ثم انبرم الصلح بينهما على أن ما حازه جبل بنى عياش الى الصحراء فهو لمولاي محمد بن الشريف وما دونه لناحية الغرب فهو لاهل الدلاء وشرط اهل الدلاء على مولاي محمد خمسة مواضع مما هو تحت يده وجعلوها لهم . . . شرطوا عليه أن لا يتعرض لهم فيها ولا يحرك لهم ساكنا وقبل ذلك مولاي محمد بن الشريف) (23) .

وهكذا أقام الدلائيون بسبلماسة خمسة قواعد تدعم نفوذهم بها وتمكنهم من التوجه نحو الصحراء وبلاد السودان ، غير أن ثورة مدينة فاس ضد محمد الحاج واصلتها بيعة المولى محمد بن الشريف ، جددت الحرب بينهما خلال عام 1059 هـ وبانهزام الامير العلوي انطلق نحو المغرب الشرقى في محاولة للسيطرة عليه وللوصول الى البحر المتوسط حيث تجار الاسلحة الاوربيون (واما مولاي محمد بن الشريف فانه رد وجهه لنواحي الشرق فتوجه على عمائر الصحراء الى ان دوخها ودخلت في حكمه ولما بلغ انكاد اجتمع عليه عرب المعتل من الاحلاف وسقونه وباعوه وتوجهوا به لوجدة حيث كان اهلها متفرقين نصفهم قائلين بدعوة الترك ونصفهم خارجين عنهم فنزل على القائلين بدعوة الترك وحاربهم الى ان غالبهم ودخل وجدة

(22) المصدر السابق : ص 230

(23) البدور الضاربة . ص 250

وملكها وباعوه ثم توجه الى بنى يزناسن كانوا فى اىالة الترك . . . ثم توجه لنواحي
تلمسان (24) .

وبتوقيع المولى محمد لمعاهدة الحدود مع الاتراك عام 1064 هـ التى تجعل
وادي تافنا حدا فاصلا بينهم دخل المغرب الشرقى فى طاعة الامارة العلوية الناشئة
التي امتدت حدودها الشمالية حتى شواطىء البحر المتوسط .

اتخذت الدولة العلوية بعد استقرار الامر للمولى الرشيد بن المولى الشريف
عام 1075 هـ فى سجلماسة والمغرب الشرقى طريقا خاصا فى اتجاه الشمال ،
وتعززت قواعدها على البحر المتوسط بالسيطرة على الحسيمة فى رمضان عام
1076 هـ / مارس 1666 . ومن المغرب الشرقى وجبال الريف انطلقت الدعوة
الجديدة نحو المناطق الوسطى فدخلت فاس فى طاعتها واستسلمت لها بلاد الهبط
بعد انهزام الخضر غيلان الجرفطى عام 1077 هـ . ثم انحدر المولى الرشيد مع
السهول المغربية الاطلسية بما يشبه عملية تطويق للدلائيين فى الاطلس المتوسط
لعزلهم وللحيلولة بينهم وبين موانىء الاطلس حيث تجار الاسلحة الاوربيون ، وتمكن
بذلك المولى الرشيد فى اوائل عام 1079 هـ من القضاء على الدلائيين وساعده هذا
الفوز على الدخول الى مراكش والقضاء على امارة الشبانات فى نفس السنة . اما
آخر امارة دانت له بالطاعة فهى بلاد سوس بعد احتلال عاصمتها ايليج يوم الاحد
15 صفر عام 1081 هـ .

لقد اهاد المولى الرشيد الى المغرب وحدته الداخلية بعد حروب استمرت
سبع سنوات وهى المدة التى تضاها فى الحكم ، محقق بذلك للامانة املا منشودا
طالبا تطلعت اليه ، وهو وحدة الصف الداخلى كمرحلة اساسية للانطلاق نحو
تحرير قواعد الاحتلال الاجنبى ، ومن اجل النهوض بالبلاد وتطويرها وذلك مما
سيعرفه عهد الملك العظيم : المولى اسماعيل .

المصادر المخطوطة

- 1 — المكتبة الملكية بالرباط
- احمد ابن القاضي : المنتقى المقصور على مآثر
1153 الخليفة المنصور
- احمد ابن ابي محلى : الاصلية 4009
- 4733 السلسيل في فضل السبيل
- عبد الرحمان التامنارتى : الفوائد الجمة في اسناد
513 علوم الامم
- 5623 ديوانه
- مجموع في الاذكار للخليفة المنصور 4911

دار الوثائق التابعة للخزانة العامة بالرباط

- احمد بن القاضي : المنتقى المقصور د 1057
- درة السلوك د 1428
- احمد بابا السودانى : نيل الابتهاج بتطريز الديباج .. د 766
- الانرانى : روضة التعريف ح 58
- ابراهيم الجلالى : تنبيه الصغير ك 571
- بلقاسم الزيانى : الترجمان المغرب عـن دول
المشرق والمغرب 658
- الروضة السليمانية د 1275
- البستان الطريف د 1577
- ابن عسكر : دوحة الناصر لحاسن من كان بالمغرب
من مشايخ القرن العاشر د 560
- الحسن اليوسى : المحاضرات د 1010
- محمد بن يجيش التازي : جملة مختصرة ق 336
- مرعى الحنبلى : ثلاثد العقيان فى فضائل آل عثمان
نزهة الناظرين فى تاريخ من ولى مصر من
الخلفاء والسلاطين ك 2380
- محمد بن اسحاق : لطائف اخبار الاول ك 2409
- محمد الفاسى : مرآة المحاسن د 567
- محمد الفاسى : متع الاسماع فى اخبار الجزولى
والتبـاع د 894
- محمد البكري : نصرة الايمان بدولة آل عثمان د 527
- محمد اكتسوس : الجيش الحرمم الخماسى د 965

- محمد المرداسى : رياض الورد .. د 396
- محمد الهبطى : القبة الهبطى .. فى ملك الاستاذ محمد المنونى
- محمد بن الامام الهبطى : المعرب النصيح .. مخطوط خاص للاستاذ المنونى
- محمد النفاسى : التحفة الصديقية .. د 1103
- مؤلف مجهول : تاريخ الدولة السعدية .. ك 1006
- مؤلف مجهول : تقايد صوفية .. ك 1074
- مخطوط مسسوس .. خاص
- ناسخ مجهول : رسائل سعدية .. ك 287
- عبد الرحمن الصومعى : التشوف الصغير .. د 1103
- عبد الرحمن النفاسى : زهرة الشماريخ .. د 56
- عبد الرحمن التامنارتى : الفوائد الجمة .. د 1420
- عبد القاهر ابو ملاق : الخبر عن ظهور المعاشى .. د 91
- على التامجروتى : النفحة المسكية .. ك 2829
- سليمان الحوات : البدور الضاوية .. د 261

١ - المخطوطة

أولا : وثائق الخزانة العامة بالرباط

1 — جملة وثائق مصورة عن السعديين

2 — هناك مجامع مخطوطة بها وثائق سعدي هامة

أ — رسائل سعدي — لناسخ مجهول ك 278

ب — مجموع مخطوط — لناسخ مجهول د 2795

3 — أعداد من « الميكروفيلم » لجائزة الحسن الثاني
للمخطوطات والوثائق منذ (1970 الى 1977)

ثانيا : وثائق سيمانكاس باسبانيا المتعلقة بعهد المنصور Archivo general de Sumancas

أ — بالنسبة للدولة الاسبانية Estado Espana

الوثائق الخاصة بالسنوات ما بين 1578 —
1603 ابتداء من الرقم 159 الى 197

ب — بالنسبة للدولة البرتغالية Estado Portugal

وثائق هذه الفترة تحمل ارقاما تسلسلية منذ الرقم 395 حتى الرقم 435

ج — بالنسبة لأمريقية والشرق Estado de Africa y levante

تحمل وثائقها الارقام التالية (489 — 213) الى الرقم (493 — 214)

د — بالنسبة للوثائق العربية عامة Arabes documentos

تحمل الارقام بين 1043 حتى 1165

هـ — وبالنسبة للعرب والبربر (المغاربة) Arabes y Berberiscos

تحمل هذه الارقام 1140 — 1141

و — ويوجد بسيماكاناس عدد هام من الخرائط المحطوبة عن المغرب وشمالى افريقية

1 — عن بلاد سوس وجنوبى المغرب تحت ورقم F137

2 — عن مليلية تحت رقم E 48

F 331 رقم

3 — عن جزيرة بادس بشمالى المغرب رقم F 19

ثالثا — وثائق الخزانة الوطنية بمدريد : مجموع مخطوط لسودة Allonso del castillo
به احدى وخمسون رسالة للمنصور رقم 257

ب — الوثائق المطبوعة

1 — المجموعة الكبرى للوثائق المغربية (لهنري كاستري Henry de Castries

المطبوعة تحت عنوان : المصادر الاصلية لتاريخ المغرب — السلالة السعدية

(Les sources inédites de l'histoire du Maroc — Dynastie Saâdienne)

(1) محفوظات ومكتبات البرتغال (Archives et Bibliothèques de Portugal)

الجلد الاول	باريز 1934	من سنة 1486 الى 1516
الجلد الثانى	1 — باريز 1939	1526 — 16
	ب — باريز 1949	1534 — 27
الجلد الثالث	باريز 1948	1541 — 35
الجلد الرابع	باريز 1951	1550 — 42
الجلد الخامس	باريز 1953	1580 — 52

(2) محفوظات ومكتبات اسبانيا : (Archives et Bibliothèques de l'Espagne)

الجلد الاول	باريز — مدريد 1921	1552 — 31
الجلد الثانى	باريز 1956	1560 — 51
الجلد الثالث	باريز 1961	1578 — 60

(3) محفوظات ومكتبات فرنسا (Archives et Bibliothèques de al France)

الجلد الاول	باريز 1905	1578 — 33
الجلد الثانى	باريز 1909	1614 — 78
الجلد الثالث	باريز 1911	1665 — 17

(4) محفوظات ومكتبات انجلترا (Archives et Bibliothèques d'Angleterre)

الجلد الاول	باريز — لندن 1918	1589 — 40
الجلد الثانى	باريز 1925	1625 — 1590
الجلد الثالث	باريز 1936	1660 — 1626

(5) محفوظات ومكتبات البلاد المنخفضة (Archives et Bibliothèques des Pays-Bas)

الجلد الاول	باريز 1906	1611 — 1578
الجلد الثانى	باريز — لاهاي 1907	1616 — 12
الجلد الثالث	باريز — لاهاي 1912	1623 — 17
الجلد الرابع	باريز — لاهاي 1913	1641 — 24
الجلد الخامس	باريز — لاهاي 1920	1654 — 42
الجلد السادس	باريز — لاهاي 1923	1660 — 55

المطبوعات :

- احمد ابن القاضي : — جذوة الاقتباس فاس 1309
- درة الحجال — جزآن الرباط 1936
- احمد المقرئ : — نوح الطيب القاهرة 1946
- روضة الاس الرباط 1964
- احمد بن عبد العزيز العلوي : — الانوار الحسنية ، المحمدية 1969
- ابراهيم افندي : — المصباح الساري بيروت 1272
- ابن عسكر : — دوحة الناشر فاس 1309
- حسين مؤنس : — الشرق الاسلامي الحديث القاهرة 1938
- محمد اليفرنى : — نزهة الحادي فاس 1307
- صفوة من انتشر فاس 1309
- محمد اكنسوس : — الجيش العرمم فاس 1936
- محمد داود : — تاريخ تطوان تطوان 1959
- محمد كرد على : — خطط الشام — جزآن .
- مختار الموسى : — سوس العالمية الرباط 1960
- ايلينغ الرباط 1966
- علماء لامعون من سوس الرباط 1960
- نور الدين حاطوم : — عصر النهضة دمشق 1968
- نيقولا زيادة : — المغرب والسودان في ايام المنصور الذهبى بيروت 1967
- الناصرى : — الاستقصا ج. 5 و 6 البيضاء 1955
- عبد العزيز الفشتالى : — مناهل الصفا الرباط 1972
- عبد الله كنون : رسائل سعدية تطوان 1954
- عباس بن ابراهيم : الاعلام 5 اجزاء الرباط 74 — 1976
- عبد الرحمن السعدي : تاريخ السودان باريز 1898
- مؤلف مجهول : تاريخ الدولة السعدية الرباط 1934

الرباط 1960	محمد العابد الفاسي : الخزانة العلمية بالمغرب
الجزائر 1955	عبد الرحمن الجبلاي : — تاريخ الجزائر العام
القاهرة 1948	عبد الله عنان — نهاية الاندلس
القاهرة 1960	سونياي . هاو — في طلب التوابل
القاهرة 1962	فجر التاريخ الافريقي
الرباط 1976	الوثائق — العدد الاول
باريز 1928	ليفى بروفنسال : فهرس مخطوطات الاسكوريال

المراجع

ع 9 . 1964 . ص 31	— مجلة تطوان : من زوايا التاريخ المغربى
ع 10 . 1965 . ص 7	— مجلة تطوان : من زوايا التاريخ المغربى
يوليوز 1962 . ص 26	— دعوة الحق : الممالك الاسلامية فى افريقيا السوداء
نومبر 1962 . ص 37	— مجلة البيئة : الفكر الصوفى والانتحالية بالمغرب
العدد الاول . يناير 1964	— مجلة البحث العلمى : قصب السكر
ع 1 1956	— مجلة تطوان : تاريخ الموريسكوس
ع 3 و 4 1958	— مجلة تطوان : وثائق سعدية لم تنشر
ع 6 . 1961	— مجلة تطوان : السفارات والبعثات المغربية الى فرنسا
ع 2 . ص 125 . تونس 1974	— المجلة التاريخية المغربية
ع 23 ص 19 اسبانيا 1958	— مجلة الاندلس

- Auguste-Cour : L'établissement des Dynasties des Chérifs au Maroc et leurs rivalités avec les Turcs de la Régence d'Alger. Paris 1904.
- Bekkoucha M. : Epitaphes des Sultans Saâdiens. (France-Maroc) Paris 1923.
- Clio : Henri Sée et Armand Rebillon : Le XVI^e siècle. Paris 1950.
- Caillé-Jacques : Le commerce Anglais avec le Maroc pendant la seconde moitié du XVI^e siècle. Alger 1940.
Une description du Maroc sous le regne de Moulay-Ahmed El-Mansour (1596). Paris 1906.
- Charles-Penz : Les captifs français du Maroc au XVI^e siècle (1577-1699).
- Colin : Une nouvelle inscription saadienne à Marrakech. Hespéris 1945. P. 132.
- Caillé : Le commerce Anglais avec le Maroc pendant la seconde moitié du XVI^e siècle (R. Afri) 1940. P. 34.
- Colin : Note sur le système cryptographique du Sultan Ahmed El Mansour. Hespéris. 1927. P. 221.
- Colin : Le commerce Hollandais au Maroc à l'époque Saâdienne. (B.E.P.M.) 1942 P. 142.
- Deverdun, Gaston : — Inscriptions Arabes de Marrakech. Rabat 1956
— Marrakech des Origines à 1912. Rabat 1966.
- Dapper : Amsterdam. 1668. (Pour le Maroc : 1^{ère} partie. P 205-265)
- Drogue, G. : Esquisse de l'histoire Religieuse du Maroc. Paris 1961.
- De Castries, H. : Les signes de validation des chérifs saâdiens. Hespéris 1921. P. 231.
- Esaguy José du : Tanger sous la domination Portugaise (1471-1665). Tanger 1937.
- Encyclopédie de l'Islam. Ley de - Paris. 1913.
- E. Doutte : Les Marabouts. Paris 1900.
- Fernard Braudel : La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II - Paris 1949.
- Fagnan : Extraits inédits relatifs au Maghreb. Alger 1924.
- Forneron : Histoire de Philippe II. Paris 1956.
- F. de la chapelle : Histoire du Sahara Occidental. Hespéris. 1930. P. 29.
- Gaunard J. : Histoire des doctrines économiques. Paris 1957.
- Gabriel-Rousseau et Arin. F. : Le Mausolée des Princes Saâdiens à Marrakech. Paris 1925.

- Georges Paniel : Le Maroc à la recherche d'une conquête : l'Espagne ou les Indes. Hespéris. 1953. P. 342.
- Henry De Castries : Les sources inédites de l'histoire du Maroc - Dynastie saâdienne.
- Peuples et civilisations :
 Henri Hausser et Augustin Renandet : Les Débuts de l'Age Moderne Paris 1938.
 Henri Hausser : La prepondérance Espagnole (1559-1660) - Paris 1948
- Histoire des Relations internationales :
 Gaston Teller : Les Temps Modernes. T 3. Paris 1953.
- H.G .Catternoz : Tables de concordance des ères chrétienne et hégirienne. 2^e édition. Rabat 1954.
- H. Koehler : L'Eglise chrétienne du Maroc et la mission franciscaine (1221-1790). Paris 1934.
- J.D. Brethes : Contribution à l'histoire du Maroc par des recherches numismatiques. Casablanca 1939.
- Jean Baptiste Graunay : Tournau. 1622. (pour le Maroc : P. 127-193)
- Julien A. : Histoire de l'Afrique du Nord. Paris 1931.
- J. Célérier : le Maroc, pays du sucre et de l'or. (France-Maroc). 1923. P. 72.
- Jacques caillé : Le Maroc et les Pays-Bas. Hespéris. Tamuda 1963. P. 120.
- Lebel Rolan : Le Maroc chez les auteurs anglais du XVI^e au XIX^e siècle. Paris 1939.
- Levi-Provençal : — Les Historiens des Chorfa. Paris 1922.
 — Les manuscrits Arabes de l'Escorial. Vol. III. Paris 1928.
- Lenz O. : Timbouctou. 2 Vol. Paris 1886.
- Le Tourneau, R. : Le début de la Dynastie Saâdienne. Alger 1954.
- Martin A. g. P. : Quatre siècles d'histoire marocaine au Sahara de (1504 à 1902). Paris 1923.
- Massignon, L. : Le Maroc dans les premières années du XVI^e siècle. Alger 1906.
- Masson P. : Histoire des établissements et du commerce français dans l'Afrique Barbaresque. Paris 1909.
- M. Oclafosse : Relations du Maroc et du Soudan à travers les âges Hespéris. 1929. P. 132.
- Pierre d'Avity : Description Générale d'Afrique. Paris 1643. (Pour le Maroc : P 54-144).

- P. Odinet : La grande route directe de Fès à Marrakech, au XVI^e siècle. Rabat 1921.
- Paniel G. : Les préliminaires de la conquête du Soudan par Moulay Ahmed El-Mansour. Hespéris 1953. P. 78.
- Ricard Robert : La côte Atlantique du Maroc au début du XVI^e siècle Hespéris. 1927. P. 229.
- R.P. Koehler : La Kasba saâdienne. Hespéris 1940. P. 236.
- Ricard Robert : Le Maroc à la fin du XVI^e siècle. Hespéris. 1957. P. 34
La conquête du Soudan par El-Mansour. Hespéris 1923. P. 434.
- Roland Lebeq : Le Maroc dans les relations de voyageurs Anglais aux XVI^e, XVII^e et XVIII^e siècles. Hespéris 1929. P. 139.
- Terrasse, Henry : — Les villes impériales du Maroc : Grenoble 1937.
— Histoire du Maroc. Casablanca 1950.

الجدول التاريخي لوثائق الدولة السعودية

أولاً : الوثائق السياسية

رسالة من المولى أحمد الأعرج الى جان الثالث	24 صفر عام 932 هـ	م. ص. ت. م — البرتغال — ج 2 ص 348
هدنة بين المولى أحمد والملك البرتغالي	22 حجة عام 932 هـ	م. ص. ت. م — البرتغال — ج 2 ص 367
رسالة من أحمد الأعرج الى جان الثالث البرتغالي	22 جمادى 933 هـ	م. ص. ت. م — البرتغال — ج 2 ص 399
رسالة من أحمد الأعرج الى جان الثالث البرتغالي	23 ربيع 936 هـ	م. ص. ت. م — البرتغال — ج 2 ص 495
رسالتان من سليمان القانوني لمحمد الشيخ السعودي	محرم عام 959	المجلة التاريخية المغربية العدد 2 ص 125
رسالة من الغالب الى (انطون دي بوريون)	أواخر رمضان 966	م. ص. ت. م — فرنسا — ج 1 ص 170
معاهدة الغالب مع فرنسا	أواخر رمضان 966	م. ص. ت. م — فرنسا — ج 1 ص 178
رسالة من الغالب الى (ايليزابيت)	جمادى الاولى 977	م. ص. ت. م — إنجلترا — ج 1 ص 98
اتفاقية التوكل مع (ايليزابيت)	رجب 984	مجلة تطوان — العدد 3 و 4 . ص 51
رسالة المعتصم الى (ايليزابيت)	أوائل جمادى 986	مجلة تطوان — العدد 9 . ص 32
جواب العلماء المغاربة على رسالة التوكل	2 رمضان 986	المكتبة الوطنية ، مدريد مخطوط رقم 257
رسالة أحمد المنصور الى فيليب الثاني الإسباني	منتصف محرم 987	دار الوثائق بالرباط . مخطوط . ك 278 ص 37
من المنصور الى الأمير اسماعيل بن المعتصم	أواخر ربيع 988	سيمانكاس باسبانيا رقم 160
من رمضان باشا الجزائر الى الأمير داود ابن عبد المؤمن	20 جمادى 988	م. ص. ت. م — إنجلترا . ج 1 — ص 335
من المنصور الى ايليزابيت ملكة انكلترا	أوائل رجب عام 988	المكتبة الوطنية بمadrid . مخطوط رقم 257
رسالتان من السلطان مراد الثالث باشا الى المنصور	أواخر عام 989	تكون : رسائل سعودية . ص 18
من المنصور الى مراد الثالث	مطلع عام 990	دار الوثائق بالرباط . مخطوط . ك 278 ص 24
من المنصور الى حسن باشا الجزائر	مطلع عام 990	دار الوثائق بالرباط . مخطوط ص 68
من المنصور الى علوج على	26 رجب 990	المكتبة الوطنية بمadrid . مخطوط رقم 257
من المنصور الى الملك الإسباني فيليب الثاني	منتصف شعبان 990	المكتبة الوطنية بمadrid . مخطوط رقم 257
من القائد ابن تميم الى فيليب الثاني	30 محرم 991	المكتبة الوطنية بمadrid . مخطوط رقم 257
من المنصور الى السفير الإسباني بالمغرب	17 محرم عام 991	المكتبة الوطنية بمadrid . مخطوط رقم 257
رسالة أخرى منه اليه	22 ربيع الاول 991	المكتبة الوطنية بمadrid . مخطوط رقم 257
من المنصور الى القائد أحمد الكوش	22 ربيع الاول 991	المكتبة الوطنية بمadrid . مخطوط رقم 257
من المنصور الى السفير الإسباني بالمغرب	15 رجب 991	المكتبة الوطنية بمadrid . مخطوط رقم 257
من المنصور الى الإسباني Venegas	23 رجب 991	المكتبة الوطنية بمadrid . مخطوط رقم 257
من المنصور الى الإسباني (دوق سيدونية)	رمضان عام 991	المكتبة الوطنية بمadrid . مخطوط رقم 257
من المنصور الى فيليب الثاني	مطلع عام 992	المكتبة الوطنية بمadrid . مخطوط رقم 257
من القائد إبراهيم بن محمد الى (سيدونية)	مطلع عام 992	المكتبة الوطنية بمadrid . مخطوط رقم 257
من القائد إبراهيم بن محمد الى فيليب الثاني	مطلع عام 992	المكتبة الوطنية بمadrid . مخطوط رقم 257

كنون : رسائل سعدية . ص 105	مطلع عام 992	من المنصور الى شيخ توات
المكتبة الوطنية بهدريد . مخطوط رقم 257	رمضان 992	من القائد ابراهيم بن محمد الى (سيدنية)
المكتبة الوطنية بهدريد . مخطوط رقم 257	6 شوال 992	من المنصور الى السفير الاسباني بالمغرب
المكتبة الوطنية بهدريد . مخطوط رقم 257	8 شوال 992	من المنصور الى القائد ابراهيم بن محمد
		من القائد ابي القاسم بن محمد الى السفير
		الاسباني
المكتبة الوطنية بهدريد . مخطوط رقم 257	8 شوال 992	من القائد ابراهيم بن محمد الى (سيدونية)
المكتبة الوطنية بهدريد . مخطوط رقم 257	اواخر شوال 992	من القائد ابراهيم بن محمد الى فيليب 2
المكتبة الوطنية بهدريد . مخطوط رقم 257	للقعدة 992	من المنصور الى فيليب الثاني
المكتبة الوطنية بهدريد . مخطوط رقم 257	الحجة 992	من المنصور الى فيليب الثاني
المكتبة الوطنية بهدريد . مخطوط رقم 257	ربيع الاول 994	من المنصور الى فيليب الثاني
المكتبة الوطنية بهدريد . مخطوط رقم 257	ربيع 1 995	من المنصور الى فيليب الثاني
م. ص. ت. م. إنجلترا - ج 1 ص 492	جمادى الاولى 996	من المنصور الى (دون انطونيو) البرتغالي
كنون : رسائل سعدية . ص 150	مطلع عام 997	من المنصور الى قاضى الجماعة بسوس
كنون : رسائل سعدية . ص 160	اوائل ربيع 1 997	من المنصور الى اهالي سوس
كنون : رسائل سعدية . ص 169	رجب 997 هـ	من المنصور الى اهالي توات وتيكرارين
الفشتالي : مناهل الصفا . ص 123	جمادى 1 ورجب 997	من المنصور الى اسكيا اسحاق بالسودان
كنون : رسائل سعدية . ص 132	شعبان 997	رسالة اخرى منه اليه
		من المنصور الى القائد الانكليزيين
		(دراكه ونورس)
مجلة تطوان . عدد 9 . ص 76	29 شوال 997	من المنصور الى ايليزابيت
مجلة تطوان . عدد 9 . ص 78	19 شعبان 998	من المنصور الى قاضى تمبوكتو بالسودان
الفشتالي : مناهل الصفا . ص 131	8 شوال عام 998	من المنصور مخبرا بفتح السودان
الفشتالي : مناهل الصفا . ص 143	7 شعبان 999	من المنصور الى خضر باشا الجزائر
دار الوثائق بالرباط - مخطوط . ك 278	اواخر عام 999	
مجلة تطوان . العدد 3 و 4 . ص 55	ربيع 2 عام الف هـ	من المنصور الى ايليزابيت
كنون : رسائل سعدية . ص 116	عام 1001 هـ	من المنصور الى باي بن سوري بالسودان
كنون : رسائل سعدية . ص 127	عام 1002 هـ	من المنصور الى داود كاتنه بالسودان
سيمانكاس باسبانيا . رقم 197	14 صفر 1003 هـ	من المنصور الى فيليب الثاني
سيمانكاس باسبانيا . رقم 213	6 قعدة 1003 هـ	من المنصور الى فيليب الثاني
الفشتالي : مناهل الصفا . ص 183	6 حجة 1003 هـ	من المنصور الى القائد جودر باشا
		بالسودان
كنون : رسائل سعدية . ص 172	6 حجة 1003 هـ	من المنصور الى القائد منصور باشا
كنون : رسائل سعدية . ص 96	اوائل عام 1004 هـ	بالسودان
دار الوثائق بالرباط . مخطوط ك 278	منتصف عام 1004 هـ	من المنصور الى الوزير سنان باشا
ص 342		من المنصور الى السلطان محمد الثالث
كنون : رسائل سعدية . ص 254	منتصف عام 1004 هـ	من المنصور الى الباشا الجزائري مصطفى
الفشتالي : مناهل الصفا . ص 189	ربيع 1 1005 هـ	من المنصور الى العالم المصري (البكري)
مجلة تطوان . عدد 8 . ص 79	12 رمضان 1008 هـ	من المنصور الى ايليزابيت
مجلة تطوان . عدد 8 . ص 80	3 حجة 1008 هـ	من المنصور الى ايليزابيت
مجلة تطوان . عدد 8 . ص 81	23 شعبان 1009 هـ	من المنصور الى ايليزابيت
دار الوثائق بالرباط . مخطوط . ك 278	مطلع عام 1010 هـ	من المنصور الى ايليزابيت
ص 195		
مجلة تطوان . عدد 8 . ص 81	13 محرم 1011 هـ	من المنصور الى ايليزابيت

147 ص : نزهة الحادي .	1011 1
155 ص : نزهة الحادي .	20 جمادى 1011
166 ص : نزهة الحادي .	جمادى الاولى 1011
142 ص : نزهة الحادي .	شعبان 1011
183 ص : نزهة الحادي .	اواخر 1011
156 ص : نزهة الحادي .	4 ربيع الاول 1012

من المنصور الى ابنه المامون بفاس
من المنصور الى ابي فارس بهراكشي
من المنصور الى سليمان باشا بالجزائر
رسالة اخرى منه اليه .
رسالة اخرى منه اليه
آخر رسالة للمنصور من فاس الى ابنه
أبي فارس بهراكشي

ثانيا : الموضوعات الحضارية

الناحية الادارية

دار الوثائق بالرباط . مخطوطك 278 ص 75 دار الوثائق بالرباط . مخطوطك 278 ص 76 دار الوثائق بالرباط . مخطوطك 278 ص 82 مناهل الصفا للفشتالي . ص 204 دار الوثائق بالرباط . مخطوطك 278 ص 38 — 40 مناهل الصفا للفشتالي ص 69 مناهل الصفا للفشتالي ص 82 دار الوثائق بالرباط . مخطوطك 278 ص 14 مجلة هيسبيريس لسنة 1927 . ص 221	في شعبان 986 هـ في 8 شعبان 899 هـ عام 990 هـ عام 993 هـ 22 ربيع 1 عام 1011
---	--

ظهير تولية المامون على فاس
ظهير تولية على بن المنصور على سوس
ظهير تولية على بن المنصور على تادلا
ظهير تولية ابراهيم الشط على قيادة
الاسطول
رسالتا توصية من المنصور الى فيليب
الثاني في حق اسبانيين
نص بيعة امير بورنو للمنصور
نص ولاية عهد المنصور لابنه المامون
ظهير تولية محمد بن علي الهوزالي على
قضاء سجنانة
نموذج لحروف (شيفرة) المنصور

الناحية الاقتصادية

المكتبة الوطنية بهدريد . مخطوط رقم 257 رسائل سعدية . ص 145 نصيحة المفتين . مخطوط بدار الوثائق بالرباط ك 923 ص 25	2 شوال 987 جمادى 1 1010 هـ
---	-------------------------------

ظهير امتياز لتاجر اسباني
حذف النائية
نداء من المامون الى تجار فاس

الناحية الاجتماعية

م. ص. ت. م بريطانيا ج 1 . ص 67 دار الوثائق بالرباط . مخطوطك 278 ص 42 مناهل الصفا . ص 187 روضة الاس . ص 96 رسائل سعدية ص 262 دار الوثائق بالرباط . مخطوطك 278 ص 46 دار الوثائق بالرباط . مخطوطك 278 ص 110 دار الوثائق بالرباط . مخطوطك 278 ص 91	اواخر شعبان 986 5 رمضان 1004 هـ عام 1005 هـ 15 جمادى 2 1010
---	--

ظهير توقيير واحترام
ظهير توقيير واحترام
من المنصور الى شريف مكة
رسالة تهنة بالشفاء من اهالي فاس الى
المنصور
نداء من المنصور واعظا ومرشدا
ظهير تولية الوجاني شياخة الركيب
الحجازي
ظهير التقديم لخطبة الجمعة
عقد تحبيس

الناحية الثقافية

رسائل سعدية . ص 65	عام 990 هـ	من المنصور الى القاضي ابي على حسن
دار الوثائق بالرباط مخطوطك 278 ص 58	عام 991 هـ	من المنصور الى البكري يطلب اجازته
مناهل الصفا ص 269	ربيع الاول 992 هـ	اجازة البكري للمنصور
رسائل سعدية ص 236	اواخر عام 992 هـ	من المنصور للمؤرخ مصطفى بن حسن
رسائل سعدية ص 123	في عام 998 هـ	من المنصور الى القرائي يطلب اجازته
مناهل الصفا ص 272	جمادى 1 عام الف هـ	اجازة القرائي للمنصور
رسائل سعدية ص 230	في عام 1001 هـ	شكر المنصور للقرائي على اجازته
مناهل الصفا . ص 189	في ربيع 1 1005 هـ	من المنصور الى البكري
رسائل سعدية ص 180		من المنصور الى الباشا التركي بمصر

مطابق

في الامانة القريبة والنافع الناس على
 ياد المسيح وحيث "وتحمل قراح يباسف" وحيث
 وهي بلدة اليونان، والفتى بقران العليزة العطار
 ثمون طيب لربنا المير الكبار الغور من جلاله المثلون
 اثم الله الكبار، وحيث انك ترون السجادة
 وكراب السجود امام منور الله منفي الخوف
 منسوجة من القنار كنيسة، والدار والاسنان
 الى يسا محم وكاتبة الرسا والاشياء، وروا للذي
 ونسج القنار ولازم وجه السماء، بلانكتا، لانه
 ظله الله لنا فاقه حتى لا ندرج، وتوفيقه، منسج الله
 ونسج الله منسج الله حتى، ومنسج وجه السماء
 القنار، ولا غطاء، فكل الله الا الشمس والارض ان
 والسخن الخالي التفرات، وانه وجه السماء اية ليدل
 ركبنا في المنسج على اننا نرجل، ومنسج يتنفس
 يخطوه، وحيثنا ذاك المنسج، ولا ينفذ اء على القنار
 ففخولة، فالنسج منسج القنار، ونقاب منسج ما ندرج
 القنار، والقران

أول رسالة بعثها المنصور الى فيليب الثاني كما نسخها اللونسو القشتالي
 ترجمان الملك الاسباني الخامس
 المكتبة الوطنية بمدرية - اسبانيا، مخطوط، رقم 257

الثاني
 الثاني

المشعل كتاب تعدد امر
 المشعل كتاب تعدد امر
 المشعل كتاب تعدد امر
 المشعل كتاب تعدد امر
 المشعل كتاب تعدد امر

من الله المنور على الله الغفور
 على منسج كوله: امير المؤمنين (ع) العبد اسرار احمد
 ان الله المنور المنور على الله الغفور
 الشيعي الحبيب المنور على الله الغفور
 بالمشعل عليه السلام الغفور الغفور الثاني

حسنی و شکرانی + ارد + (معدن) (نہ سعادۂ دنیا)
و کجنامہ شریعت + وحسن و اسلام

الحمد لله
صلى الله على من لا نبي بعده

[illegible]

E 160 — اسپانیاء — رقم 160 E

